



تاريخ الصين

منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين

المشروع القومي للترجمة

تأليف : هيلدا هوخام

ترجمة : أشرف محمد كيلاني

477

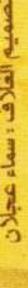
تاريخ الصين

منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين

تميزت الحضارة الصينية عن غيرها من الحضارات التى عرفها العالم عبر تاريخه بتواصلها لأكثر من أربعة آلاف سنة، وهى محتفظة بعاداتها وتقاليدها وقوانينها ولغتها حتى ملابس أهلها، وحتى اعتبرها المؤرخون والباحثون نظاماً من أكثر النظم الحضارية تكاملاً على مر العصور. كما تميزت الحضارة الصينية بثقافة عالية جعلت الصينيين يتفوقون على معاصريهم من الآسيويين فى مجالات الفنون والسياسة والحكمة والفلسفة وحسن التدبير.

ومن حسن حظ البشرية - فى مجال بحثها عن المعرفة التاريخية - توافر مصادر هائلة لتاريخ الصين المكتوب، الذى يشبه إلى حد كبير الحوليات التى شملت تفاصيل عديدة عن حياة الطبقة الحاكمة، وتفاصيل أخرى عن الحياة الدينية وما اشتهر فى الصين من أساطير وحكايات.

وقد تميزت الكتابات التاريخية التى تناولت تاريخ الصين بنوع من الفلسفة التى أفرزت العديد من المواقف والاتجاهات الأخلاقية التى تجلت - فى أروع صورها - فى التحذير والترهيب من الوقوع فى الرذيلة حتى لا يتعرض المرء للعقاب الشديد، والترغيب فى التمسك بالفضيلة التى ينال صاحبها الجزاء الحسن.



المشروع القومى للترجمة

تاريخ الصين

منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين

تأليف : هيلدا هوخام

ترجمة : أشرف محمد كيلانى



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٧٧
- تاريخ الصين (منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين)
- ميلدا هوخام
- أشرف محمد كيلانى
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٢

A Short History of China
First Edition

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

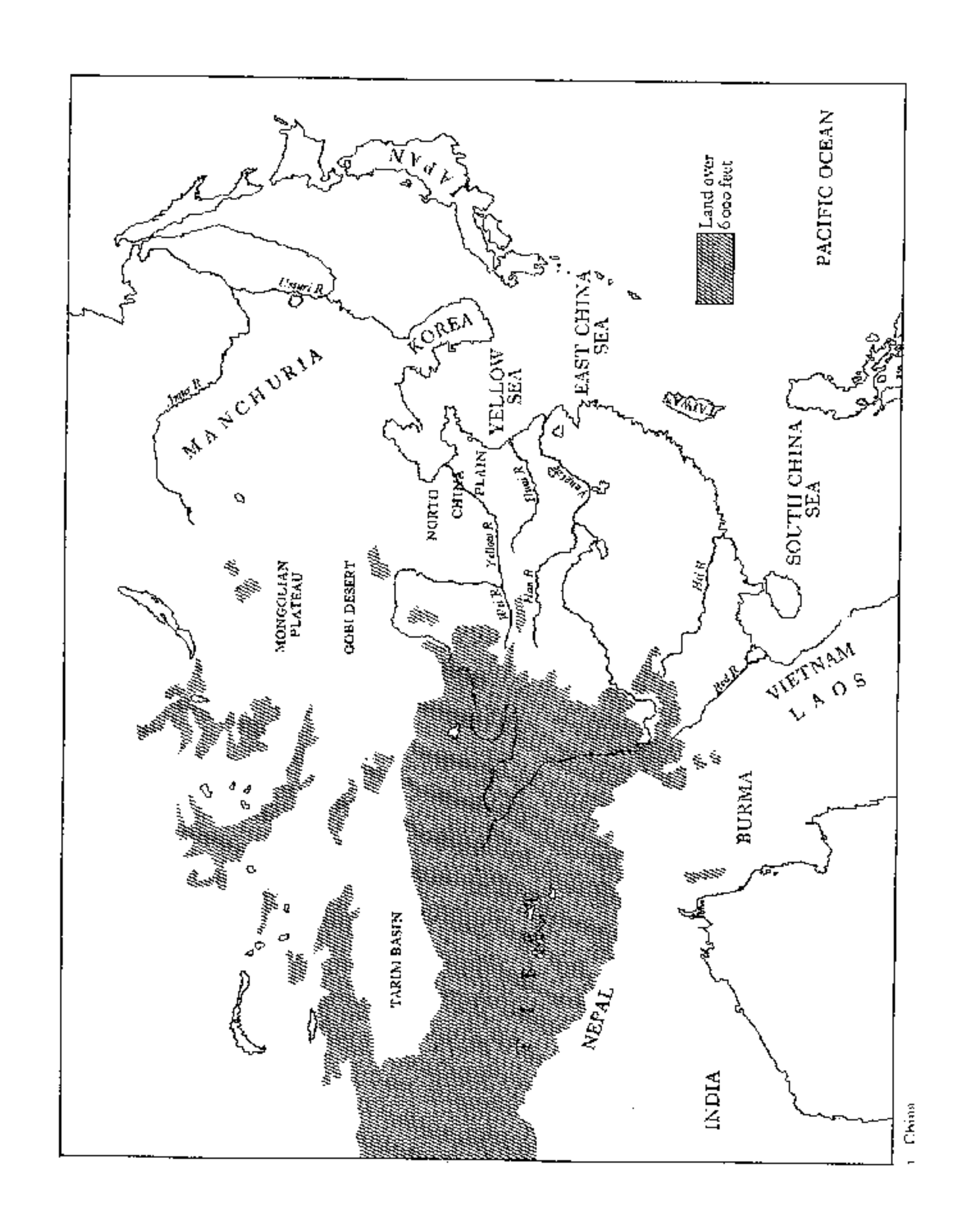
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

المحتويات

مقدمة

الحضارة الصينية هي الحضارة الوحيدة التي تواصل تاريخها، وامتد بلا توقف منذ عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد حتى يومنا هذا ، وتتبع هيلدا هوخام تواصل الحضارة الصينية بوصفها أقدم حضارة عرفها العالم منذ بداياتها منذ ما قبل التاريخ ، وتتخذ المؤلفة لكتابها إطاراً يقوم على السرد السياسي لتاريخ جميع الأسر الكبرى التي حكمت الصين من " التشاو" إلى "الشنج"، وتصف أيضاً الفترات الزمنية المتكررة التي شهدت وقوع الفرقة والشقاق عندما كان القادة العسكريون يحكمون أقاليم منفصلة من البلد . و يحوى الكتاب سرداً كاملاً لتاريخ جمهوريتى الصين اللتين قامتا في العصر الحديث ، والتي زالت أولاهما عام ١٩٤٩م ، وجمهورية الصين الشعبية التي تلعب دوراً مهماً في الشئون العالمية اليوم .

وفي كل مرحلة تصف المؤلفة الحياة الاجتماعية والثقافية للشعب الصيني مقابل الخلفية السياسية للأحداث، ويحوى الكتاب الكثير من الصور للأعمال الفنية والدليل الأثرى . وقد حرصت المؤلفة على الإفادة الكاملة من المصادر الأصلية للوقائع والأحداث والتحولات التي شهدها تاريخ الصين لإكساب هذا السرد رونقه وأصالته .



JAPAN
KOREA
MANCHURIA
YELLOW SEA
EAST CHINA SEA
SOUTH CHINA SEA
PACIFIC OCEAN
Land over 6000 feet
NORTH CHINA PLAIN
MONGOLIAN PLATEAU
GOBI DESERT
TARIM BASIN
NEPAL
INDIA
BURMA
VIETNAM
LAOS

خريطة الصين

الفصل الأول

ما قبل التاريخ وشانغ إلى القرن الحادى عشر قبل الميلاد

الحضارة الصينية قديمة جداً فضلاً عن كونها الحضارة الوحيدة التى احتفظت بتواصلها الثقافى منذ الألفية الثانية قبل الميلاد حتى اليوم ، ولم يحدث أبداً أن اندثرت حضارة الصين فى أية فترة من الفترات كما حدث على سبيل المثال لحضارة آشور أو مصر أو اليونان القديمة. إنها أقدم حضارات العالم الحية، ونحن مدينون للصين بعدد من التطورات العلمية الهامة، ومن بين ما هو معروف لدينا استخدام البوصلة المغناطيسية (الإبرة " التى تشير إلى الجنوب" باتجاه الصين) وطرق صناعة الورق والطباعة وصناعة البارود ، وفى منازلنا يغطى الجدران ورق على الطراز الصينى ؛ وتحفل موائدنا فى المناسبات السعيدة بالآنية الصينية ؛ ويُزهر فى حدائقنا عدد لا حصر له من الأزهار الجميلة المهاجرة من " الأرض المزهرة " وهو الاسم الذى تعرف به الصين فى الأدب الصينى .

وقد أسهم العلماء والفلاسفة الصينيون فى إثراء المعرفة على مدى قرابة ثلاثة آلاف عام، ويرجع أصل الكثير من أعظم كنوز الفن إلى الصين بما فى ذلك الآنية البرونزية واللوحات الزيتية والأعمال الخزفية والمخطوطات اليدوية .

الأرض :

إن الصين التى نعرفها اليوم – من الناحية الجغرافية – واحدة من أكبر بلدان العالم قاطبة حيث يبلغ تعداد سكانها أكثر من مليار نسمة، ومن حيث المساحة فهى تفوق مساحة أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية، وهى تمتد من المحيط الهادى فى الشرق الأقصى إلى جبال بامير فى آسيا الوسطى، ومن نهرى أمور وأوزورى فى

الشـمـال الشـرقي إلى خليج تونكنج في الجنوب ، وتجـود أرض الصين بالعـديد من المحاصيل وتخفى في باطنها موارد هـامة لم تكتشف بعد، خاصة من الثروة المعدنية، وتوجد احتياطات من النفط في الشمال الغربي والكثير من حقول الحديد والفحم الوفير، إضافة إلى الذهب والبلاتين واليورانيوم والمعادن الأخرى. وقد شـهدت هـذه المساحة الشاسعة المتنوعة التي تشكل شبه قارة مراراً عبر تاريخها فترات من الخلاف والشقاق عندما كان الأمراء الإقطاعيون أو القادة العسكريون يحكمون أقاليمَ منفصلة، ومع ذلك دائماً ما كانت فترات الانقسام تنتهي بعودة الوحدة في نهاية الأمر .

ورغم كـونها جـزءاً من إحـدى كتل اليـابسـة العظيـمـة من الأرض وهي القـارة الأوراسية تتفرد الصين بمعالم طبيعية هائلة، فإلى الشمال تفصلها صحراء جوبي والهضبة المنغولية عن سيبيريا، وإلى الجنوب والغرب تحد القمم الثلجية لجبال الهيمـالايا هضبة التبت ؛ وفي الناحية الجنوبية الشرقيـة توجد قمم جبال تكسوها الغابات والأدغال؛ وبعيداً عن شواطئها يغطي بحار الصين الجنوبية والشرقية قوس من الجزر يقع وراءه أوسع امتداد للمحيط الهادي ، وعلى مدى عشرة قرون كان الاتصال الرئيسي للصين مع العالم الخارجي عبر المحور الشمالي الغربي على طول سلسلة من الواحات التي تحف صحراء جوبي وحوض نهر تاريم وتؤدي عبر آسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط، وكانت العزلة النسبية للصين عاملاً هاماً في تاريخها ؛ ولم تنته إلا في القرن التاسع عشر، وقد اختلفت وجهة النظر الصينية في نواح كثيرة عن وجهة نظر أي شعب آخر إن لم يكن في الأساسيات ففي التوجه على الأقـل مثل بوصلتهم .

وفي المنطقة الخلفية تشكل الصحاري والجبال قوساً جدباً مأهولاً بالسكان على نحـو متـفرق يحيط بالسـهول الساحلية إلى الشـمـال الشرقي على طول الامتـدادات السفلية لنهري "يلو" (الأصفر) واليانجتسي، وكمعظم أنهار الصين تتدفق مياه هذين النهرين العظيمين من الغرب إلى الشرق لتقطعا طريقهما من حين لآخر عبر ممرات ضيقة عميقة ويمتلئا بالطمي قبل أن يصبا مياههما في البحر، وفي النهر الأصفر تسبب هذا في حدوث فيضانات مدمرة ومتكررة، وأحياناً تحولات للمجرى حتى إن النهر قد اكتسب لقب "حزن الصين". وحوض النهر الأصفر – سهل الصين الشمالي – منطقة ذات تربة خصبة يمكن استخدامها وتشكيلها بسهولة وهي صالحة للزراعة ، وكانت هذه مهد الحضارة الصينية القديمة؛ ومن هنا انتشرت الحضارة الصينية جنوباً

إلى اليانجتسى وما وراءه لتستوعب المستعمرات الأخرى، وبمرور القرون وصل الشعب الصينى والحضارة الصينية إلى أدغال بورما والصين الهندية وإلى حدود صحارى منغوليا وآسيا الوسطى .

وسقوط الأمطار غير منتظم فى الشمال ولايأتى بكميات مناسبة إلا مرة واحدة كل ثلاثة أو أربعة أعوام، وعادة ما يكون هناك نقص أو فائض، ولذا فقد اعتمدت التنمية فى هذه المنطقة منذ أقدم العصور على مشروعات التحكم فى الماء على نطاق واسع ؛ وكان لنجاح أو فشل مثل هذه الإجراءات والتدابير تأثير عميق على التاريخ الاجتماعى والسياسى للصين، ونظراً لاعتمادها على أعمال الرى الكبيرة المنظمة مركزياً فقد وصفت الصين بأنها "مجتمع قوامه الماء" .

وإلى الشمال والغرب توجد السهول التى نشأت فيها الشعوب الرعوية التى يمكنها الحفاظ على قطعانها بالانتقال موسمياً إلى مراع جديدة ، وفى هذه المراعى المأهولة بالسكان على نحو متفرق أقام البدو العدوانيون الذين تحملهم الجياد اقتصاداً واسعاً ومتنقلاً على عكس السهول وأودية الأنهار ، حيث عاشت أعداد كثيفة من السكان المستوطنين الذين انتشروا خارج وادى النهر الأصفر على الزراعة المكثفة وزراعة قطع صغيرة من الأرض تعادل فى مساحتها المتناهية الصغر الأراضى التى تزرع فيها الخضروات لبيعها فى السوق ، وبين النهر الأصفر واليانجتسى منطقة تفصل الشمال، حيث اقليم الزراعة الجافة الذى ينتج الدُخن والقمح والذرة باعتبارها محاصيله الرئيسية عن الجنوب، وفى الجنوب يؤدى سقوط الأمطار بغزارة إلى إنتاج محاصيل متعددة يأتى الأرز فى مقدمتها؛ وتنتج منحدرات التلال ذات المصاطب الشاى وتدعم أشجار التوت انتاج الحرير، وخلال فترات عديدة من تاريخ الصين ظل هناك ايضاً انقسام سياسى بين هذه الاقاليم ، عدا الشمال الغربى حيث توجد المراعى... وتستخدم الحيوانات التى تتم رعايتها- بعض الثيران فى الشمال وجاموس الماء فى الجنوب - كبهائم للحرث ، والخنزير الذى يجمع علفه بنفسه هو الحيوان الوحيد الذى يسهم فى النظام الغذائى الصينى وهو نظام غذائى نباتى بشكل أساسى ، وعلى مدى قرون من الزمان ظلت أسر الفلاحين الصينيين تكافح من أجل البقاء عند مستوى الكفاف على لقيمات من أرض هزيلة للغاية لاتنهض بعبء السكان ، وغالبية الارض

الصينية إما جبلية أو شبه صحراوية؛ والعُشر منها فقط تتم زراعته وفيه يتجمع السكان، أما بقية البلد فمأهولة بالسكان على نحو متفرق هنا وهناك .

ما قبل التاريخ :

عندما دخلت أوروبا الشمالية وآسيا وأمريكا المرحلة الجليدية الأولى منذ حوالى مليون عام يعتقد أن الإنسان قد تطور من قرد بمكان ما فى أفرو- آسيا، والصين أحد المهاد المحتملة للجنس البشرى، وقد اكتشفت بقايا حفرية للقرد العملاق (Gigantopithecus) أحد أقرب أبناء عمومة الإنسان الأول فى إقليم كوانجسى في عام ١٩٥٦ ، واكتشفت جمجمة حفرية لنوع آخر من الإنسان القرد والذى عاش أيضاً فى الصين في لانتيان فى عام ١٩٦٤ ، ويعتبر إنسان لانتيان القرد الآن على أنه أول إنسان فى الصين ، وقد عاش هو ورفاقه منذ حوالى ستمائة ألف عام وكانوا من بين أوائل جنسنا البشرى فى صناعة الأدوات .



جمجمة أعيد تركيبها لإنسان بكين (جمجمة امرأة) من تشوكوتيين

كما تم العثور على بعض البقايا الحفرية في شوكوتيني، وهى موقع في جنوب غرب بكين، وقد عاش أسلاف الإنسان الأوائل هنا منذ نصف مليون عام، وكانت هذه الإكتشافات هامة نظرًا لأنها شملت عظام خمسة وأربعين رجلاً وامرأة وطفلاً ولأنه تم العثور على الأدوات في الموقع أيضًا، وهو ما أعطى الدليل على حياة مثل هؤلاء الناس، ونطلق على هذا النوع اسم "إنسان بكين" .

"sinanthropus pekinensis" أو "peking man" .

وكان يشبه القرد من حيث المظهر الخارجي لكنه كان يستخدم يديه في التعامل، وكانت لديه مبادئ الكلام، وينتمي إنسان بكين إلى العصر الحجرى القديم؛ وقد قام بصنع أدوات حجرية خشنة بواسطة تقطيع الصوان إلى رقائق والهراوات من فروع الأشجار، ووفرت له الكهوف – بمنحدرات التلال قرب مجارى الأنهار – الملجأ .

كما عرف الانسان البدائي استخدام النار التي يرجح أنه تم الحصول عليها أولاً من حرائق الغابات الطبيعية، وقد اكتشفت قمة جمجمة حفرية أخرى لإنسان بكين فى شوكوتينى فى عام ١٩٦٧م ، وكان إنسـان الكهف العلوى مـخلوق أكثر تقدمًا وسكن شوكوتيني أيضًا ، وكانت أدواته الحجرية ذات نصال حادة صنعت بواسطة طريقة أدخلت عليها تحسينات للتقطيع إلى رقائق؛ واستخدم الإبر العظمية لخياطة جلود الحيوانات للملبس وعاش على صيد الحيوانات والأسماك بشكل أساسي لكنه كان يجمع الجذور والفواكه الصالحة للأكل أيضًا ، وكان باستطاعته أن يوقد نارًا بوسائل صناعية ومن المحتمل أن هؤلاء الناس قد عاشوا منذ حوالي خمسين ألف سنة .

وبحلول الألفية الرابعة أوالثالثة قبل الميلاد تقريبًا وفى العصر الحجرى الحديث كان الصينيون القدماء قد تعلموا كيفية شحذ وصقل حافة قاطعة حادة لأدواتهم الحجرية، وقد عثر على آثار لأناس متأخرين من العصر الحجرى الحديث في مواقع عديدة متفرقة على نطاق واسع بأنحاء الصين، وقد صنعوا الإبر والمناجل والمناشر من قرون الوعول والأصداف، وبعض الأدوات بها ثقوب حتى يمكن ربطها معًا أو ربط المقابض، واستمر الجمع وصيد الحيوانات المصدر الرئيسي للطعام واستخدمت الأقواس و السهام كأسلحة رئيسية لصيد الحيوانات .

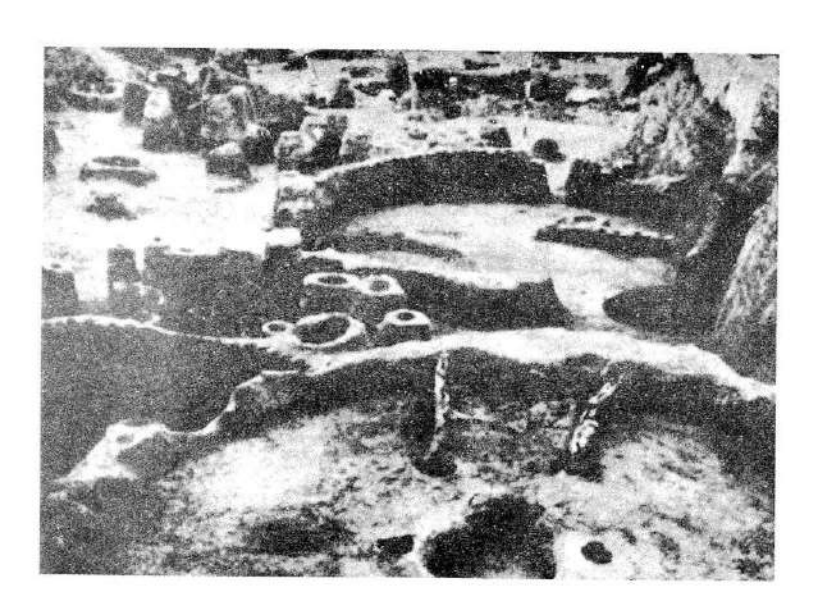
وبدأت الزراعـة في هذه المرحلة في الأراضي الوسطى والعليـا لوادي النهـر الأصفر ونهر اليانجتسي ؛ وبدأ الصينيون القدماء في زراعة الحبوب خاصة الدخن وتكوين مستعمرات ، ويوجد دليل على أنه كانت هناك قرى عديدة في سهول الصين الشمالية قد سكنها شعب ذو اقتصاد زراعي وكذلك رعوي ؛ وأقاموا منازل من حفر وأكواخ على شكل خلية نحل مبطنة بالطوب اللبن ومسقوفة بالقصب ونصف غائصة في الأرض من أجل الدفء .

وكان شمال الصين أكثر دفئًا في الأزمنة القديمة عنه اليوم ، وكانت الماموثات (فيلة منقرضة) ذات الصوف الكثيف والجياد البرية تطوف السهول وكانت الدببة والنمور تعيش في التلال، وبدأ ترويض الحيوانات ورعايتها خلال فترة العصر الحجري الحديث ، وكان يتم الإمساك بالحيوانات حية أحيانًا عند صيدها وكان البعض منها يذبح على الفور من أجل الطعام .

وتدريجيًا تعلم إنسان ما قبل التاريخ رعاية الآخرين، وبدأ استئناس الكائنات مثل الكلاب والخنازير ثم الأغنام والماشية والجياد والدجاج في وقت لاحق .

وكانت منطقة المنحنى العظيم لنهر يلو (هوانج هو) مركزًا هامًا لحضارة العصر الحجري الحديث ؛ حيث كان يمكن إعداد تربة الراسب الطفالي الخصبة باستخدام الأدوات البدائية لإعالة عدد كبير من السكان، كما أنشأ أناس هذه الفترة فن صناعة الأواني الفخارية لتخزين الطعام والشراب، وقد عثر على نماذج كثيرة للأواني الطينية الحمراء المطلية بخطوط سوداء أو أرجوانية وبعض الأوعية، وكان أشهر موقع للحصول عليها موقع يانجشاو، وفي سهول الصين الشمالية صنعت بعض الأواني الفخارية السوداء الرقيقة الملساء على عجلة الخزاف .

وطبقًا لما ذكره المؤرخون الصينيون فقد كانت ملكية الأرض والدواب جماعية في هذه الفترة ، وكانت ملكية الأسلحة فقط فردية، وكانت الزراعة ورعي القطعان أنشطة جماعية، وكان الجميع يتقاسمون المنتجات والمحاصيل ، وهناك شاهد على أن المجتمع الصيني الأول كان أمومي أو أخوالي على الأقل ، وعلى سبيل المثال فالحرف الأبجدي الصيني لـ"اسم العائلة" يتضمن رمزًا لأنثى، وعاش الناس في عشائر وكونت العشائر المجاورة قبائل يقودها زعماء قبليون منتخبون ، وشكلت القبائل أحلافًا لحراسة أراضي الرعي والصيد الخاصة بهم ضد هجمات الجيران المعادين .



أرضية كوخ من العصر الحجرى الحديث تم الكشف عنها فى بانبو بإقليم شنسى كدليل على حضارة العصر الحجرى الحديث التى ازدهرت فى وادى النهر الأصفر

وتقول الأسطورة أنه حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد كان أحد رؤساء مثل هذا الحلف القبلى يعرف بـ "هوانج تى" (إمبراطور يلو) أحد أقوى الزعماء فى منطقة نهر يلو، وكان أول حاكم لهم طبقًا للسجلات الصينية القديمة، وكانت هذه فترة الانتقال من العصر الحجرى الحديث إلى العصر البرونزى عندما بدأت الأدوات المعدنية تحل محل الأدوات الحجرية ، وكانت تربية الماشية والزراعة قد رسخت دعائمها بشكل جيد فى ذلك الوقت؛ واستخدمت السدود وقنوات الرى للتحكم فى مياه الأنهار والمساعدة على الزراعة، وشملت مظاهر التطور الأخرى فى تلك الأزمنة اختراع مستنبت الحرير والنسيج وبناء المنازل بالأخشاب وبناء المركبات والقوارب واللغة المكتوبة.

ونتيجة لزيادة إنتاج السلع واستخدام الأسلحة البرونزية نشأت أسر قوية كونت أسرًا حاكمة، وعرفت أول هذه الأسر الحاكمة بالهسيا ، وطبقًا للتقليد الشعرى فقد أسس "يو" العظيم أسرة الهسيا الحاكمة، ومن المحتمل أنه حاكم أسطورى وراعى الزراعة حيث قام فى مطلع الألفية الثانية قبل الميلاد بالتصدى لخطر الفيضانات

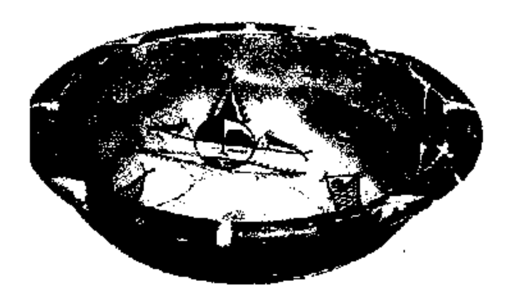
وحفظ المياه في وادى النهر الأصفر "يلو". وقد صارع "يو " الكثير من الوحوش والأرواح الشريرة التى اعترضت سبيله، وقام بتعبئة أعداد من الناس للمشاركة فى العمل، وأقام حواجز لمنع تقدم الفيضانات وشق القنوات لتصريف المياه الزائدة، وتقول الأسطورة أن "يو" نفسه ظل يعمل دون كلل إلى درجة أنه لم يدخل منزله مرة واحدة على مدى ثلاثة عشر عاماً رغم أنه مر بباب منزله فى ثلاث مناسبات وسمع بكاء أطفاله

وفي تلك الأزمنة كان النظام العشائرى آخذاً فى التفكك كي تحل محله حكومة مركزية ، وكانت أسرة الهسيا الحاكمة أول من استخدم العبيد فى الصين حيث كانوا يأسرونهم من قبائل الأعداء، وفي وقت ما من القرن السادس عشر قبل الميلاد هُزمت أسرة الهسيا الحاكمة أمام قبيلة مجاورة تدعى "شانج" التى بسطت نفوذها وأحكمت سيطرتها على المناطق الوسطى والسفلى للنهر الأصفر وأسست أسرة "شانج" الحاكمة .

شانج من القرن ١٦ إلى القرن ١١ قبل الميلاد :

يبدو أن كثيراً من الأساطير عن تلك الفترة يقوم على حقيقة تم التوصل إليها عن طريق الإكتشافات الأثرية – فى الآونة الأخيرة – فى "أنيانج" التى أصبحت عاصمة شانج فى وقت لاحق .

وكانت قبيلة شانج من أناس يعيشون على الزراعة بشكل أساسي؛ فكانوا يستخدمون المعازق لحرث التربة ويحفرون القنوات للري، وكان الدُخن والأرز والقمح من بين محاصيلهم، وشاع استخدام العربات ذات العجلات واستخدمت الخيول بكامل أطقمها وعدتها خاصة للعجلات الحربية والعربات الملكية ، وكان القماش يصنع من الحرير والكتان .

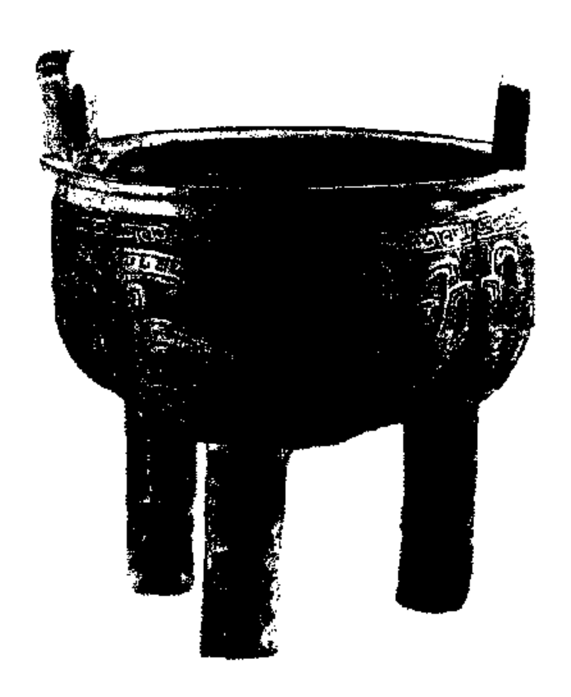


طست من العصر الحجرى الحديث مزخرف برسم سمكة و وجه بشرى تم اكتشافه قرب سيان

وكانت أهم التغيرات التى حدثت تتعلق باستخدام البرونز (النحاس المخلوط مع ١٠ - ٢٠ بالمائة من القصدير)، وكان يستخدم لصناعة الرماح والسهام والإبر والسكاكين وآنية القرابين، وقد ساعدت هذه الأدوات على اكتساب المهارات؛ وكان هناك تقسيم أكبر للعمل وتمييز للحرف وأشكال التجارة، وكان يتم تقديم فائض الثروة على الحاجات المباشرة، وقد شجع هذا على تطوير التبادل والتجارة وجعل إقامة مجتمعات مدنية أمرًا ممكنًا ، واستخدمت أصداف الكاورى الصفراء كوسيلة التبادل، ونشأت المدن حيث تجمع أصحاب الحرف فى أحياء مختلفة، وكشفت الحفريات عن وجود ورش من أنواع مختلفة كان من بينها ورشة للأدوات العظمية، وتبين أن نصف المواد الخام التى تم اكتشافها عظام أفخاذ بشرية؛ والبقية لخنازير وثيران وأيائل .

ويحتل أصحاب الحرف من قبيلة شانج مكانة خاصة فى تاريخ الفن العالمى؛ فآنيتهم البرونزية الضخمة الخاصة بطقوسهم بزخارفها وكئوس شرابهم وأسلحتهم تكشف عن مستوى من المهارة والبراعة الفنية لا يبارى، وتحمل كثير من آنية شانج البرونزية نقوشًا وكتابات تلقى الضوء على مجتمعهم .

وكان العبيد يُستخدمون على نطاق واسع فى الإنتاج، فشيدوا القصور العظيمة للملوك، ولكن البسطاء من الناس كانوا يعيشون - كما كان الحال فى العصر الحجرى الحديث - فى مساكن من حفر بسيطة، وراح الملوك يقدمون القرابين - من البشر والحيوانات - لآبائهم وأجدادهم، وعندما كان الملوك يُدفَنون كانت قبورهم الفسيحة تملأ بأشياء وأفراد كان وجودهم يعد ضروريًا لرفاهيتهم فى العالم الآخر؛ وقد كشفت الحفريات عن بقايا مركبات ومعها هياكل عظمية لسائقيها ومئات من الأشياء المصنوعة من الذهب واليشب (حجر كريم) والبرونز والحجر وكذلك هياكل عظمية لكثير من العبيد، وفى بعض الحالات يبدو على العبيد أنهم قد دفنوا أحياء كما فى ضريح أسرة أرستقراطية تم اكتشافه فى إقليم أنيانج، حيث دفن سبعون شخصًا أحياء مع الموتى، وفى حالات أخرى اكتشفت هياكل عظمية بلا رؤوس فى مجموعات عشرية أيضًا بموضع آخر. وغالبًا ما كان العبيد يقيدون من أعناقهم بحبال تشد إلى أوتاد لمنعهم من الفرار من عملهم وكانت أيديهم تكبل بالأغلال فى الليل .



إناء من البرونز من عصر شانج ، ويرجع أصل الأواني ثلاثية القوائم إلى أواخر العصر الحجرى الحديث وكانت شائعة فى عصر شانج ، وكانت هذه الأوانى تستخدم فى إقامة الطقوس والشعائر ، وكانت هناك أوان أخرى تستخدم فى طهو طعام القرابين ، وتنوعت هذه الأوانى من أكواب وكؤوس يمكن الإمساك بها فى اليد إلى مراجل عملاقة تزن نصف طن ، واشتهرت الأواني البرونزية من عصر شانج بتصميمها القوى والرشيق

وقد تم اكتشاف آثار جدران مدينة "شانج" حيث شيدت من التربة المطروقة، وبلغ سمكها "٥٥ قدمًا" عند القاعدة، وصنع الشانج الكتب من قشور الخيزران والألواح الخشبية؛ كما بدأوا في استخدام فرشاة وكذلك وسيلة حادة للكتابة، وقد أنشأت لغتهم المكتوبة بالفعل عدة آلاف من الرموز أو الايديوغرافات ذات الصلة الوثيقة باللغة الصينية الحالية ، وبدأت اللغة بالكتابة بالصور أو الرسوم المبسطة ، وتدريجياً أصبحت هذه الصور والرسوم رموزاً ذات أسلوب معين ، والكتابة الصينية عادة ما تجرى من أعلى لأسفل ، والكتابة ليست صوتية، ولذا فهى لا تتغير تبعًا للهجة المحلية ؛ وقد ظلت اللغة المكتوبة ثابتة فى أرجاء الصين حتى فى المناطق التى أحدثت فيها اللهجات المحلية

المنطوقة تغييرات كبيرة ، ومما لاشك فيه أن هذا أحد العوامل التى أسهمت فى التجانس الثقافى للشعب الصينى .

وكان أصل المخطوط الصينى فى الكهانة والتنبؤ ، وكان يتم حسم كافة الأمور الهامة واتخاذ القرارات بشأنها عن طريق وسطاء الوحى ، وكانت العظام المسطحة المستوية كلوحى الكتفين عند الحيوانات الثديية ودرقة السلحفاة وأصداف الزواحف تحمل أسئلة تم حفرها عليها على هيئة رموز تصويرية ، ومثل هذه الأسئلة كانت عن المحاصيل ، وحالة الجو (أكان مواتيًا لبذر البذور أم لجمع الحصاد ؟) وعن القرابين التى سوف تقدم للأجداد ، وأسئلة عن الصحة والخروج فى الرحلات وحملات الصيد وعن التكتيكات التى سوف تستخدم فى الحرب أو ما إذا كان الأسبوع التالى (والذى كانت مدته عشرة أيام زمن الشانج) سوف يكون حسن الطالع ، وعندما يتم تسخين هذه العظام أو الأصداف يظهر عليها نمط من الشقوق الممتدة كانت يتم تفسيرها على أنها إجابة الإله أو أحد الأجداد ، وما كان الملك ليقدم على القيام بأى عمل دون استشارة وسيط الوحى أولاً .

وكان ما يسمى "بعظام التنين" تباع فى أسواق بكين حتى الآونة الأخيرة ، وكان يتم سحقها من أجل الاستخدام العلاجى ، وفى نهاية القرن الماضى اكتشف أن هذه العظام تم جلبها من موضع قرب أنيانج عاصمة الشانج حيث كانت هناك حفرة واحدة أتت بقرابة ثمانية عشر ألف عظمة تحمل نقوشا وكتابات ، وكانت فى واقع الأمر " العظام وسطاء الوحى " عند شانج ، وأكدت هذه الاكتشافات الثرية – عندما تم فك طلاسمها – كثيراً مما كان يعد فى السابق أسطورة عن شانج ويعود زمنه إلى حوالى ١٤٠٠ قبل الميلاد على الأقل ، ولذا فنحن مع أسرة شانج الحاكمة ندخل العصور التاريخية ، وفى القرن الحادى عشر قبل الميلاد أضعفت الحروب المتكررة أسرة شانج الحاكمة ، ودفع ظلم الحكام واستبدادهم العبيد إلى الثورة ، وعندما هاجمت "قبيلة تشاو" التابعة "شانج" فر الكثير من العبيد فى جيش "شانج" وانضموا إلى المهاجمين ، وتروى لنا السجلات القديمة أن الملك "وو" قاد رجاله وعجلاته الحربية ضد الشانج ، "وكان لدى ملك الشانج مليون من القوات المختارة بتشكيلاتها خارج المدينة ؛ فجاءوا مسرعين كالريح محدثين ضجيجاً كهدير الرعد وكان رجال الملك "وو" خائفين ،

وبعد ذلك أمر الملك "وو" البطريرك أن يلوح برايته البيضاء للعدو وفر جيش الشانج"، وسواءً أكانت راية بيضاء أم لا فقد هوجمت عاصمة الشانج وتم الإستيلاء عليها ولقى ملك الشانج حتفه بين ألسنة اللهب التى أتت على قصره .



عظم النبوءة (من عصر شانج) ، وقد تم تفسير النقش على الألواح الثلاثة على اليسار " فى ذلك اليوم ... سوف تهب رياح شديدة وعنيفة ويحدث خسوف للقمر ... وخمسة رجال ... "

الفصل الثانى

التشاو الغربية

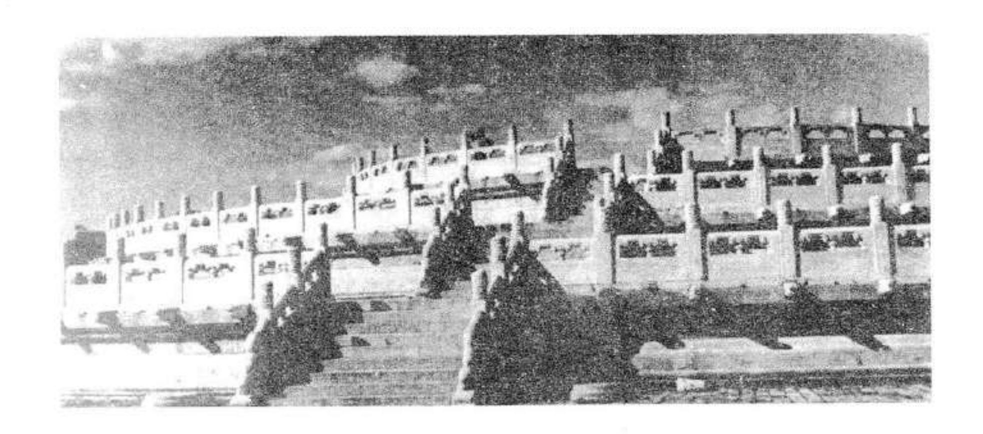
من القرن الحادى عشر حتى عام ٧٧٠ ق.م

قدم "التشاو" من غرب المنحنى العظيم للنهر الأصفر، وكانوا أقل تقدماً حضارياً من الشانج ؛ فقد بدأوا حياتهم كأناس أميين لكنهم اتخذوا الكثير من ملامح نظام الحكم السابق بما فى ذلك شكل الزراعة وإتقانهم لاستخدام البرونز ونظام الكتابة، واستمر حكمهم على مدى قرابة تسعة قرون، تحققت خلالها طفرات عظيمة ويعرف الجزء الأول من عصر التشاو بـ " التشاوالغربية" نظراً لموقع العاصمة فى "هاو"جنوب غرب "سيان" الحديثة .

قام ملك التشاو بتوزيع المقاطعات كإقطاعيات على الأمراء الملكيين، وأصبح هؤلاء أتباعه وكان الواجب يحتم عليهم حماية البلاط الملكى، وأن يسهموا بالجند فى جيش الملك وقت الحرب، وكان متوقعاً للأتباع (السادة الإقطاعيين) أن يدفعوا الجزية – بشكل منتظم – من النفائس والمنتجات المحلية لخزانة الملك ؛ وكانوا مطالبين بزيارة العاصمة والإقامة هناك لفترات محددة ، ولم يكونوا مدينين للملك بالجزية فحسب بل وتقديم فروض الطاعة والولاء له وذلك فى احتفال رسمى تأكيداً على مرتبتهم الدنيا ، وكان للملك وحده الحق فى أن يمنع السيد الإقطاعى إقطاعيته أوتجريده منها ، ورغم ذلك كان الأقارب من العائلة المالكة مستقلين داخل ولاياتهم الخاصة بشكل فعلى .

ابن السماء :

وكان ملك التشاو المصدر الأوحد للسلطة ، وكان يعتقد بأنه منحدر من نسل إله زراعى "حاكم الدخن"، وكان ينظر إليه على أنه ممثل للسلطة الإلهية، وكان يتمتع بلقب "ابن السماء" ويقوم بوظائفه ، وكان هو وحده الذى يملك القدرة على أداء الطقوس والشعائر وتقديم القرابين التى سوف تضمن أداء المواسم لوظائفها بشكل متناغم،



مذبح السماء (بكين) ، حيث كان الإمبراطور ابن السماء يقدم القرابين سنوياً لضمان محاصيل وفيرة ، واستمرت هذه العبادة حتى بداية القــرن العشـــرين ، وقد شيد هذا المذبح فى عصر "المنج" وهو جزء من منتزه عام اليوم

ومن ثم الإتيان بالمحاصيل الوفيرة ، وتركزت الطقوس الرئيسية على تقديم القرابين للسماء والأرض ، ومازال مذبح مستدير للسماء له معابد، ومذبح مربع للأرض قائمين فى بكين حتى اليوم .

وكان أحد أهم الواجبات التى يقوم بها الملك يصادف مطلع العام الجديد، والذى كان يقع – وفقا للتقويم القمرى الصينى – فى مطلع شهر فبراير وهو بداية الربيع فى وادى النهر الأصفر، وبهذه المناسبة كان ابن السماء يقوم بحرث أخدود احتفالى بالمنطقة المحيطة بالمعبد إضافة إلى تقديم قربان .

وككاهن ملك ذو قـــدرة فـــريدة على استرضـاء قـــوى الطبيعـــة كان متوقعًا من ابن السماء أن يكون فاضلاً ومنضبطًا كى يبرر سلطته التى استودعته السماء إياها ، وكان متوقعا لقدوته ووعظه أن يضمنا له الإذعان والتأييد من جانب رعيته ، وكانت البركات الاجتماعية تستمد من قدوته الأخلاقية ، وكانت المصائب التى كان يعتبر مسئولاً عنها أيضًا تشين إلى فضيلته ، وفى عصر التشاو نشأت الفكرة التى تفيد بأن الحاكم الشرير سوف يفقد تفويض السماء ، وهكذا تم تفسير سقوط حكام الشانج السابقين بأن السماء قد سحبت تفويضها منهم لأنهم تخلوا عن الفضيـلة، فى حين نجح التشاو – على الجانب الآخر – بسبب تمسكهم بالفضيلة ، (وقد جرت العادة على إرجاع السبب فى انهيار الأسر المـالكة إلى فساد أفـرادها المتـأخرين) ، كما دلت هذه النظـرية أنه

التي كان يمكن للثائر الناجح أن يتظاهر وفقًا لها بالفضيلة والرعاية الإلهية على أن الثوار غير الناجحين كان يحكم عليهم بأنهم أنذال ولصوص ، ويكمن الدليل على الرعاية السماوية في الصين قديمًا في النجاح ، ويقول المثل الصيني :

" إن من ينجح يصبح إمبراطوراً ومن يفشل يكون لصًا " .

وقد أمدت النبالة الوراثية المستشارين والوزراء والحكام بما يحتاجون إليه وقت السلم ، والقادة بما يحتاجون وقت الحرب، فكانوا يقاتلون في عجلات حربية يركبها ثلاثة رجال – قائد العجلة والسيد في الوسط ورجل على يمينه بمثابة "الساعد الأيمن" ، وكان الجنود يقاتلون على أقدامهم حول العجلة الحربية التي تحمل سيدهم، وكان النبلاء وحدهم الذين يتلقون التعليم على الأقل في الأيام الأولى لعصر تشاو ، وكان تعليمهم يتألف من الرماية، حيث كانت المنافسات تجرى وسط مراسم احتفالية عظيمة ؛ كما كانوا يتلقون التعليم في الموسيقى والشعر والحساب وقبل ذلك كله الطقوس والشعائر ، وكانوا يتعلمون الأداء شديد الدقة للسلوك الرسمي الملائم للمنزلة الاجتماعية للنبيل .

ومارست طبقة النبلاء عبادة السلف في الصين قديمًا، واعتقد الأرستقراطيون بأنهم يملكون روحين : روح حيوانية خلقت لحظة الحمل وتحللت مع الجسد بعد الموت ثم غرقت في وجود مبهم في العالم السفلي – منابع النهر الأصفر، وروح عليا تشكلت لحظة الميلاد تصعد عند الموت إلى قصر ملك سماوي هو "شانج تي" كي تقيم كأحد الأتباع في بلاطه حيث تشرف على مصير الأحفاد ، ومتى استقرت هذه الروح في السماء كانت تستمد قوتها من القرابين التي تقدم في المعبد السلفي وأصبحت إلهة ذات نفوذ تحمي حياة الأحفاد الأحياء بقدر ما يرضيها من القرابين .

وكان يمكن استحضار هذه الروح عن طريق الإجابة على أسئلة وكان يمكن الشفاعة حتى في مسائل الحياة والموت، وكان يمكن تقديم القرابين للأجداد من قبل الأحفاد الذكور فحسب، وكان يمكن أن ينزل عدد أقل من المصائب بأسرة النبيل التي لديها ذكر، مقارنة بما كان يمكن أن ينزل بها إذا لم يكن لديها أي ذكر كي يواصل عبادة السلف .

وتتحدث إحدى القصائد من هذا العصر عن المخزون الهائل من النعَم التي يمكن أن يتوقع لروح السلف ذات القرار المكين أن تمنحها لأحفادها :

ترنيمة الأسرة الحاكمة (من كتاب الأغاني) :

الهدايا ...

لأسلافهم المتألقين

يقدمونها طائعين

حتى يمنحون العمر المديد

ويجدون الحماية إلى الأبد.

أوه ، إنه لمخزون هائل من النعم !

المجد والقوة لهؤلاء الأمراء والسادة

الذين كفلوا لنا الكثير من النعم ،

التي من خلال عظمتها وبهائها المشرق

ننجح ونزدهر كثيراً .

وكانت الروح الحيوانية بحاجة إلى الرعاية والتدليل أيضًا ، وكانت تبقى هادئة إذا كانت قرابين الأحياء عند القبر سخية، وإذا كانت القرابين غير كافية عادت الروح الحيوانية كشبح فتكون روح جائعة حاقدة تصب جام حقدها وضغينتها على البشر .

ولم يكن للبسطاء والفلاحين الذين كانوا خارج النظام العشائري ألقــاب لأسرهم أو أسلاف كي يعبدونهم ، وكانت هناك آلهة كثيرة تعبد في الصين قديمًا إضافة إلى السماء والأرض، وكان عامة الناس يشتركون في هذه العبادة ، وكانت أرواح الأنهار والجبال وروح جانب الطريق وإله المطر ورب الرعد والشمس والنجوم وإله الرياح ورب النهر الأصفر والتضاريس المحلية الأخرى مواضعًا للتبجيل ، وكان لكل قرية إله محلي للتربة خاص بها وكان لكل أسرة آلهتها المنزلية .

وكانت طقوس الجنازة والحداد تحظى باهتمام عظيم للغاية ارتبط بعبادة الأجداد، وكان إهمال طقوس الحداد على الآباء إساءة بالغة ، وكانت فترة الحداد الطويلة على

الآباء – التي كانت تصل إلى ثلاث سنوات في بعض مراحل تاريخ الصين – تنطوي على درجة ما من إعتزال الحياة العامة وكذلك أمور أخرى كارتداء الثياب الخشنة .

وكان المثوى الأخير للمتوفى يحظى بمنزلة عظيمة لدى أحفاده ، وكانت تتم الاستعانة بمستحضري الأرواح ليس فقط لبيان الأوقات الميمونة للدفن ولكن أيضًا للتحقق من ملاءمة الموضع المختار بالنسبة لروحي الأرض المحليتين وهما الرياح والماء ، وكان التدقيق في هذه الأمور من شأنه جلب الأمن والطمأنينة للمتوفى والرخاء للأحياء، وبمرور الوقت أصبحت الكُنى أوالألقاب شائعة ، وامتدت عبادة الأجداد إلى طبقات الناس الأكثر تواضعًا . والصينيون لديهم مدخل عملي لما كان ينظر إليه في أماكن أخرى على أنه خارق للطبيعة ، فالأشباح والآلهة لها كثير من الملامح المادية ، وتخبرنا القصص التاريخية عن " ملء عربة من الأشباح " ، وعن "رجل باع شبحا " ، وكانت الآلهة والشياطين تتم مداعبتها وملاطفتها كالأطفال المدللين ، وبلغ الصينيون مستوى رفيعًا من التعقل عندما كانوا يتعاملون مع الأشباح والمخلوقات الغريبة ، وهناك قصة عن فنان من عصر التشاو كان يعمل لدى أمير ، وأخبر الأمير بأن أصعب الأشياء في رسمها الكلاب والخيل وما شابهها في حين أن أسهلها في الرسم الأشباح والوحوش قائلا له : "جميعنا يعرف الكلاب والخيل ونراهم كل يوم ، لكنه من الصعب رسم صورة دقيقة لها ، أما الأشباح والوحوش فليس لها شكل محدد ولم يسبق أن رآها أحد ، ولذا فمن السهل رسمها ." كما تعلم الصينيون العيش مع وحوشهم على أساس التسامح المتبادل ، وقاموا بتربية نوع أكثر إستئناسًا من التنين عن الحيوانات آكلة اللحوم في الغرب ... وأصبح التنين الصيني رمزًا لقوة المطر وما يبعثه من خصب ونماء وكان يرمز لإله الماء ، وأصبح التنين رمزًا لابن السماء نفسه في وقت مبكر ، وكان عرشه "على هيئة تنين" ولم يكن من حق أي شخص آخر استخدام رمز التنين ، وكانت العنقاء رمزًا للإمبراطورة .

وكان البقاء أو الهلاك في الصين قديمًا يتوقف على تقلبات الطبيعة في المقام الأول ، واهتمت العبادات الأولى بتحقيق توازن مناسب للعناصر ، وتمت صياغة توازن للطبيعة في عقيدة "ين ويانغ" بين القوى السلبية والايجابية المتقابلة ولكنها متكاملة وتعتمد على بعضها البعض بشكل متبادل : الأنثى والذكر ، النور والظلام ،



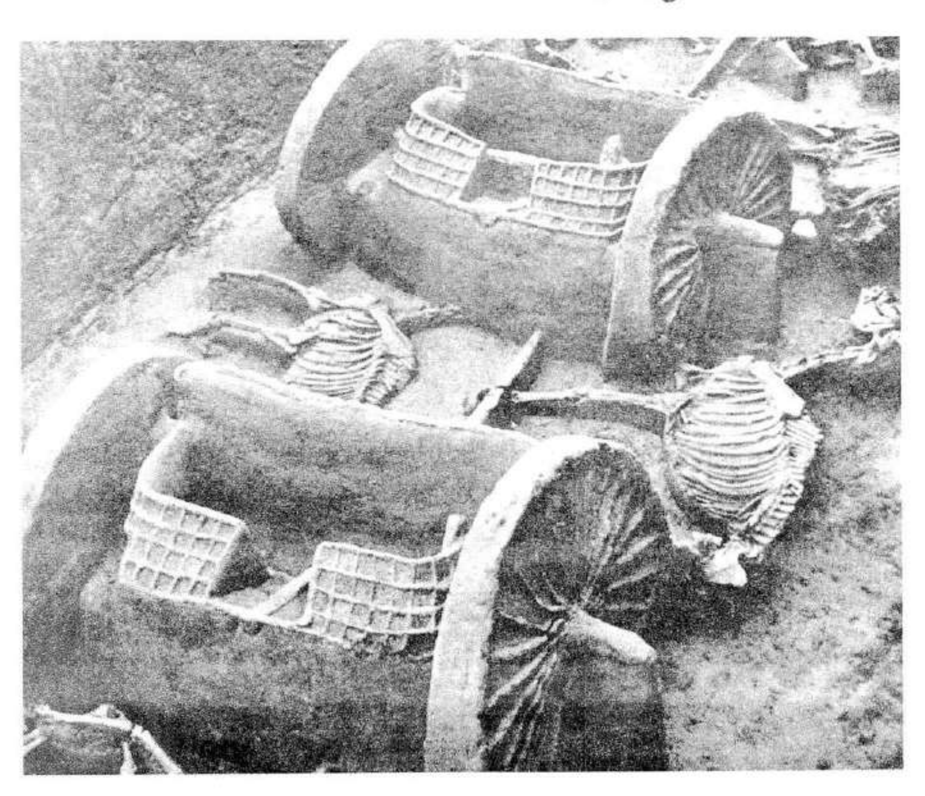
تسجيل لتجارة العبيد فى هذا النقش على إناء من البرونز من عهد "هسياو" ملك "التشاو" ،
ويذكر النقش فى أحد أجـزائه " إننى أقايض خمسة من عبيـدك بفرس ولفة حرير"

القمر والشمس ، الأرض والسماء ، وهى القوى المزدوجة التى تتحكم فى العالم ، وفى عصر التشاو الغربية كان من بين تعاليم أحد مؤرخى البلاط أن العالم يتكون من خمسة عناصر أساسية: المعدن، الخشب ، الماء ، النار ، التـراب . وقد نشأت نظرية "العناصر الخمسة" فى الطبيعة حيث ارتبطت ارتباطا وثيقا بعقيدة "ين/يانج" .

وقـامت غالبيـة السكـان فى مطلع عصـر التشاو بحرث التربة وكـانوا عبيـداً أو مزارعين ضعاف الشأن يطلق عليهم العامة، ولم يكن وضعهم بأفضل كثيراً من وضع العبيد ، فقد كانوا مجبرين على العمل فى أرض سيدهم وأن يدفعوا له الرسوم المستحقة ، وكان يمكن بيع العبيد أوقتلهم من قبل سادتهم ، وكان من بين الأسماء التى كانت تطلق على العبيد ما كان يعنى حرفياً بالصينية " البوهيميين " ، وكانوا يعاملون على هذا الأساس، ويضع إعلان باقٍ من عصر التشاو العبيد الهاربين مع الماشية الضالة فى مرتبة واحدة ، ونكتشف من خلال أحد النقوش البرونزية أنه كان يمكن مقايضة خمسة من العبيد بفرس واحد إضافة إلى لفة من الحرير ، واعتاد الملوك إهداء الأراضى والعبيد الذين يعملون بها لأبنائهم ووزرائهم ، وغالباً ما كانوا يحتفلون بهذه المناسبات بإلقاء أطباق وأوعية خاصة تم تسجيل الهدية عليها ، وتعطينا الروايات التاريخية المدونة حوالى نهاية الألفية الأولى قبل الميلاد تفاصيلاً عن مئات العبيد الذين كان

يجرى منحـهم لكبار الموظفين ونقل ملكيتهم من موظف لآخـر، وتذكر إحدى هذه الروايات أن "لو بو وى" وهو من "شو" كان يملك عشرة آلاف من العبيد ، وكانت المدن مكتظة بالعبيد الذين كانوا عمالاً حرفيين ، وقام العبيد ببناء القصور والتحصينات الدفاعية ومنشآت التحكم فى الفيضان وكذلك المدن .

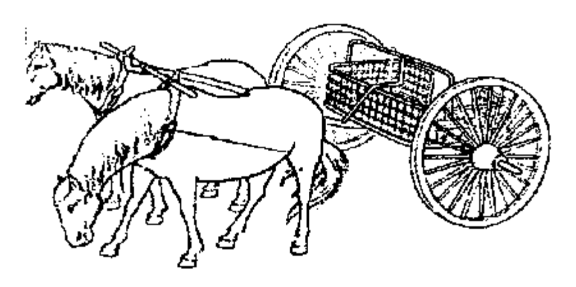
وقام التشاو- الذين كانوا يعملون بالزراعة فى الأماكن التى استقروا بها - بزراعة القمح والذرة والأرز والسرغوم والفاصوليا والفول وكثير من المحاصيل الغذائية الأخرى ، وشكلت أشجار الفاكهة والأشجار الأخرى حدوداً لقطع الأراضى التى كانت توجد بها ، كما كان الناس يقومون بالصيد طلبًا للطعام ، وكانت النساء يقمن بتربية دود القز وأعمال النسيج والحياكة .



بقايا عجلة حربية وجياد عثر عليها فى قبر أحد النبلاء ومن المرجح
أنها لولى العهد "يوان تو" من دولة "كيو"

وبلغ استخدام البرونز – الذي تم تعلمه من الشانج – ذروة تطوره في عصر التشاو الغربية ، وهناك كثير من الكشوف الأثرية الهامة التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر .

وخلال الألفية الأولى قبل الميلاد ساعد التوسع في الزراعة المكثفة وتربية المواشي على نشأة الحياة المدنية وظهر اتجاه مختلف في الأراضي السهلية في الشمال حيث لم يكن من الممكن زراعة محاصيل في التربة الجافة ، وساعدت تربية الماشية في هذه المناطق على نشأة نمط بديل للحياة خاص بالبدوي الراعي الذي كان يرحل مع قطيعه من المراعي الصيفية إلى المراعي الشتوية وكان يحقق اكتفاءً ذاتيًا على المدى القصير، وعندما أصبح البدو الرعاة رعاة تحملهم الدواب ومزودين بعربات أيضًا شكلوا تهديداً خطيرًا على جيرانهم المستقرين في الشمال ، وكان الصراع بين أهل السهب وأهل الأراضي المزروعة سمة لتاريخ الصين على مدى عشرة قرون، وكان الصينيون الجنوبيون ينظرون إلى الصينيين الشماليين – الذين كانوا أقل تقدمًا حضاريًا – على أنهم برابرة، وكان هذا الاسم يطلق أيضًا على كافة الشعوب الأخرى ذات الحضارة غير الصينية سواء أكانت على الحدود الصينية أم لا وحتى القرن العشرين .



يوضح هذا الرسم الشكل الأصلي الخارجي – الذي أعيد تركيبه – للعجلة الحربية التي كان يبلغ طولها ثلاثة أمتار و مزودة بأجزاء مصنوعة من البرونز (لاحظ طقم الفرس المستخدم في العصور القديمة في الشرق والغرب والذي كان يكاد أن يخنق الفرس)

وفي القرن الثامن قبل الميلاد تعرضت مملكة التشاو التي أضعفتها النزاعات والخلافات للهجوم من جانب بدو يونج ، وتذكر المصادر التاريخية – على مضض – أنهم أطالوا شعورهم، وارتدوا الملابس المزررة على الجانب الأيسر وكان طعامهم الرئيسي اللبن واللحم ، وكانت الملامح البربرية الأخرى التي لوحظت عليهم شعورهم الحمراء وعيونهم الخضراء ، وفي عام ٧٧٠ ق م تعرضت "هاو" – عاصمة التشاو – للغزو والاحتلال من قبل أولئك البرابرة بالتحالف مع بعض الولايات الصينية الثائرة وقتل الملك واضطر خليفته الملك "بنج" إلى نقل العاصمة إلى لويانج في أقصى الشرق .

الفصل الثالث

التشاو الشرقية ٧٧٠ - ٢٢١ ق.م

جرت العادة على تقسيم هذه الحقبة إلى عصر " الربيع والخريف " وسُمى بذلك نظراً لأن تاريخ هذا العصر يطلق عليه " حوليات الربيع والخريف " وهو عمل ينسب إلى كونفوشيوس ، وعصر " الدول المتحاربة " نظراً للصــراعات الداخلية المحتدمة آنذاك .

عصر "الربيع والخريف" من ٧٧٠ إلى ٤٧٦ ق.م :

سكن أهل الحضارة الصينية فى هذا العصر عدداً من الدول الكبيرة والصغيرة المتمركزة على المنحنى العظيم للنهر الأصفر (شانسى) ومن ورائها الشعوب التى كان ينظر إليها على أنها همجية تقريباً ، وقد ظل هذا المفهوم الصيني للعالم المتحضر سمة مميزة للرؤية السياسية الصينية ، وبدأ الصينيون منذ وقت مبكر جداً فى إطلاق اسم "تشانج كو" chung kuo أو "المملكة الوسطى" على بلدهم .

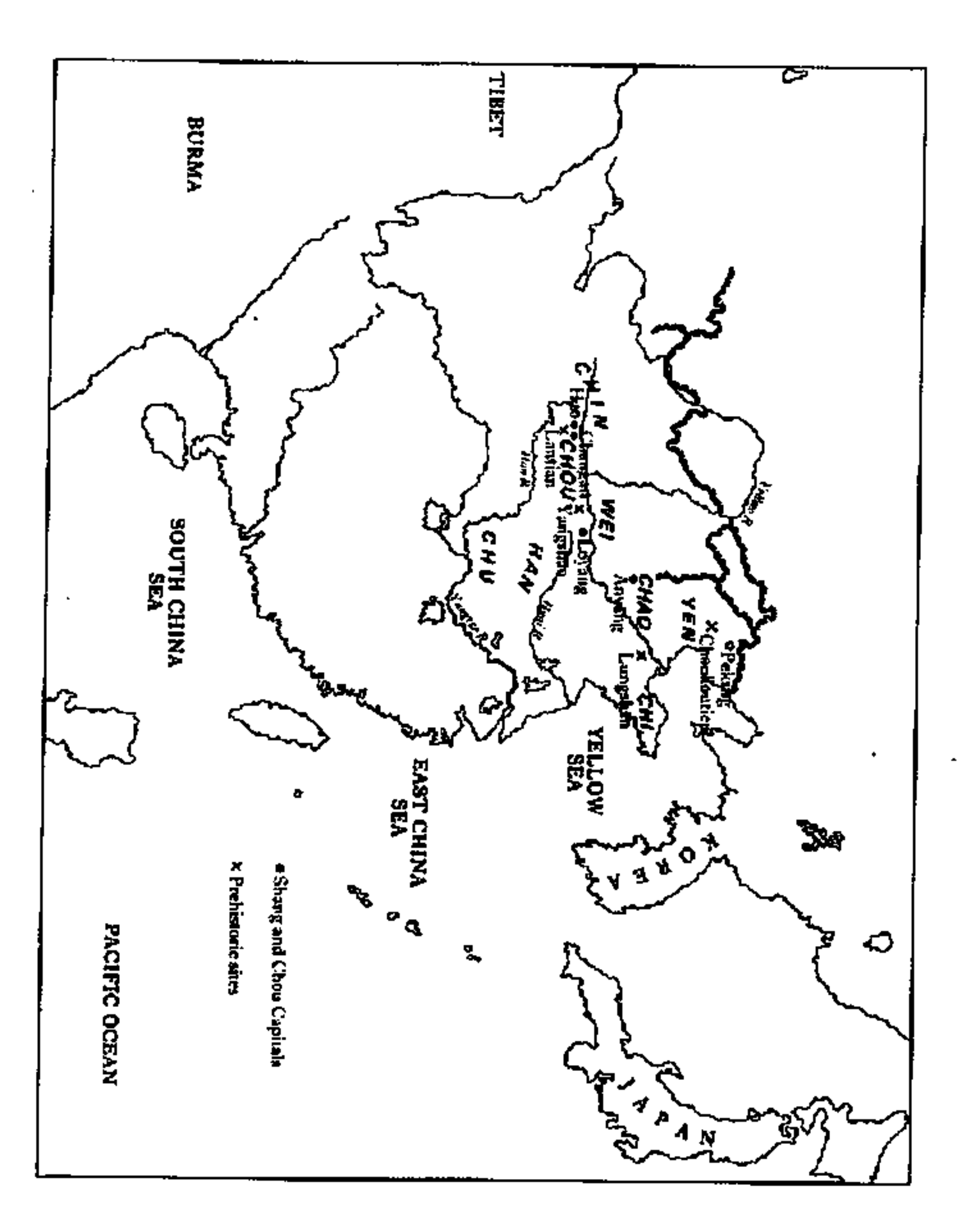
وفي عصر الربيع والخريف حل الحديد محل البرونز، وكان هناك شبه احتكار من جانب الأرستقراطيين لأدوات الإنتاج والأسلحة ، وكان الحديد الأفضل لصناعة المعازق والمحاريث والفؤوس ، وكان من الأيسر تشكيله وأكثر وفرة ، وشجع استخدام الأدوات المصنوعة من الحديد الانتاج الزراعى وزيادة الأراضى الصالحة للزراعة ، وساعد المحراث الحديدى الذى تجره الثيران على الحرث على أعماق أكبر ; وصار بالإمكان تطهير الأرض القاحلة بصورة أفضل ، وقطع الأشجار وإبعاد الحيوانات المتوحشة فزاد الإنتاج الزراعى .

وفر بعض الفلاحين من العبيد من سادتهم وادعوا ملكيتهم للأرض وضمنوا استقلالهم، وحل المزارعون من الفلاحين الذين كانوا مستأجرين لدى أصحاب الأراضي محل العبيد .

وخلال القرون التي أعقبت إنتقال العاصمة إلى لويانج أصبحت الولايات التابعة أكثر ثراءً وقوة وتنافس الأمراء فيما بينهم من أجل الهيمنة ؛ وظهرت عشرات الممالك المستقلة، وأخذت سلطة التشاو تواجه تحدياً بشكل متزايد .

الفلاسفة :

كان من بين التغيرات البارزة في هذا العصر ظهور طبقة اجتماعية جديدة ، وهي طبقة العلماء الذين أصبحوا فيما بعد ذوي شأن عظيم للغاية ، وقد أصبح الكهنة الذين كانوا يعملون في خدمة "شانج" زائدين عن الحاجة زمن التشاو عندما قام ابن السماء بأداء أهم الطقوس والشعائر الدينية، وعندما اعتمدت عبادة السلف على الذكور الباقين وليس على الكاهن ، وكان الكهنة أناس يستطيعون القراءة والكتابة ، واستطاعوا أن يخدموا الأمراء المحليين ليس ككتبة فحسب، ولكنهم استطاعوا تعليمهم الأداء الصحيح للمراسم الرسمية وكذلك الطقوس والشعائر الدينية ، ومع ضعف سلطة ملك تشاو كان الأمراء الاقطاعيون الطموحون متلهفين لجذب مثل هؤلاء العلماء واستخدامهم كمعلمين خصوصيين لأولادهم ، وعهدوا إليهم بإدارة شئون الدولة وإدارة المراسم مع الاستفادة من خبرتهم في الطقوس الدينية وقواعد التشريعات، ويرجع تاريخ أول أكاديميات أنشئت للعلماء إلى عصر التشاو، وكان أشهرها أكاديمية "بوابة تشي" ، وفي القرن الرابع ق.م شيد ملك تشي بناءً عظيماً لجذب العلماء لإلقاء المحاضرات وإجراء المناقشات ، وكان الحكماء من الولايات الأخرى وكذلك من تشي يلقون ترحيبا ، وكان يتم تزويدهم بالمسكن ونفقة العيش وأحياناً كانت تسند إليهم المناصب الرسمية ، وضمت هذه الأكاديمية فيما بعد بعضاً من أبرز علماء العصر ومن بينهم كونفوشيوس ، وفقد النبلاء والكهنة احتكارهم للتعليم حيث أتى به من هم أكثر فقراً بينهم إلى الجماعات الأخرى ، ونشأت من بين هؤلاء طبقة المثقفين أو shih وهم كبار الموظفين فيما بعد .



خريطة المواقع ما قبل التاريخية ، عاصمتا شانج وتشو، الدول المتحاربة

وكانت طبقة المثقفين هذه تنتمى إلى عصور التحول الاجتماعى العظيم والصراع بين الولايات ، وورثوا العادات والتقاليد من ماضٍ كان ثريًا بالتجارب الاجتماعية والسياسية، لكنهم واجهوا اضطرابات وتفكك المؤسسات القديمة والسلطة .

وطاف الـ Shih أو المسئولون المهنيون وهم رواد البيروقراطية الصينية الولايات من ولاية لأخرى يعرضون خدماتهم على الأمراء ، وكانوا يلقون استقبالاً حسنًا أحيانًا نظرًا لأن الحكام كانوا متلهفين لإضافة البهاء والشهرة إلى قصورهم الخاصة حتى وإن كانوا كارهين للعمل بما يسدى إليهم من النصح .

كونفوشيوس :

وكان من بين أولئك الذين طافوا الولايات عالم من أسرة أرستقراطية أخذ نجمها فى الأفول من دولة " لو" ، وهو معروف فى الصين بلقب الشرف خاصته وهو " السيد" كونج – كونج فوتسو الذى اشتقت منه الترجمة الغربية كونفوشيوس ، وعمل موظفًا حكوميًا مسئولاً عن مخازن القمح ثم عن المراعى العامة، وذلك لفترة قصيرة لكن دولة "لو "شأنها شأن جيرانها كانت تمزقها الخلافات والنزاعات السياسية فاستقال كونفوشيوس من منصبه ، وأمضى معظم حياته هائمًا من دولة لأخرى وهو يبحث عبثًا عن حاكم يطبق مبادئه ، واتجه شمالاً إلى تشى حيث أحسن الملك استقباله ؛ ولكنه رغم بقائه هناك لعدة سنوات لم يسند إليه أى منصب رسمى أبدًا .

وقد جذب كونفوشيوس (٥٥١ – ٤٧٩ ق.م) عددًا من التلاميذ أوالأتباع ورافقه الكثيرون منهم فى رحلاته ، ويروى أن عددهم كان يبلغ ثلاثة آلاف ، وعلمهم كونفوشيوس : الطقوس والشعائر الدينية ، والموسيقى ، والرماية ، وقيادة المركبات ، والكتابة ، والرياضيات ، كما علمهم التواضع والمثابرة فى التعلم ، وكان هو نفسه على استعداد لتعليم أى شخص أو التعلم منه ، وقال لأتباعه : " أليس التعلم وتكرار ما قد تعلمته فى الأوقات المناسبة متعة ؟ " وكذلك " إن من يتعلم ولا يفكر يضل طريقه ، ومن يفكر ولا يتعلم فى خطر كبير" . وكان كونفوشيوس مؤسس مذهب فكرى انتصر على المذاهب الفكرية الأخرى فى القرون اللاحقة وأصبح مذهبًا رسميًا ،



صورة تقليدية لـ "كونفوشيوس" (٥٥١ - ٤٧٩ ق.م)

وأنشأ هيئة للتعليم تقوم على التعاليم التى دونها أتباعه فى عمل يعرف بالمختارات الأدبية - أو مختارات من الأقوال - لكونفوشيوس ، ولم تكن وجهة نظره أصيلة ؛ بل كانت وجهة النظر النموذجية لعصر تشاو الإقطاعى . ورثى كونفوشيوس للاضطرابات والقلاقل التى مزقت المجتمع فى عصره واعتبر عصر تشاو الأول العصر المثالى الذى كان يسعى إلى إحيائه اعتقاداً منه بأنه عصر النظام والرخاء عندما عرف كل شخص مكانه فى المملكة الموحدة لابن السماء ، وعاد كونفوشيوس بذاكرته إلى الماضى حيث

المعايير والتعاليم القديمة الخاصة بعبادة السماء وعبادة السلف . وقد صبغت أسطورة هذا العصر الذهبي في ماضي الصين أيديولوجية المصلحين والثوار حتى القرن الـ ١٩ .



نظراً لعدم رضائه عن شئون الدولة نذر كونفوشيوس نفسه للتعليم ، نقش حجري من عصر "المنج"

وكان كونفوشيوس معنيًا أساسًا بالعلاقات الاجتماعية والإدارة المنظمة للشئون البشرية وليس التأمل بشأن الكائن الفوقطبيعي أو الحياة الآخرة ، وأكد على الواجبات تجاه الأحياء وليس الأموات، مدافعًا عن عقيدة النزوع إلى عمل الخير أو حب رفاق المرء من البشر ، وكان من تعاليمه " لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يُفعل بك " و" حقق للآخرين ما تريد أن تحققه لنفسك " ، وكان الجانب الآخر من هذه التعاليم التأكيد على القواعد السلوكية الصارمة . وأكد كونفوشيوس على أن الوئام الاجتماعي يمكن تحقيقه عن طريق القواعد التي كانت تحكم علاقات الناس في الطبقات المختلفة للمجتمع ، وكانت القواعد المرتبطة بسلوك من هم أدنى مقامًا تجاه من هم أعلى مقامًا ذات أهمية خاصة لديه . ومع قبوله للرؤية الأبوية السائدة بشأن الأسرة التي تعد الدعامة الأساسية للمجتمع حث كونفوشيوس على مراعاة الروابط الأسرية في تسلسل هرمي للطاعة غير المشروطة : من الابن لأبيه ، والأخ الأصغر للأخ الأكبر ؛ والزوجة لزوجها ، وكانت علاقة المحكوم

بالحاكم أشبه بعلاقة الإبن بأبيه – طاعة مطلقة تمامًا كطاعة الحاكم ابن السماء للسماء ، وكان الأصدقاء كالأخوة تربط بينهم التزامات من الأصغر للأكبر .

وقد عملت النظم المختلفة للمسئولية الجماعية على تعزيز الروابط الأسرية والنظام الاجتماعي وترسيخه في الصين منذ القدم حيث اعتبرت الأسرة مسئولة عن الجرائم التي يرتكبها أي فرد فيها ، وبالمثل فقد حملت الأسر المجاورة تبعة الجرائم التي كانت ترتكبها الأسر المجاورة لها في المجتمع .

ولم تحظ النساء إلا بنصيب ضئيل من الخير الكونفوشيوسي الموحى به ، وكانت الأسرة الصينية التقليدية – التي أعانت الفرد في أوقات المحنة الاجتماعية أو الشخصية وتحملت العقاب بدلاً منه – تتألف من الأجداد والآباء والأحفاد والخدم ، وفي هذه الأسرة الممتدة لثلاثة أجيال كانت السلطة بأيدي كبار السن ومعشر الرجال وكان للأبناء حقوق متساوية في إرث الممتلكات ، وكان الزواج مسألة تتعلق بالترتيب الأسرى وليس الحب الفردي ، وكان الغرض منه بقاء الأسرة وبقاء اسمها ، ولم يكن هناك تزاوج بين أهل العشيرة الواحدة أواللقب الواحد ، وعند الزواج كانت الزوجة الشابة تترك عشيرتها لتعيش مع زوجها وحمويها اللذين كانت ترتبط بهما حتى في حالة وفاة زوجها ، ويعطي كتاب الأغاني دلالة على المكانة الوضيعة للنساء في الصين في العصور الأولى :

سوف يولد له الأبناء –
وسوف ينامون على الأسِرَّة ؛
وسوف يرتدون الثياب ....
سوف تُولد له البنات
وسوف ينمن على الأرض
وسوف يرتدين الدُثر .

و :

الرجل البارع يبني مدينة
والمرأة البارعة تحط من قدر المرء ...

فالفوضى لا تأتى من السماء

لكن النساء يتسببن في حدوثها .

ومع ذلك فقد تحدث الحكمة الشعبية العجرفة الاجتماعية للرجل حيث يقول المثل الصينى القديم : " إن الرجل يعتقد بأنه يعرف لكن المرأة تعرف أكثر " .

ووجدت العلاقة المنظمة للتقوى البنوية تعبيراً عنها فى الطقوس والشعائر الدينية أوأداب السلوك الخاصة بكل موقف بما فى ذلك قواعد اللياقة والذوق الملائمة للمناسبات مثل الميلاد والزواج والوفاة ، وبدت هذه الشعائر والطقوس التى قد تذهلنا كرسميات جوفاء ذات أهمية وقيمة فى الأزمنة التى كانت العلاقات الاجتماعية آخذة فيها فى التفكك والإنحلال ، وعندما كانت السلطة القائمة تلقى تحدياً على جميع المستويات داخل المجتمع من مستوى العبد إلى ابن السماء نفسه . وعرف كونفوشيوس - تحديداً - السلوك الذى يليق بالـ " رجل نبيل المحتد " فى عصره .

وفى الفصل (١٠) من " المختارات الأدبية " يوجد جزء يعتبره البعض وصفًا للحياة اليومية للحكيم نفسه حيث ورد فيه أن :

" الرجل نبيل المحتد لا يرتدى حاشية ثوب أرجوانية أو بنفسجية زاهية ، كما أنه لا يستخدم فى ملابسه العادية اللون الوردى أوالبنفسجى الزاهى ، وفى الجو الحار يرتدى عباءة ليس لها بطانة من خيوط رقيقة منسوجة بشكل غير محكم لكنه يرتدى ثوب خارجى قبل خروجه من المنزل ، ويرتدى ثوباً أسود مع جلد حمل أسود ؛ أو رداء من حرير ذو لون بنى فاتح أو رداء أصفر مع فرو الثعلب ، وفوق ردائه غير الرسمى تكون أكمام الفرو طويلة ؛ لكن الكم الأيمن يكون أقصر من الكم الأيسر ، ولابد أن يكون طول شراشفه نصف طول المرء ... وعدا مئزر البلاط كانت جميع تنوراته أوسع فى الجزء السفلى منها عنها عند الخصر ...

ليس له أن يجلس على حصير غير مستوى ... وكان هناك تأكيد خاص على التبجيل والتعبير الرسمى عنه : عند دخوله من بوابة القصر يبدو أنه ينكمش داخل نفسه كما لو كان لم يكن هناك متسع ... وتعترى وجهه نظرة ارتباك ويبدو أن ساقيه لا تطاوعانه على السير وتعوزه الكلمات ، وبينما يرفع طرف تنورته يصعد إلى قاعة المقابلات ويبدو أنه يتلوى ويكتم نفسه ... وعند خروجه تنفرج أساريره تعبيراً عن رضاه وارتياحه .

وتتضمن " المفردات " الكونفوشيوسية للمواقف الاجتماعية عدداً كبيراً من مواقف "الإنكماش" الرسمى والسجود وتواضع المرء فى حضور من هو أرفع منه مقامًا .

ونلاحظ نحن أنفسنا مثل هذه الشكليات بالانحناء والإيماء بالرأس والركوع ، وكانت الموسيقي وكذلك الطقوس مفضلة كوسيلة توفيقية للعلاقات الاجتماعية .

وأكد كونفوشيوس أن " الرجل نبيل المحتد " ليس بالضرورة بحاجة لأن يكون شخصًا عريق النسب ولكن أن يكون سلوكه نبيل وغير أناني وعادل ومراع لحقوق ومشاعر الآخرين، وما من رجل يمكن اعتباره نبيل المحتد على أساس مولده فحسب ، فقد كانت المسألة تتعلق بالسلوك والشخصية ، ويتحدث عن النبلاء الطفيليين فى عصره فيقول : " من الصعب توقع أي شئ من الرجال الذين يتخمون أنفسهم بالطعام طوال اليوم في حين أنهم لا يُعملِونَ عقولهم أبدًا بأية طريقة على الإطلاق حتى المقامرين يفعلون شيئًا ما وبذلك فهم أفضل من هؤلاء المتبطلين " .

وقد وُصِفَ كونفوشيوس بأنه " شخص عادى قام بتدريب أبناء النبلاء على الفضائل التى تليق بالفرد من أفراد الطبقة الحاكمة ... ولم تكن مهمته – كمهمة المدرب الإنجليزى لأبناء النبلاء فى المدارس العامة – نقل المعرفة بقدر غرس المبادئ الأخلاقية ، وتكوين الشخصية ونقل تقليد عريق من الماضى دون تغيير وبشكل سليم " ، وعلاوة على ذلك فقد كان كونفوشيوس أول شخص ينشر التعليم خارج نطاق الطبقات الأرستقراطية ، فقبل التلاميذ بصرف النظر عن طبقاتهم، وأصبح أصحاب الأصل المتواضع من طلابه، وعلمهم كافة آداب السلوك فى البلاط – الطقوس التى كانت تستخدم بادئ الأمر فى تقديم القرابين ثم امتدت لتشمل شتى أنواع المراسم ، هذه الطقوس التى اعتبرها ضرورية للرجال ككائنات اجتماعية ، وقد عملت هذه الطقوس على تهذيب وتقوية الشخصية وفرض استجابات لها ضوابط مما أدى إلى تحقيق الاستقرار الاجتماعى .

وكان من بين خصائص المذهب وصوله إلى الحكام الذين كان يتم حضهم على مراعاة رفاهية شعبهم والامتناع عن الاستغلال ، وكانت الحكومة الصالحة هي تلك التى تبقى الناس سعداء ، وكالسماء يجب أن يكون الحاكم قدوة للشعب ، وقال المعلم " أحكم الشعب بالتنظيمات واحفظ النظام بينهم بالعقوبات، وسوف يفرون منك ويفقدون كل احترام للذات ، واحكمهم بالقوة الأخلاقية واحفظ النظام بينهم بالطقوس والشعائر وسوف يحتفظون باحترامهم لأنفسهم ويُقبِلونَ عليك طواعية " ، وأكد كونفوشيوس أن الحق الشرعي فى الحكم لم يكن يعتمد على أصل المرء ، ولكن على الشخصية والمقدرة

والتعليم ، وكانت الحكمة الكونفوشيوسية " استخدم القادرين ! وشجع الأكفاء " الدافع للأجيال المتعاقبة من الحكام الصينيين ، وطبقًا للرواية التاريخية فقد أمضى كونفوشيوس السنوات الأخيرة من حياته في تحقيق وتأليف الكتب التي عرفت فيما بعد بالكلاسيكيات ، وكان كثير من مادة هذه الأعمال قديمًا في عصره ومن غير الممكن ذكر مقدار ما يرجع الفضل في جمعه من مادتها للمعلم نفسه ، وتشمل هذه الكلاسيكيات كتاب الأغاني وهو مجموعة تضم أكثر من ثلاثمائة قصيدة تم تأليفها خلال عهد تشاو؛ وتعطي القصائد - بشكل متكرر - أوصافًا حية لحياة الناس اليومية ، وتصف إحداها حياة أحد عبيد الأرض خلال فصلي الخريف والشتاء في وادي النهر الأصفر منذ قرابة ثلاثة آلاف عام :

في الشهر التاسع نقوم بإعداد الشؤون

وفي الشهر العاشر نأتي بالمحصول

الدخن للخمر ، الدخن للطهو، المبكرون والمتأخرون

الأرز والقنب ، الفول والقمح .

تعالوا يا زراعي

فقد انتهى حصادي

اجمعوا أعواد القش في الصباح

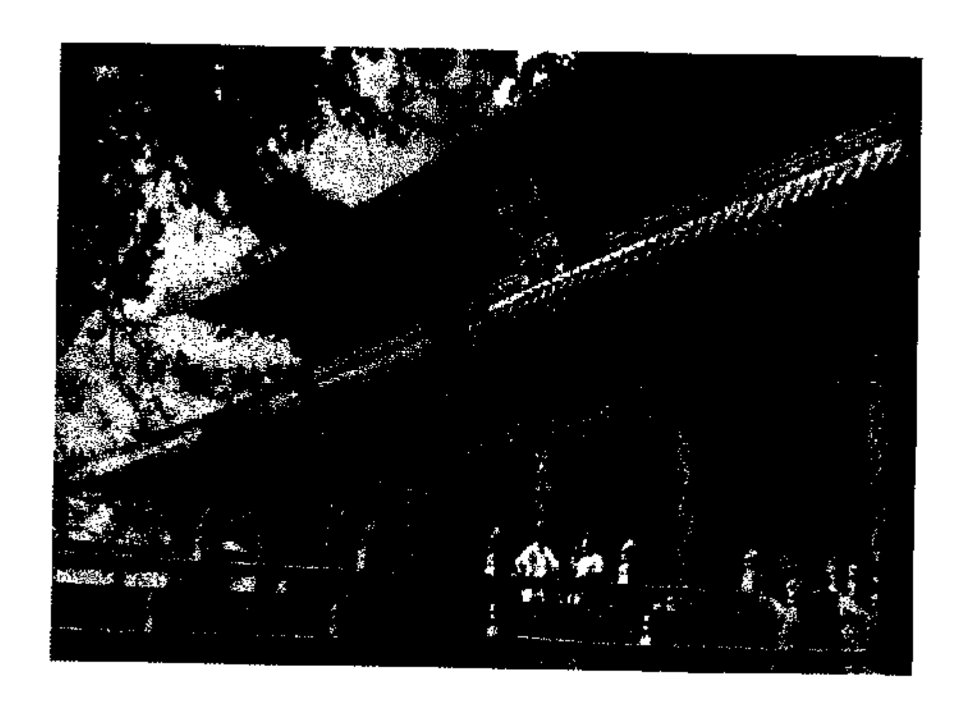
ولفو الحبل في المساء

أسرعوا إلى أسطح البيوت

فسرعان ما سوف تبدأون في بذر حبوبكم الكثيرة .

و "كتاب التاريخ " هو مجموعة من وثائق وخطب عهد تشاو الغربية ، وتعطي حوليات الربيع والخريف تاريخ دولة " لو" بصفة أساسية و"كتاب الطقوس " هو وصف للمراسم والطقوس المرتبطة بالحياة اليومية في الصين قديمًا ، و " كتاب التغيرات " هو كتيب للكهانة ؛ وهو يتناول صيد الحيوانات وصيد الأسماك والزراعة والفلاحة والحرب والزواج والطعام والشراب والملبس ، ومن بين الكلاسيكيات الأخرى كتاب الموسيقى الذي لم يكتب له البقاء ؛ ولم تكن هذه الكتب بما فيها الأدبية تُقرأ فحسب بل كانت تُحفظ عن ظهر قلب من قبل العلماء في القرون اللاحقة ، وكان لتأكيدها على الولاء

السلطة جاذبية خاصة لدى الحكام ، وتم تبنى الكونفوشيوسية في وقت لاحق كمذهب قويم للدولة .



الردهة الرئيسية اليوم لمعبد كونفوشيوس في تشوفو بإقليم شانتونج (دولة "لو" فيما مضى والتى كانت موطن الحكيم)، وقد شيد المعبد بجوار منزل كونفوشيوس بعد موته ببضع سنوات كما يقال وأعيد بناؤه فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وتشتهر ردهة المعبد بالنحت الحجرى لأعمدة التنين فى المقدمة ، وعلى بعد مسافة قصيرة خارج تشوفو توجد الغابة التي يقع فيها قبر كونفوشيوس

ولم يقم المعلم كونج – من دولة " لو" – بتعليم أى من اللاهوت أو قصة الخلق أو الجنة أو جهنم ، وإذا كان قد تم تأليهه هونفسه فيما بعد فهو لم يعامل هكذا إلا على نحو ينطوى على المجاملة والأدب والشاعرية – إلى حد كبير – كدأب الصينيين – كما يقول د/ نظام " – للتعامل مع مشاهير المخترعين وأفاضل الحكام ... " .

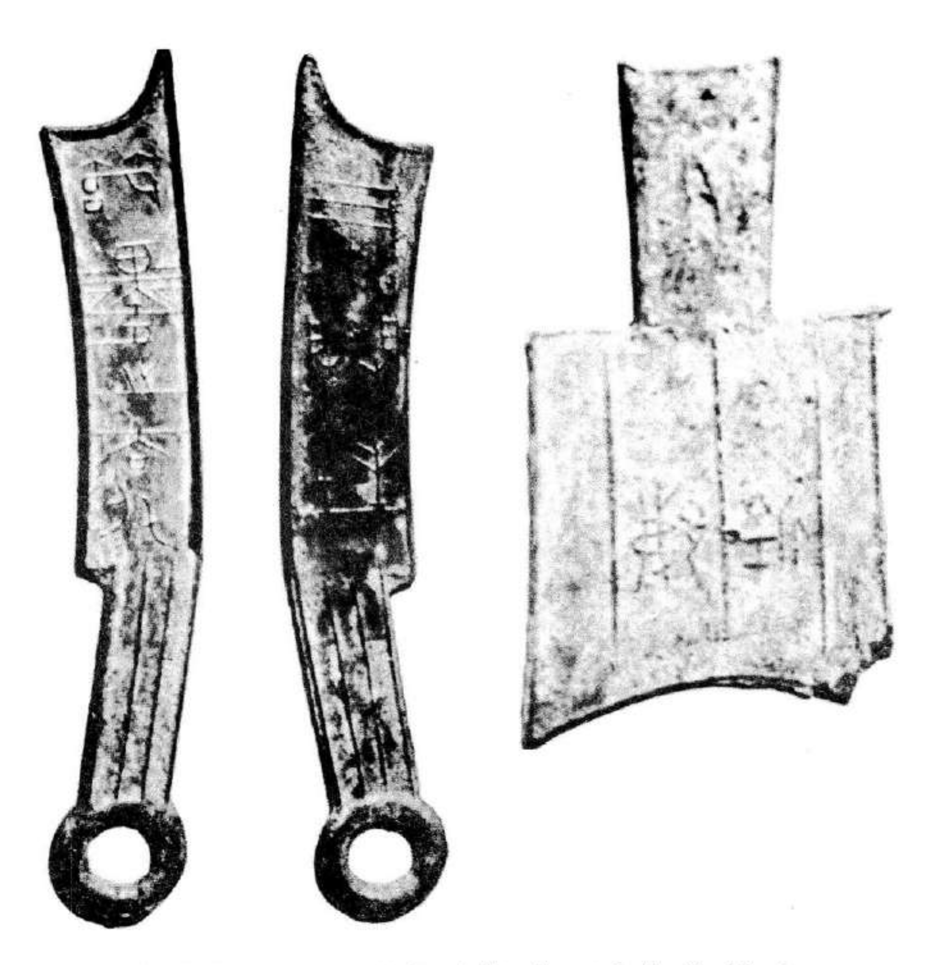
ولم يُلتفت كثيراً إلى تعاليمه فى عصره ، واحتدم النزاع بين الدول ، وفى عام ٤٧٩ ق.م – وهو العام الذى توفى فيه – تم ضم دولة "تشن" من قبل جارتها "تشو" ، وكان هذا نذيراً ببداية العصر الذى يعرف بعصر الدول المتحاربة .

الدول المتحاربة : ٤٧٦–٢٢١ ق.م :

بحلول عصر كونفوشيوس لم يعد ابن السماء أميراً واحداً بين كثيرين ، وكان ملك "تشاو" يستخدم اللقب السماوى لكن الحكام المحليين ما عادوا يذعنون له حيث امتنعوا عن إرسال الجزية إليه، وقصروا فى تقديم فروض الطاعة والولاء وتجاهلوا الطقوس الإمبراطورية ، وفقد ابن السماء تفويضه الإلهى ، وتغاضت الممالك المحلية الطامحة – التى قامت على الحرب والتوسع – عن المبادئ والقواعد الأخلاقية القديمة وكذلك معاناة رعاياها .

وأدى الصراع إلى إنهيار كافة الدول الأقل شأناً أمام الدول السبع الرئيسية – تشى، تشو، ين، هان، تشاو، وى، تشين – التى كانت تخوض صراعاً شرساً ومريراً زمن الدول المتحاربة.

وأصبح استخدام الحديد أوسع انتشاراً لخدمة الزراعة ، واستخدم الحدادون الأفران العالية اليدوية فى صناعة الكثير من أنواع الآلات الزراعية بما فى ذلك أسنان المحراث والمعازق والمناجل والمجارف ، كما قاموا بصناعة الفؤوس والأزاميل والمناشير والسكاكين وكذلك السيوف والمطارد (رماح و فؤوس الحرب) والأسلحة الأخرى ، وتم استصلاح المزيد من الأراضى البور وزراعتها، فى حين جاءت الزيادة فى المحاصيل من الأرض التى كانت تتم زراعتها بالفعل ، وكان هناك فائض أكبر فى الحبوب التى توفرها التجارة لدعم السكان المدنيين من التجار والحرفيين . وقد ظلت الأصداف الصفراء وهى أول " عُملة " غير كافية زمنًا طويلاً للوفاء بحاجات التجارة المتزايدة ؛ ولذا قام الناس بعمل نسخ مطابقة لها من العظم والحجر والبرونز زمن تشاو الغربية ، وفى عصر الدول المتحاربة أصبح استخدام العملة المعدنية شائعًا ونشأ اقتصاد مالى .



عملات المجراف والسكين من القرن الرابع قبل الميلاد، والتى تم اكتشافها فى هسينيانج على الضفة الشمالية لنهر وى .

وكانت الآلات المعدنية التى لعبت هذا الدور المهم فى الحياة اليومية مطلوبة بصورة أكبر وكانت تستخدم هى نفسها كمواد للمقايضة ، وتم عمل نسخ صغيرة مطابقة منها فيما بعد كعملات رمزية للتبادل ، وتطورت هذه لتصبح عمــلات " مجرفة " و " سكين " تم اكتشاف الكثير منها . وكانت العملات الأولى كبيرة الحجم حيث بلغ طولها حوالى أربع أو خمس بوصات ، ومع اتسا ع نطاق استخدامها تم سك عملات أصغر حجماً ،

وفيما بعد وتحديداً في عصر الدول المتحاربة تم إدخال العملات المستديرة ، وكانت تصنع من البرونز المسبوك، وكان لها ثقب في الوسط حتى يتسنى ربطها معاً (عادة في عقود من ألف) ، وبدأ استخدام الأعواد (التي يستخدمها الصينيون في تناول الطعام) كسمة أخرى للحياة اليومية الصينية مع نهاية هذه الفترة ولم تؤد الآلات الحديدية إلى تطور الزراعة فحسب بل أدت إلى زيادة القدرة على التحكم في الماء أيضاً ، وقد أضيف إلى أسطورة "يو" العظيم – الذي كان أول من تولى القيام بأعمال الحفاظ على الماء على نطاقٍ واسع – كثير من القصص عن الإنجازات في عصر الدول المتحاربة ، وعلى سبيل المثال فقد اضطربت إمبراطورية "وي" بحوض النهر الأصفر لفيضان مياه الأمطار من الجبال بعد فصل الصيف، وأخبر الكهنة الناس بأن إله النهر لابد من استرضائه كل عام بالتضحية بفتاة جميلة : وكان لزاماً على أسر الفلاحين تقديم هذه الضحية ، وكانت الفتاة المختارة ترتدى أزهى ثيابها بعناية فائقة ويُلقى بها في النهر كي تغرق ، وبمرور الزمن أصبحت المنطقة خالية من السكان نظراً لأن الأسر التي كان لديها بنات في سن المراهقة كانت تميل إلى النزوح من المنطقة ، وفي القرن الرابع ق.م عارض أحد القضاة المحليين هذه الخرافة ، وبدلاً من ذلك قام بإغراق الكهنة ونظمَّ إنشاء القنوات التي سحبت فائض المياه ، وأثبتت هذه الهندسة العملية كونها أكثر فاعلية من إغراق العذارى واستفادت دولة "وي" استفادة عظيمة منها ، وامتدت حضارة المملكة الوسطى إلى اليانجتسي خلال تلك الفترة حيث أتت بلغتها وأساليبها الزراعية وطرق الري الخاصة بها .

وتأتينا قصة مماثلة من دولة تشين إحدى أقوى الدول المتحاربة ، حيث فاض نهر "مين" المضطرب خلال الأمطار الموسمية وذوبان الثلوج في الصيف ، وأُرجِعَ السبب في الفيضان إلى ضغينة أحد الوحوش ، وكان " لي بنج " حاكم المنطقة عالماً ذو علم عظيم بالفلك والجغرافيا وكذلك الهندسة الهيدروليكية ، وبالتعاون مع ابنه قام بمسح لمجرى النهر ووجد أنه عندما نزلت السيول الصيفية من الجبال إلى الأرض المستوية أبطأت ورسبت الطمي الذي أتت به إلى أسفل التلال ، وكان الطمي يتراكم فتفيض ضفاف النهر ، وشرح " لي بنج " أن السبب في الفيضان لم يكن وحشاً لكنها تضاريس الأرض فقام بتنظيم شق القنوات .



تمثال "لى بنج" فى معبد بإقليم سيزيشوان ، وقد قام لى بنج فى عام ٢٥٠ ق م - عندما كان حاكمًا لـ "شو" ومهندسًا هيدروليكيًا بارزًا - بتنفيذ مشروع عظيم للتحكم فى مياه نهر "مين" المضطرب

وساعد الرى على زيادة المحصول ؛ وكان يتم تخزين الفائض فى مخازن الغلال فى المدن الحصينة التى قامت لحماية الجوار ، وكانت الجيوش فى العصور السابقة تتألف أساسًا من النبلاء على العجلات الحربية ، وقد تم اختراع النشابية (آلة حربية قديمة) فى ذلك الوقت والتى كان وجودها بأيدى الرماة على صهوات الجياد يعنى نهاية القتال من فوق العجلات الحربية . وعلاوة على ذلك فقد كان من الممكن للزيادة فى إنتاج الحبوب آنذاك أن تدعم جنود المشاة الذين كان يتم أخذهم من الأعداد المتزايدة للفلاحين ، واقتداء بجيرانهم من البدو أضافت الولايات الشمالية للمملكة الوسطى سلاح الفرسان إلى قواتها، وكان هذا تقدمًا بارزًا أساسًا فى دولة تشن فى شمال غرب الصين،

وقد أتى إدخال سلاح الفرسان بتغيير فى الملبس الصينى نظراً لأن الزى السابق ذى التنورة الطويلة لم يكن مناسباً لامتطاء صهوة الجواد، وأصبح ارتداء السراويل أمراً شائعاً .

وفى وقت ما خلال عهد تشاو فى الصين حل طقم الجواد ذو الأحزمة والأربطة الأكثر كفاية للصدر محل أطقم الجياد التى كانت تجعل الحيوان نصف مختنق ، وكان لهذا التطور الذى ساعد على إيجاد قدرة أكبر على الحركة والتنقل لدى الفلاح مع السماح له بالعيش بعيداً عن حقوله فى القرى الأوسع أو المدن الصغيرة بدلاً من العيش فى قرى صغيرة متفرقة أصداء ثانوية فى الصين حيث ظهر لأول مرة ؛ وفى أوروبا – حيث ظهر فى وقت لاحق – أدى ذلك إلى زيادة الميل إلى ثقافة دولة المدينة ، وفى الصين ازدهر الجواد فى مراعى الشمال فحسب نظراً لأنه كان معوقاً للعمل والأغراض العسكرية فى الجنوب، حيث أصبح جاموس الماء حيوان الحرث الأساسى، وحيث كانت قنوات الرى تعوق الفرسان .

المذاهب الفكرية المائة :

لم تكن هذه الفترة فترة للصراع المتواصل بين الولايات المختلفة واستيعاب الولايات الأقوى لجيرانها الأضعف فحسب لكنها تميزت أيضاً بالنزاعات الداخلية ، وحاول النبلاء داخل الولايات اغتصاب سلطة أمرائهم ، وأدت قرون من الحرب والتحول الاجتماعى إلى جعل الناس يطرحون أسئلة ويبحثون عن أجوبة لها ، وقد لاحظنا أن الحكام أنفسهم شعروا بالحاجة لرعاية العلماء والمستشارين ، وبعد كونفوشيوس نشأت مذاهب فلسفية أخرى ؛ وعُرِفَتْ هذه بـ " المذاهب الفكرية المائة " (" المائة " كالألف أو العشرة آلاف الصينية – لا تؤخذ بمعناها الحرفى ، فالمعنى هنا " كثير ") .

الطاويون وآخرون :

ترتبط بعض المذاهب الفكرية بأسماء الأفراد الذين ربما كان لهم – أو لم يكن لهم – وجود تاريخى . وربما كان الطاويون هم الأكثر نفوذاً بعد الكونفوشيوسيين ، والأثر الكلاسيكى الطاوى – كتاب لاو تسو – هو مجموعة من الأفكار المستمدة فى واقع الأمر

من عدد من الأشخاص لكنها تنسب إلى الحكيم لاو تسو (المعلم القديم) من عصر الربيع والخريف ، وكان لدى الطاويين رؤية صوفية للحياة كانت مناقضة لتلك الخاصة بالكونفوشيوسيين .



لاو تسو وأتباعه ، صورة تقليدية لـ " هوانج شاو منج "

فقد وجدوا أن العالم الذى من صنع الإنسان لا خير فيه ودعوا إلى نبذ العالم والعودة إلى البساطة " الطبيعية " وإلى تناغم الطبيعة ، ورأوا أن المؤسسات البشرية والطموح والكفاح البشرى شروراً لا خلاص منها إلا بالإستسلام والإذعان ، وكانت الحضارة فى نظرهم مصدر المعاناة ويمكن لـ " لطاو" – " الطريق " (طريق الطبيعة) – فقط أن يعود بالإنسان إلى الهدوء والسكينة ، واعتقدوا بأن أولئك الذين ليس لديهم ما يناضلون من أجله لا يمكن أن تصيبهم خيبة الأمل ، وقال الطاويون أن كافة الأمور نسبية، حيث أنها تتوقف على وجهة النظر ، فالماء "يعنى الحياة للأسماك لكنه يعنى الموت للإنسان"،

ولا يمكن للفرد أن ينعم بالهدوء والسكينة عن طريق المجتمع الذى صنعه الإنسان، ولكن عن طريق التكيف مع نمط الطبيعة بقواها المتوازنة بشكل متبادل، وهناك تعبير عن المثل الأعلى الطاوى للتفاعل التوافقى مع الطبيعة في حلم الفيلسوف تشوانج تسو: " لقد حلمت أنا "تشوانج تسو" ذات مرة بأننى فراشة ؛ فراشة راحت تطير هنا وهناك وتستمتع بوقتها كما يحلو لها ، ولم تعرف أنها كانت "تشوانج تسو" ، لكنها تنبهت فجأة واكتشفت هنالك وقد تملكها الذهول أنها "تشوانج تسو "، والآن لا أدرى : هل هو "تشوانج تسو" حقًا الذى كان يحلم بأنه فراشة ؟ أم أن الفراشة هى التى كانت تحلم بأنها "تشوانج تسو" ؟

وعارض الطاويون المفاهيم الكونفوشيوسية للحق والباطل والطقوس التى تجسدها، وكان مثلهم الأعلى وجود بدائى لا يخضع لقيود أو ضوابط ، وقاموا بتعليم العطف والحنان والتواضع والتحرر من الأنانية ، وأدت عقيدتهم الخاصة بالتصوف والنهج السلمى إلى اعتزال المجتمع والحركات الهادفة للإصلاح الإجتماعى ، وأصبح بعض الطاويين نُساكًا ، وعاشوا بمعزل عن غيرهم من الناس وراحوا يعملون بصيد السمك أوالزراعة في ارتباط حميم مع الطبيعة .

وبمرور الوقت شُغِلَ الطاويون بمسألة الموت والسعى وراء طول العمر، ولعب البحث عن إكسير الحياة دورًا بارزًا فى تاريخهم ؛ ولم يؤد إلى نشأة الكيمياء الطاوية فحسب بل وإلى اكتشافات علمية مهمة .

وإضافة إلى الكونفوشيوسيين والطاويين طورت المذاهب الفكرية الأخرى أراءها المتعلقة بالمجتمع والعالم ، كان مذهب "مو تسو ، الموهيستيين" واحدة من أقدم هذه المذاهب وقد آمن "مو تسو "بالحب العام بصرف النظر عن الرابطة الأسرية والطبقة الإجتماعية حيث يجب على كل إنسان أن يحب الآخرين بقدر ما يحب نفسه وذلك لخدمة المصالح العامة ، ومن الواضح أن هذا كان يتعارض مع الشرائع الكونفوشيوسية للأولويات الأسرية ، واعتقد بأنه يجب أن يتولى الحكم أهل المقدرة والفضيلة وليس الحكام الوراثيين ، ورثى لكل شئ لم يسهم بشكل مباشر فى الرفاهية العامة واقترح إجراءات وتدابير لإثراء البلد بوجه عام ، واعتقد الموهيستيون أنه من الجُرمْ أن يعيش البعض فى ترف طالما لم يكن هناك ما يكفى من الطعام والملبس للجميع . وكان "مو تسو" رجلاً عمليًا وصارمًا، ولم يكن لديه أى وقت للطقوس أو الفن أو أية متعة غير نافعة .



رأس فخارية لمغنٍ ، شكل خارجي لقبر من عصر الدول المتحاربة

ونجح اثنان من الكونفوشيوسيين في القرن الثالث ق.م وهما "منج تسو" الذى عرف فى الغرب بالصيغة اللاتينية لاسمه "مينشيوس" ، "وهون تسو" فى أن يضما إليهما عدداً كبيراً من الأتباع لعقائدهما وتعاليمهما ، واعتقد "مينشيوس" أن الطبيعة البشرية خيرة أساسًا وأن الظروف السيئة هى التى أفسدت عقل المرء وأفعاله ، واعتقد بأن الفضيلة الفطرية للمرء يمكن رعايتها وصقلها بالجهد الواعى والتربية والتعليم ، ولذا كان يجل العلماء ، واعتقد بأن الحكام يجب أن يهتموا بحاجات الناس إذا أرادوا البقاء في السلطة وأن الحكم يجب أن يكون بأيدى أهل الفضيلة .

وصاغ مينشيوس وجهة نظر تتعلق بالهرم الاجتماعي ظلت مسيطرة على نظرة الطبقة الأرستقراطية الصينية حتى وقت قريب جدا ؛ وطبقا لوجهة النظر هذه فالمجتمع يتألف من جماعتين متكاملتين – علية القوم وهم أولئك الذين ينتمون للجماعة الحاكمة ، وسفلة القوم الذين يراد لهم أن يخضعوا للحكم . وقال أن :

" البعض يعملون بعقولهم ويحكمون الآخرين ؛ والبعض يعملون بأيديهم ويحكمهم آخرون ،... وإذا لم يكن هناك أناس من علية القوم فلن يكون هناك أي شخص كى

يحكم أبناء البلد، وإذا لم يكن هناك أبناء للبلد ، فلن يكون هناك أي شخص كي يؤيد من ينتمون لعلية القوم" .

وقد تم تقسيم العامة والمحكومين منذ الأزمنة القديمة إلى جماعات تنتمي لمراتب اجتماعية مختلفة، المزارعون وأصحاب الحرف والتجار بحسب ترتيبهم . وبالرغم من أنهم كانوا عمال يدويين ، فقد كان ينظر إلى المزارعين على أنهم أساس المجتمع ، وكانوا يحتلون أعلى مرتبة اجتماعية بين طبقات المحكومين ، وكان التجار الأقل احترامًا باعتبارهم جماعة غير منتجة، وكان ينظر إليهم على أنهم طفيليين ، وكان الجنود (الصفوة في بعض المجتمعات) يلقون قدرًا ضئيلاً من الإحترام في الصين قديمًا حتى أنهم كانوا خارج أو دون المجتمع العادي .



حصان فخاري يمثل الأشكال الخارجية الأولى للقبر من عصر الدول المتحاربة

وكانت نظرة "هون تسو" إلى الطبيعة البشرية مناقضة لنظرة "مينشيوس" ، واعتقد بأن الإنسان شرير بطبيعته وأن المشاعر والرغبات الفطرية الإنسانية تؤدي إلى الصراع فضلاً عن كونها شريرة . واعتقد بأن الإلتزام بالشعائر والطقوس قد ساعد على كبح الميول البشرية الشريرة ، نظرًا لأن الإنسان يصير خَيِّرًا بالتدريب فقط ؛ كما أن التربية مهمة أيضًا لمساعدة الإنسان في التغلب على طبيعته الشريرة .

إن طبيعة الإنسان شريرة – وصلاحه لا يتأتى إلا بالتدريب ، والطبيعة الأصلية للإنسان اليوم تتمثل في السعي للكسب ، فإذا ما تم اتباع هذه الرغبة نشأ النزاع والجشع وزال اللطف والكياسة ، والإنسان حقود أصلاً ويكره الآخرين بطبيعته ...

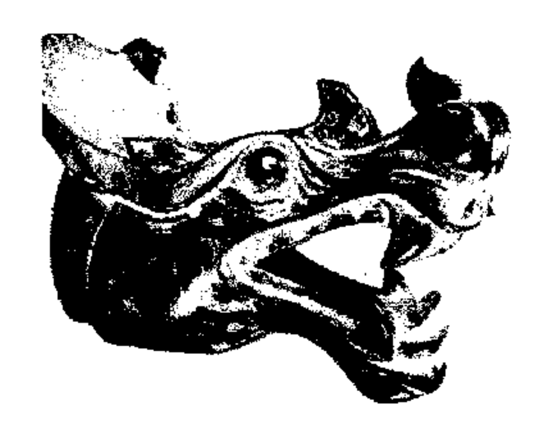
ومن ثم فإن التأثير التحضرى للمعلمين والقوانين والطقوس الإرشادية والعدالة ضرورى بشكل مطلق .

ورفض "هون تسو" فكرة الكائنات الخارقة للطبيعة ؛ وكان عقلانياً ، وقال ذات مرة عن خرافة معاصرة : " إن قرع طبلة لعلاج الروماتيزم سوف يبلى الطبلة، لكنه لن يعالج الروماتيزم " ، وأعجب بالحكم الناشستي القوى .

القانونيون :

كان أنجح مذهب فكرى جاء بعد ذلك مباشرة مذهب القانونيين ، الذين اعتقدوا أيضا بأن طبيعة الإنسان شريرة أساساً ؛ وأنه يتعين على الناس التقيد بالقوانين الإجتماعية الفعالة، وأوصوا بالحاجة إلى دولة مركزية قوية ذات سلطة ورقابة مطلقتين ، وأيدوا سياسات القمع ، وآمنوا بأن الحكام الوراثيين مكرسين لخلق دولة قوية عسكرياً وتنعم بالرخاء، واعتقدوا بأن كل شخص يجب أن يلتزم بالقيام بعمل منتج، ولم ينل التجار والعلماء الحظوة لديهم نظراً لأنهم لم يكونوا منتجين للثروة ، وحكموا على تعليم الموسيقى والتاريخ والفلسفة بأنها مؤثرات مفسدة ، وعارض القانونيون طبقة النبلاء القديمة التى لم تكن تعتمد على الإنجاز العسكرى ، وكان "هان فى تسو" أمير دولة "هان" زعيماً لهذا المذهب الفكرى واعتقد بأن القوة العسكرية والزراعة الإنتاجية أكثر أهمية من النزوع إلى عمل الخير لنجاح الدولة، وبعد مرور بضعة قرون كتب مؤرخ أنه "استمتع بدراسة العقوبات والأسماء والقوانين وأساليب الحكم". (وكان "هان فى تسو" واحداً من بين الكثير من القانونيين الذين قُتلوا على أيدى الحكام الذين ساعدوهم فى الوصول إلى السلطة) ، وكانت الكونفوشيوسية والطاوية المذهبين الوحيدين الباقيين على المدى الطويل من بين المذاهب الفكرية المتنافسة .

واستمر الجدل بين الكثير من المذاهب الفكرية إلى جانب الصراعات بين النبلاء والأمراء وبين الدول المختلفة ، وبعد أن استوعبت الدول الأقوى جيرانها الأضعف أعلنت السلطة العليا لأمرائها ، وامتنعت عن إرسال الجزية إلى ملك تشاو الذى لم يعد له هيبة أو سلطة تفوق ما كان لأمير مملكة صغيرة قرب نهاية هذا العهد .



زخرفة سطح فخارى ، رأس تنين ، عصر الدول المتحاربة



تمثال خشبى لخادمة من قبر أسرة نبيلة من مملكة التشو التى كانت إحدى الدول السبع الكبرى من عصر الدول المتحاربة ، وكان القبر الضخم مغلقًا بإحكام ومحتوياته بحالة ممتازة

ومن بين الدول السبع التى قامت على الغلبة والتوسع دولة "تشى" على الساحل الشرقى التى أصبحت ذات شأن عظيم فى وقت مبكر وكانت دولة غنية بمواردها الوفيرة من الحديد والحرير والملح والأسماك .

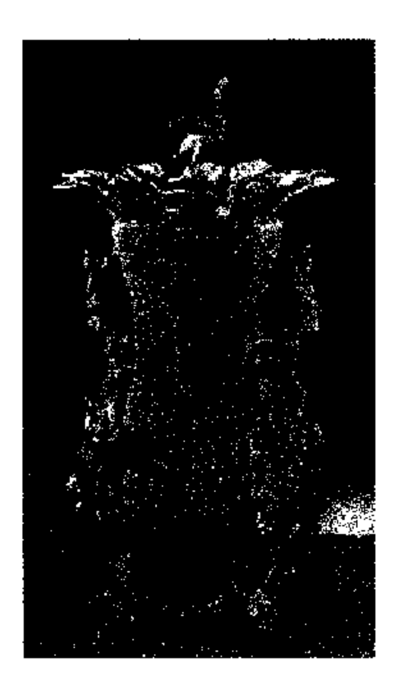
قيام دولة تشين :

كانت دولة "تشين" إحدى الدول الأخرى التى قامت بتوطيد سلطانها فى الشمال الغربى حول وادى نهر وى (الذى كان مركزًا لدولة "تشو" فى واقع الأمر) ، وقد تعلمت دولة تشين فى وقت مبكر من جيرانها البدو الشماليين كيفية استخدام الفرسان ، كما أنشأت مشروعات الرى الناجحة فى وادى نهر "وى" .

وتحقق لدولة تشين نفوذًا سياسيًا وعسكريًا عظيمًا نتيجة للإجراءات والتدابير التى اتخذها "شانج يانج" أحد الزعماء القانونيين ، وفى عام ٣٦١ ق.م أصبح "شانج يانج" رئيسًا لوزراء حاكم تشين ، وقام بالحد من سلطات الأسر الأرستقراطية القديمة ، وشجع طبقة أرستقراطية عسكرية جديدة ، وبدلاً من منح الإقطاعيات تم تعيين الموظفين الحكوميين لإدارة الأراضى الجديدة التى ضمتها الدولة ، وشجعت إجراءاته وتدابيره الزراعة وإنتاج المنسوجات ، لكنها كانت غير مشجعة للتجارة ، وتم إضفاء الصبغة العسكرية على السكان بأكملهم ، وأصدر مرسومًا يقول فيه :

" يتم تنظيم الشعب فى جماعات من الأسر التى يجب أن تكون مسئوليتها متبادلة عن السلوك الطيب تجاه بعضها البعض ، وتشارك بعضها البعض فى العقوبات ، ومن لا يُبلغ عن أحد المجرمين سوف يقطع إلى نصفين من خصره ؛ ومن يبلغ عنه سوف ينال نفس مكافأة من قطع رأس أحد جنود العدو ... وسوف يتعين تقسيم أية أسرة تضم ذكرين بالغين أودفع ضرائب مضاعفة .

وكانت الشجاعة والبسالة العسكرية تُكافَأُ من جانب الحاكم بألقاب النبالة وفقًا لجدول محدد ، وكان أفراد الأسرة الحاكمة يُستبعدون منها إذا أخفقوا فى إظهار الأهلية العسكرية ، وكان أولئك الذين يقاتلون بعضهم البعض لخلافات خاصة يعاقبون حسب شدة جرمهم ، وكان يتم إجبار الجميع – عظيمهم وحقيرهم – على العمل فى المهن الأساسية للزراعة والحياكة ؛ وإعفاء أولئك الذين كانوا ينتجون كميات كبيرة من



مزهرية برونزية من عصر "هو" ذات غطاء من بتلة اللوتس يعلـوه طائر الكركى ،
إناء طعام من عصر الربيع والخريف

الحبوب أو الحرير من العمل الإجبارى ، وكان أولئك الذين يسعون إلى الكسب من المهن الثانوية (التجارة والحرف) والخاملين والمعدمين يتم اتخاذهم عبيداً ، وقد أزالت الإجراءات والتدابير الأخرى كالتشريعات الخاصة بشراء وبيع الأراضى بعضاً من القيود على النمو الإقتصادى .

وقد ضعف نفوذ طبقة النبلاء القديمة لصالح الأوتوقراطية العسكرية الجديدة عقب إدخال هذه الإصلاحات، وزاد الإنتاج الزراعى، وقد شجع على ذلك أيضاً التوسع فى مشروعات الرى ، وتحسنت وسائل الاتصال وزادت الإيرادات ، وأصبح التنظيم السياسى وكذلك الإجتماعى على نطاق واسع أمراً ممكناً .

وازدادت دولة "تشين" قوة وهددت جيوشها وجود الدول الأخرى بشكل خطير ، وتمكنت دولة تشين - باستخدام التكتيكات الدبلوماسية وكذلك العسكرية -

من إثارة الفرقة والخلاف بين الدول الست الأخرى، الأمر الذى أدى إلى استمرار هذه الدول فى التنازع فيما بينها بدلاً من التحالف ضد عدوها المشترك .

تشو يوان :

وكانت دولة "تشو" فى شرق الصين إحدى الدول التى انفصلت عن ملك تشاو منذ زمن طويل، وامتنعت عن دفع الجزية لبلاط ملك تشاو وأعلنت سيادتها على أراضيها ، وحاولت دولة تشين إقناع ملك تشو بأن يقطع علاقاته مع دولة تشى ، ويقال أن دولة



"تشو يوان" الشاعر ورجل الدولة الوطنى فى عصر الدول المتحاربة ، صورة تقليدية لـ " تشين هونج شو" وهو فنان من عصر المنج اشتهر برسومه المطبوعة على الخشب ولوحاته الزيتية للشخصيات البارزة

تشين قامت بتقديم رشاوى لمعظم وزراء دولة تشو فأيدوا هذا الإقتراح ، ولم يعارض ذلك سوى واحد منهم راح يدعو إلى التحالف مع تشى ضد تشين ، وكان وزيراً يدعى "تشو يوان" وهو أحد أشهر شعراء الصين ، وأخذ ملك تشو بنصيحة الأغلبية وقام بنفى "تشو يوان" ، وقامت دولة تشين بمهاجمة دولتى "تشو وتشى" وهزمتهما شر هزيمة .

وفى منفاه في الجنوب وجد "تشو يوان" نفسه فى موكب طويل من لاجئى الحرب ، وساءه ما كان يتعرض له شعبه من معاناة، وكتب كثيراً من القصائد التى تعبر عن قلقه بشأن بلده ، وقصيدة " المرثاة Li Sao" التى كتبها خلال السنوات الأخيرة له فى منفاه هى قصيدة غنائية طويلة تمت ترجمتها إلى العديد من اللغات وتأتى فى مصاف الأعمال الكلاسيكية العالمية ، وتصف هذه القصيدة تحليل نفس الشاعر فى المحنة وركوب الأتنة والأفاعى للهبوط من السماء إلى الأرض ، وعندما وصل إلى باب الجنة ونادى الحارس كى يفتح له الباب فما كان من الحارس الا أن أسند ظهره إلى الباب وراح ينظر إليه ، وأخيراً تنهد الشاعر واختتم قائلاً : "حتى السماء ليس فيها أى أناس صالحين".

تنهدت طويلا وكفكفت دموعى
وأنا أرى شعبى تحنى ظهره الأحزان والمخاوف
أسخر الأتنة السريعة ذات اللون الأخضر المائل للزرقة
والطيور ذات الريش الذهبى للزوابع وأنظر
فى الفجر من أرض أشجار الدلب الرمادية ،
بلغت الفردوس قبل نهاية النهار ...
وروت الأتنة ظمأها بجانب البحيرة
حيث كانت الشمس تستحم بينما أنا على الأجمة
ربطت لجامى ؛ وبحثت عن غصن ذهبى
كى أجلو الشمس ومكثت هناك لاهيًا .

ثم أمرت قائد مركبة القمر الشاحب أن يقودني

فسرعان ما سوف يتبعنا سيد الرياح ؛

وقبل أن يخلي الطائر الأزرق الملكي الطريق ؛

حثني رب الرعد على أن أتمهل.

وأمرت العنقاء أن تمعن النظر في عرض السماء ؛

ولكن عبثًا حاولت أن تشق طريقها ليل نهار ...

وقد عبر "تشو يوان" في هذه القصيدة عن الشعور – منذ ألفي عام مضت – بأن سائر الأشياء في الطبيعة تملك الحياة ، ويمكن تسخيرها لخدمة الإنسان ، ويصبح المطر والرعد والبرق والسحب والقمر خدمه وقائدي مركباته ، والعنقاء والتنين يجران مركبته، ويعدو مسرعًا إلى السماء ويصل إلى باب الجنة ثم يتسلق سقف العالم ويهيم حتى يصل الى أقاصي الأرض ، لكنه لا يجد الراحة في أي مكان وأخيرًا ينتحر .

وفي اليوم الخامس من الشهر القمري الخامس من عام ٢٧٨ ق.م استولى جند تشين على عاصمة تشو فأغرق تشو يوان – المجهد ذهنيًا وبدنيًا – نفسه في نهر "ميلو" .

وإحياء لذكرى هذا الحدث تقام المهرجانات والإحتفالات للمراكب التي تتخذ شكل الأتنة في كثير من الأقاليم في هذا الوقت من العام، حيث توجد أنهار مناسبة لإقامة هذه المهرجانات، وطبقًا لهذا التقليد فقد كان أهل تشاو من السكان المحليين يزخرفون مراكبهم على هيئة أتنة مضادة ويتسابقون عبر النهر وهم يقرعون الطبول والأقراص النحاسية لإرغام الوحوش على الهروب فزعًا نظرًا لخشيتهم من أن تلتهم الأتنة جسد "تشو يوان" في الماء .

وقامت دولة تشين بضم الدول الخمس الأخرى بنفس الطريقة التي تلتهم بها دودة القز ورقة التوت على حد تعبير المؤرخ سسوما تشيين ، وفي عام ٢٥٦ ق.م سلبت أراضي ابن السماء وفي عام ٢٢٢ ق.م سقطت آخر مملكة مستقلة ، وبحلول عام ٢٢١ ق.م كانت المملكة الوسطى قد توحدت تحت قيادة سيد واحد ، وهو السيد الأعلى لتشين والذي اتخذ لقب "تشين شيه هوانج تي" (الإمبراطور الأول) .



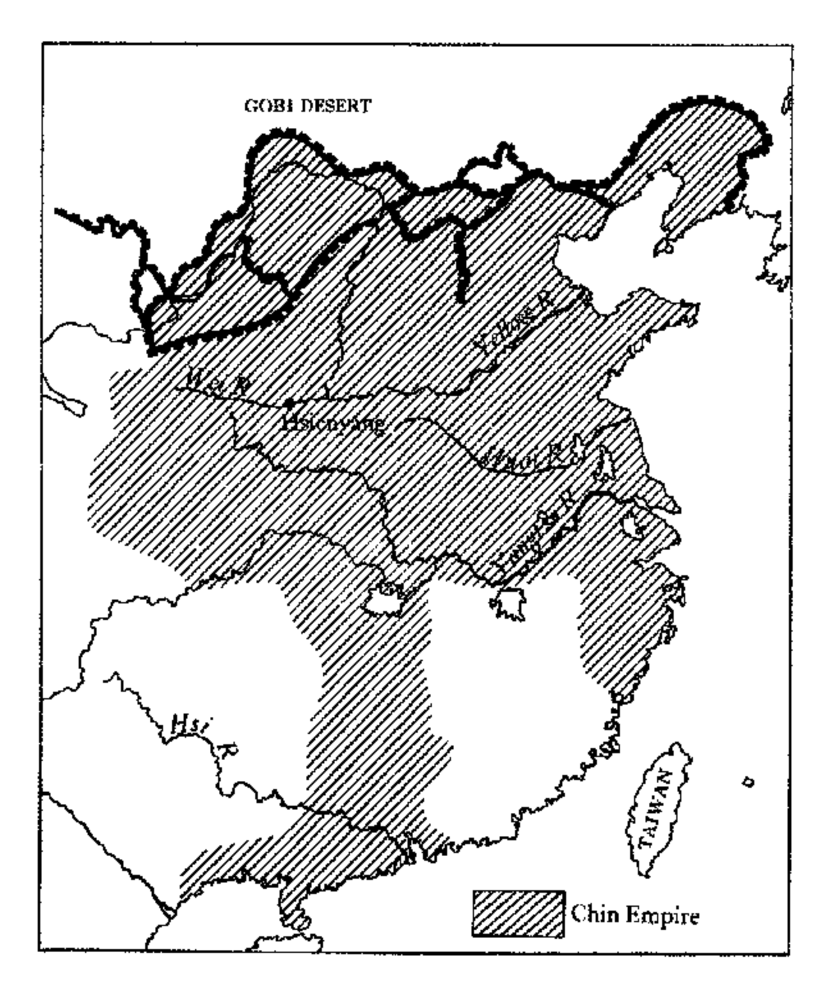
سباق مركب التنين ، صورة تقليدية من قالب خشبي من عصر "التشنج" ، وتقام مهرجانات مركب التنين إحياء لذكرى وفاة تشو يوان ، والمراكب التي تصنع خصيصًا لهذه المناسبة لها هياكل طويلة ضيقة ومؤخرات مرتفعة ، ويزدان مقدم السفينة بأشرطة حريرية متعددة الألوان ويتخذ شكل يشبه رأس تنين له شوارب وفك يفتح ويغلق مع تحرك المركب عبر الماء ، ويتم طلاء مقدمة المركب بألوان تحاكي حراشف التنين ، ويقوم عشرون إلى ثلاثين رجلاً ممن يقومون بالتجديف بدفع المراكب وهم يجلسون متقاربين كما يقول المثل الصيني "متقاربون كأقدام أم أربع وأربعين" وتجري السباقات على إيقاع قرع الطبول والأقراص النحاسية وهتافات الجماهير التي تحتشد على ضفاف الأنهار ، كما يجري الإحتفال بالمهرجان بتناول مقادير ضئيلة من الأرز الدبق الذي تم لفه في أوراق الخيزران وطهوه على البخار، ويرجع أصل هذا أيضًا إلى تشو يوان ، فهم يقولون أن الناس قاموا بملأ أنابيب الخيزران بالأرز وألقوا بها في الماء حتى لا تتضور روحه جوعا ، ومن المحتمل أن مهرجانات مركب التنين نشأت من الإحتفالات التي تقام عند الإنتهاء من زراعة الأرز الموسمي في المناطق الجنوبية وهي مناسبة ترتبط بالكثير من أساطير التنين ، وربما يكون الإرتباط بتشو يوان قد نشأ في وقت لاحق أيضاً.

الفصل الرابع

التشين ٢٢١ - ٢٠٦ ق.م

قامت إمبراطورية تشين بعد قرابة قرنين من الحروب والصراعات ، و كانت فاتحة لأربعة قرون من الوحدة الإمبراطورية ، وفى هسينيانج قامت حكومة إستبدادية حيث مارس الإمبراطور سلطة مطلقة ، وأدخل "لى سو" رئيس الوزراء وكان أحد القانونيين سلسلة من الإجراءات الهادفة إلى قمع المعارضة وإخضاع كافة أنحاء الإمبراطورية للحكم المركزى وتشجيع الزراعة وزيادة القوة العسكرية للإمبراطورية ، وكانت تجرى مناقشة الأمور الهامة من قبل الوزراء لكن القرار كان متروكًا للإمبراطور الذى كانت قراراته مطاعة دون قيد أوشرط .

وحل نمط بيروقراطى مركزى للحكم محل السلطة الإقطاعية ، وكانت الإمبراطورية تخضع لحكم الموظفين الذين لم يكونوا يلقبون بالأرستقراطيين ولم تكن مناصبهم وراثية، وصودرت الملكيات الإقطاعية الكبيرة، وتذكر الروايات التاريخية أنه تم نقل ١٢٠ ألف أسرة من الأرستقراطيين الإقطاعيين - من الصيادين والمقاتلين - من ضياعهم السابقة كى يقيموا قرب العاصمة، حيث كان يمكن منعهم من إثارة القلاقل ، وتم تقسيم البلد إلى أقاليم والأقاليم إلى مقاطعات ، وكانت الأقاليم والمقاطعات تخضع للحكم المباشر للحكومة المركزية التى عينت حكامًا وموظفين آخرين، وكان واجب الحكام - إضافة إلى فرض القانون وجمع الدخل الحكومى - تجنيد الناس للعمل والخدمة العسكرية، كما كان قادة ومفتشوا الجيش متمركزين فى الأقاليم لمراقبة تصرفات الحكام، وتم اتخاذ كثير من الاجراءات والتدابير الإدارية لتوطيد دعائم الحكم المركزى ، وتم عمل احصاء تفصيلى للبلد ككل يشتمل على تسجيل عدد المنازل ورؤساء العائلات واسم وسن ومسقط رأس كل مواطن ، (وكان هذا قبل Domesday فى انجلترا بحوالى ١٢ قرن) ، وكان مثل هذا الإجراء ضروريًا لفرض ضرائب الرؤوس،



خريطة لإمبراطورية التشين

والسخرة (العمل الإجبارى) والخدمة العسكرية بشكل فعال، وفى عام ٢م تم تسجيل ١٢ مليون أسرة فى الصين بلغ إجمالى عدد أفرادها حوالى ٥٩,٥ مليون فرد، وامتدت المملكة الوسطى تحت حكم تشين شيه هوانج تى (٢٢١ - ٢١٠ ق.م) من التلال السفحية للهضبة المنغولية إلى حوض نهر اليانجتسى من حيث اندفعت جيوشه جنوباً لإخضاع المناطق الشمالية لفيتنام والمناطق الساحلية قرب كانتون .



لوحة برونزية تحمل مرسومًا إمبراطوريًا للإمبراطور "تشين شيه هوانج تى" يأمر فيه بتوحيد الموازين والمكاييل تم اكتشافها فى هسينيانج عاصمة إمبراطورية التشين مع عملات السكين والمجرفة ورؤوس سهام وأجراس أطقم الأفراس و لوازم الأحزمة وجرار فخارية وأختام .

وتم اتخاذ إجراءات أخرى لتوطيد دعائم حكم تشين ، وتم تبسيط اللغة المكتوبة وجعلها موحدة فى سائر أنحاء البلاد، وتم توحيد الموازين والمقاييس والعملة فى أنحاء الامبراطورية، وألغيت العملة القديمة ذات المجرفة والسكين وأصبحت عملة جديدة مستديرة الوسيلة الرسمية الوحيدة للتبادل ، وكانت هذه العملة ذات ثقب مربع فى الوسط، وأصبحت العملة الموحدة للمملكة الوسطى على مدى الألفى عام التالية ، وقد وصل إلينا أحد رموز حكم إمبراطور التشين للامبراطورية على هيئة إحدى " رقاع النمر" ،

وكان هذا الرمز رمزاً برونزياً للسلطة المقسمة حيث منح نصفها لقائد عسكرى محلى واحتفظت الحكومة المركزية بالنصف الآخر ، ولم يكن يحق للقائد تحريك الجند إلا عندما كان يتسلم نصف السلطة المكافئ للنصف الخاص به ، وتوخيًا للمزيد من الحيطة والحذر كان يتم جمع وصهر كافة أسلحة الحرب التى لم يكن جيش تشين نفسه بحاجة إليها .

وقام "تشين شيه هوانج تى" بافتتاح شبكة طرق تمتد من العاصمة إلى أقصى حدود الإمبراطورية ، وبلغ عرض هذه الطرق الإمبراطورية العامة خمسين خطوة مع تخصيص ممر مركزى للإستخدام الإمبراطورى ، وتم فرض أبعاد قياسية لمحاور العجلات لكافة المركبات والعربات ، وقد جعل هذا المقياس المشترك التغلب على عقبة دواليب العجلات أمراً ممكنًا، وبذلك تم إبقاؤها متباعدة بمسافة موحدة على كافة الطرق العامة ، ولم يعد من الضرورى تغيير العربات التى تنطلق من منطقة لأخرى حتى تتلاءم العجلات مع عرض الدواليب على اختلافها ، وقد شجع أول إمبراطور للتشين إستصلاح الأراضى وحرثها وكذلك نسج المنسوجات ، وتم منح المزارعين مزيداً من الحقوق فى أراضيهم عما كانوا يتمتعون به في العصور السابقة لكنهم كانوا خاضعين لضرائب باهظة للغاية ، ولم يقف تشين شيه إلى جانب التجار، ورغم أن الإجراءات كانت موجهة ضدهم فقد وجدوا بعضاً من الشروط الجديدة فى صالحهم .



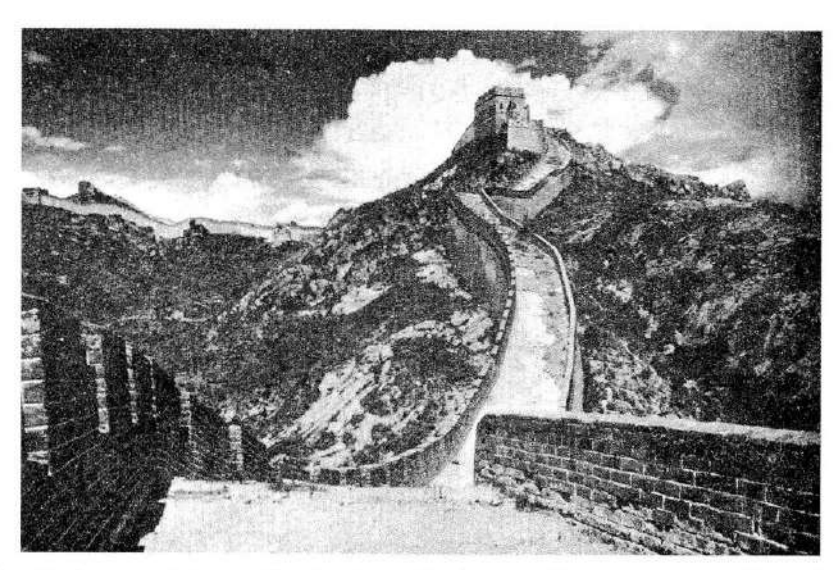
رقعة نمر من عصر التشين ، و تقول الكلمات التى كتبت عليها : " هذه هى رقعة الجيش ، النصف الأيمن مع الإمبراطور، والنصف الأيسر فى يانجلنج"، وعندما كان يقدم النصفين معاً فقط من قبل أحد القادة كان يمكن الخروج بجيش فى حملة .

وكان القانونيون يرغبون في التخلص من كافة أشكال المعارضة بما في ذلك المذاهب الفكرية المختلفة ، وخشى إمبراطور التشين من أن يؤدى التأمل والجدل إلى زعزعة حكمه ، ولذا أمر بأن يجرى المحققون الإمبراطوريون تحقيقًا بين العلماء ، وطبقًا لما أوردته المدونات التاريخية فقد حاولوا الإفلات من العقاب بتجريم بعضهم البعض وعوقب حوالى ٤٦٠ شخصاً بدفنهم أحياء ، وعلاوة على ذلك فقد أمر بحرق كافة الكتب عدا تلك التي كانت في الأرشيفات الإمبراطورية، وتلك التى تتناول التكنولوجيا والكهانة والطب ، وبدا لبعض الوقت أن الأدب القديم للتشين قد زال تماماً .

وعندما أدى استخدام الأدوات الحديدية في الجزء الأخير من عهد التشاو إلى تحسين تقنيات الإنتاج زادت التجارة وقامت المدن المزدهرة في سهل الصين ، وعادة ما كانت المدن والسهول الواقعة في شمال الصين تتعرض لغارات البدو الذين كانوا يعيشون شمال الهضبة المنغولية ، ونظًرا لأنهم كانوا فرساناً ورماة مهرة فقد كانوا يخرجون وينطلقون كالريح يشقون صفوف المشاة الذين كانوا يتصدون لهم ، ولحماية أنفسها من هذه الغارات قامت الدول الشمالية آنذاك (شاو ، وين ، وى ، تشين) ببناء أسوار على طول سلسلة الجبال .

وأصبحت الحماية من هجوم البدو الشماليين شغلاً شاغلاً للحكومات الصينية على مدى عشرين قرناً من الزمان ، وبمجرد توليه السلطة عام ٢٢١ ق.م أمر الإمبراطور "تشين شيه هوانج تى" قائده "منج تيين" بأن يقود قوة تتألف من ٣٠٠ ألف جندى وفلاح لطرد البدو وبناء سور متصل وممتد لمسافة عشرة آلاف "لى" لحماية أراضيه ، وتم ربط الأسوار المنفصلة للدول الشمالية السابقة معًا لتكوين السور العظيم .

وكان امتداد السور لمسافة ستة آلاف كم عبر قمم الجبال والوهاد عملاً ضخماً ، وظهرت كثير من الأساطير حول تضحيات أولئك الذين تمت تعبئتهم لبنائه وكان من أشهرها حكاية إمرأة تدعى "منج تشيانج نو" تم تجنيد زوجها للعمل في بناء السور ، وخلال أعوام الإنفصال تاقت "منج تشيانج" لعودة زوجها ، وأخيراً خرجت للبحث عنه ، وعندما وصلت أخيراً إلى "شانهايكوان" في الطرف الشرقى علمت أن زوجها قد توفى وأن رفاته تحت السور فبكت طويلاً جداً على نحو مثير للشفقة حتى أن السور العظيم إنهار إشفاقا عليها حيث كانت تقف وكشف لها عن عظام حبيبها ، وقد شُيدَ معبد تخليداً لذكراها وما زال قائماً في "شانهايكوان" .



سور الصين العظيم ، هذا السور الذى يمتد لمسافة ١٠ آلاف لى (اللى وحدة قياس صينية للمسافات ويعادل حوالى ثلث ميل – المترجم) يبلغ إرتفاعه ٦ آلاف كم وبه متراس عملاق يبلغ إرتفاعه ٥ – ١٠ متراً وعرضه ٧ أمتار ، وقد تم ربط أسوار منفصلة معًا فى عصر التشين لكن أجزاؤه أعيد بناؤها وترميمها مرات عديدة ، والسور القائم اليوم يرجع تاريخه أساساً إلى عصر المنج ، وهو مملوء بالتراب ومغطى بالآجر و الحجر وتوجد أعلاه شرف يصل إرتفاعها إلى متر ، وتوجد منازل من الآجر على مسافات متباعدة و أبراج إرشادية ، ويوجد أيضاً ١٢ بوابة أو ممر هام عبر السور ، ويقول المثل الصينى "مات تشين شيه هوانج تى لكن السور مازال قائماً ".

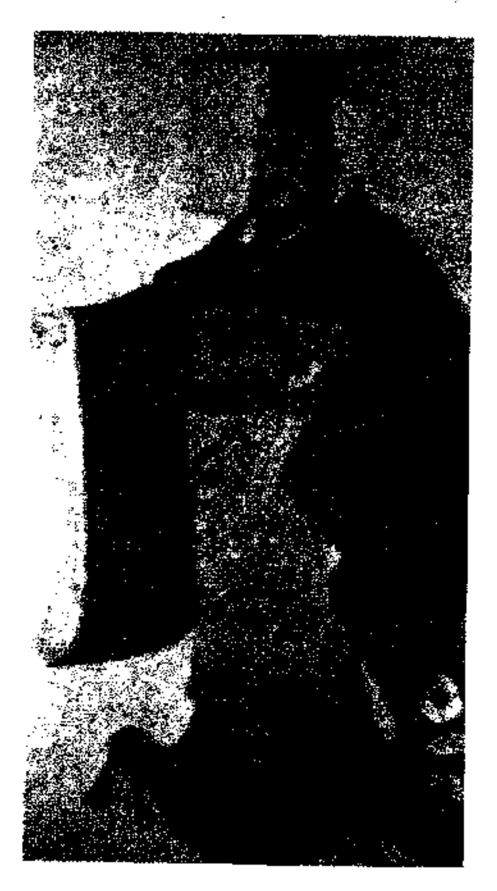
وأعقبت الإنتهاء من بناء السور – الذى فصل الشعوب المستقرة عن البدو الرعاة – فترة حل فيها السلام والإستقرار على طول الحد الفاصل بينها ، وخلال المائتى عام التالية تم ترميم السور ومده ، وعلى مدى ٣ – ٤ قرون تلت ذلك إنهار كثير من أجزائه بسبب افتقاره إلى الصيانة .

وفى عهد أول إمبراطور للتشين تم تجنيد مئات الآلاف من الناس لبناء القصور ومتحف للإمبراطور، ووفقًا لما ذكره سسوما تشيين وهو مؤرخ لأسرة حاكمة لاحقة أنه فى كل مرة كان "تشين شيه هوانج" يضم دولة منافسة كان يبنى قصراً على الطراز المعمارى السائد فى الأرض الجديدة كى يكون أثراً يخلد ذكرى عمله المجيد ، وكتب أحد الشعراء اللاحقين يصف قصور "تشين" قائلاً عنها أنها : "حجبت السماوات لمسافة تزيد على ثلاثمائة لى ." وذكر سسوما تشيين أنه حتى قبل أن يصبح إمبراطوراً للتشين



أوانى وأوعية كبيرة تم إكتشافها فى هسينيانج عاصمة التشين
ويقوم شخص هنا بقياسها ، ويبلغ طول جرة خمر ٧٢ سم و سعتها ٤٠٠ كجم

خطط "تشين شيه هوانج تى" لبناء قصر على الضفة الجنوبية لنهر وى ، وكان مقرراً للبناء أن يتسع لعشرة آلاف شخص لكن المشروع كان من الضخامة بحيث تعذر الإنتهاء منه في حياة الإمبراطور" ، وتؤكد الحفريات التى أجريت مؤخراً فى العاصمة "هسينيانج" أن الإمبراطور كان بنّاءاً عظيماً ، وتم الكشف عن أساسات هذا القصر وكذلك أسوار من التراب المدكوك وآبار مياه الشرب ونظام الصرف وأساسات للمساكن، وآنية ضخمة تعكس ما كان يعيش فيه ابن السماء من ترف ودعة والولائم العامرة بما لذ وطاب التي كانت تقام فى القصر، وكذلك دهان أحد الأسوار (وهو الأقدم فى الصين) حيث يتكون من تصميمات هندسية باللون الأحمر واللون الأصفر واللون الأزرق واللون الأسود، ويقال أن قصور "تشين شيه هوانج" كانت مزدحمة بالنساء من الحريم الأسرى وكذلك الخدم وقارعى الطبول التابعين للأمراء المهزومين .



تشين شيه هوانج تى (٢٢١ – ٢١٠ ق.م) أول أباطـرة الصين الإمبراطـورية ، رسم مأخوذ عن صورة تقليدية

ويصف سسوما تشيين الإمبراطور فى مقطع شعرى ساخر بأنه " رجل ذو أنف بارز وعينين واسعتين وصدر طائر جارح ووجه ابن آوى ، و هو لا يعرف الإحسان وله قلب نمر أو ذئب ."، ويقولون أن الإمبراطور كان بمعزل عن الناس وغامضاً ، ويعيش فى سرية يلفها الحرص والحذر حيث استبد به الخوف من أن يُغتال ، وكان يتنقل من غرفة لأخرى فى قصوره العظيمة دون أن يعلم بمكان تواجده سوى قلة قليلة من خصيانه فقط ، لكنه كان يعمل دون كلل أو ملل فكان ينظر فيما يصل وزنه إلى ١٢٠ رطلاً من التقارير على قطع الخيزران أو الخشب ، كما كان كثير السفر والترحال فى أنحاء مملكته

مستخفيًا فى أغلب الأحيان ، وتوفى عام ٢١٠ ق.م بينما كان يقوم برحلة فى المناطق الشرقية وتم إخفاء نبأ وفاته عن الجميع عدا قلة من وزرائه وخصيانه ، وعندما تحرك موكبه الجنائزى عائدًا عبر الصين كان الجو حارًا وبدأ الجثمان في التحلل ، ورأى الوزراء أنه يتعين وضع ملأ عربة من السمك الفاسد أسفل العربة الإمبراطورية حتى لا يرتاب الجند والمرافقين فى وفاة الإمبراطور ، ويخبرنا سسوما تشيين بأنه " قد تم دفن الإمبراطور الأول فى الشهر التاسع فى جبل "لى" الذى أمر الإمبراطور بشق نفق فيه أوائل عهده ، وعندما وطد دعائم الإمبراطورية استخدم جنده الذين بلغ عددهم ٧٠٠ ألف رجل فى حفر العيون الثلاثة حيث تم وضع أساس من البرونز ووضع تابوت حجرى بعد ذلك مباشرة ، وتم جمع الأشياء النادرة والجواهر الثمينة من القصور ومن الموظفين وحُملَت إلى هناك حيث تم تخزينها بكميات كبيرة ، وأمر الصناع بإقامة النشابيات الآلية لإطلاق السهام على الفور إذا ما حاول أى شخص الدخول واستخدم الزئبق فى شق الأنهار ... ومحيط عظيم حيث كان يجرى صب المعدن من نهر لآخر بواسطة الآلات، وعلى السطح رسمت أبراج السماء وعلى الأرض التوزيعات الجغرافية للأرض ، وصنعت الشموع من دهن فيل البحر والذى كان يُعتقَد أنه يدوم لوقت طويل جدًا .

وقال الإمبراطور الثانى : " ليس من اللائق لمحظيات والدى الراحل اللاتى ليس لديهن ولد أن يتركنه الآن " و أمرهن بأن يصحبن الإمبراطور المتوفى إلى العالم الآخر فكان فى ذلك هلاك عدد كبير منهن .

وبعد الإنتهاء من مراسم الدفن أشار أحدهم إلى أن العمال الذين صنعوا الآلات وأخفوا الكنز قد علموا القيمة العظيمة للكنز وأن السر سوف يتسرب ، ولذا فبمجرد أن انتهت المراسم وتم سد الطريق المؤدى إلى التابوت الحجرى أغلق الباب الخارجى فى مدخل هذا الطريق وتم إغلاق الضريح على من كان بداخله من العمال حتى لا يتمكن أى واحد منهم من الهرب ، وبعدها تمت زراعة الأشجار والحشائش حوله حتى يبدو المكان شبيهًا ببقية الجبل .

وكان الإرتفاع الأصلى للربوة التى تغطى هذه المقبرة الجماعية ١٦٦ مترًا ، وبعد مرور ألفى عام من التعرض للعوامل الجوية والنهب والتخريب أصبح إرتفاع الربوة اليوم ٣٤ مترًا فقط .

وبرغم التقدم الذى تحقق في كثير من المجالات فقد كان الزمن جائرًا على شعب الإمبراطورية الصينية ، وكانت حكومة التشين مهيئة للحرب وليس السلام ، وأثقلت كواهل الفلاحين بالضرائب الباهظة والسخرة ، وبالرغم من أنهم كانوا يزرعون بجد وينسجون بلا توقف لم يكن لديهم ما يكفى للطعام أو الملبس ، وكان قانون دولة التشين صارمًا وكان الناس عرضة للعقاب فى أية لحظة بالسجن أو الإعدام ، وغالبًا ما كان عقاب الفرد يطال أسرته ، وإدانة إحدى الأسر تطال جيرانها .

ولم يكن أكبر أبناء "تشين شيه هوانج تى" واحدًا من القانونيين المخلصين حيث عارض – على سبيل المثال – الإجراءات الصارمة كإحراق الكتب ، وتآمر رئيس الوزراء "لى سو" مع أحد خصيان القصر للتخلص من هذا الأمير الذى دفعته المؤامرة للإنتحار ، وورث "إير شيه هوانج تى" الضعيف وهو الإبن الثانى العرش ، وبعد عامين إحتال الخصيان وخططوا لإعدام "لى سو" .

وزادت معاناة الناس و بؤسهم فى ظل حكم الإمبراطور الثانى ، وأُرسِلَ البالغون من الذكور بمئات الألوف لحماية الحدود أو السخرة ، وأوكل للنساء حرث الأرض وحدهن أو القيام بأعمال النقل ، واعتبر الإمبراطور الثانى الشدة والقسوة إختبارًا جيدًا لولاء الموظفين ، وفى عهده حُكِمَ على أعداد كبيرة من الناس بالسخرة وعوقبوا بالتعذيب حتى الموت ، وكان المهرب الوحيد من ذلك الفرار إلى الجبال أو الغابات أو المستنقعات والعيش هناك كخارجين على القانون .

ثورة الفلاحين الأولى :

فى صيف عام ٢٠٩ ق.م أمر الإمبراطور الثانى بتجنيد المزيد من الرجال لحماية الحدود، وحدث أن تعرضت إحدى جماعات الفلاحين وكانت تتألف من حوالى ٩٠٠ رجل لأمطار غزيرة أعاقت مسيرتهم وجعلت تقدمهم أمرًا مستحيلاً ، وطبقًا للقانون فقد كان الإخفاق فى الوصول إلى المكان المحدد فى الموعد المحدد يعنى عقوبة الإعدام ، وهو ما دفع إثنين من هذه الجماعة وهما "تشين شنج و وو كوانج" إلى قتل الضابط المسئول



أول ثورة للفلاحين والتى أطاحت بأسرة التشين الحاكمة (٢٠٦ ق.م)،
لوحة زيتية معاصرة رسمها ليو تان تشاى

قبل أن يطالبا بقية رفاقهم بالثورة فاحتشد الفلاحون و بدأوا ثورتهم ، وانضمت إليهم عصابات ممن كانوا يعيشون كخارجين على القانون ، وتردد صدى دعوة المجند "تشين شنج" بعيداً وعلى نطاق واسع فى أرجاء الإمبراطورية، وكانت هذه أول ثورة من الثورات العظيمة المتلاحقة التى قام بها الفلاحون والتى ظلت سمة مميزة لتاريخ الصين حتى القرن العشرين . وعبر القرون لم يجد الفلاحون أمامهم من ملجأ للتخلص من معاناتهم سوى الثورة ، وكلما أطاحوا بأحد الملوك حل محله ملك جديد ، وبذلك لم يفلحوا فى تغيير نظامهم الإجتماعى .

وانضم الكونفوشيوسيون والموهيون الذين كانوا يبغضون دولة القانونيين، وكذلك السادة الإقطاعيين الذين نُزعت ملكياتهم إلى الثوار الذين انتخبوا تشين شنج ملكًا وشكلوا حكومة ، وأرسل تشين شنج قادته للهجوم فى جهات مختلفة ، فزحف أحدهم على العاصمة ضامًا إليه ثورات أصغر أثناء زحفه حتى حشد جيشًا ضخمًا من الفلاحين، وواصل زحفه حتى بلغ العاصمة، وقام أفراد العشائر الملكية السابقة المنافسة للتشين بتشكيل حكومات خاصة بها، ولم يكتفوا بمجرد رفض الإعتراف بـ "تشين شنج"

بل أنهم رفضوا أيضًا إمداده بالتعزيزات ، وفي غضون بضعة أشهر هُزم جيش الفلاحين وقتل "وو كوانج" على أيدي أتباعه وقام قائد عربة خائن بقتل "تشين شنج" .

واستمر الصراع بقيادة "ليو بانج" وكان موظفًا صغيراً من أصل ريفي، و "هسيانج يو" وكان من النبلاء. وقام ليو بانج باحتلال العاصمة هسينيانج وسقطت أسرة التشين الحاكمة في عام ٢٠٦ ق.م ، وتمكن "هسيانج يو" من إنزال الهزيمة بجيش التشين وتقاتل القائدان على عرش الإمبراطورية ، وقيل عن "هسيانج يو" الأرستقراطي أنه " ما كان يليق بامرئ كريم المحتد مثله ألا يقدر الإنسانية حق قدرها على هذا النحو ، فلم يكن يستمتع بأي شيء قدر استمتاعه بسلق أو حرق أسير من أسرى العدو حيًا ." وعلى الرغم من إحرازه الإنتصارات النصر تلو الآخر فقد تفككت جيوشه وتلاشت تماماً ، وعندما أدرك أخيراً أنه لا أمل في العودة انتحر .

ويعطينا "سسوما تشيين" وصفًا للصراع الأخير بين هسيانج يو و ليو بانج نقلاً عن شاهد عيان : " كان الوقت ليلاً عندما سمع هسيانج يو رجالاً يغنون من معسكر العدو أغنية شعبه، وانتابه قلق شديد وتساءل قائلاً : "هل انضم رجالي جميعا إلى ليو؟" ثم نهض وأمضى ليلته يحتسي الشراب في خيمته ، وكانت له زوجة جميلة تدعى "يو" وفرس رائع يدعى "دابل" كان يركبه دائمًا ، وراح يغني معبراً عن أحزانه قائلا :

لقد اقتلعت قوتي الجبال

وسادت قواتي العالم

لكن الحظ تخلى عني :

فلم يعد دابل قادراً على العدو .

واذا كان دابل لم يعد قادرًا على العدو ،

فماذا عساي أن أحقق ؟

يو ، يو ، ماذا سوف يكون مصيرك ؟

واشترك مع الملكة "يو" في غناء كثير من المقاطع الشعرية ... وكان الملك يبكي ولم يطق الخدم رفع أنظارهم والنظر إليهما ...

الفصل الخامس

الهان من ۲۰٦ ق . م - ۲۲۰م

الهان الأولى أو الغربية ، ۲۰٦ ق.م - ٢٤م :

لم يدم بقاء أسرة تشين الحاكمة سوى ٥٠ عاماً فقط لكن الإمبراطورية التي قامت بقيت .

وكان "ليو بانج" مؤسس أسرة هان الحاكمة الجديدة من أصل ريفي، وكان موظفاً حكومياً مسئولاً عن جماعة من المحكوم عليهم قبل قيام الثورة ، وحدث أن هرب المحكوم عليهم فصار عرضة لعقوبة الإعدام ، و ككثيرين غيره فر "ليو بانج" من الخدمة وأصبح زعيماً لإحدى جماعات الثوار، وحصل على أول لقب له كملك لـ "هان" عام ٢٠٦ ق.م ، وهو العام الذى استولى فيه على العاصمة وأنهى حكم أسرة تشين الحاكمة، ومنذ ذلك الوقت مال شعب الصين - عدا الأقليات القومية - لأن يطلق على نفسه شعب هان ، ورغم ذلك فلم يحدث إلا فى عام ٢٠٢ ق.م أن تغلب ليو بانج على خصمه وكان السبب في انتصاره يرجع إلي قسوة خصمه وكذلك سياساته التي كانت تحظى بشعبية وما كان يمتلكه من صلاحيات القيادة، واتخذ ليو بانج لقب الإمبراطور "كاو تسو" عندما بسط نفوذه على المملكة الوسطى بأسرها وأقام عاصمته في تشانجان بالقرب من العاصمة القديمة فى الغرب، ويقول فى أحد بياناته الأولى :

الأخوة المواطنون !

لقد عانيتم طويلاً فى ظل حكم التشين الإستبدادى ، وكانت الشكوى العلنية مجلبة لعقوبة الإعدام ، حتى كلمات الإعتراض العابرة كانت عقوبتها قطع الرأس .

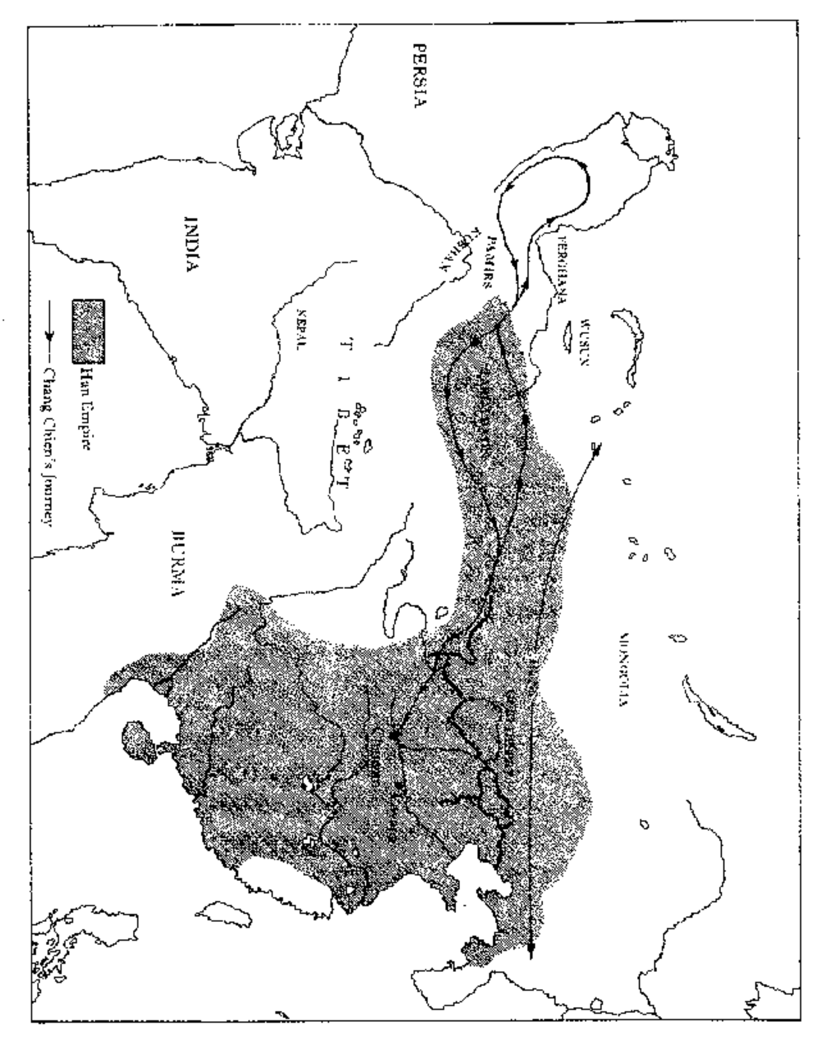
والآن فقد اتفقت أنا و غيرى من النبلاء على أن من دخل أرض الصين أولاً يجب أن يحكمها، ولذا فقد أتيت لأحكمكم ، وهأنذا أتفق معكم على ثلاثة قوانين ألا وهى :

الموت عقاباً لمن يَقتل.

والقصاص العادل عقاباً لمن يلحق أذى بأحد.

والقصاص العادل عقاباً لمن يسرق.

أما بقية القوانين المعمول بها في الصين فسوف يبطل العمل بها.



خريطة إمبراطورية الهان و رحلة تشانج تشيين

وسوف يواصل المسئولون والشعب القيام بواجباتهم المنوطة بكل منهم ، وبغيتي الوحيدة من المجيء إلى هنا هي القضاء على الظلم ، ولا أريد أن أبطش بأي واحد منكم ، فلا خوف .

وقد وصلت إلينا تفاصيل هذا العصر حية وكاملة عن طريق المؤرخين المعاصرين الذين كانوا يعملون بالبلاط أيضًا، فكان لديهم ميل للثناء والاستحسان في كتاباتهم عن هذه الأسرة الحاكمة ، ووفقًا لما ذكره سسوما تشيين – أشهر مؤرخي هان – فإن ليو بانج – رغم كونه موهوبًا – لم يكن بالرجل الجدير بالحب على الإطلاق ، فعندما أثقل خصمه "هسيانج يو" الضغط عليه في إحدى المرات فر "ليو بانج" في الظروف الآتي ذكرها :



ليو بانج – هان كاو تسو – أول أباطرة الهان (٢٠٢–١٩٤ ق.م). صورة معاصرة

حدث أن أحيط بملك هان (ليو بانج) من كل جانب؛ لكن عاصفة هبت اقتلعت الأشجار وأطاحت بالمنازل وأثارت سحبًا من الغبار و الرمال فأظلمت على أثرها السماء وكأن الوقت ليلاً في وضح النهار، و تمكن ليو بانج من الفرار تحت جنح هذا الظلام في حفنة من فرسانه ، و في الطريق قابل ولده و ابنته فأخذهما في عربته للفرار معه ، وعندما جد فرسان العدو في طلبهم ألقى بالأمير و الأميرة من عربته ، و قام أحد عماله و هو حاكم تنج باعادتهما إلى العربة ، و تكرر هذا المشهد ثلاث مرات حتى قال حاكم تنج " برغم أننا مطاردون عن كثب فنحن لا نستطيع أن نسرع أكثر من ذلك، فما جدوى التخلي عنهما ؟ " و هكذا تمكنوا جميعًا من الفرار .

وقد أبقى الامبراطور "هان كاو تسو" (٢٠٦ ق.م – ١٩٥ ق.م) على النظام السياسي المركزي للتشين عدا عدد من الممالك الإقطاعية التي أعيدت كمكافآت للقادة الذين أراد الإقرار بدعمهم و تأييدهم له ، ورغم ذلك فقد عمد الحكام اللاحقون إلى كبح نفوذ الممالك التابعة .

وفي النصف قرن الأول من حكم هان تم اتخاذ إجراءات فعالة لإصلاح الإقتصاد وتشجيع الزراعة و تقديم العون للفلاحين ، وكانت هناك حاجة ماسة وعاجلة الى مثل هذه الإجراءات نظرًا لما ذكره سسوما تشيين عن أنه :

عندما آل الأمر الى أسرة هان لم تنته شرور أسلافهم ، فظل الفلاحون يخرجون للحروب ، وكان الكبار والصغار يُستَخدَمون لنقل الطعام ، وكان الإنتاج شبه متوقف وندر المال ... حتى أن ابن السماء لم يكن لديه خيل ذات لون واحد كي تجر العربات ؛ و كان كبار الموظفين المدنيين والعسكريين يركبون عربات تجرها الثيران ؛ ولم يعرف الناس عامة سبيلاً للراحة .

وكان هناك تشجيعًا للجند على العودة للعمل بالزراعة ، وكان يتم إعفاء من يقم منهم بذلك من أعمال السخرة لمدد تتراوح من ٦ إلى ١٢ عامًا، و استرد أولئك الذين باعوا أنفسهم من قبل كعبيد بسبب فقرهم حريتهم ، و تم خفض ضرائب الأرض والرؤوس ، وتم إلغاء الكثير من القوانين و العقوبات الصارمة للتشين وتلى ذلك إنخفاض في معدل الجريمة، ولتشجيع الزيادة السكانية أصدر الإمبراطور "كاو تسو" مرسومًا ينص على إعفاء الأسر ذات الرضع حديثي الولادة من أعمال السخرة مدة عامين ، و لنفس السبب أصدر إمبراطور "هان" الذى خلف "كاو تسو" مرسومًا ينص

على قيام الأسر التى لديها بنات فوق سن ١٥ عامًا ولم يتزوجن بدفع ضريبة رأس إضافية .

ونتيجة لهذه الإجراءات بدأ التحسن فى أساليب الزراعة و التقدم فى وسائل التحكم فى الماء وبدأت الزراعة فى الإزدهار، وعندما بلغت الإمبراطورية الصينية أوج مجدها خلال حكم "وو تى" إمبراطور هان الخامس (١٤١ق.م - ٨٧ ق.م) تم القيام بتنفيذ برامج هامة لإنشاء القنوات حيث ربطت إحداها العاصمة تشانجان بالنهر الأصفر وسهلت بذلك نقل الحبوب الضريبية الى العاصمة ، واستغرق شق هذه القناة - التى أفادت فى الرى أيضًا - ثلاث سنوات، ويقال أنه عندما انهار سد النهر الأصفر فى عام ١٣٢ ق.م وفاض النهر على ضفافه خرج الإمبراطور شخصيًا للإشراف على بناء السد، وتم شق قناة فى إقليم شانسى لرى الأراضى التى غطتها الأملاح ، وتمت زراعة أراض جديدة ؛ و زاد إنتاج الحبوب والمنسوجات كما زاد عدد السكان ، وكتب سسوما تشيين عن هذا العصر قائلاً :

" كانت مخازن الغلال العامة عامرة و خزائن الحكومة ملأى" .

وخلال هذه الفترة من الإستقرار الاقتصادى حققت الإمبراطورية الصينية نموًا وتقدمًا عظيمين وراحت تنافس - فى تألقها و ازدهارها - الإمبراطورية الرومانية المعاصرة لها فى الغرب .

وفى الوقت الذى شجع فيه إمبراطور هان الأول الزراعة فقد حقّر من شأن التجارة شأنه فى ذلك شأن من سبقوه وحاول الحد من قيام التجار بجمع الثروات وعرضها، ويعلق سسوما تشيين على ذلك بقوله :

فى الوقت الذى أخذ فيه الإستقرار يعم أرجاء الإمبراطورية تدريجيًا أصدر جلالة الإمبراطور كاو تسو أوامره بألا يلبس أى تاجر الحرير أو يركب عربة ؛ فضلاً عن الزيادة الكبيرة فى الضرائب التى فرضت على هذه الطبقة بهدف إبقائهم أذلاء ، و بعد مرور بضع سنوات تم رفع هذه القيود ؛ و رغم ذلك ظل أحفاد التجار محرومين من شغل أية وظيفة حكومية .

وفى عهد الإمبراطور النشط "هان وو تى" شجعت الزيادة فى الإنتاج النشاط التجارى بشكل عظيم حتى أن المتداول من العملة أثبت عدم كفايته، و للتغلب على هذه

المشكلة تم منح حق سك العملات سرًا للأسر الثرية، و أدى هذا إلى كثير من المساوىء كانخفاض قيمة العملة ، وهو ما أدى إلى إرتفاع الأسعار إرتفاعًا شديدًا لما صاحبه من مضاربات التجار وخلق احتكارات، و خلال عهد "هان وو تي" تم تنفيذ عدد من التجارب المالية والاقتصادية لحل هذه المشكلات، و لكبح الاحتكارات الخاصة التى أوجدها المضاربون أنشأ "وو تي" احتكارات حكومية ، حيث تولت الحكومة النهوض بصناعات الملح و الحديد، وتم تأميم دكاكين الحدادة وأحواض الملح ، واستحدث الإمبراطور فى وقت لاحق منح رخصة رسمية لتجارة المشروبات الروحية .

وتم إنشاء جهاز نقل حكومى للتحكم فى توزيع الإنتاج، و قام الحرفيون الحكوميون بصناعة العربات، وتحكم الموظفون الحكوميون فى كافة الأراضى ونقل الماء، وقد جلبت هذه الإجراءات رسومًا مالية للخزانة وساعدت على منع التذبذبات الشديدة للأسعار من خلال الإفراج المفاجيء عن السلع و البضائع و طرحها فى الأسواق، وكان من بين الإجراءات الأخرى الرامية إلى تثبيت الأسعار "نظام المساواة": حيث كانت الحكومة تقوم بشراء كميات كبيرة من الغلال عندما كانت متوافرة ورخيصة الأثمان وتطرحها للبيع عندما كانت المؤن البديلة غير كافية و غالية الأثمان، وقد ساعد هذا أيضًا على الحفاظ على المؤن فى مخازن الغلال الحكومية لسد احتياجات الجيش ، وقام "وو تى" بجعل سك العملة خاضعًا للرقابة الحكومية وقام بأول تجربة لاستخدام النقود "الورقية"، و تم استخدام جلد غزال أبيض نادر لم يكن له وجود إلا فى أراضى الصيد الخاصة بالإمبراطور كعملة رمزية للفئة النقدية المرتفعة، وتم إصدارها للنبلاء الذين كانوا يأتون إلى البلاط و ذلك فى مقابل أربعمائة ألف قطعة نقد نحاسية ، و كان النبلاء مجبرين على تقديم فروض الطاعة عن طريق شراء واحدة من هذه "الأوراق النقدية البيضاء" و تقديم هداياهم للإمبراطور عليها .

وكان هذا الإجراء مرتبطًا بالتضخم لكن خزانة الإمبراطورية استفادت منه لبعض الوقت كاستفادتها من الرسوم التى كانت مفروضة بمعدل ١/٢٠ من الثروات الواسعة التى كان يتم جمعها عن طريق التجارة .

وطغت احتياجات الخزانة على البغض تجاه التجار الذين رُخِصَ لهم لأول مرة شراء الألقاب والحصول على الوظائف كمسئولين ، وغالبًا ما كان يتم بيع الرتب

– وهى ممارسة نافعة للخزانة – فى الفترة اللاحقة وصاحب ذلك إبتزاز للأثرياء عن طريق الحصول على هدايا عظيمة منهم .

وكان الحكم المركزى القوى – الذى يذكرنا بحكم تشين – سمة لحكم "وو تى" . وللحد من خطر نهوض الممالك العظيمة التابعة التى أوجدها إمبراطور "هان" الأول "كاو تسو" وخلفاؤه تقرر ألا تورث الأملاك لأكبر الأبناء سنا بل يتم تقسيمها بين جميع الأبناء، و تحكم "وو تى" فى أنشطة الممالك التابعة بتعيين مستشارين و مسئولين حكوميين كانوا في حقيقة الأمر أشبه بكلاب الحراسة للإقامة فى بلاط كل أمير من أمراء الممالك التابعة .

إحياء التعاليم الكونفوشيوسية :

على عكس ما شهده عهد التشين من إحراق الكتب وتقييد حرية النقاش والكلام والتعبير تزايدت المعارضة لدولة القانونيين ، وتم رفع الحظر على الكتابات الفلسفية والتاريخية فى القرن الأول من حكم الهان ، وأعيد جمع الأعمال الكلاسيكية ، وقام بعض العلماء القدامي بتصنيف النصوص التي كانوا قد حفظوها عن ظهر قلب في شبابهم ، وتقدم رجل طاعن فى السن يبلغ من العمر ٩٠ عامًا و استطاع تلاوة معظم كتاب الأغاني وكتاب التاريخ ، وأعيد نسخ الكتب التى كانت قد أخفيت بدلاً من احراقها بعد إخراجها من الفجوات التى وضعت بها في الجدران القديمة ، وعادت للأعمال الكلاسيكية مكانتها وهيبتها ونذر كثير من العلماء أنفسهم لمراجعة الأدب الكونفوشيوسى الكلاسيكى وشرحه ، وأخرجت شروح للكتب القديمة – وبعضها معروف لدينا – عن طريق علماء الهان وحدهم ، وبطبيعة الحال فقد قام هؤلاء بشرح الأدب من خلال الفكر الذى كان سائداً فى عصرهم .

وبدأت التعاليم الكونفوشيوسية تحل محل المذهب الفكرى القانوني وفى عهد الامبراطور "هان وو تى" حرم طلاب الفلسفة القانونية من شغل الوظائف الحكومية ، وتم إعلان التعاليم الكونفوشيوسية مذهبًا رسميًا .

حكم الأكفاء :

لم يُبد كاو تسو – الفلاح السابق – إمبراطور الهان الأول إحتراماً كبيراً للعلماء ، لكنه أقر بالحاجة إلى المتعلمين في الحكومة لكبح جماح الأرستقراطية الإقطاعية وأطلق نداءً يطلب فيه مساعدة الموهوبين ، وحذا خلفاؤه حذوه بمن فيهم "وو تي" الذي أصدر بيانًا قال فيه :

"إن العمل غير العادي يتطلب رجالاً غير عاديين ، وقد يصبح فرس يميل للفرار أو الرفس في نهاية الأمر واحداً من أكثر الحيوانات نفعاً وقيمة ، وقد يعيش الإنسان الذي يكون موضعاً لبغض العالم ومقته لإنجاز أعمال عظيمة ، وكما هو الحال مع الفرس الشموس يكون حال المرء المتيم ، فهي مجرد مسألة تدريب . ولذا فنحن نأمر مسئولي المناطق المختلفة بالبحث عن الموهوبين كي يكونوا قادتنا ووزراءنا و رسلنا إلى الولايات البعيدة" .

وقد وصلتنا رسالة رد من القرن الثاني قبل الميلاد أرسلها إلى الإمبراطور مهرج يدعى تانج فانج سو : " أبلغ من العمر الآن اثنان وعشرين عاما وطولي ٩ أقدام و ٣ بوصات وعيناى أشبه بلؤلؤتين معلقتين وأسناني أشبه بصف من الأصداف ، أنا شجاع كـ " منج فين " ويقظ كـ " تشين تشي " وطاهر الذيل كـ "باو شو" ومخلص كـ " وي شنج" ، و أعتبر نفسي لائقًا لأن أكون موظفًا كبيراً من موظفي الدولة ، وهأنذا أنتظر رد جلالتكم وحياتي بين يدي ." وأصبح هذا المهرج صديقًا ومستشاراً للإمبراطور وظل يتمتع بالحظوة لديه حتى وفاته، وحدث ذات مرة أن شرب بعضًا من إكسير الخلود المعد للإمبراطور الذي تملكه الغضب فأمر بإعدام تانج فانج فقال له المهرج ممازحًا " إذا كان الإكسير حقيقيًا فلن يلحق بي أي أذى ، وإذا لم يكن كذلك فما هو الأذى الذي تسببت فيه ؟ " وكان لهذا المزاح مخاطره ، وقد خضع " وو تي" – الذي كان قديراً ونافذ البصيرة في كثير من الأمور – لسلطان طالبي الإكسير من الطاويين عندما أصبح الأمر يتعلق بموته هو شخصيًا ، حتى أنه قام بتزويج كبرى بناته بساحر وعده بأن يأتيه بإكسير الخلود ، وعندما أخفق الرجل في الوفاء بوعده أمر "وو تي" بشق جسده نصفين عند الخصر" .

ومنذ عصر هان كاو تسو ظلت الإمبراطورية الصينية خاضعة لحكم جماعة من صفوة الموظفين - بشكل نظرى على الأقل - ولم يكن ذلك على أساس النسب أو الثروة أو بحد السيف ولكن على أساس الأهلية وتنفيذاً للوصية بـ "استخدام الأكفاء ، وترقية من هم أهل للترقية ، ولم يكن لمبدأ البحث هذا - قبل مجيء المسيح بمائة عام - عن الرجال ذوى الفضيلة والمقدرة لإدارة شئون الدولة ما يوازيه إلا فى انجلترا زمن كومنولث كرومويل فى القرن السابع عشر عندما كان البرلمان فى أيدى جماعة من صفوة القديسين " ، وطُلِبَ إلى الكنائس الطائفية فى كل بلد تقديم المرشحين المناسبين حيث كان كرومويل يقوم باختيار من يصلح منهم ، ولم يدم بقاء برلمان القديسين (المسمى بربونز على اسم زعيمه بربونز المسبح لله praise-God Barebones لأكثر من أربعة أشهر ، ودام النظام البيروقراطى الصينى على مدى ألف عام ، وفى عهد الهان أصبح هناك شكل دائم وثابت للبناء الإجتماعى للإمبراطورية الصينية .

الموظفون من العلماء :

لقد تحققت للإمبراطورية سلطة إستبدادية أكبرعن طريق ما كان يقوم به موظفو الدولة والبيروقراطيون من كبح وتقييد متعمد للأرستقراطية الإقطاعية ، وكان الموظفون مدينين بمكانتهم - بداية عن طريق التزكية ثم نظام الإمتحان فى وقت لاحق - للإمبراطور بشكل مباشر وليس للجماعة التى ينتمون إليها فى المجتمع .

وفى عهد "وو تى" أُنشِئَت جامعة إمبراطورية فى عام ١٢٤ ق.م لدراسة الأعمال الكلاسيكية الكونفوشيوسية ، وكان مقدراً لطلابها أن يعملوا فى خدمة الحكومة ، وكان خمسون من علماء هذه الجامعة يحظون بدعم الدولة ، وسرعان ما تزايد عدد الطلاب وبنهاية عهد الأسرة الحاكمة كان عدد الطلاب قد بلغ حوالى ٣٠ ألف طالب ، وتم قبول المبدأ القائل بأن مديرى الإمبراطورية وموظفى الدولة يجب ألا يكونوا فُضلاء فحسب، بل وأن يكونوا متعلمين أيضاً، وقام الإمبراطور بإدخال نظام الإمتحانات لاختيار ما يتمتع به موظفوه من دراية و إلمام تام بالأعمال الكلاسيكية الكونفوشيوسية .

وقد عملت المؤتمرات التى كانت تعقد تحت رعاية الإمبراطور على تعزيز إستقامة التعاليم الكونفوشيوسية لتحديد تفسير مقبول للأعمال الكلاسيكية ، ولذا أمرت الحكومة

بنقش النسخة المعتمدة من هذه الأعمال على ألواح حجرية كبيرة أقيمت فى العاصمة ، وعظم شأن أحفاد كونفوشيوس و أصدرت الأوامر بتقديم القرابين له فى كافة المدارس الحكومية، و منذ عهد الإمبراطور "هان وو تى" احتفظت الفلسفة الكونفوشيوسية بمكانتها كمذهب رسمى حتى القرن العشرين، وانتشر الفكر الكونفوشيوسى فى أنحاء الدولة مما ساعد على توحيد المجتمع الصينى ، وأصبح وجود طبقة من صفوة البيروقراطيين الذين تعلموا الأعمال الكلاسيكية الكونفوشيوسية سمة سائدة للبناء الإجتماعى الصينى ، و شكلَّ البيروقراطيون الفئة الحاكمة ، المتعلمة ، التى تتمتع بالإمتيازات والمقام الرفيع ؛ وفيما عداهم كانوا المحكومين ، الكادحين ، الأميين ، والمحرومين من الإمتيازات .

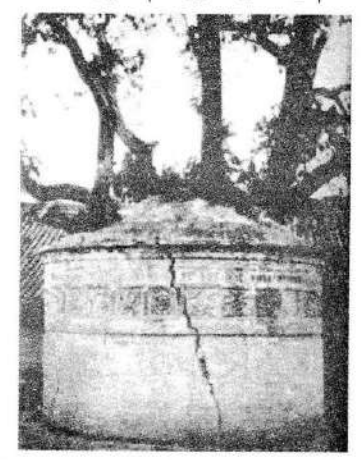
التقدم الثقافى :

لقد كانت التطورات الثقافية فى الصين فى عصر الهان ذات أهمية عظيمة ، حيث شرع الصينيون فى العصور الأولى فى الكتابة بالفرشاة بدلاً من الأدوات المدببة التى كانت تستخدم فى النقش على قشر الخيزران الأملس، وحل الحبر محل خليط غبار الأجر و الماء ، و فى مطلع عصر الهان بدأ الناس فى استخدام الحرير والقنب لإنتاج أداة من أدوات الكتابة كالورق، وفى وقت لاحق أصبح الورق يصنع من لحاء الأشجار والقنب والأسمال البالية و شباك الصيد القديمة ، و أدى إنتاج الورق من الخامات الرخيصة إلى الإستغناء عن القطع الخشبية و قطع نبات الخيزران الثقيلة المرهقة التى كانت تستخدم من قبل لتدوين الكتب ؛ كما تم الحد من استخدام الحرير كقاعدة للكتابة، وفى القرون التالية أدخل الورق فى عدد من البلدان الأجنبية ككوريا و اليابان والهند والجزيرة العربية لكن المعرفة بصناعة الورق إستغرق إنتشارها من الصين عبر آسيا الوسطى إلى أوروبا أكثر من ألف عام .

وشجعت هذه التطورات على نشر الكتب و أصبح قوام الأدب الكلاسيكى الصينى و تاريخ الصين يسير وفقًا لمعايير موحدة بشكل كامل، وبدلاً من التقاليد المحلية للولايات أو الأقاليم العديدة تأصلت ثقافة مشتركة وضربت بجذورها العميقة فى كافة أنحاء الصين، وبرغم التمزق السياسى و فترات الإنقسام الطويلة التى أعقبته لم يحدث أبدًا أن انهارت الوحدة الثقافية للصين .

سسوما تشيين والمؤلفات التاريخية :

لم يقتصر ما أنتجه عصر الهان على النصوص النهائية للأعمال الكلاسيكية فحسب بل أخرج أيضا أول المعاجم وأول تاريخ عام للصين، وقد عاش "سسوما تشيين" (١٤٥ - ٨٦ ق.م) فى عهد الإمبراطور "هان وو تى"، وآل اليه منصب والده كمسجل ومنجم البلاط ، وأرسله والده فى شبابه فى رحلة طويلة لتوسيع آفاق ثقافته فزار منزل كونفوشيوس و درس تصميم العجلات الحربية والأزياء و المراكب الخاصة بالطقوس التى كانت تستخدم فى عصر كونفوشيوس الحكيم ، وعلى ضفاف نهر "ميلو" راح يفكر مليًا فى مصير "تشو يوان" ، وزار القرى التى كان يقطنها رفاق إمبراطور الهان "كاو تسو"، وحصل على الكثير من الروايات المستقاة من مصادرها الأصلية حول الأحداث التى أدت إلى قيام أسرة هان الحاكمة ، وباعتباره واحداً من موظفى "وو تى" فقد رافقه فى كثير من أسفاره حيث راح يدون ملاحظاته بشأن جغرافية وعادات و تاريخ الأماكن المختلفة، وزار الشيوخ والعلماء المحليين، كما أتاح له منصبه إستخدام المكتبة الإمبراطورية التى كانت تضم كتب الخيزران، وعكف على كتابة التاريخ الكامل للصين، واستغرق تدوين رائعته "سجلات المؤرخ العظيم" عشرة أعوام، وهو عمل مفعم بالحياة يشع بنور العلم و المعرفة ويضم كثيراً من الشهادات التاريخية المأخوذة من مصادرها الأصلية .



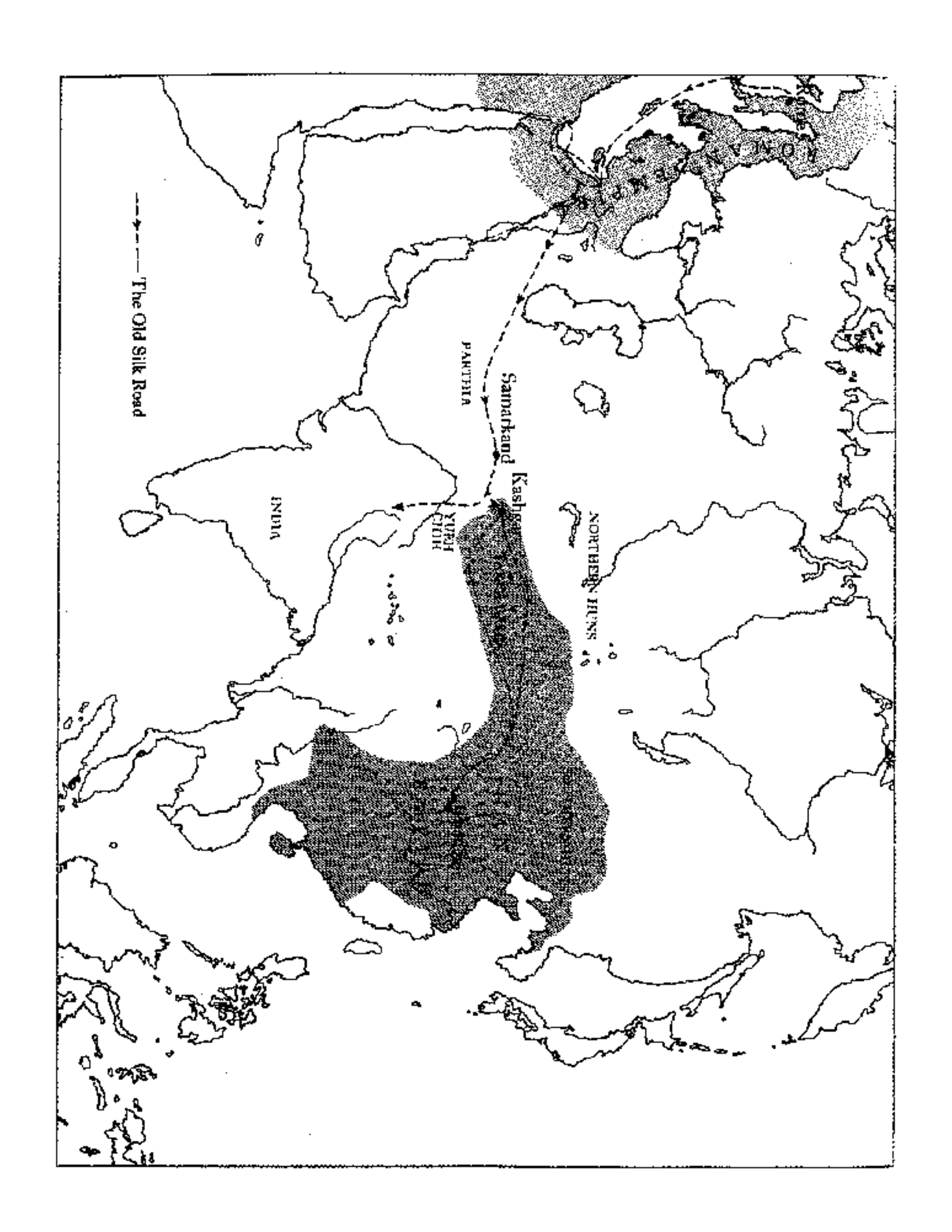


فى اليسار : سسوما تشيين ١٤٥ - ٨٦ ق.م ، المؤرخ العظيم ، وتؤرخ " شيه تشى " أو السجلات التاريخية التى دونها لقرابة ٣٠٠٠ عام من عصور الأباطرة الأسطوريين حتى عصره .
فى اليمين : قبر سسوما تشيين المؤرخ العظيم فى إقليم شنسى ، وقد كتب سسوما تشيين إلى أحد أصدقائه بعد فقدانه الحظوة لدى الإمبراطور قائلا له " لا أبغى سوى البراءة بعد موتى" .

وكان سسوما تشيين رجلاً شجاعاً ذو إيمان راسخ و كذلك عالم عظيم ، وتم وضع العقبات في طريق عمله وتعرض للخطر عندما جلب على نفسه غضب الإمبراطور بدفاعه عن صنيع أحد القادة ، وكان هذا القائد قد تمركز في الأقاليم الحدودية واستسلم لقبائل البدو بعد أن واجه ظروفًا بالغة الغرابة في انتظار التعزيزات التي لم تصله أبدًا ، وتمسك سسوما تشيين بوجهة نظره في مواجهة الرأي العام الذي ساد البلاط ، وأمر الإمبراطور الغاضب بالتنكيل بـ "سسوما تشيين" وإلقائه في السجن ، وأطلق سراحه بعد مرور ثلاثة أعوام عندما صدر عفو عام ، وقد خصص ثلاثون مجلداً من هذا العمل للروايات التاريخية حول أسر الأمراء الإقطاعيين وسبعون مجلدًا لحياة الأشخاص البارزين ، ولم تتعد الأعمال التاريخية السابقة كـ "حوليات الربيع والخريف" كونها مجرد تاريخ للبلاط فحسب ، وقد سارت المؤلفات التاريخية اللاحقة على النهج الذي وضعه هذا المؤرخ العظيم .

وبعد وفاة "سسوما تشيين" حذت أسرة "بان Pan" حذوه في تسجيل التاريخ حيث قامت بتدوين الأحداث التاريخية خلال الفترة المتأخرة من عصر الهان ، وبدأ "بان بياو" الأب في تحديث ما سجله سسوما تشيين من أحداث تاريخية ، وواصل إبنه "بان كو" عمله عقب وفاته وأتمت إبنته "بان تشاو" العمل وكانت أول وأشهر عالمة في تاريخ الصين ، وقصرت أسرة "بان" عملها على الأسرة الحاكمة السابقة وهي أسرة الهان الأولى ، وكان هذا أول تاريخ مفرد لأسرة حاكمة يتم تسجيله في الصين ، وبعد ذلك كان يجري تسجيل تاريخ كل أسرة حاكمة من قبل مؤرخيها الرسميين .

وكانت "بان تشاو" إمرأة بارزة ، وككثير من نساء عصرها تزوجت في سن صغيرة حيث كان عمرها ١٤ عامًا عندما تزوجت ، وواصلت الكتابة بعد أن انتهت من التاريخ و أنتجت رسائل وقصائد ، وعندما تجاوز سنها الخمسين ألفّت كتابًا عن تعليم النساء ، وأوصت النساء في دروسها بالتحلي بالفضائل الأنثوية المعروفة في عصرها : "دعوا المرأة تأوي إلى الفراش في وقت متأخر على أن تستيقظ مبكرًا للقيام بواجباتها ، ولا تدعوها ترهب المهام الموكلة إليها نهارًا أو ليلاً ، دعوا المرأة كي تستقيم في سلوكياتها وشخصيتها وتخدم زوجها ، دعوها تعيش في طهارة ونقاء وهدوء ، لا تدعوها تحب القيل والقال والضحك الساذج ، دعوها تنظف وتطهر وتعد الطعام والشراب للقرابين التي تقدم للأجداد ...".



خريطة طريق الحرير القديم ، إمبراطورية الهان و الإمبراطورية الرومانية



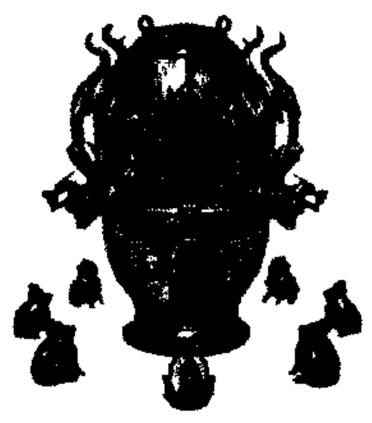
معلمة فى البلاط ، من لفيفة من الرق لرســم لـ "كو كاى تشى" (٣٤٥ - ٤٠٦ م) أول الرسامين الصينيين العظماء ، ويمضى النقش فيقول : " هكذا رأت المعلمة المكلفة بواجب النصح أنه من المناسب التحدث إلى سيدات الحريم .
وهذا الرق واحد من أنفس لفائف الرق فى مجموعة المتحف البريطانى

لكنها أضافت حجة لتقديم التعليم للنساء قائلة : " ألا يعني اقتصار التعليم على الرجال دون النساء إهمال وإغفال العلاقة الجوهرية بينهم ؟ وطبقًا لـ " لشعائر" فالقاعدة هي البدء بتعليم الأطفال القراءة في سن ٨ أعوام وفي سن ١٥ عامًا ينبغي لهم أن يكونوا على استعداد لتلقى التدريب الثقافي ، فلم لا يتبع تعليم البنات وكذلك الأولاد هذا المبدأ ؟ "

ويبدو أن بان تشاو لم تكن المرأة الوحيدة في عصرها التى كانت تنشد التعليم ، فقد كانت الإمبراطورة "تنج" معاصرة لها . وعندما كانت الإمبراطورة طفلة لُقِبَتْ عائلتها على بلقب عــائلة "الطالبة" . وتَذكر الحوليات أنها تمكنت من قراءة كتاب في التاريخ في سن السادسة ، وتلاوة كتاب الأغانى والمختارات الأدبية في سن الثانية عشر، وانحصر اهتمامها في الكتب والسجلات القديمة ولم تعر الواجبات المنزلية أى اهتمام أبدًا ، وغالبًا ما كانت والدتها توبخها قائلة لها : " أنت لا تتعلمين شغل الإبرة حتى تستطيعين صنع الثياب ، وبدلاً من ذلك تعلقين آمالك على الدراسة ، فهل يصح أن أربيك حتى تحصلين على الدكتوراه ؟ " لكن الأميرة المولعة بالدراسة كانت فتاة صغيرة طيبة القلب تحترم كبار السن وتعرف قدرهم حق المعرفة ، وتتذكر الحوليات أنها عندما كانت في سن الخامسة قامت جدتها بقص شعر الطفلة ، وكانت جدتها إمرأة مسنة تعانى ضعفًا بالبصر وجرحت جبهة الأميرة التي تلقت الطعنة دون أن تنطق بكلمة واحدة ، وشرحت الطفلة ما حدث فيما بعد قائلة : "لم يكن السبب في لزومي الصمت أن ما حدث لم يكن مؤلمًا ، لكن جدتى كانت تحب قص شعرى ، ومن الصعب أن تجرح شعور شخص مسن، ولذا تحملت الألم " .

وكان هناك تسجيل نظامى للمعارف الطبية والرياضية و غيرها من المعارف في عصر الهان ، وألف الطبيب "تشانج تشي" رسالة عن الحميات أصبحت إحدى الأعمال الكلاسيكية من مجموع المؤلفات الطبية الصينية ، وفي نفس الوقت تقريبا قام جراح يدعى "هوا" بتطوير استخدام المخدرات التي يطلق عليها ma fei san ، وعندما كان المريض يصبح ثملاً بفعل الخمر كان يفقد الوعي ، وكان يمكن ساعتها إجراء العمليات الجراحية دون ألم ، كما كــان أول من استخــدم تمرينات انتصاب القــامة المعــروفة بـ " مسرحية الحيوانات الخمسة " والتى كانت تتألف من تقليد حركات النمر والغزالة

والدب والقرد والطائر ، ومازال كثير من الناس يؤدون هذه التمرينات بانتظام فى الصين حتى اليوم ، وقد تم تحقيق تقدم علمى وتقنى عظيم ، وقام "تشانج هنج" الفلكى والرياضى والشاعر بصناعة ذات الحلق (آلة فلكية قديمة) التى كانت توضح حركات النجوم ، وابتكر مرسمة زلازل (مرجفة) وهى آلة توضح منطقة وقوع الزلزال .

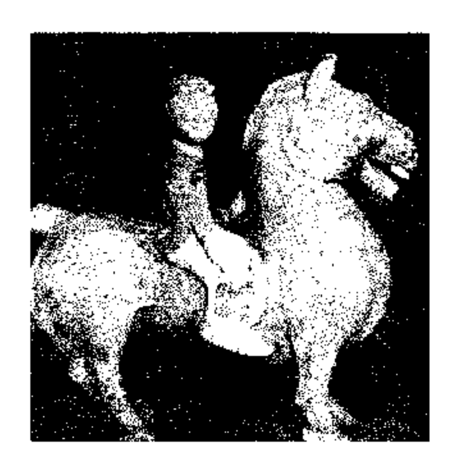


مرجفة تشانج هنج (بعد إعادة تركيبها) وكل من الأتنة الثمانية على هذه المزهرية البرونزية يحمل كرة فى فمه .

ويتسبب وقوع زلزال عند أية نقطة فى البوصلة فى جعل التنين يتجه إلى ذلك الإتجاه ليلفظ كرته داخل الفم المفتوح للضفدع بأسفل .

وكان تشانج هنج (٧٨ – ١٣٩ م) فلكيًا يعمل بالبلاط ، وقد عارض الفكرة السائدة آنذاك عن أن الأرض مستوية وتغطيها قبة السماء ، واعتقد بأن الأرض تقع فى مركز الكون ومعلقة فيه كصفار بيضة .

وقد بدأ فى هذا الوقت إنتاج الخزف الصينى الفاخر الذى حاز الإعجاب فى سائر بلدان العالم ، واختفت غالبية مدن الهان التى أُستخدم الخشب فى تشييدها على نطاق واسع ، لكن التماثيل الخزفية الصغيرة التى تم اكتشافها بين الأطلال وفى مقابر الهان تعكس ما تحقق فى هذا العصر من إنجازات ، وقد مهدت عادة الشانج دفن موتاهم ومتعلقاتهم معهم لراحتهم فى العالم الآخر الطريق للعادة الأكثر إقتصاداً لدفن النسخ الفخارية للأشياء التى كانت تبهجهم على الأرض ، وقد أتت مقابر الهان التى تم اكتشافها بأدوات جنائزية لا حصر لها تتيح لنا رؤية عميقة لحياة الأثرياء ، وتشمل النماذج الطينية للمنازل والخيام الكبيرة والمزارع و المواقد والكلاب الأليفة



رجل يركب جواد ، تمثال فخارى من عصر الهان، وقد عثر على الأشكال الخارجية للقبور التى عادة ما كانت تصنع من الفخار أو الخشب أو الحجر أو المعدن بأعداد كبيرة فى قبور الهان ، وقد دفنت مجسمات للخدم و الراقصين و الموسيقيين والحيوانات المنزلية و كذلك البيوت والأجران و الخيام مع الموتى حتى يتسنى للروح التمتع بوسائل الراحة المعروفة فى الحياة .

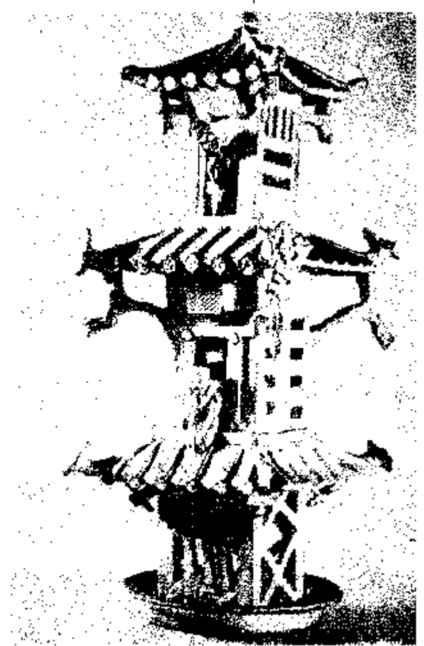
والراقصين والخادمات و الموسيقيين وكذلك المنقولات الشخصية كالأطباق والأوانى والصينيات والحلى و الجواهر والأحزمة وعلب أدوات الزينة ودبابيس الشعر والمرايا ، وكذلك فرش الكتابة والقبعات والأحذية والملابس الحريرية والصوفية .

وكانت قلاع الهان الممتدة عبر آسيا أشبه بأكوام من النفاية، حفظ الجو الصحراوى الجاف محتوياتها التى اشتملت على البيانات الخاصة بالأسلحة والأوامر العسكرية وغيرها من القصاصات المكتوبة والكثير من أدوات الحياة اليومية ، وكانت هذه القلاع أثرًا باقيًا وشاهداً على توسع الإمبراطورية الصينية خاصة فى عهد الإمبراطور المولع بالحرب والقتال "هان وو تى" الذى إعتلى العرش عندما كان فى السادسة عشر من عمره ودام حكمه أكثر من نصف قرن (١٤١ – ٨٧ ق.م) .

وكان من بين التطورات الهامة فى هذه الفترة هــزيمة قبائل هسيونج نو (الهون) و التوغل فى آسيا الوسطى و فتح طريق القوافل المعروف بطريق الحرير القديم إلى الغرب .

الهان والبدو الهون :

ظلت المملكة الوسطى منذ العصور الأولى عرضة لهجمات جيرانها الشماليين من المجتمعات القبلية البدوية التى كانت تعيش فى السهب، والذين مكنتهم قدرتهم على التنقل كرماة ركبان يستخدمون الأقواس الإرتدادية القوية من التفوق على العجلات الحربية و المشاة من جند الصين، وعندما كانت المملكة الوسطى فى طريقها لأن تصبح إمبراطورية فى ظل حكم التشين كانت تجرى عملية توحيد فى منغوليا، وتم تشكيل إتحاد فيدرالى قبلى من الهسيونج نو (الهون)، وكانوا أقوى القبائل البدوية التى إمتد نفوذها من منشوريا الغربية عبر منغوليا إلى أقصى الغرب وصولاً إلى جبال البامير، وقيل أن إمبراطور الهون كان لديه ما يربو على ربع مليون من الرماة الفرسان تحت إمرته فى ذلك الوقت وكانوا يغيرون على المناطق الحدودية و ينهبونها خاصة فى الأوقات التى كانوا يعانون فيها نقصاً فى الأراضى التى ترعى فيها ماشيتهم أو عندما كانت المملكة الوسطى تواجه ظروفاً صعبة ؛ و كان الثوار الصينيون يميلون فى ذلك الوقت للإنضمام إلى البدو حاملين معهم المعلومات المفيدة ، وقد حد السور العظيم



خيمة المتعة . شكل القبر الخارجى الفخارى من عصر الهان

من تهديد الشمال لكنه لم يقض عليه ، والواقع أنه كانت هناك إشارة الى أن وظيفة السور هى احتواء العناصر المنشقة داخل الإمبراطورية الصينية ومن ثم إعاقة تقدم البدو .

ووجد إمبراطور الهان الأول كاو تسو (٢٠٦-١٩٥ ق.م) نفسه عرضة لضغوط شديدة من قبل الهسيونج نو خلال صراعاته الأولى نظراً لتدفق حشودهم جنوب السور حيث استقروا فى منطقة أوردوس شمال تشانجان، وحدث أن قاد كاو تسو هجوماً عسكرياً ذات مرة ، وتظاهر الإمبراطور البدوى بالإنكسار وقام بسحب قبائله ، ووقع كاو تسو فى الشرك و راح يطاردهم فى عدد قليل من رجاله، فكانت النتيجة أن وقع فى الأسر، و هكذا ربما يكون ليو بانج قد انسل من صفحات التاريخ فى صمت، ورغم ذلك فقد تحول الإمبراطور الفلاح إلى أحد رجال الحاشية فى الأسر بعد أن ترك إنطباعًا عظيمًا لدى الزوجة الأولى لحاكم الهون التى بدت سريعة التأثر بالهدايا الصينية الفخمة ، وفى مقابل ذلك أخذت تحيك الخرافات عن زوجها ، وتم السماح لـ "كاو تسو" وحاشيته بالهرب والعودة إلى الصين .



طبال .شكل القبر الخارجى الخزفى من عصر الهان الشرقية

وفي ظل تحوله من استخدام الوسائل العسكرية إلى استخدام الوسائل الزواجية حاول الإمبراطور "كاو تسو" آنذاك إستمالة الهون بعرض تزويج أميرة صينية من إمبراطورهم ، وأصبحت هذه التحالفات عن طريق الزواج جزءًا عاديًا ومألوفًا من السياسات الصينية – البربرية بدرجات متفاوتة للنجاح ، وقد اعتزم "كاو تسو" في هذه المرة إرسال إبنته عروسًا لكن زوجته الإمبراطورة "لو" وكانت إمرأة حازمة شهدت معه أوقاتًا عصيبة كفتاة ريفية عارضت ذلك بشدة ، واستقبل "ماو تن" حاكم الهون واحدة من أجمل السيدات من حريم الإمبراطورية الصينية ، ومن المحتمل أن "ماو تن" لم يلحظ أى فرق .

وتوفى "كاو تسو" في عام ١٩٥ ق.م تاركًا شئون الدولة فى أيدى الإمبراطورة "لو" التى حكمت مدة خمسة عشر عامًا كحاكم قدير لكنه قاس ، (وكدأبها مع جميع الحكام من النساء تسجل الحوليات عنها عددًا من أعمال الخسة و النذالة) ، ويقولون أنها أمسكت بمحبوبة زوجها بعد وفاته فأمرت بقطع يديها و قدميها و فقأ عينيها و قتلها بالسم وإلقائها في حفرة .

ويقال أيضًا أن "ماو تن" بعث برسالة إلى أرملة إمبراطور الصين إعترف لها فيها أنه وحيد و ألمح إلى مزايا تحالف زيجى بينهما ، وعبرت له الإمبراطورة "لو" عن إمتنانها لما أولاه إياها من شرف إهتمامه بها لكنها أوضحت له كيف أن سنها وحالتها البدنية جعلاها غير أهل لأن تكون موضعًا لحبه ومودته قائلة له " لقد قصر نفسي وأخذ شعر رأسي وأسناني في التساقط وتعثرت مشيتى لكنى أمتلك عربتين امبراطوريتين ومجموعتين من الخيل سوف أرسلها إليك عساك أن تداوم على ركوبهما " .

وإضافة إلى تقديم الأميرات الصينيات للزواج مصحوبات بمهور سخية تضمنت سياسة الإسترضاء التي أرسى دعائمها الهان إرسال الهدايا من الحبوب و الحرير والخمور وغيرها مما لذ وطاب سنويًا إلى أقارب الهون من العائلة المالكة، ورغم ذلك لم يتورع البدو فى المقابل عن شن هجمات متكررة على أقربائهم حتى أنهم جاءوا يعدون بخيلهم عبر حقول القمح على مرأى من العاصمة الصينية .

وبقيت رسالة لبقة وجهها الإمبراطور "ون تي" (إبن كاو تسو) إلى زعيم الهون (يدعوه فيها بالقائد) يشكو إليه ما كان من خرق لما تقتضيه علاقات الود والسلام :

" إننا نثق – عن تقدير واحترام – في أن القائد العظيم حسن النية ، وقد تسلمنا – بكل تقدير واحترام – الجوادين اللذين أرسلهما القائد العظيم إلينا" .

وقد تبنى الإمبراطور الأول لهذه الأسرة الحاكمة سياسة تقوم على ما يلي : كل ما يقع شمال السور الطويل وما به من أمم القوس والسهم يخضع للقائد العظيم ، وكل ما يقع داخل حدود السور الطويل وأعني بذلك أسر القبعة والنطاق يخضع لآل هان ، وهكذا فسوف يتسنى لكلا الشعبين ممارسة المهن الخاصة بهما : فلدينا مهنتا الزراعة وصناعة القماش ، ولديكم الرماية والصيد للحصول على الطعام والثياب ، ولن يعانى الأب والإبن الفرقة ، وسوف يستريح السيد والتابع في أمن وسلام ، ولن يلحق أي جانب منهما الأذى بالآخر... والهان والهون أمتان حدوديتان ، ونظراً لأن مناخكم الشمالي يغلب عليه البرد القارس فنحن نرسل إليكم هدايا عظيمة من الطعام والثياب وغيرها من الأشياء النافعة سنوياً ، وها هي الإمبراطورية تنعم بالسلام وها هو الشعب ينعم بالرخاء الآن، إننا– نحن وأنتم – لأولئك الناس بمنزلة الأب والأم ، ويجب ألا نقطع علاقات الود الأخوي لأتفه الأسباب كخطأ إرتكبه أحد المبعوثين ، وكما يقال فالسماء لا تخص أحداً بالغطاء ، والأرض هي مقر البشر جميعًا ... فدعونا الآن ننسى مشكلات الماضي في رغبة صادقة لتوطيد عرى صداقة دائمة حتى يعيش شعبنا كأبناء أسرة واحدة وتمتد بركات السلام والمنعة من الشر إلى الأسماك في البحر والطير المحلق في الهواء وجميع الزواحف ... وعندما يعم السلام من جديد فثق أن الهان لن يكونوا البادئين بنقض العهد" .

وتقلب الهان بين سياسة الإسترضاء التي كانوا يتبعونها مع الهون بين فترات الهجوم العسكري وسياسة الأحلاف مع القبائل البربرية الأخرى ضد الهون الأعداء ، وبدلاً من القيام بحملات عسكرية مكلفة عادة ما كانت غير حاسمة نظراً لقدرة العدو الفائقة على التحرك والتنقل فضل الصينيون كسب خدمات القبائل – التي كانت تتعرض هي الأخرى لغارات الهون المتكررة – لمهاجمة العدو المشترك والإطباق عليه من الجانبين ،

وقد أتاحت هذه التسوية تزويد البرابرة بالوسائل الشرعية لتأمين المنتجات التي كانوا يريدونها من الصينيين دون اللجوء لشن الغارات ، وبدلاً من ذلك أخذ البرابرة يرسلون "السفارات" إلى العاصمة الصينية حاملة الهدايا كالخيل والتبر التى كان الصينيون يطلقون عليها مصطلح " الجزية " من الناحية الدبلوماسية ، وفى المقابل كان المبعوثون يتلقون آلاف اللفائف الحريرية وغيرها من الهدايا القيمة ، وفى الوقت المناسب بدأ الصينيون ينظرون إلى نظام الجزية هذا على أنه رمز للعبودية والتبعية ، وطبقًا لهذا النظام أقر البرابرة - شاكرين - بولائهم لسيدهم إبن السماء .

وشعر الإمبراطور "هان وو تي" بأنه من القوة بما يكفى لأن يشن هجومًا عسكريًا شاملاً على الهون وبعد وقت قصير من اعتلائه العرش أعد العدة للهجوم ، وأرسل الحملات الواحدة تلو الأخرى حتى بلغ قوام هذه الحملات عشرات الآلاف من الفرسان الذين تساندهم قوات المشاة وقوافل التموين ، لكن الصحارى الشمالية وقوات العدو قضت على أعداد هائلة منهم ، وقرر "وو تي" البحث عن حلفاء له بين القبائل البدوية الأخرى في أراضى السهل الشمالى .

تشانج تشيين :

كتب سسوما تشيين يقول : " قام ابن السماء فى ذلك الوقت بإجراء تحقيقات بين أولئك الهون الذين استسلموا، وذكروا جميعًا أن الهون تغلبوا على ملك اليويه تشيه وجعلوا من جمجمته وعاءً يحتسون فيه الشراب، وفر اليويه تشيه على أثر ذلك ، ومن خلال ما حدث توصل ابن السماء إلى أن اليويه تشيه كانوا حلفاء واعدين لمؤازرته فى هجومه على الهون ، وأجبر "اليويه تشيه" على الرحيل غربًا باتجاه آسيا الوسطى ، وطلب "هان وو تى" من المتطوعين البحث عن اليويه تشيه فى قلب آسيا وضمان التحالف معهم ضد العدو المشترك ، وقد تطوع تشانج تشيين ، وكان ضابطًا قوى البنيان شهمًا وموضع ثقة وذو شعبية لدى القبائل الأجنبية فى الجنوب والغرب للخروج على رأس حاشية من مائة رجل والإنطلاق بهم عبر الصحارى وسلاسل الجبال إلى المناطق المجهولة فى الغرب (١٣٨ - ١٢٦ ق.م) .

وما إن وصل تشانج تشيين إلى الحدود حتى وقع في أسر الهون، وظل أسيراً مدة عشرة أعوام وبعدها تم تخفيف الحراسة التي كانت مفروضة عليه فتمكن من الهرب مع بعض أتباعه وزوجة الهون التي واسته في أسره .

وواصل مهمته حتى لحق في نهاية الأمر باليويه تشيه الذين رحلوا إلى منطقة باكتريا جنوب نهر أوكسس (وقاموا فيما بعد بغزو أفغانستان وتأسيس أسرة كوشان الحاكمة) ، وأقام معهم مدة عام ووجد أنهم غير راغبين في الإنضمام إلى صفوف الهون ثانية .

وعاد الرحالة العنيد أدراجه إلى الصين ليقع في أسر الهون ثانية ، وبعد مضي عام تمكن من الهرب مستغلاً الخلافات التي نشبت بين أسريه ، وعاد إلى الصين وفي معيته أحد الناجين من عصبته الأصلية وزوجته من الهون .

وقد غمر الإمبراطور "وو تي" المبعوث المثابر بمظاهر الحفاوة والتكريم ومنحه لقب ماركيز، وقد عاد تشانج تشيين بمعلومات شاملة عن الأراضي الواقعة إلى الغرب والثروات التي يمكن تحقيقها عن طريق التجارة مع بلاد مثل الهند وفارس وما وراءهما ، والحقيقة أنه "اكتشف" أوروبا للصين قبل ألف عام أو نحو ذلك من اكتشاف أوروبا للصين ؛ كما أنه عاد بعدد مختلف من النباتات و المنتجات الطبيعية ، وكانت رواياته عن كوكاند في أرض الخير الوفير "بفيرغانا" – ذلك الوادي التابع لواحة في آسيا الوسطى الشهير بخيله الأصيل – ذات جاذبية خاصة حيث يقول :

يقع وادي فيرغانا جنوب غرب موطن الهون وغرب الصين تماماً ، وكان أهله سكانه الدائمين وكانوا يشتغلون بالزراعة فكانوا يزرعون الأرز و القمح في حقولهم ، وكان لديهم خمر مصنوع من العنب وكثير من الجياد الأصيلة ، و كانت الجياد تكدح كدحًا عظيماً كما لو كانت منحدرة من سلالة الجياد السماوية .

وكانت لديهم مدن و منازل ذات أسوار ، وكانت أسلحتهم تتألف من الأقواس والرماح وفؤوس الحرب ، وكانوا يرمون السهام من فوق صهوات الجياد .

ولم تكن الصين بلداً تربي فيه الجياد وبطبيعة الحال فقد كان لدى ابن السماء ميل شديد للحصول على مورد للمطايا السماوية ، وأرسل "هان وو تي" عدداً من

البعثات للحصول عليها ، ولم تكن البعثات الأولى ناجحة حيث تعرض الكثير منها للهجوم و هو فى طريقه ، وفشل فى بلوغ غايته ؛ وقوبل طلب بعضها الآخر بالرفض واضطر ابن السماء لإرسال قوات شديدة البأس لدعم مطالبه ، وفى نهاية الأمر حلت الهزيمة بـ " فيرغانا " (فى عام ١٠١ ق.م) .

وقاد تشانج تشيين بنفسه حملة ضد الهون منيت بالهزيمة فحكم عليه بالموت جزاء هزيمته ، وتمكن من افتداء نفسه لكنه فقد جميع ألقابه و مراتب شرفه .

وجدد "وو تى" مساعيه لإيجاد حلفاء فى الغرب و عهد مرة أخرى لـ " تشانج تشيين " ببعثة إلى شعب أخر فى آسيا الوسطى و هو شعب "وو صن "و ذلك لعرض التحالف ضد الهون ، ونجح فى مهمته وعاد ومعه بعض مبعوثى "وو صن" وعدد من الجياد الأصيلة هدية للإمبراطور، وطلبًا للأحلاف لم يدخر الإمبراطور وسعًا إلى حد التضحية الشخصية ، فقد قام بإرسال إحدى السيدات من الحريم الإمبراطورى كى تكون عروسًا لـ " كون مو" ملك الوو صن ، ولسوء الحظ كان "كون مو" خرفًا وطاعنًا فى السن تمامًا ، و كان يرى زوجته الجديدة مرة أو مرتين فى العام عندما يحتسيان كأسًا من الخمر سويًا ، ولم تكن بينهما لغة مشتركة فلم يتمكنا من مجرد الحوار، ودخلت أحزان السيدة المهجورة البائسة – التى عبرت عن نفسها شعرًا – الأدب الشعبى للإمبراطورية الصينية حيث تقول :

لقد زوجنى أبناء بلدى

فى ركن قصى من الأرض

وأرسلونى إلى أرض غريبة

إلى ملك الوو صن

خيمة هو بيتى

ومن اللباد هى أسوار بيتى

واللحم النيئ طعامى

ولبن الفرس شرابى

أفكر دائمًا فى بلدى

وقلبى حزين بداخلي

لو أننى كنت طائر لقلق أصفر اللون

لطرت إلى موطنى القديم !

وأخيرًا تنازل "كون مو" العاجز عن السيدة لحفيده ووريثه ، وارتاعت الأميرة لهذا التحول في شئونها و أرسلت رسولاً طالبة النصح من ابن السماء ، وأمرها "وو تى" بالتغلب على حيرتها ووساوسها لمصلحة السياسات الإمبراطورية، وأهمية وجود تحالف إذا ما وقعت الحرب ضد الهون ، وامتثلت الأميرة حتى وافتها المنية و هى تضع طفلها الأول ، و أثبتت أميرة بديلة كانت أقل تأثرًا ووسوسة أنها أكثر مرونة ، وتزوجت ملك "وو صن" الحاكم و العديد من خلفائه، وعاشت حتي سن يانعة بعد أن أنجبت العديد من الأولاد .

إمبراطورية الهان وطريق الحرير القديم :

حتى هذا العصر لم يكن هناك أى اتصال بين الصين والأقاليم الغربية ، وشكلت آسيا الوسطي و شرق آسيا بما فيهما الهند وفارس عالمين منفصلين ، و قد قام الإمبراطور "وو تى" بارسال عدة بعثات إلى الغرب سنويًا بعد بعثة "تشانج تشيين" بهدف تطوير نواحي التبادل الثقافى وكذلك العديد من الحملات العسكرية التي أدت إلى توسع الإمبراطورية الصينية غربًا عبر حوض "التاريم" لتضم جزءًا عظيمًا من آسيا الوسطى إلى أراضيها ، وكان فتح فيرغانا إيذانًا ببسط السيادة الصينية على العديد من دول الواحات عبر آسيا العليا، وتم افتتاح طريق إلى الغرب – طريق الحرير القديم ، وأدخل العنب و البرسيم إلى الصين وتدفق الحرير الصينى عبر بارثيا و آسيا الصغرى إلى أوروبا، وكان الطريق يمر عبر سلسلة من الواحات التى تحف التلال السفحية لحوض التاريم، وتدفقت من هذه التلال الجداول التى كانت تروى الواحات قبل

أن تتلاشى في رمال الصحراء، وإمتدت الطرق إلى جبال الباميـر حيث تلاقت عند الواحات كسمرقند على الطريق إلى بارثيا و البحر الأبيض المتوسط، و كانت هناك سلسلة من المواقع العسكرية التي كان يقوم عليها السجناء و المنفيون للدفاع عن هذا الطريق الممتد إلى الغرب ، و بذل "وو تي" جهوداً شاقة ومضنية لاستعمار المنطقة الواقعة في شمال منحنى النهر الأصفر، و تم إرسال مئات الآلاف من المهاجرين إلى كانسو لشق القنوات و الري و تربية الماشية و جعل المنطقة آهلة بالسكان ، وكذلك حراسة المواقع الأمامية الرئيسية للواحة ، وتم مد السور العظيم غرباً إلى اليمن حيث بوابة "الجيد" .

وبعد افتتاح طريق الحرير كانت هناك إشارات في الأدب الغربي إلى الصين والمنتجات الصينية، و أخيراً وصل الحرير الصيني إلى الإمبراطورية الرومانية حيث كان موضع تقدير عظيم جداً لدى السيدات الرومانيات حتى قيل أن الطلب عليه قد تسبب في استنزاف الذهب والفضة من خزانة الإمبراطورية الرومانية ، وعلاوة على ذلك فقد بدأت الصين في إرسال سفراء إلى أقاصي الأرض وصولاً إلى فارس ، وتشير السجلات التاريخية الصينية إلى أن فارس كانت أمة عظيمة وكان شعبها يكتب على الرق بأحرف تمتد عبر الصفحات : "فكانوا يرسمون صفوفًا من الأحرف التي تمتد جانبيا على جلد خشن كي تكون بمثابة سجلات." (فالصينيون يكتبون من أعلى لأسفل) ، وروى سسوما تشيين أنه" تم إرسال المزيد من السفارات إلى بارثيا و سوريا وكالديا والهند، ونظراً لولع ابن السماء الشديد بخيل فيرغانا إنطلق السفراء الواحد منهم تلو الآخر على طول الطريق ... حتى بلغ عدد هذه البعثات عشر بعثات في العام الواحد... وكان أولئك الذين يتم إرسالهم إلى البلدان النائية يعودون إلى الوطن بعد ثمان أو تسع سنوات" .

ومن بين الأشياء الأخرى ما ذكر عن أن البارثيين كان لديهم نعام في أرضهم ، والواقع أن أول سفارة لـ "وو تي" عادت بهدية كانت عبارة عن بيضة نعامة من ملك الفرس و عدد من السحرة ، وغالبًا ماكان الإمبراطور يقوم في ذلك الوقت (كما يذكر المؤرخ) بجولات تفتيشية إلى شاطىء البحر، حيث كان يصحبه عادة أعداد من الضيوف الأجانب الذين كان يغدق عليهم العطايا كي يترك في أنفسهم أثرًا عميقًا تجاه ثروات الصين ، وفي هذه المناسبات كان أداء المصارعين والممثلين الصامتين

يجذب حشوداً من المشاهدين، وكان الهدف من جميع هذه العروض الرائعة والولائم العامرة بما لذ وطاب من الطعام والشراب جعل الضيوف الأجانب يدركون عظمة الصين المذهلة ، وكان يصرح لهم بتفقد العديد من مخازن الغلال والمستودعات والكنوز بهدف إظهار عظمة الصين وإرهابهم ، وتم العمل على تنمية مهارات أولئك المشعوذين والمصارعين والممثلين الصامتين وغيرهم من المؤدين بصورة أكبر فى وقت لاحـق ، وكذلك رفع كفاءتهم عامًا بعد عام ، ومنذ ذلك العصر تزايد قدوم سفراء البلدان الأجنبية الواقعة فى الشمال الغربى ورحيلهم بشكل متكرر أكثر فأكثر ، واتفقت البلدان الواقعة فى غرب فيرغانا على أنها بعيدة كل البعد عن الصين فأصرت - فى هدوء - على التمسك بكبريائها الوطنى فلم يتسن إخضاعها .

وبرغم هذا " الكبرياء الوطنى " والصحارى المجدبة فى آسيا العليا كانت رقعة إمبراطورية الهان قد اتسعت بحلول القرن الأول قبل الميلاد بشكل يفوق الإمبراطورية الرومانية المعاصرة لها ، وعمل الحرير الصينى على الحد من وجود أهل الذمة فى المملكة الوسطى والبرابرة عبر القارة الأوراسية، وشقت قطع من حرير الهان طريقها عبر العالم المعروف، وتم الحصول على عينات منه من آسيا الوسطى والإمبراطورية الرومانية وسيبيريا ، وعلى الرغم من أن الصين بدأت فى الحصول على وسائل الترف والرفاهية كالأحجار الكريمة والعطور والعاج والجياد من البرابرة الخارجيين ، فقد كانت حاجة البرابرة إلى الحرير أكبر من حاجة الصينيين إلى منتجات البرابرة عدا الجياد ، وكان الحرير - الذى كان موضع تقدير عظيم فى الخارج - ضمن مواد المقايضة فى الصين ، ويذكر التاريخ أن الحرير كان يستخدم فى عصر الهان لدفع رواتب الجند ، وعندما قام الامبراطور "وو تى" بتفقد الجند على طول السور قام - طبقا لرواية سسوما تشيين - بتوزيع مليون لفة حرير كعطية سخية .

ولم تقم قوافل الجمال الكبيرة على طريق الحرير القديم برحلة عبر القارة الأوراسية كاملة ، وتم حمل البضائع من محطة إلى أخرى بواسطة القوافل المختلفة ، وقامت مراكز التسوق المزدهرة على طول الطريق فى المحطات والواحات المختلفة حيث كانت القوافل تتوقف ، وتم الإبقاء على الطريق مفتوحًا وآمنًا نسبيًا من التعرض للهجوم، ليس فقط عن طريق سلسلة غابات الهان التى امتدت إلى خارج المملكة الوسطى ولكن عن طريق الضربات التى كان الهان يوجهونها إلى الهون أيضاً.

ونجحت ثلاث حملات كبيرة وجهها "وو تي" ضد الهون في طردهم خارج دولة "أوردوس" وأجبروهم على العودة إلى ما وراء السور وصحراء جوبي ، وتواصلت الحروب في عهود حكام الهان اللاحقين وأجبر البدو على اتخاذ الموقف الدفاعي بعد أن أضعفتهم حالة الحرب، وكذلك ما كانوا يتعرضون له من كوارث طبيعية ، وراحت أعداد كبيرة من الناس ضحية للعواصف الثلجية الشتوية الشديدة ؛ وأدت سلسلة من مواسم الجفاف وأسراب الجراد إلى نقص الحياة النباتية في مناطق شاسعة ، وهلك البدو وماشيتهم ، و ارتفع عدد ضحايا النزاعات الداخلية و أخيراً انقسم "الهسيونج نو" إلى فريقين : الهون الشماليين و الهون الجنوبيين، وخضع الهون الجنوبيون لـ " هان " عام ٥١ ق م ، و حضر الحاكم بنفسه إلى تشانجان كي يقدم فروض الطاعة و الولاء لعرش التنين ، وواصل الهون الشماليون من أراضي مراعيهم على الهضبة المنغولية إعاقة الإتصالات مع الغرب ، و هزمهم جيش هان عدة مرات فنزحوا تدريجياً إلى الشمال الغربي ، وعندما رحل الهون ظهرت قبائل بدوية أخرى و احتلت المراعي الخاوية ، وبدأ الهون الشماليون في الهجرة إلى الغرب حتى استقر بهم المقام في نهاية الأمر في أراضي المرعى بوسط أوروبا، و أصبح هؤلاء البرابرة الدخلاء وبالاً على الإمبراطورية الرومانية وليس الإمبراطورية الصينية ،ولم ينهب أحفادهم تشانجان بل نهبوا روما .

وقد توسعت إمبراطورية هان شرقًا وجنوبًا وكذلك عبر قلب آسيا ، وفي عهد إمبراطور تشين الأول أرسلت حملة عبر البحر الشرقي إلى اليابان للإتصال بالكائنات السماوية التي كان يفترض أنها تسكن جزر المحيط الهادىء وأرسل "هان وو تي" حملة عسكرية شرقًا و بسط سيادة "هان" حتى كوريا الشمالية و جنوب "منشوريا" ، ومن كوريا وصل التأثير الصيني خاصة الحضاري إلى اليابان ، وكان هناك إتصال مباشر مع اليابان في القرن الأول الميلادي .

وسرعان ما انضوت الدول الضعيفة في الجنوب تحت لواء ابن السماء المولع بالحرب، وانتشر سكان هان جنوبا ؛ وتم إخضاع كوانجسي و شمال فيتنام للسيادة الصينية .

ومن خلال اتصالها مع جنوب شرق آسيا دخل الشاي إلى الصين كشراب طبي بادىء الأمر لكنه أصبح شرابًا عامًا فيما بعد ، وغالبًا ما كان يتم غليه مع الأرز أو ملح

الزنجبيل أو مع البصل أو قشر البرتقال أو اللبن ، ثم تطورت عادة شرب الشاى تلقائياً حيث اكتسبت طابعاً طقسياً فى المملكة الوسطى و فى أماكن أخرى .

ولوحظ وجود إتصالات من الغرب في أواخر عهد هان ، وتم إفتتاح الطريق البحرى (المعروف بطريق البهار) بين الصين والغرب الرومانى ، وسجل التاريخ أن جماعة من التجار وصلوا إلى الحدود الجنوبية للإمبراطورية الصينية من تونجكنج فى عام ١٦٦م ؛ وزعموا أنهم مبعوثين من "أن تن" إمبراطور "تا تشين" (روما) - وبصيغة أخرى زعموا أنهم مبعوثين من قبل "مارك أنتونى" .

وفى عهد "وو تى" تضاعف حجم الإمبراطورية الصينية بمقدار ثلاثة أضعاف ، ولم يتسن للرخاء الناهض - الذى مكن حكام هان الأولين من تخفيف بعض الاجراءات الأكثر صرامة التى كانت تفرضها إمبراطورية تشين - أن يدوم ويتواصل أمام متطلبات عهد "وو تى" ، حيث استنزفت الحروب الطويلة خاصة ضد "الهسيونج نو" خزانة الإمبراطورية وتركت مخازن الغلال خاوية ، وكان الفلاحون يجبرون على الإنضمام إلى الجيوش بأعداد هائلة، فكانت النتيجة ترك مساحات شاسعة من الأرض دون زراعة ، وفى أوقات الجفاف والفيضان كان الفلاحون يموتون جوعًا ، وتسجل أغانى ذلك العصر بؤس و شقاء أولئك الذين كانوا يُحملون من قراهم للقتال فى الشمال :

كانوا يقاتلون جنوب المتاريس

ويموتون شمال السور

كانوا يموتون فى المستنقعات و لا يدفنون

وكانت لحومهم طعامًا للغربان ...

إننى أذكركم أيها الجنود الأوفياء

وأعمالكم لن يطويها النسيان .

لأنكم خرجتم للقتال فى الصباح

ولم تعودوا فى المساء .

وقد لخص سسوما تشيين ما كان يجرى فى ذلك العصر قائلاً :

" لا شيء فى الواقع سوى الحروب و شائعات الحروب من يوم لآخر " .

"وأخيراً و فى ظل قوانين الضرائب بدأ الأثرياء فى استخدام ثرواتهم للأغراض الدنيئة من ازدراء الضعفاء والتعالى عليهم واضطهادهم ، وتلقى أفراد الأسرة الإمبراطورية المنح من الأراضى فى حين كان الناس على اختلاف طبقاتهم ينافس كل واحد منهم جاره فى انفاق المال بغير حساب على البيوت و الأثاث و الكساء بما لا يتناسب مع موارده المالية على الإطلاق ، وهكذا يكون القانون الدائم لعاقبة الرخاء والإنحلال .

وأعقب ذلك استعدادات عسكرية واسعة النطاق فى أنحاء الإمبراطورية ... وتم شق الطرق خلال الجبال لمسافة عدة أميال بغرض إقامة طريق تجارى مع برابرة الجنوب الغربى ، وكان الهدف من ذلك اتاحة موارد تلك المناطق النائية ؛ لكن النتيجة كانت إغراق السكان فى دمار وخراب لا خلاص منهما ، و بعد ذلك جاء إخضاع كوريا مجدداً وجعلها تابعة للإمبراطورية ؛ وكانت هناك قلاقل أخرى أقرب إلى الوطن، و خرق الهون المعاهدة وانقضوا على حدودنا الشمالية و ألحقوا ضرراً عظيماً بالإمبراطورية ، ولم يكن هناك أى شيء فى الواقع سوى الحروب وشائعات الحروب من يوم لآخر .

وفى هذه الأثناء تم فرض بعض الضرائب للوفاء بضروريات الإنفاق العام ؛ ونظراً لأن جميع المسئولين - من الإمبراطور إلى من دونه - كانوا يعتبرون ضريبة الأرض والإيرادات الجمركية رواتبهم الشخصية ، ولم تكن مثل هذه الإيرادات تدرج ضمن النفقات العادية للإمبراطورية ، وكانت الغلال تنقل بحراً إلى العاصمة كى يستفيد منها المسئولون هناك ، وتم حشد القوات على الحدود الشمالية ضد الهون ؛ و ندرت الأقوات إلى حد إضطرت معه السلطات إلى منح أولئك الذين كانوا يقدمون كميات مقررة من الغلال مراتب و ألقاب شرف معينة ، وعندما حل الجفاف و القحط فى الغرب فى وقت لاحق عادت الرتبة الرسمية لتصبح سلعة تباع و تشترى فى الوقت الذى تم السماح فيه لمن كانوا يخرقون القوانين بتخفيف عقوباتهم بدفع مبالغ مقررة من المال " ...

وبنهاية القرن الأول قبل الميلاد كان عدد الفلاحين الذين استولى أصحاب الأراضي على أراضيهم قد ارتفع بشدة، وكانت قطع الأراضي المملوكة للأفراد صغيرة للغاية بحيث تعذر عليهم إنتاج ما يكفي للوفاء باحتياجاتهم والإدخار لأوقات الكوارث الطبيعية ، وكانوا يقترضون الأموال للوفاء بمطالب القائمين على جباية الضرائب، وذلك بمعدلات فائدة باهظة غالبًا ما كانت تتجاوز الـ ٢٠ بالمائة ، واضطر الفلاح – للوفاء بديونه – إلى بيع أرضه لصاحب الأرض ، الذي كان متلهفًا بالمقابل لتوسيع أملاكه، وكثيراً ما كان أبناء الفلاحين يباعون ليصبحوا عبيداً وقينات أوخصيان في بيوت الأثرياء بالمدينة ، وبعد ذلك أصبح الفلاح الذي ليس لديه أرض عاملاً أجيراً في ضيعة صاحب الأرض أو مستأجراً يدفع نصف ما تخرجه الأرض كإيجار؛ و اتجه بعض الفلاحين إلى البرية حيث عاشوا كخارجين على القانون .

وقام المسئولون الذين غالبًا ما كانوا هم أنفسهم أصحاب الأراضي أو على علاقة بأصحاب الأراضي بإعفاء ضياعهم من الضرائب ، وأعطتهم مرتبتهم الحق في التمتع بامتيازات أخرى كالأحكام المخففة للجرائم ، وألقى المسئولون الذين كانوا يقومون على جباية الضرائب العبء شيئًا فشيئًا من فوق كواهلهم على عاتق أولئك الفلاحين "الطلقاء" – الذين كانوا لا يزالون مدرجين في سجلات الضرائب – خارج الضياع الكبيرة، وتكررت مشكلة تراكم الأراضي في أيدي طبقة محدودة من أصحاب الأراضي في كل أسرة حاكمة ، و كان يتم أحيانًا وضع الإجراءات المؤدية إلى تحسن وقتي لكنه لم يحدث أبداً أن قامت أية أسرة من الأسر الحاكمة بوضع حل طويل الأجل لهذه المشكلة .

وفي الوقت الذي أصبح فيه حال الفلاح في عهد "هان" لا يطاق أكثر فأكثر أصبحت حياة أصحاب الامتيازات عبءً على المجتمع بشكل سافر، وقد وصف العالم "تشونج تشانج تونج" مثل هذه الحياة في سيرته الذاتية قائلاً :

"فليكن المكان الذي يعيش فيه المرء به حقول خصبة ومنزل كبير يقوم فوق ربوة ويشرف على أحد الأنهار وتحيط به القنوات وأحواض الخيزران ، ويمتد أمامه البيدر وحديقة الخضروات و خلفه يزرع بستان من أشجار الفاكهة ، وهناك ما يكفي من العربات والمراكب التي تجنب المرء عناء المشي أو التجوال ؛ وهناك ما يكفي من الخدم

حتى لا يتجشم المرء عناء القيام بالأعمال الحقيرة ، وهناك ما لذ و طاب من الطعام والشراب كي يطعم المرء أسرته ، والزوجة والأولاد ليسوا في حاجة إلى حمل عبء القيام بأي عمل شاق" .

وقد اندلعت سلسلة من الثورات الكبيرة في السنوات الأخيرة من عهد "وو تي" بين أوساط الفلاحين وأوساط العبيد .

وانج مانج :

لقد أمكن تجنب النزاعات الطائفية في أرجاء البلاد في مطلع عهد "هان" عن طريق وضع ضوابط لنفوذ الأمراء الإقطاعيين ، ورغم ذلك فقد تزايدت الإنقسامات فيما بعد داخل البلاط نفسه حول عشيرة قرينة الإمبراطور، وعلى سبيل المثال ففي عام ٨ م قام ابن أخ الإمبراطورة آنذاك بالإطاحة بأحد خلفاء "وو تي" ، واتخذ ابن الأخ هذا وكان يدعى "وانج مانج" لقب الإمبراطور ، واشتهر بالإصلاحات التي حاول إدخالها لمجابهة الأزمات الزراعية والمالية ، وأعاد العمل بـ " نظام المساواة " الذي كانت الحكومة تقوم بمقتضاه بشراء الحبوب وتخزينها عندما تكون الأسعار منخفضة وتطرح المخزون في الأسواق عندما ترتفع الأسعار ، كما أعاد إنشاء الإحتكارات الحكومية ، وحاول علاج النقص في إيرادات الدولة عن طريق سحب العملة الذهبية المتداولة مقابل العملات النحاسية .

وكان يجري فرض الضرائب على الحقول غير المزروعة وحاول إعادة توزيع الممتلكات الواسعة بين الفلاحين عن طريق الاستيلاء على الأرض وإعادة توزيعها بين الفلاحين المدرجين بسجلات الضرائب ، وأصدر مرسوماً يقضي بإنهاء العبودية الخاصة ؛ ولكنه نظراً لعدم امكانية تنفيذ ذلك فقد فرض ضريبة باهظة على ملاك العبيد .

وقد لقيت هذه الإجراءات مقاومة من جانب أصحاب الأراضي الأثرياء ، ولم يجد "وانج مانج" سبيلاً لفرضها بالقوة ، وكان الموظفون الكبار الذين التحقوا بالعمل الحكومي نظراً لتعليمهم أقرباء الأسر الثرية من أصحاب الأراضي التي كانت وحدها القادرة على تحمل نفقات التعليم ، وقد مكنهم هذا الإحتكار للتعليم من الإحتفاظ

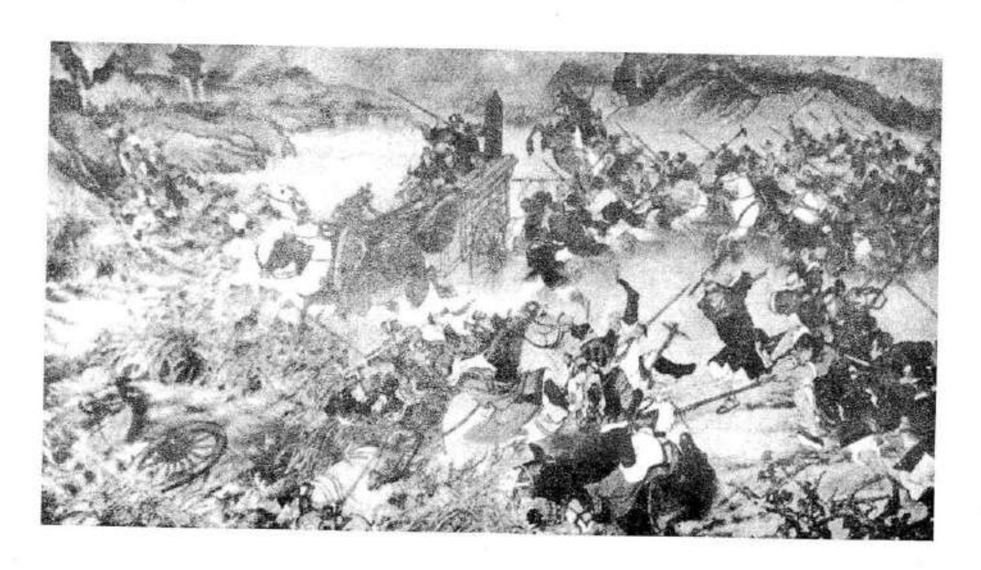
بالنفوذ السياسى لأجيال عدة ، وكانوا أكثر ميلاً لزيادة الضرائب المفروضة على الفلاحين من إشراك الأسر التى ينتمون إليها فى تقديم القرابين ، كما أتاحت الإصلاحات المالية الفرص للمسئولين لإثراء أنفسهم – على حساب نجاح الإصلاحات .

وأدت الكوارث الطبيعية إلى تفاقم المحنة العامة ، وكانت هناك تصدعات فى سدود النهر الأصفر ؛ وحل الدمار والخراب بمناطق واسعة قرب العاصمة .

ثورتا الحواجب الحمراء وسكان الغابات الخضر :

لقد كانت الجمعيات السرية التى نشأت تعبيراً مميزاً عن كرب الفلاحين ومعاناتهم ، وتلت ذلك سلسلة جديدة من الثورات .

وكان الثوار فى إقليم هوبى يُعرفون بسكان الغابات الخضر نسبة إلى الغابات التى لجأ إليها الفلاحون ؛ و فى شانتونج اندلعت ثورة الحواجب الحمراء نظراً للعلامة المميزة التى اتخذوها لأنفسهم ، وكان رجال هذه الجمعيات تربط بينهم صلات قرابة طاوية قوية ؛ وكانوا يعيشون حياة بسيطة منضبطة .



ثورة الحواجب الحمراء ٢٤م : رسم حديث لـ " ليو لينج تسانج "

وهُزم جيش وانج مانج و سقطت العاصمة تشانجان في أيدى الثوار، وقتل وانج مانج ، وكان بين القوات الثائرة عدداً من أصحاب الأراضي والنبلاء بمن فيهم "كوانج وو" وهو أحد أحفاد بيت هان الإمبراطوري الذى حول الثورة لصالحه حيث أقام حكم هان مجدداً في عام ٢٥م واتخذ من لويانج عاصمة له ، ودام حكم هان قرنين آخرين من الزمان .

هان المتأخرة أو الشرقية من عام ٢٥-٢٢٠ م :

تمكن "هان كوانج وو" من إخماد ثورة الحواجب الحمراء والثورات الأخرى ، وأعاد الإدارة المركزية القوية ، وتم القضاء على الكثير من كبار أصحاب الأراضي خلال القتال ؛ وتم إدراج المزيد من الفلاحين في سجلات الضرائب ومن ثم تحسنت عائدات الضرائب للدولة .

وعاد البدو الشماليون لاستغلال الصراع الدائر داخل المملكة الوسطى في الإغارة على الأراضي الحدودية، وقطع الاتصالات مع آسيا الوسطى وطريق الحرير القديم ، وعلى الرغم من أن القسم الجنوبي من الهون كان قد عقد صلحاً مع ابن السماء فقد تواصل القتال مع الآخرين طوال القرن الأول من عهد هان المتأخر، وأعاد القائد بان شاو (شقيق المؤرخة التي سبق ذكرها) فتح آسيا الوسطى وقام على أثر ذلك بقيادة جيشه عبر جبال البامير لفتح المنطقة كاملة وصولاً إلى بحر كاسبيان Caspian ، وفي هذه المرحلة من التاريخ قامت بارثيا فحسب بفصل المواقع الأمامية لإمبراطورية هان والإمبراطورية الرومانية عن بعضها البعض ، ودام الحكم الصيني لهذه المنطقة حتى منتصف القرن الثاني الميلادى حيث كان عهد هان المتأخر في انحطاط .

واتخذ الإمبراطور "كوانج وو" – الذى أقام أسرة هان الحاكمة من جديد– إجراءات مثلما فعل "كاو تسو" لزيادة الإنتاج وتخفيف معاناة الفلاح، وعاد الجند إلى مواطنهم للمساعدة في أعمال الزراعة ، وتم الحد من مطالب فرض الضرائب والسخرة ؛ وتم القيام بمشروعات التحكم في الماء ، كما ساعد استخدام الآلات الحديدية المطورة في زراعة الأرض على زيادة الإنتاج ، وأعقب ذلك قرن من السلام النسبي، ورغم ذلك واجه أباطرة هان المتأخرين نفس المشكلات التي واجهها أسلافهم، ولم يكن نجاحهم في علاجها على المدى الطويل بأكبر من نجاح أسلافهم .



راقص : تمثال جنائزى فخارى من مطلع عصر الهان

وزاد نفوذ كبار أصحاب الأراضى ؛ والواقع أن "كوانج وو" تمكن من اعتلاء العرش بفضل تأييدهم له ، وكانوا أول المستفيدين من الزيادة فى الإنتاج الزراعى والنمو السكانى وتحويل الأراضى ذات الأشجار الخفيضة إلى أراض صالحة للزراعة ، وفى الوقت الذى كانوا يدفعون فيه للحكومة حوالى ١/٣٠ مما تخرجه أراضيهم كضريبة ، فقد كانوا يطالبون مستأجريهم بدفع نصف المحصول كإيجار، وعلاوة على ذلك فقد كان الكثيرون منهم يستغلون مناصبهم الرسمية فى الحصول على إعفاء كامل من الضرائب .

وعاد الفلاحون الفقراء للدخول فى خدمة كبار أصحاب الأراضى كعبيد للأرض أو الانضمام إلى جيوش أصحاب الأراضى الذين كانوا يشيدون لأنفسهم قصوراً منيعة أو يلوذون بالفرار وينضمون إلى جماعات الثوار .

وبدأت الأسرة الحاكمة تواجه خطراً مزدوجًا تمثل في تهديد الأسر القوية ذات النفوذ – بما لديها من جيوش وحصون وأملاك – للعرش من ناحية وثورة جماعات الفلاحين من ناحية أخرى .

وفي البلاط كان الصراع الطائفي قد احتدم في تلك الأثناء حيث أشعل جذوته ما حدث في القرن الثاني الميلادي من اعتلاء كثير من الخلفاء القُصَّر عرش التنين .

الإنقسامات داخل البلاط :

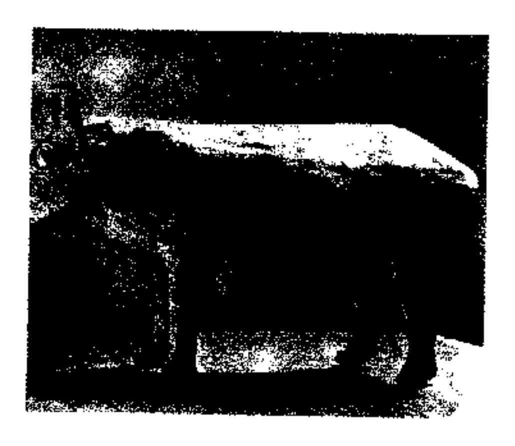
لقد اتخذ ابن السماء كثيراً من الزوجات لكن والدة الوريث المنتخب عادة ما كان يتم قبولها كإمبراطورة وكانت أسرة الزوجة تتصارع على مناصب السلطة وعادة ما كانت تحصل عليها، وعندما توفي "كاو تسو" أول أباطرة هان تاركًا العرش لطفل أصبحت الإمبراطورة "لو" الأرملة وصية على العرش ؛ ويبدو أنها كانت ترمي إلى اغتصاب العرش لأحد أبناء عشيرتها ، وعندما توفيت وقعت مذبحة راح ضحيتها جميع أفراد عشيرتها .

وقام امبراطور الهان " وو تي " بمحاولة شاقة لحل هذه المشكلة عن طريق القضاء على جميع أقارب المرأة التي تودي بابنها وريثًا شرعيًا للعرش .

وحدث في القرن الثاني الميلادي أن قبضت أسرة الإمبراطورة ليانج على زمام الحكم ، حيث بلغ عددهم سبعة أمراء وثلاث إمبراطورات وست محظيات إمبراطوريات وثلاثة من كبار القادة للجيش ، وتم تعيين سبعة وخمسون من أفراد العشيرة الآخرين وزراء للدولة .

وتفاقمت مشكلة أقارب الإمبراطورات بتدخل خصيان البلاط الذين كانوا يقومون على حراسة حريم الإمبراطور ، وكان هؤلاء الوحيدين الذين كانت الإمبراطورات وأولاد الإمبراطور على اتصال بهم وكان لهم نفوذًا عظيمًا ، وعادة ما كان الخصيان رجالاً من أصل وضيع ولم يكن لديهم ما يعتمدون عليه في ترقيهم سوى الحيل والمكائد ؛ ووجدوا لأنفسهم كثيراً من المتسع في أنحاء عرش التنين ، وكثيراً ما كانت تسند إليهم المناصب العليا ويمنحون الأملاك الشاسعة ، وقد شكل هؤلاء المدعون قليلو التعليم

تهديداً على سلطة مسئولى البلاط وأصبح الفريقان خصمين لدودين ، ويحوى تاريخ الأسر الحاكمة الكثير من السجلات التى تتناول الأعمال الشائنة وجشع خصيان البلاط ؛ ورغم ذلك فقد جرى تدوين هذا التاريخ من قبل المسئولين من العلماء الذين كانوا ألد أعدائهم .



عصر الهان : جاموس ، ويبدو أنه منحوت بسكين على كتلة من الطين

وشكل المسئولون من العلماء والطلاب إتحاداً للدفاع عن مصالحهم ، وفى إحدى المراحل ألقى القبض على ما يزيد على مائتى طالب من طلاب المدرسة الإمبراطورية كثوار مناهضين للحكومة .

وأصبحت ثورات القصر أمراً عادياً ومألوفاً ؛ وفى الستينات والسبعينات من القرن الأول الميلادى إندلع صراع علنى بين الخصيان والمسئولين ، وكانت اليد العليا للخصيان و قتل عدد كبير من كبار الموظفين .

ثورة العمائم الصفراء :

زاد تدهور أوضاع المملكة الوسطى واستجمعت الثورات فى الربع الأخير من القرن قواها وثارت جماعات من الفلاحين ضد المسئولين و أصحاب الأراضى ، وفى شرق الصين قامت ثورة "طريق السلام العظيم" (تاى بنج طاو) – والتى أطلق عليها

العمائم الصفراء بسبب العمائم الصفراء التى كانوا يرتدونها على رؤوسهم بقيادة ساحر طاوى رحال ، كان يعتقد أنه يمتلك قدرات علاجية ، كما تأثر أصحاب العمائم الصفراء بطائفة سرية من المنجمين الذين استخدموا " علمهم " فى التنبؤ بسقوط الأسر الحاكمة ، وفى الغرب خرج الثوار بقيادة "جماعة خمسة مكاييل من الأرز" وقد سميت بذلك نظراً للرسوم التى كانت تدفع للقادة .

وقام بلاط هان بحشد جيوش كبيرة لمجابهة الثورات ، وبدلاً من ذلك استغل قادة الجيوش القوات التى تحت قيادتهم فى توطيد دعائم سلطاتهم الخاصة ، وثار خصيان القصر بدورهم ، وتعرضت العاصمة والقصر لأعمال السلب والنهب وحل بهما الدمار والخراب ، وانهارت الامبراطورية الصينية فى حالة من الفوضى .



دب حجرى أسود وقد حمل على ظهره قائم منضدة مذبح من مطلع عصر الهان

دورة الأسرة الحاكمة :

لقد تكررت علامات هذا الانهيار فى كثير من الفترات اللاحقة ، وكما سجل سسوما تشيين ولاحظ معظم المعلقين الآخرين، فإن المشكلة الرئيسية كانت إفلاس الفلاحين الذين لم تكن أراضيهم المستأجرة كافية لتوفير أسباب العيش والرزق لهم ، وعجز الفلاحون فى أفضل المواسم عن الوفاء بمطالب أصحاب الأراضى المتعلقة بالإيجار ومطالب المسئولين المتعلقة بالضرائب وعن إطعام أسرهم وحفظ البذور

لبذرها في الربيع ، وتراكمت ديون الفلاح لصاحب الأرض والمرابي ، ونظراً لأن صاحب الأرض والمرابي والمسئول الحكومي عادة ما كانوا ينتمون لنفس الأسرة إن لم يكونوا لنفس الفرد لم يكن أمام الفلاح من ملجأ أو سبيل للخروج من محنته .

ومن ناحية أخرى فقد كان المسئولون من أصحاب الأراضي والطبقة الأرستقراطية مرابين أيضاً شأنهم شأن المضاربين الذين استفادوا من التغيرات الموسمية في أسعار المحاصيل ؛ فكانوا يدفعون أثماناً زهيدة للمحاصيل التي يأخذونها وقت الحصاد و يبيعونها بأسعار مرتفعة في الربيع و في أوقات الندرة ، واضطر الفلاح إلى التنازل عن أرضه المستأجرة لصاحب الأرض فزادت الضياع الواسعة اتساعاً .

وكتب "لو تشيه" في القرن الثامن يصف هذا الأمر الذي ظل يتكرر حتى القرن العشرين قائلاً :

"عندما كان يفلس الفلاح كان يبيع حقله وكوخه ، وإذا كان العام عام خير لم يكن بمقدوره سوى سداد ديونه ، ولكنه ما إن يأتي وقت الحصاد حتى تعود صناديق الغلال خاوية من جديد ، وبينما هو ممسك بالعقد في يده ويحمل الجوال على ظهره كان عليه أن ينطلق ويبدأ في الاقتراض من جديد، وكانت أمامه فائدة متصاعدة كي يدفعها وسرعان ما لا يجد ما يكفي لطعامه ، وإذا حلت المجاعة كان يقع فريسة للإفلاس الكامل، وكانت الأسر تتشتت و الآباء ينفصلون ويسعون لأن يصبحوا عبيداً ولم يكن هناك من يشتريهم ... واستولى الأغنياء على عشرة آلاف "مو" من الأرض في أوقات متفرقة في حين لم تتبق أرض للفقراء ، فانضموا إلى الأسر الكبيرة ذات النفوذ وأصبحوا خدمها الخصوصيين، وراحوا يقترضون البذور والطعام ويستأجرون الأرض، وكانوا يجهدون أنفسهم كثيراً جداً طوال العام دون أن يستريحوا ولو ليوم واحد ، وعندما كانوا ينتهون من سداد كافة ديونهم كانوا يعيشون في قلق دائم من قدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم كاملة مستقبلاً . وكان كبار أصحاب الأراضي يعيشون على ما يحصلون عليه من إيجارات أراضيهم دون أن تشغلهم مشاكل أو هموم، وهكذا كان هناك فارق واضح بين الغنى والفقر ..." .

وبعد مرور قرنين علق "سو هسون" على ذلك بقوله :

" إن من يحرثون الحقول لا يملكونها ومن يملكونها لا يحرثونها ... ويُساق الناس في عملهم بالسوط والهراوة ويعاملهم السيد كعبيد في حين يجلس هو مستريحًا ليشرف على تنفيذ أوامره ... ويأخذ نصف محصول الحقول على الرغم من أن هناك مالك واحد وعشرة عمال ، ولذا ففي الوقت الذي كان صاحب الأرض يحقق فيه الثراء والنفوذ كان العامل يقع فريسة للفقر والجوع .

وكان المهرب الوحيد من عبء الإيجار والضريبة والفائدة والاستدعاء للسخرة هو الفرار إلى البرية ، وأصبحت أعداداً من الفلاحين من المتشردين وكانوا يعاملون رسمياً كلصوص وقطاع طرق ؛ وعاشوا كخارجين على القانون وأخيراً ربما انضموا إلى آخرين في جمعيات سرية وثورات متكررة للفلاحين ، وتعين على الفلاحين الذين بقوا في القرى أن يتحملوا أعباء الضرائب والسخرة الواجبة على أولئك الذين فروا أو أولئك الذين رحلوا للعمل لحساب صاحب الأرض ، وعندما أدى الجفاف والفيضان وعدم كفاية إجراءات التحكم في الماء الى نقص المحاصيل ، وأدت الحروب ومظاهر البذخ في البلاط إلى عجز الحكومة والمطالبة بزيادة السخرة والضرائب وعندما فاق النمو السكاني إنتاجية الأراضي المستأجرة للفلاحين تفاقمت الأزمات الزراعية وبلغت ذروتها ، وقامت الجمعيات السرية و زادت جماعات الفلاحين واجتاحت الثورات أنحاء البلاد. وقد زاد من ضعف الأسر الحاكمة في هذه المرحلة الصراعات داخل البلاط وهجمات البرابرة الذين استغلوا القلاقل و الاضطرابات الداخلية فانهارت هذه الأسر الحاكمة وحلت محلها أسر حاكمة أخرى أسسها زعماء الفلاحين أو المغامرون من الطبقة الأرستقراطية أو الأسر الأرستقراطية أو مغتصبو السلطة من قادة الجيش .

وقنـع الحكام الجدد بترك المجتمع على حالته دون تغيير أساسي ، وتحولوا – بشكل خاص – إلى نفس الجماعة من المسئولين من الطبقة الأرستقراطية لإعادة النظام ، وعاد المتعلمون للإمساك بزمام السلطة مرة أخرى ، وحتى في ظل هذه الظروف حيث كانت المحاولات تبذل – كما كان يحدث دومًا في وقت مبكر من حياة كل أسرة حاكمة – لتخفيف معاناة الفلاحين كان يجرى تطبيق الإجراءات دون تفرقة

ولكنه سرعان ما كان يحدث تهاون فى تطبيقها و يتكرر نمط الفساد والإنحلال للأسر الحاكمة .

ويقول هوانج تسونج هسى وهو أحد فلاسفة القرن السابع عشر : " سواء كان هناك سلام أم فوضى فهذا لايتوقف على قيام أو سقوط الأسر الحاكمة ولكن على سعادة أو معاناة الناس " .

وانتهت القرون الأربعة الأولى من الوحدة الإمبراطورية الصينية بثورة واسعة النطاق والإنقسام السياسى للمملكة الوسطى .

الفصل السادس

الانقسام

٢٢٠ - ٥٨١ م

لقد دامت فترة الانقسام التى أعقبت الإطاحة بآخر أباطرة هان وانهيار أول إمبراطورية صينية قرابة ثلاثة قرون ونصف القرن تحولت خلالها المملكة إلى وحدات سياسية أصغر حجمًا ، وكانت تلك أولى الفترات الزمنية الفاصلة العديدة للانقسام والصراع فى تاريخ الإمبراطورية .

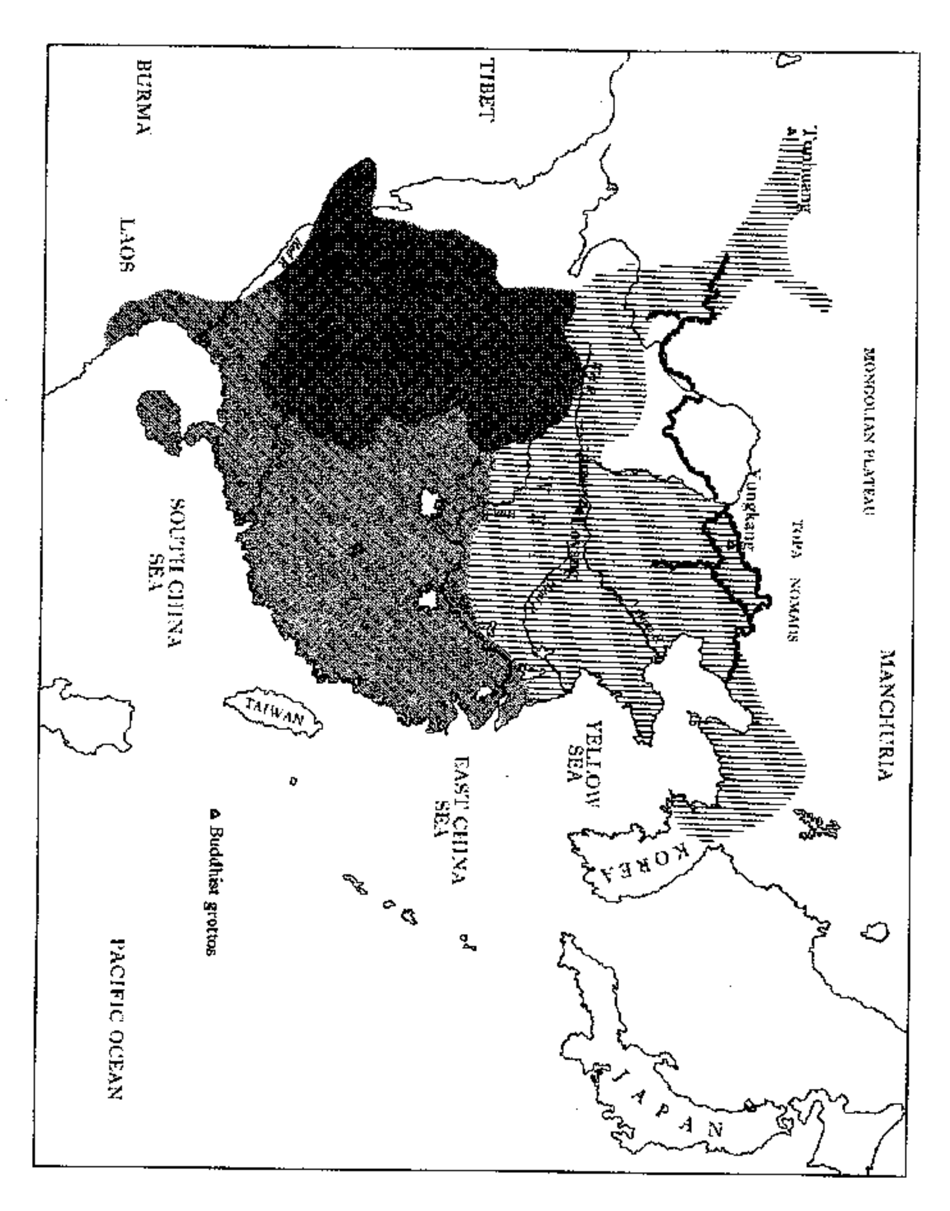
ثلاث ممالك :

أصبح قادة الجيوش قادة عسكريين مستقلين وقامت ثلاث ممالك متنافسة ، ففى الشمال احتلت دولة "وى" سهل الصين وقامت على يد شاعر ألمعى هو القائد « تساو تساو » وكان ابنًا بالتبنى لأحد الخصيان وكان أبناؤه من الشعراء أيضًا ، وغطت الدولتان الأخريان وهما « شو » و « وو » حوضى اليانجتسى العلوى والسفلى على التوالى وكانت كل مملكة من هذه الممالك الثلاث تقوم فى إقليم جغرافى طبيعى ، وقاتل القادة العسكريون ومؤيدوهم ، ودخلوا فى صراعات متواصلة من أجل ما تنافسوا فى ادعائه لأنفسهم ، الأمر الذى أدى إلى خسائر فادحة فى الأرواح والقضاء على الزراعة ، وأعاد هذا العصر إلى الأذهان عصر الدول المتحاربة قبل تأسيس أول إمبرطورية على أيدى التشين ، وتحفل قصص هذه القرون بالروايات عن الكوارث الهائلة وعن القادة العسكريين الذين ارتكبوا المذابح بحق مئات الآلاف من الضحايا حتى سدت جثث الموتى مجارى الأنهار ، حتى الجند كانوا يعانون من نقص الطعام ، وذكر أنهم كانوا يعيشون على غذاء من أشجار التوت فى أحد الأقاليم فى حين كان طعامهم الأوحد فى إقليم آخر قواقع ومحار الأنهار.



حراس القبور الفخار ، ومن المرجح أن هذه التماثيل تمثل السحرة وهم يمسكون بأيديهم الأسلحة الموجهة إلى الأرواح الشريرة

واشتهر هذا العصر بسلسلة من القصص تعرف بـ « قصص الفرسان وبطولاتهم فى الممالك الثلاث » التى كتبها واستوحاها من تاريخ هذه الممالك روائى المنج « لو كوان تشونج » ، وقد أضفى هذا الكتاب بهاءً وسحراً على هذا العصر حيث صوره على أنه عصر الفروسية ؛ ومنذ ذلك الحين ظل كثير من حلقاته ذات الطبيعة البطولية والتى تتسم بالمغالاة يُعرض على المسرح ، وعرف هذا العمل فى أنحاء المملكة الوسطى ، وتذكر إحدى حلقاته أنه بعد أن مُنِّىَ بالكثير من الخسائر نجح القائد « تساو تساو » فى كسب خدمات « كوان يو » الجرىء المقدام إلى حد التهور والذى أصبحت أعماله البطولية أعمالاً أسطورية ؛ ولذا فقد ألهَّه الناس وأقيمت المعابد تعظيماً له كإله للحرب فى أجزاء كثيرة من الإمبراطورية ، واتُّخِذَ إلها محليًا وملاكًا حارسًا للكثير من المدن الصينية .



خريطة الممالك الثلاث

وأعلن فجأة أن العدو بقيادة القائد « ين » يعد لشن هجوم ؛ فأخذ « تساو تساو » كوان يو إلى قمة أحد التلال للاستطلاع ؛ وجلسا و وقف القادة الآخرون حولهما وبينما أشار « تساو تساو » إلى موقع العدو كانت ألويته ببهائها المشرق ورماحه وسيوفه بأحجامها الكبيرة قد اصطفت جميعها في مشهد رهيب ... " هل ترى هذه القوة من الرجال و الخيل الأشداء ..." و أجابه كوان يو قائلاً " نعم أراها ." إنها تذكرني بكثير من الديكة الطينية و الكلاب الفخارية ، " و أشار « تساو تساو » إليهم ثانية و قال : " هاهو القائد « ين » قائمًا هناك تحت اللواء في ردائه المطرز ودرعه الذهبي شاهرًا سيفه ممتطيًا صهوة جواده دون حراك ." ورفع "كوان يو" ناظريه ونظر صوب الموضع المشار إليه ثم قال " يبدو لي القائد « ين » كما لو كان قد رفع إعلانًا عن بيع رأسه ." وهنا صرخ تساو قائلاً " آه ، يجب عليك ألا تهزأ به ." ... وانصرف كوان يو من فوره و أسرع بالقفز ممتطيًا جواده وراح يعدو إلى أسفل التل ، بعينين مستديرتين ومتوهجتين كعيني العنقاء وحاجبيه المرفوعين لأعلى كدودة القز اندفع يمينًا بقوة مقتحمًا صفوف العدو التي انفرجت كالأمواج المتباعدة حتى وصل إلى القائد « ين » نفسه ، و لم يكن أمام القائد « ين » أي وقت كي يضع يده على مقبض سيفه قبل أن يطاح به من فوق جواده ... وهنا وثب « كوان يو » على القائد وقطع رأسه وعلقها حول عنق جواده قبل أن يمتطي صهوة جواده ثانية في لحظة ، وبينما كان سيفه مشهرًا شق طريقه بين صفوف العدو كما لو أنه لم يكن هناك من يوقفه ، و فزع الضباط و الجند جميعهم وتملكهم الرعب الشديد ، وانتهز جند تساو تساو الفرصة السانحة للهجوم فقتلوا أعدادًا كبيرة من جند العدو وغنموا الكثير من الجياد وكميات كبيرة من ذخائر الحرب ، وركب كوان يو جواده إلى أعلى التل لتلقي التهاني من جميع القادة و هو يقدم الرأس لـ " تساو تساو " الذي هتف قائلاً له " أيها القائد ، أنت رجل لا يشق له غبار حقًا ! "

وتصور معظم القصص الشعبية « تساو تساو » على أنه وغد موهوب لكنه غادر ، وتظهره مساعدته لشاعرة الهان « تساي ون تشي » بمظهر جديد ، فقد قاست « تساي ون تشي » الكثير من صروف الدهر هي ووالدها الذي كان عالمًا تبدلت حظوظه بين الحظوة و الخزي لدى أولي الأمر ، و عند عودتها مع أسرتها من المنفى وقعت في أسر الهون الذين كانوا يقومون بإحدى غزواتهم الأخيرة جنوب السور .

العظيم ، ووهبت لأحد زعماء القبائل فعاشت معه اثنى عشرة عاماً أنجبت له خلالها ولدين وعندما تولى تساو تساو السلطة أرسل الرسل بالهدايا للهون طالبًا منهم إعادتها ، وأعيدت « تساى ون تشى » ولكن لم يسمح لها باصطحاب ولديها معها ، و فى الصين تزوجت أحد موظفى الدولة ممن فقدوا الحظوة أيضًا ولم ينقذ حياته سوى وساطة زوجته لدى تساو تساو .

و كتبت السيدة " المرثيات الثمانية عشر" وهى قصيدة للتلحين الموسيقى تصف تجربتها التعسة كأسيرة وتوقها للتموج الحريرى للأرز الأخضر فى وطنها ، وأصبحت قصتها موضوعًا للعديد من الرسومات ، ولم يحظ شعرها – موضع الكثير من الاعجاب الآن – بالثناء بادىء الأمر ، و ربما يرجع السبب فى ذلك – طبقًا لأخلاقيات ذلك العصر– إلى أنه كان يجب على تساى ون تشى أن تقتل نفسها بدلاً من أن تصبح زوجة لأحد زعماء العدو .



وحش على هيئة كلب فخارى ، من عصر وى الشمالية (توبا)

وقد أصبح كبار أصحاب الأراضي في هذا العصر أكثر نفوذاً وقوة حيث جمعوا أملاكًا هائلة و تهربوا من دفع الضرائب ، و قاموا بتحصين منازلهم ضد جيرانهم النهابين و استخدموها كقواعد لشن الهجمات و التهديد باغتصاب سلطة الحكام ، وأصبحت المملكة الوسطى ساحة لعدد لا حصر له من الجند الأثرياء من المرتزقة لاختبار قوتهم .

وأدى انحطاط المسئولين من العلماء و موظفي الدولة وتحولهم إلى طبقة عاجزة وطفيلية – أخذت تعمل جيلاً بعد جيل لصالح أقاربهم من أصحاب الأراضي فحسب – إلى تأزم الأوضاع ، ووصل بهم الحال إلى اعتبار مجرد الإتصال غير المباشر بالعمل البدني أمراً مهينًا ؛ وعلى سبيل المثال فقد اشتهر أحد الشعراء وكان عالمًا ومسئولاً عسكريًا بـ " خصره النحيل وحاجبيه المتلاحمين وأظافره الطويلة وكذلك سرعته في الكتابة ." وصارت الأظافر الطويلة – بشكل لا يصدق – لكبار موظفي الإمبراطورية بشكل علامة على أنهم لم يقوموا بأي عمل يدوي أبداً .

ويذكر وصف أخر أن كبار موظفي الامبراطورية كانوا حليقين ويستخدمون أحمر التجميل و مساحيق الزينة و العطور، وكانوا يركبون العربات الطويلة المغطاة ، وعند جلوسهم كانوا يريحون أذرعهم على وسادات مطرزة ، و كان الخدم يقومون بمساعدتهم على المشي ، و لم يعرفوا شيئًا عن الزراعة ، ولم يروا أبداً أناساً يعملون في الحقول نظراً لأنهم أمضوا حياتهم كاملة في العاصمة ، و تمضي القصة فتقول أن أحد هؤلاء الموظفين ويدعى وانج هي تشيه سأله موظف رفيع المستوى عن منصبه الذي يشغله فأجابه وانج باعتقاده بأنه ربما يكون معلم الفرسان نظرا لأنه غالبا ما كان يرى رجالاً يركبون الخيل و يطوفون المكان ، و عندما سئل عن عدد الخيل التي في عهدته أجاب بأنه لا يعرف شيئًا عن الحيوانات ولذا فليس بمقدوره أن يحصي عددها ، وعندما سأله عن عدد الخيل التي نفقت مؤخرا أجابه بأنه لا يعرف حالة الأحياء منها حتى يخبره بعدد ما نفق منها .

وعندما حوصرت العاصمة كان هؤلاء الأفراد يفتقرون إلى القوة والقدرة حتى على ركوب الخيل للفرار طلبًا لملاذ آمن ، ويقال أن كبار موظفي الإمبراطورية مكثوا بالمدينة المنكوبة حيث تضوروا جوعًا، وعندما سقطت العاصمة ارتدوا أبهى حللهم وجمعوا ذهبهم وأحجارهم الكريمة ، ورقدوا في فُرُشِهِم إنتظاراً للموت .



أسر تساى ون تشى. جزء من صورة زيتية غير موقعة من المرجح أنها ترجع إلى عصر المنج وتوضح وقوع تساى ون تشى فى أسر الهون و عودتها إلى الصين . وفى قصيدتها " المرثيات الثمانية عشر " تقول تساى ون تشى:

لم يدر بخلدى أننى مع التقدم فى السن

سوف أكون قادرة على العودة إلى هان ثانية ،

واحتضنت أبنائى من الهون

والدموع تبلل ثيابى ،

وحضر سفير الهان لأجلى

ومعه عربة تجرها أربعة خيول

و كنت لا زلت أبكى بداخلها ...

وكنت أتساءل كيف يمكننى

أن أعطى كل واحد من أبنائى زوج

من الأجنحة كى يتمكنوا من الطيران عائدين

معى...".

(المرثية ١٣)

وكما حدث في عصر الدول المتحاربة قبل الإمبراطورية الأولى ، فقد أدت حالة الفوضى في القرنين الثالث و الرابع الميلاديين إلى نشأة التأمل و الفلسفة والأشكال الأخرى من الإرتباط الديني ، وشكل إحياء الطاوية - بشكل منحرف - من ناحية والتعريف بالبوذية من ناحية أخرى تحدياً للنهج القويم للتعاليم الكونفوشيوسية .

وقام عدد من حكام الهان برعاية الطاويين وأولوا جهود كيميائيهم لاكتشاف إكسير العمر المديد وربما الخلود إهتماماً خاصاً ، وذكر أن « كوانج وو » الإمبراطور الأول لعهد الهان المتأخر كان رجل دين نظامي، وعاش معظم حياته كناسك في جبل يدرس الكيمياء ، ويبدو أن بحثه عن عقار الخلود كان ناجحاً بشكل معقول نظراً لأن آخر ما وصل من أخباره كان صعوده إلى السماء على ظهر تنين ! وفي النصف الثاني من القرن الثالث كانت هناك جماعة شهيرة من علماء الطاويين الذين أطلقوا على أنفسهم " حكماء أيكة الخيزران السبعة "، وقد حصنوا أنفسهم ضد الأوقات العصيبة بالشراب ، وكان أحدهم معروفاً بتجواله في أنحاء العاصمة راكباً عربة تجرها غزالة ، و كان أحد الخدم يتبعه حاملاً قدر كبير من الخمر لسد الحاجة ، وكان خادم آخر يحمل مجرافاً ، وأوامر بدفن سيده أينما قد توافيه المنية و هو في حالة سكر ، وكتب أحد الحكماء الطاويين رسالة حول عقار الخلود ، وأكد أنه اذا كان بإمكان الحيوانات أن تدرك العمر المديد فمن المؤكد أن الإنسان - بمساعدة العلم - يمكنه التفوق على الحيوانات ، و كان القصد من وراء الوصفات التي أوصى بها تجديد الشباب و كذلك إطالة العمر .

ورغم ذلك فقد قنع الكثيرون من العلماء و النساك بتشكيل جماعات لنبذ المشكلات والمتاعب الدنيوية ومناجاة الطبيعة ؛ فعكفوا على المناقشات الفلسفية ونظم الشعر والعزف على الناي ، وإحتساء الخمر .

وأدى الانشغال بالإكسيرات والكيمياء القديمة إلى إنتاج أول كتاب عن الكيمياء القديمة في القرن الثاني الميلادي ؛ واخراج موسوعة خالدة حول فن إدراك الخلود في بداية القرن الرابع ، وكان من بين النتائج الأخرى الموت المبكر لعدد من أبناء السماء بسبب تعاطيهم جرعات زائدة من الزنجفر (كبريتيد الزئبقيك) ، والرصاص والذهب وغيرها من المواد السامة التي كان يعتقد بأنها ترابيق للخلود .

وانجذب العامة من البسطاء للطوائف الطاوية المختلفة التي جمعت عقائدها بين الخرافات المحلية و ممارسة السحر وتعدد الآلهة التقليدية و الأرواح الحارسة في هرم سماوي من الخالدين ، وأصبح كثير من الطوائف مرتبط بأفكار عدة عن الصحة الباطنية و العلاج الطبيعي : و حرموا على أنفسهم اللحوم و الأطعمة التي أعدت من الغلال و الخمر حيث كان يعتقد أنها تغذي " الديدان " الثلاث للمرض و الشيخوخة والموت ، واعتقد البعض بأن التنفس واللعاب هما أنقى أشكال الغذاء ، و فتحوا قنواتهم الباطنية عن طريق تمرينات خاصة وقاموا بتنقية أجسامهم و تطهيرها بصفة عامة عن طريق كتم أنفاسهم لفترات طويلة جدا .

البـوذية

انتشرت البوذية من الهند إلى الصين قرب نهاية القرن الثالث الميلادي ، و قد مهدت الاضطرابات السائدة وتفاقمها بفعل الغزوات البربرية و فرار العلماء الكونفوشيوسيين إلى الجنوب السبيل أمام البوذية والاقبال الكبير عليها في الصين بالرغم من حقيقة أنه لم يكن هناك سوى النذر القليل المشترك بينها وبين التعاليم الإنسانية العقلية للفكر الصيني الكلاسيكي ، وكان بوذا المعروف تاريخياً بـ «ساكياموني » معلم طائفة الساكيا وكان معاصراً لكونفوشيوس ؛ حيث كان أميراً للولاية الشمالية في الهند قرب نيبال حوالي عام ٥٠٠ ق م ، وخلال أزمة روحية في حياته أتته لحظة تنوير ذات يوم و هو جالس يتأمل تحت شجرة « البو Bo » (شجرة المعرفة) ، واكتشف الطريق إلى الهدوء الشخصي عن طريق الاعتدال والمقصود به الطريق الوسط بين الانغماس في الملذات و الكبح الذاتي للشهوات، و قامت تعاليمه على كون الرغبات مصدر الألم في الحياة ، وأنه لا سبيل للتخلص من ألم الوجود إلا بالتخلص من الرغبات ، وتحقيقًا لهذه الغاية راح يدعو إلى الحياة المستقيمة للتغلب على الشهوة الشخصية ، و قد حرمت قواعد الحياة المستقيمة قتل أي كائن حي (والبوذية لا تعترف بأي تمييز بين البشر و الحيوانات) ، وقول الزور والتجرد من العفة وتناول المسكرات ، ومارس أتباعه الاعترافات، و عاشوا حياة زهد وتنسك ، وكانت الغاية من وراء ذلك بلوغ النيرفانا و هي حالة من الصفاء الروحي التام عند التغلب على كافة الشهوات والصراع النفسي والألم وإفساح الطريق للإندماج الهادىء للروح والتوافق الداخلي .

ولم يكن من الممكن تحقيق هذا اللاوجود و هذا الصفاء فى وجود واحد إلا عبر سلسلة من حالات البعث يمكن عن طريقها للشخص التقى أن يعلو و يرقى فى هرم الكائنات ، ويكون على استعداد للخلاص النهائى، وكان يجرى تجسيد الشخص التقى كإنسان بينما كان هناك تحقير من شأن الخاطىء و قد يصبح كلبًا أو خنزيراً أو شيطانًا، وأصبحت الشفاعة للموتى - التى قد يزيد عن طريقها أولئك ذوى الفضائل الكاملة (كبعض الرهبان على سبيل المثال) من ذخيرة الحسنات لدى من هم بحاجة إليها - تعاملاً مقبولاً ، وقد خدمت الإسهامات فى المجتمعات البوذية نفس الغاية الانسانية .



كوان ين إلهة الرحمة البوذية ترشد روحا ، و قد عثر على هذه الصورة الزيتية فى تونهوانج و من المرجح أنها نسخة من أصل من عصر التانج الأول ، ويرجع أصل كوان ين إلى الهند حيث نشأ كإله ذكر ويظهر فى الصور الأولى له على أن له شارب ، وبمرور الزمن اعتقد الصينيون بأن كوان ين إلهة وعلى اليمين سيدة ترتدى ثوباً من عصر التانج

وظل أتباع بوذا متسولين زاهدين لعدة قرون و انتشرت البوذية عن طريق التعاليم الشفهية ، ولم يمض وقت طويل حتى استقر بهم المقام فى الأديرة و بحلول القرن الأول قبل الميلاد كانوا قد دونوا الكثير من التعاليم البوذية ، و نشأ أدب بوذى مقدس ضخم فى الهند حيث انتشرت البوذية فى ظل الرعاية الملكية وفى سيلان أيضا ، و فى نهاية القرن الأول الميلادى انتشرت البوذية حتى وصلت إلى الشمال داخل آسيا الوسطى عن طريق إمبراطورية الكوشان التابعة لـ " يويه تشيه " و كانت هذه الإمبراطورية ممتدة من شمال الهند إلى حوض نهر التاريم و كان إمبراطورها كانيشكا راع غيور للبوذية ، ومن آسيا الوسطى انتشرت البوذية حتى وصلت إلى شمال الصين ، و مع ذلك ربما كان أول من أتى بالبوذية إلى الصين التجار الهنود الذين كانوا يبحرون إلى الصين عبر المحيط الجنوبى ، وتلا ذلك انتشار شكل لاحق من أشكال البوذية تمثل فى تسلط الحكم الدينى فى الصين عبر التبت و منغوليا .

وكانت هناك جماعة بوذية فى البلاط فى عصر الإمبراطور منج تى فى عهد الهان المتأخر (٥٧ - ٧٥م)، وخلال فترة الانقسام انتشرت البوذية على نطاق واسع ، وكان الشكل الذى جُلِبَ إلى الصين منها يشتمل على العناصر الشعبية كالإيمان بفاعلية الصلوات المتكررة أمام بوذيساتفاس (صور القديسين البوذيين الذين ينشرون الفضيلة وأرجأوا خلاصهم الشخصى كى يقدموا العون للآخرين) ، وأعمال روتينية ميسورة تصلح لكافة الأغراض لأوقات العسرة ، وعلى الرغم من أن الدين الغريب - فى إنكاره لأهمية النظام الاجتماعى - سار عكس الإتجاه الكونفوشيوسى فقد أتاح امكانية تحقيق الراحة الفردية والخلاص الشخصى فى الأوقات التى ضعف فيها الأمل فى تحقيق الخلاص العام .

وسرعان ما جاءت الإرساليات المتحمسة إلى الصين لتعزيز ومؤازرة الحالات الأولى العارضة لاعتناق البوذية ، ومسجل فى الحوليات أن أمير بارثوى الذى عرف باسمه الصينى « أن شيه كاو » كان يترجم الكتب البوذية المقدسة ويكسب مهتدين جدد فى لويانج قرب نهاية القرن الثانى الميلادى ، وكان كوما راجيفا - الذى ولد فى آسيا الوسطى لأب هندى - أكثر شهرة ، ووقع فى أسر حملة صينية قرب نهاية القرن الرابع الميلادى ، وفى الصين قام بترجمة ما يقرب من مائة نص بوذى .




على اليمين :رأس من الرخام لـ " هوان ين " إلهة الرحمة البوذية و أكثر الآلهة البوذية شعبية ، وهى كائن أشبه بالقديس أرجأت ارتقاءها إلى النيرفانا كى تساعد البشر ، عصر التانج .

على اليسار: ماى لو فو بوذا الضاحك ، و هذا " البوذا الضاحك " منحوت على سفح تل لـ "القمة التى تحلق أعلى" و هو اسم جبل قريب من هانجتشو .

وبداية من القرن الثالث فصاعداً كانت هناك اتصالات كثيرة جدا بين الصين والبوذيين الأجانب ، وقدم الرهبان البوذيون إلى الصين من الهند وسيلان وآسيا الوسطى ، ومن ناحية أخرى نشط المهتدون الصينيون فى البحث عن مصادر لإيمانهم ، وقام البوذيون بسلسلة من الرحلات العظيمة من الصين خلال القرون القليلة التالية .

فا هسيين

انطلق فا هسيين (٣١٩ - ٤١٤م) من وسط الصين عبر صحراء جوبى فوق جبال هندو كوشى عبر الهند جنوب نهر هوغلى حيث ركب سفينة وعاد إلى الصين عن طريق سيلان ومضيق ملقا ، ووصل إلى الوطن بعد خمسة عشر عاماً ومعه مجموعة من الكتب المقدسة التى عكف على ترجمتها فى نانكنج ، و ترك لنا سجلاً لرحلته نلحظ من خلاله كيف أن ما كان يواجهه الرحالة الجسورين فى ذلك الوقت لم يكن يقتصر على المخاطر الطبيعية فحسب ، بل و الأخطار غير العادية الخارقة للطبيعة أيضاً ، وعن صحراء جوبى يقول " كان هناك عدداً كبيراً جداً من الأرواح الشريرة وكذلك

الرياح الحارة في هذه الصحراء ؛ وقد هلك جميع من صادفوهم عن بكرة أبيهم ، ولم تكن هناك طيور تحلق في السماء أو حيوانات تمشي على الأرض ، وعندما تحدق في جميع الأنحاء على مد البصر كي تحدد علامات للطريق لا تجد أمامك أي هادٍ أو دليل سوى العظام النخرة للموتى كي تدلك على الطريق ، واتجه الرحالة غرباً حيث عبر سلسلة جبال بولور تاغ : " هناك ثلوج تغطى هذه الجبال في الشتاء والصيف على حد سواء ، كما أن هناك الأتنة السامة التي تنفث الرياح السامة والمطر والثلوج والرمال و الحجارة ، ولا ينجو من بين أولئك الذين يواجهون هذه الأخطار واحد من بين عشرة آلاف ، ويطلق على أهل تلك المنطقة أهل الجبال الثلجية ."

وقد أمضى فا هسيين ستة أعوام في سفره من تشانجان إلى وسط الهند ؛ وأقام هناك مدة ستة أعوام و أستغرقت عودته إلى الوطن ثلاثة أعوام أخرى ، وقد دون سرداً لتجاربه وخبراته على ألواح الخيزران وعلى الحرير .

وقد أيد الرعاة الإمبراطوريون البوذية في عدد من الولايات الصينية التى قامت خلال فترة الانقسام ، و كان الحاكم في نانكنج في القرن السادس نصيراً للبوذية ، وكان إيمانه قوياً إلى درجة أنه اعتزل العالم و تخلى عن عرشه ثلاث مرات امتثالاً لأوامر مقدسة و في كل مرة كان يتعين افتداؤه من قبل وزرائه ، و تعايشت البوذية مع الديانات و المذاهب الأخرى في الصين ؛ و الواقع أن بعض الطاويين قد أجازوا البوذية كشكل غريب للطاوية اكتشفه شخص بربرى ربما انضم - برغم ذلك - في وقت ما إلى الترتيب الهرمي للخالدين الطاويين ولو في منزلة وضيعة، ولم يحدث أبداً أن أظهرت الآلهة الصينية خصوصية نظرائها الغربيين وكانت مضرب الأمثال لحسن الجوار لفترات طويلة ، ووقع التنافس بين البوذية و الطاوية في مرحلة متأخرة مثلما دب الصراع بين الدولة الكونفوشيوسية والبوذية ،

وواصلت البوذية الإزدهار في الصين منذ منتصف القرن الرابع حتى القرن الثامن ، و كانت هذه الفترة فترة الأنشطة العمرانية و الفنية وبخاصة في الشمال حيث أقامت كثير من الأسر الحاكمة - في فترة الإنقسام - عواصمها ، وتم توجيه الكثير من الطاقات نحو نحت و تزيين معابد الكهوف العظيمة في المنحدرات الصخرية ، واستخدم عدد من الفنانين والحرفيين عبر القرون في نحت آلاف الأضرحة و المغارات على جوانب التلال وتزيينها بالصور الجصية والنقوش الحجرية البارزة ، وقد تم إكتشاف بعض هذه "الآلاف من المغارات البوذية" .

وتوجد مجموعة شهيرة من المغارات فى يونكانج فى منحدرات الحجر الرملى بشمال شانسى ، وفى أحد الكهوف يقوم تمثال حجرى لبوذا و هو جالس على الطريقة الهندية و يبلغ ارتفا ع التمثال خمسين قدمًا ، وفى لونجمن قرب لويانج حيث توجد كهوف من الحجر الجيرى فى المنحدرات قبالة نهر الآى (مرتبطة بالأعمال الأسطورية التى قام بها يو العظيم من أسرة الهسيا للتحكم فى الماء) يوجد عدد كبير جداً من المغارات الغنية بزخارفها و التى مازالت تحتفظ بجمالها ، و ربما كان أبرزها الأضرحة الموجودة فى تونهوانج التى كانت مركزًا تجاريًا هامًا على طريق الحرير القديم حيث كانت القوافل التجارية و الرحالة يتوقفون قبل أن يبدأوا رحلتهم عبر الصحراء .

وظلت الممالك الثلاث قائمة معظم القرن الثالث و لكن وسط قلاقل ، حيث واجه أحد حكام مملكة وى فى الشمال حربا أهلية في دولته و ارتكب خطأ بدعوته بعض القبائل البدوية للحضور لنجدته ، (وهكذا نشط البدو ثانية على طول السور العظيم خلال فترة الانقسام و التفكك) ، وطلب خصمه العون من قبيلة أخرى ، وتدفق البدو على السور العظيم ووصلوا اليانجتسى، وهُزِمَتْ الحشود البربرية فى معركة نهر « فى Fei » فى عام ٣٨٣ م وبذلك منُعِوا من العبور إلى جنوب الصين .



مغارات يونكانج بإقليم شانسى ، صورة كبيرة لبوذا فى مغارة ، ويبلغ طول البوذا حوالى ٥٠ قدما ، وقد تم نحت هذه المغارات التى تعد من بين أكبر و أقدم المغارات فى الصين فى القرنين الخامس والسادس فى عهد وى الشمالية وهى كنز للثقافة البوذية . وهى تمتد لمسافة كيلو متر بطول سطح الجرف .

الأسر الحاكمة الشمالية والجنوبية

عُرِّفَ القرنان التاليان من الإنقسام و القرصنة بعصر الأسر الحاكمة الشمالية والجنوبية نظراً لثبات دعائم السلطة القائمة فى المنطقتين الرئيسيتين : الأولى كانت تتألف من حوض النهر الأصفر شمالاً إلى السور العظيم ، والثانية من حوض اليانجتسى والأراضى الواقعة جنوب النهر الأحمر .

وقامت التوبا و هى إحدى قبائل البدو التى رحلت عن منغوليا بتأسيس أسرتها الحاكمة و التى عرفت بـ " وى الشمالية " و قد تزايدت قوتها ببطء ، وفى النصف الأول من القرن الخامس تخلصوا من آخر خصومهم فى شمال الصين وأقاموا عاصمتهم فى لويانج ، وردوا البرابرة الآخرين وأصلحوا السور، وانتشرت جيوشهم فى الجزء الجنوبى الغربى عبر حوض التاريم داخل آسيا الوسطى ، وضمت دولتهم المناطق التى استفادت من الإجراءات والتدابير التى تم اتخاذها للحفاظ على الماء بين النهرين الأصفر و اليانجتسى و مخزن غلال المملكة ، وكغيرها من الفاتحين البدو فى القرون التالية استقرت قبيلة التوبا وأصبحت صينية تماما قلباً وقالباً ، وطلبوا من الموظفين من العلماء أن يحكموا ووجهوا طاقاتهم إلى الإصلاح من شأن الزراعة وزيادة دخلها ، وبموجب إجراء للمساواة فى توزيع الأراضى تم توزيع الأراضى الحكومية على الفلاحين حسب حجم الأسرة ، وتم استصلاح الكثير من الأراضى البور وزادت الإنتاجية ، وأصبحت الصينية اللغة الرسمية فى البلاط ، وكان الأرستقراطيون التوبيون مطالبين باتخاذ اللباس والعادات و الألقاب الصينية ، كما تم تشجيعهم على التزاوج أيضاً .

وأدت هذه الفترة من الهجوم البدوى فى الشمال كغيرها فيما بعد إلى فرار عشرات الآلاف من الناس إلى الجنوب ليعبروا اليانجتسى حاملين معهم ألوية الحضارة والاقتصاد لمنطقة النهر الأصفر، وعندما سقطت لويانج فى أيدى التوبا فر كثير من العلماء إلى الجنوب أيضاً ، وبدأ ركب النمو الاقتصادى فى جنوب الصين – الذى كان يميل للتخلف عن ركب النمو الاقتصادى فى وادى النهر الأصفر– فى التقدم مع تطبيق العلوم الزراعية الكبرى ، وتم التوسع فى مشروعات التحكم فى الماء خاصة فى وادى اليانجتسى وامتدت الزراعة إلى الأرض البور ، وأدت الإدارة الجيدة فى بعض المناطق إلى إنتاج محصولين من القمح والأرز فى العام



رامي السهام – من اللوحات الجدارية بمغارات تونهوانج ، إقليم كانسو ، وكانت تونهوانج محطة على طريق الحرير القديم ، طريق القوافل عبر آسيا الوسطى .

الواحد ، وبدأت المناطق الجنوبية تنافس المناطق الشمالية من حيث الأهمية الإقتصادية والثقافية والسياسية .

وقد تعاقبت أربع أسر على الحكم في الجنوب فى القرنين الخامس والسادس ، وبالرغم من تقدم الزراعة في ذلك الوقت وبدء ازدهار مشروعات الحرير والخزف الصينى فى هذه المناطق فقد كانت استفادة الناس بصفة عامة قليلة نظراً لمطالب أصحاب الأراضى الثقيلة المتعلقة بالإيجارات ومطالب الدولة الثقيلة من الضرائب والسخرة ، وعاد إسراف الأغنياء ليتعارض من جديد مع قهر الفقراء .

ويقول أحد المعاصرين في وصف الأرستقراطيين أنهم بملابسهم المعطرة وأحذيتهم وثيابهم الحريرية وزيناتهم الأخرى " هكذا كان جمالهم وهم يدخلون ويخرجون حتى لكأنهم من الجن ".

وفى الشمال استوعب حكام « التوبا » نمط الحياة البيروقراطية ، وتعاون أصحاب الأراضى وموظفو الإمبراطورية مع بعضهم البعض فى جمع الثروات ، ويقال أن أحد النبلاء " استخدم الفضة في طوالات علف الحيوانات فى اسطبلاته والذهب للجم خيله ، وكان المدعوون فى ولائمه العامرة بكل ما لذ وطاب يشربون الخمر فى أوان بلورية وكؤوس من العقيق والياقوت ، وكان يسليهم بعروض لثرواته التى كانت تشتمل على مائة مزهرية ذهبية وجرة فضية ومخازن تحتوى على ما لاحصر له من الحرير والأشياء الأخرى من جميع أنحاء البلاد ."

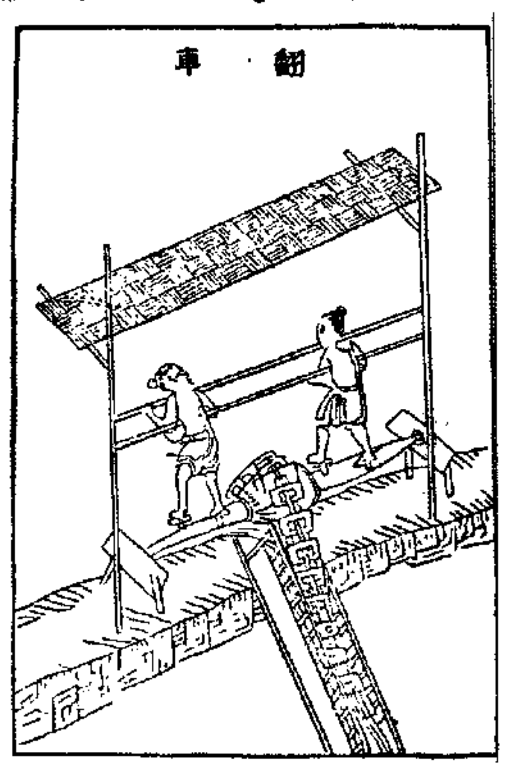
وزادت الثورات التى قامت بها القبائل البدوية المختلفة والفلاحون ضد الحكام الذين ازدادوا ظلمًا وطغيانًا فى منتصف القرن السادس وبلغت ذروتها بوقوع انقلاب فى عام ٥٨١ م عندما استولى على عرش وى الشمالية أحد الأقارب من العائلة المالكة وأصبح يعرف بـ " ون تى " كأول امبراطور لأسرة " السوى " الحاكمة الجديدة .



كائن سماوى من مغارات تونهوانج

وقام « ون تى » بخفض الضرائب وفترات التجنيد وأضاف إلى سجلات الضرائب أعداداً كبيرة من الفلاحين الذين كان أصحاب الأراضى يخفونهم عن الأنظار ، وتمكن بعد مرور بضع سنوات من ارسال حملة عبر اليانجتسى لفتح الجنوب ، وهكذا انقضى أكثر من ثلاثة قرون من التفكك والانقسام ، وأثبتت عودة الوحدة فى عهد السوى أنها فاتحة لقيام الامبراطورية الصينية الثانية فى ظل حكم التانج .

ولم تؤد القرون الثلاثة من التفكك والانقسام السياسى إلى القضاء على التجانس الثقافى للمملكة الوسطى أو إضعافه ، وتلا عصور الظلام فى أوروبا والتى أعقبت إنهيار الإمبراطورية الرومانية – وهى فترة معاصرة تقريباً لفترة التفكك



رافعة الماء التى عرفت بالعمود الفقرى للتنين و اخترعها ما تشون و هو مهندس ميكانيكى فى القرن الثالث ، وكانت الرافعة تعمل كالكراكة الحديثة التى تشبه السلم المستخدمة لتطهير قاع الأنهار وتقوم بتحريك سلسلة من القطع الخشبية المستوية التى ترفع الماء من النهر إلى الحقول ، وهذا رسم محفور على الخشب من كتاب السونج عن الزراعة .

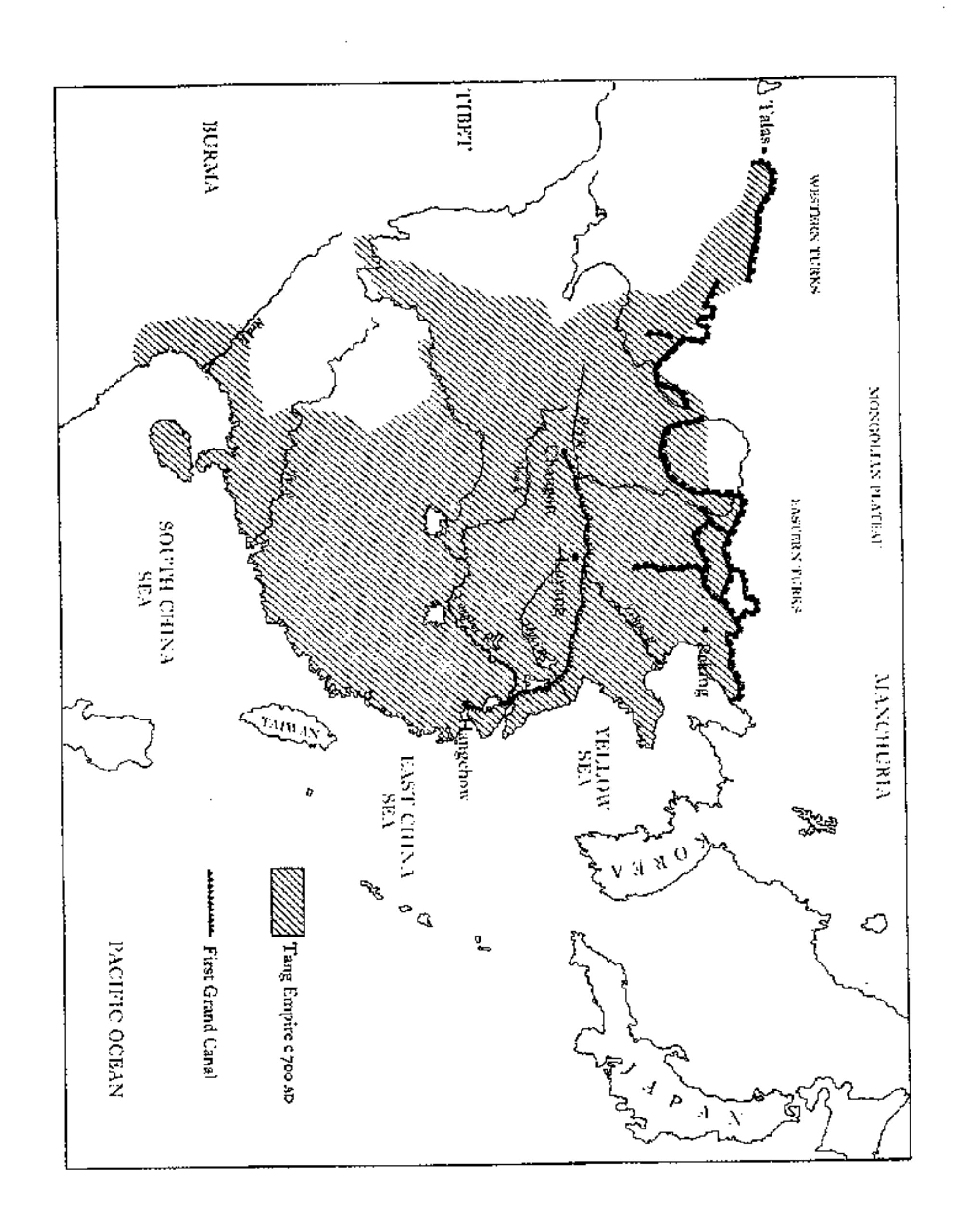
والإنقسام فى الصين - عهد اختلف فيه المجتمع فى أوروبا بشكل أساسى عن مجتمع الإمبراطورية الرومانية ، ولم تتحول الحضارة الصينية خلال الاضطرابات والقلاقل حيث تم احتواء البرابرة الذين اجتاحوا الشمال داخل الحضارة الصينية ، وتبنى الغزاة الزراعة المكثفة والتقنيات والتنظيم الإجتماعى الخاص فى الصين ، وتم احتواء قبائل التويا أيضًا ، وتكاملت الأقاليم الجنوبية بشكل أكبر من ذى قبل فى المملكة الوسطى .

وتم إحراز تقدم كبير فى مجال العلوم والرياضيات ، واخترع ما تشون - وكان مهندس ميكانيكى من عصر الممالك الثلاث - نولاً لنسج الشاش الحريرى يعمل بسرعة تفوق النماذج القديمة بمقدار خمسة أو ستة أضعاف ، كما اخترع عجلة لرفع الماء للرى ، وانتشرت الطواحين المائية على نطاق واسع فى ذلك الوقت ، وقدر تسو تشونج شيه وهو عالم رياضيات من القرن الخامس المقدار الرياضى (r) PI بثمان نقاط عشرية ، ويبدو أن نسبة محيط الدائرة إلى قطرها كانت شاغلاً للرياضيين الصينيين ، وتم اخراج موسوعة زراعية هامة فى عصر الممالك الثلاث شملت أيضا جغرافية كافة المجارى المائية فى الصين وتناولت الأنهار والقنوات وآبار الملح والينابيع والمناجم والبراكين .

وتم تطوير عربة اليد فى هذا العصر كوسيلة نقل لم تكن مستخدمة في أوروبا حتى مضت عشرة قرون على تطويرها فى الصين حيث " يمكن اعتبارها واحدة من بين الآلات الأكثر تواضعًا فى عصر النهضة لكن المؤكد أنها ساعدت على تطور الصناعات آنذاك " .



رافعات الماء التى يقوم الفلاحون بتشغيلها



خريطة إمبراطورية « التانج »

الفصل السابع

السوى والتاج

٥٨١ - ٩٠٧ م

قد يعزى السبب في النصر النهائي الذى حققته أسرة السوى وعودة الوحدة للإمبراطورية إلى أعمال الرى فى الأراضى الخاضعة لحكمها و التي أوجدت احتياطيات ضخمة من الغلال ، وإلى النمو الإقتصادى للأقاليم الجنوبية من الإمبراطورية ، والذى أدى إلى تكامل مفيد بشكل متبادل و أكثر استقراراً وثباتاً لقسمى المملكة الوسطى ، و إلى التكتيك العسكرى القائم على تجويع الخصوم لإجبارهم على الإستسلام بدلاً من ملاقاتهم فى معارك حامية الوطيس ، و هكذا تم تدشين عهد آخر عظيم للوحدة الإمبراطورية .

وأدخل « ون تى » أول أباطرة السوى سلسلة من الإصلاحات الإقتصادية ، وتم تخفيض الضرائب وطلبات السخرة على الفلاحين ، وبدلاً من استدعاء الشباب فى سن ١٨ عامًا للخدمة مدة شهر واحد سنويًا تم رفع سن من يتم استدعاؤهم إلى ٢١ عامًا ولمدة ٢٠ يوما فقط كل عام ، وأدرج احصاء رسمى دقيق للسكان الكثيرين فى سجلات الضرائب ممن تهربوا منها فى الماضى عن طريق تستر أصحاب الأراضى - الذين كانوا يعملون فى خدمتهم - عليهم ، وتم تخفيض المطالب الضريبية العامة ، وأسندت أعمال الزراعة للجند ، وتم تعديل قانون العقوبات و ألغيت عادة عرض رأس الشخص الذى قطعت رأسه على عمود ، واقتصرت العقوبات على : الجلد بعصا غليظة أو خفيفة والسجن والنفى والإعدام .



رحلة الإمبراطور يانج تى عبر القناة العظيمة ، رسم تقليدى محفور على قالب خشبى .

وكان من بين التطورات البناءة استمرار نظام المساواة في توزيع الأراضى والذى تمت تجربته فى السابق من قبل أسرة « وى » الشمالية ، وتم توزيع الأراضى البور والأراضي العامة بين الفلاحين حتى تملك كل ذكر بالغ مساحة من الأرض تقدر بحوالى ٢٠ مو (كان يطلق عليها حقل من أشجار التوت) و ٨٠ مو أخرى من الأرض الصالحة للزراعة كانت تتم اعادتها للدولة عندما يصير الفلاح طاعنًا في السن أو عند وفاته، وكان من حق النساء امتلاك ٤٠ مو من الأرض الصالحة للزراعة ، وكان كل زوجين مطالبين بدفع ٣ بيكول (وحدة وزن صينية) من الحبوب ولفافة واحدة من الحرير وثلاث أوقيات من مشاقة الحرير أو ٥٠ قدما من قماش القنب سنويًا كضريبة وكان غير المتزوجين يدفعون نصف المبلغ المفروض على المتزوجين .

وقد ساعدت هذه الإجراءات على زراعة المزيد من الأراضى وتشجيع الإنتاج الزراعي ، وشجعت الإجراءات الأخرى الحرف والتجارة ، وحتى مطلع القرن السابع ارتفع عدد السكان بشكل ملحوظ ، وكانت مخازن الغلال الإمبراطورية عامرة وكانت ملايين من لفائف الحرير تملأ مستودعات الدولة .

وكان « يانج تى » إمبراطور السوى الثاني ملهمًا بأفكار عظيمة كان بعضها مثمرًا والبعض الآخر منها إستبداديًا ومتسمًا بالإسراف ، وكان من بين الأفكار

الأولى إنشاء القنوات خاصة القناة العظيمة التى قامت على شبكة القنوات القديمة التى كانت تربط أنهار الأصفر و هوى واليانجتسى ، وتعين التغلب على الكثير من العقبات الطبيعية أثناء عملية الإنشاء ، وتم تسخير مليونى شخص لهذا الغرض ، وكانوا إذا لم يجدوا ما يكفى من الرجال يستدعون النساء أيضًا ، وكانت قناة واسعة تحفها الأشجار على طول ضفتيها ، واحتفل ابن السماء بافتتاح المجرى المائى برحلة للمتعة والإستجمام بطولها على متن مركب عظيم على هيئة تنين له أربعة أسطح ترتفع ٥١ مترًا فوق الماء ، وكانت ترافقه آلاف المراكب الصغيرة الأخرى التى كانت تحمل موظفى الدولة والخصيان والإمبراطورة والمحظيات ، ويقال أن طابور المراكب كان ممتدًا لمسافة مائة كم ، وكانت هذه المراكب بحاجة إلى ٨٠ ألف عامل لسحبها، وكان طعام الولائم يصادر من أنحاء المكان؛ وتم التخلص من الفائض الهائل من الطعام .

وكانت القناة عملاً ضخمًا بحق ، ففى بلد تجرى فيه الطرق المائية الرئيسية من الغرب إلى الشرق شكلت القناة شريانًا ذو أهمية عظيمة ممتد من الجنوب إلى الشمال ، وربطت بين الأقاليم الجنوبية الثرية وأراضى الأرز فى دلتا اليانجتسى بالأقاليم الشمالية، ولم يتم توفير المؤن للعاصمة فحسب بل وللجيوش المدافعة عن الحدود الشمالية ايضًا، وكانت عاملاً هامًا فى التكامل السياسى والإقتصادى والثقافى للأقاليم الشمالية والجنوبية للإمبراطورية الصينية ؛ وأسهمت فى الأهمية الإقتصادية المتزايدة لوادى اليانجتسى .

كما كان إنشاء القصور ومتنزهات المتعة فى لويانج – حيث تم تسخير المزيد من الحشود لانشائها – أمرًا آخر، وتم الإتيان بجذوع الأشجار لأعمدة القصور من الجنوب محمولة على ظهور الفلاحين الذين مات نصفهم أثناء الرحلة؛ وكانت العربات القادمة إلى العاصمة مليئة بالجثث، وقيل انه عندما كانت الزهور تموت فى الشتاء كانت الأشجار فى المتنزه الإمبراطورى تزدان بأزهار الحرير الصناعية إرضاءً للهوى الإمبراطورى وكان يتم القضاء على طيور المتنزه الإمبراطورى بصورة شبه كاملة لتوفير الريش لوسادات الإمبراطور، واستنزفت مظاهر البذخ والإسراف الشديد الخزانة ، وصدر الأمر لشعب الصين أو بالتعبير الرسمى جميع من تظلهم السماء بدفع ضرائب عشر سنوات مقدمًا، وأضيف إلى ذلك عبء سلسلة من الحروب التى

شُنت ضد الدول المجاورة، وزادت أعمال السخرة ومصادرة المؤن بصورة شديدة، وتم بناء المركبات والسفن الحربية بسرعة فائقة، وكان يتم حث الحرفيين الذين يعملون في بنائها على مواصلة العمل حتى يموتوا من فرط التعب والإجهاد، ولذا فقد هلك نصف القوة العاملة تقريباً .

وكانت الحروب ضد كوريا بشكل خاص مجلبة للكوارث ، فقد أجبر جيش صيني قوامه أكثر من مليون مقاتل على الفرار أمام الكوريين بعد أن فقدوا المؤن والأسلحة، وعاد الفلاحون لإثارة القلاقل والإضطرابات من جديد خاصة في تلك الأقاليم التي كانت تتعرض لأقصى ضغوط طلباً للمجندين و المؤن ، واستولى الفلاحون على ما كان بمخازن الغلال من حبوب ووزعوها على الجوعى .

وبرغم الهزيمة الكورية فقد استمر الإمبراطور « يانج تي » في إسرافه و طيشه حتى اغتيل في انقلاب عسكري في عام ٦١٨ م ، و قام أحد الضباط الثائرين الناجحين ، وكان يدعى « لي شيه مين » بتنصيب والده إمبراطوراً مؤسساً بذلك أسرة تانج الحاكمة ، و استغرق منه التخلص من خصومه عقداً من الزمان ضمن بعده تنازل والده عن العرش ، واعتلى « لي شيه مين » عرش الإمبراطورية ليصبح الإمبراطور « تاي تسونج » .

أسرة التانج ٦١٨ – ٩٠٧ م

كانت الإمبراطورية التي وطدت دعائمها أسرة تانج أكبر دول العالم مساحةً وربما أكثرها سكاناً آنذاك ، و كان ذلك العصرعصر شارلمان في أوروبا و ألفريد الأكبر في انجلترا ، وكان « لي شيه مين » أول حكام التانج البارزين العديدين الذين ازدهرت الإمبراطورية الصينية خلال عهودهم و حققت أعلى درجات التقدم الإقتصادي الثقافي الذي اشتهر به ذلك العصر ، و كان ثاني هؤلاء الحكام البارزين امرأة وهي الإمبراطورة « وو » (٦٨٣ – ٧٠٥ م) و كانت سيدة الصين الأولى والوحيدة التي لقبت بـ "ابن السماء" .



الإمبراطور تانج تاي تسونج (لي شيه مين) ٦٢٦ – ٦٤٩ م ، وهو مؤسس أسرة التانج الحاكمة ، من نقش على بلاطة حجرية في شنسي .

وكان « لي شيه مين » قائدًا قديرًا و عالمًا و إداريًا ناجحًا ، و عندما تعلم الدرس من سقوط الأسر الحاكمة السابقة قال : " إن الإمبراطور يحب أن يُشيد له قصر لكن الناس لايحبون تشييده ، و الإمبراطور يشتهي أواني اللحم لكن الناس يكرهون العمل بالسخرة ، ومن الخطر إثقال كاهل الناس بأعمال السخرة المفرطة ." كما قال : "إن الإمبراطور الذي يجمع ضرائب باهظة للغاية أشبه برجل يأكل لحم جسده ، وعندما ينتهي اللحم يموت هذا الرجل ."

ولم تكن إعادة توحيد الصين وقيام الإمبراطورية الثانية مسألة نجاحات عسكرية أو إنجازات شخصية فى المقام الأول لكنهما قامتا على ما شهدته العقود السابقة من تطورات ، فقد ساعدت القنوات ووسائل الإتصال الأخرى على تعزيز الوحدة السياسية والإقتصادية للإمبراطورية وجعل الحكم المركزى فعالاً ومؤثراً .

ولم يقم حكام التانج الأوائل بإعادة نظام المساواة فى توزيع الأراضى الزراعية فحسب ، بل قاموا أيضاً بتطبيقه بصورة أشمل و أوسع عما كان عليه من ذى قبل ، فكان يتم عمل إحصاء كامل كل ثلاث سنوات للسكان فى كل إقليم و منطقة يشمل أسماء و أعمار جميع أفراد أسر الفلاحين ، وتم تخفيض الضرائب السنوية ومنح تنازلات ، وكان يمكن للرجل أن يحل نفسه من ضريبة الحرير بالعمل مدة خمسة عشر يوماً إضافية فى أعمال السخرة و العمل مدة ثلاثين يوماً إضافية فى أعمال السخرة كى يحصل على إعفاء من ضريبة الحبوب أيضاً ، ومن ناحية أخرى فقد كان من الممكن إبدال العمل بالسخرة بضرائب المنسوجات أو المال ، و قد مكنت هذه المرونة الفلاحين من تفادى الإنقطاع عن أعمالهم الزراعية فى الأوقات الحرجة ، وكانت أعمال السخرة تُنفذُ كاملة فى أوقات الكوارث الطبيعية ، كما كانت الإعفاءات من الضرائب و السخرة تمنح لأولئك الذين كانوا يقومون بزراعة أراض جديدة .

وأدى نظام الإبدال إلى نشأة وحدات ذات قيمة موحدة فى السلع الرئيسية، وهكذا أصبحت سلسلة من ألف ورقة مالية أو أوقية من الفضة أو "بوشل" من الحبوب أو لفافة من الحرير أو وزن من خيوط الحرير متساوية القيمة تقريباً .

وكانت نتائج هذه الإجراءات مُرضية لبعض الوقت ، فقد خدمت مصالح الدولة وكذلك الفلاحين بإبقاء الكثير من الفلاحين قادرين على الوفاء بديونهم و " متحررين " من قيود العبودية فى الضياع الواسعة حيث كان أصحاب الأراضى معفون من دفع الضرائب ، و كان الفلاح " الحر " هو الفلاح الذى يدفع الضرائب فى سجلات الضرائب الحكومية ، و فى وقت لاحق من عهد التانج تحول دفع الضرائب من ضريبة على الرؤوس إلى ضريبة على الأرض ، وتم حفر المزيد من قنوات الرى وشن حملات ناجحة ضد أسراب الجراد، وزاد الإنتاج الزراعى والحيوانى .

وتم إدخال المزيد من التعديلات على درجات العقوبة فى قانون العقوبات ، فكان أخفها الجلد وأشدها النفى لمدد تصل إلى ثلاث سنوات داخل حدود الإقليم الذى يعيش فيه المذنب أو النفى مدى الحياة إلى إقليم ما ناءٍ كجند لحراسة السور العظيم أو حاميات لآسيا الوسطى أو الأقاليم الجنوبية ذات الأجواء غير الصحية للإمبراطورية .



يقول المثل الصينى " إذا انحنيت فاخفض رأسك ." و هنا موظف جاثيًا على ركبتيه ، تمثال فخارى من عصر التانج .

وكانت العقوبة الخامسة الإعدام بوسائل عدة ، وسن « لى شيه مين » قانونًا ينص على أن كل حكم بالإعدام يجب مراجعته فى ثلاثة أيام منفصلة ، وأن القاضى المعنى يجب أن يمتنع عن تناول اللحوم وسماع الموسيقى و اللهو خلال هذه المدة حتى يعى الطبيعة الجادة لمسئوليته طوال هذا الوقت ، و كانت القوانين ضد الثورة بالغة الصرامة كما كان الحال فى كل العصور فكانت تشمل أسرة المدان بحسب درجة القرابة حيث كان يعتقد بأن الفرد لا ينفصل عن أسرته ،

الإمتحانات والبيروقراطية

لقد اختفى نظام هان الأول لاختيار الموظفين الحكوميين على أساس الأهلية والإستحقاق فى قرون الإنقسام ، ومالت الأسر المحلية ذات القوة والنفوذ إلى تزكية

مرشحيها لشغل الوظائف ، وكان يجرى تعيين الرجال عن طريق الحظوة أو المحاباة بصرف النظر عن الأهلية و الإستحقاق .

وقد أحيا إمبراطور السوى الأول نظام هان الخاص بالإمتحانات والذى كان يقوم على الأعمال الكلاسيكية الكونفوشيوسية ، و قام التانج بتنظيمها و التوسع فيها ، وقام « لى شيه مينج » بتوسعة المدارس الإمبراطورية فى تشانجان ، وكان أكثر من ثلاثة آلاف طالب يقيمون بها، كما تم الحفاظ على المدارس الإقليمية أيضاً .

وتضمنت الإمتحانات الخاصة بنيل أعلى درجة علمية "تشين – شيه" مجال الأدب كاملاً ، وكان المرشحون مطالبون بكتابة مقالات و قصائد طبقًا للقواعد التقليدية للإسلوب والكتابة عن المشكلات السياسية و الإدارية ، وتجمع عدة آلاف من الطلاب فى عواصمهم الإقليمية من أجل هذه الإختبارات ، وكان يتم استدعاء المرشحين الناجحين إلى العاصمة من أجل سلسلة أخرى من الإمتحانات التحريرية والشفهية قبل منح أى منصب سياسى ، وكان المظهر وكذلك القدرة الشفهية تؤخذان فى الإعتبار فى هذه المرحلة ، و كانت هناك سلسلة أخرى من الإمتحانات لترتيب المرشحين المختارين .

وبلغ النظام الصينى للخدمة المدنية القائم على الإمتحانات (و الذى سبق نظام التوظيف البريطانى للعاملين المدنيين عن طريق الإمتحان بأكثر من ألف عام) تطوره الكامل خلال عهد التانج ، وساعد على تخريج المدراء القادرين على الوفاء بمطالب إمبراطورية عظيمة تخضع للحكم المركزى حيث كان تسجيل الضرائب والسخرة وتنظيمهما و إدارة الأشغال العامة كصيانة المياه و كذلك المشروعات الحكومية تتطلب مستوى عالٍ من الكفاءة البيروقراطية .

وظل نظام الإمتحان الإمبراطورى قائمًا – إبتداءً من عصر التانج حتى القرن السابع عشر – كسبيل رئيسى للوظيفة الرسمية ، وأصبح التعليم مرتبطاً بهذه الإمتحانات ومن ثم أصبح نظامًا لاختيار و ليس تعليم النخبة الصينية الحاكمة ، وكان النجاح بالنسبة للطالب أشبه بعطية إلهية :

كان يرتدى قلنسوة من الشاش الأسود ورداءً حريريًا أخضر اللون ،

وخاتمًا من اليشب على قلنسوته و حزامًا أرجوانى اللون ،

وكانت جواربه بيضاء بلون الثلج ،

ونعليه كسحابتين ورديتين ،

وكان بهى الطلعة وذو مهابة فطرية ،

إن رجلاً بهذا الوصف إن لم يكن إلهًا ،

لابد أن يكون موظفًا حكوميًا رفيع المستوى أو حاكمًا على الأقل .

ولنيل مثل هذه النعم كان من الممكن لطالب العلم أن يضحى بشبابه :

كانت ظلال العصافير المتزاوجة تعبر كتابه

من أزهار شجر الحور التى تتدلى فوق رأسه ...

ومن زاوية نافذته راح الطالب المتعب

يتطلع كى يدرك أن الربيع قد ولى منذ وقت طويل .

وبمجرد الحصول على وظيفة رسمية كانت الترقية تتحقق عن طريق الأقدمية وتزكية الرؤساء ونظام معقد لترتيب الأهلية و الإستحقاق ، وكان القائمون على رعاية الموظف الحكومى يشاركونه السقوط إذا ما فقد الحظوة ، ولم تكن وظيفة الحكومة القيام بتطبيق القوانين بقدر ما كانت القيام بتحصيل الإيرادات والارتقاء بالزراعة التى كانت تعتمد عليها الإيرادات ، ومارس الإمبراطور السلطة العليا بمعاونة مجلس صغير من الوزراء ، وكما كانت الإمبراطورية مقسمة إلى ولايات كانت مقسمة بدورها إلى مناطق خاضعة لحكام (مسئولين حكوميين) كانوا يتمتعون بكافة الصلاحيات ويمارسون سيطرة كاملة على المناطق الخاضعة لهم ، وكانوا مسئولين عن تحصيل الإيرادات والإشراف على الأشغال العامة وحفظ الأمن الذى تضمن تطبيق قوانين العقوبات .

وقد ساعد " نظام الرؤساء الثلاثة " في عصر التانج على ضمان جمع الضرائب ، وكان الناس مقسمين إلى جماعات مسئولة بشكل متبادل عن سلوكيات بعضها البعض و دفع الضرائب ، و كان يجرى تجميع خمس أسر في جوار ؛ وكانت خمس جوارات تشكل قرية ، و خمس قرى تشكل اتحاداً ، وكان يتم تعيين رئيس على كل مستوى ، وكان هذا يمثل توسعاً في نظام المسئولية الجماعية .

وكان أباطرة التانج يلقون الدعم والتأييد من جانب وزراء أكفاء ، وأصبحت أليات الحكومة المركزية وكذلك نظام الإمتحان نموذجين يحتذيان للأجيال القادمة ، واهتم الإمبراطور بنفسه بالإمتحانات لاختيار أفضل المرشحين في نهاية الأمر .

وكانت الإمتحانات مفتوحة للجميع - بوجه عام - عدا التجار والجماعات " الحقيرة " أو المنبوذة التي ضمت الممثلين المسرحيين و الشحاذين والعبيد والعاهرات وعمال المراكب في الساحل الجنوبي و غيرهم ممن لم تكن لهم أية حقوق اجتماعية ، وعدا هؤلاء كان جميع من لديهم القدرة على تحمل نفقات التعليم مؤهلين لدخول هذه الإمتحانات ، وقد أدى العمل الحكومي إلى نشأة امتياز دائم ، حيث أصبح النفوذ والثراء اللذين تحققا ميزة وراثية لأبناء النخبة في ظل احتكارهم للتعليم عن طريق الثراء ، وكان المسئولون الحكوميون يتمتعون بالإعفاء - وفقًا لدرجاتهم - من دفع الضرائب ومن السخرة و عادة من الخدمة العسكرية ، وكانت لهم حصانة أمام القانون قاموا بتطبيقها هم أنفسهم كقضاة ، وكانت كل الفرص متاحة أمامهم لإثراء أنفسهم والحصول على امتيازات لأسرهم يؤازرهم في ذلك الإيمان الكونفوشيوسي الراسخ والمشجع بأن هذا إنما هو واجبهم البنوي .

وكانت التعيينات المحلية تتم عن طريق أعضاء البيروقراطية المركزية الذين كانوا هم أيضا متأثرين بالاعتبارات الكونفوشيوسية و كذلك أهلية المرشح ، وكان كبار الموظفين الحكوميين يتمتعون بامتياز تزكية صنائعهم لشغل الوظائف ومن ثم تجنب نظام الإمتحان .

وعلاوة على ذلك فقد أصبح يُنظر إلى التعليم على أنه شرط أساسي للعمل الحكومي في المقام الأول ، وتركز الإهتمام على المعرفة الأدبية واستيعاب المبادىء

والتعاليم الكونفوشيوسية ، و كان هناك اهتمام – يتسم بالحذلقة – بالإقتباس والتحليل النصى و اصرار على اتباع المذاهب و الآراء القويمة فى العلم والمعرفة ، وكانت نظرة أولئك الذين ظلوا على قيد الحياة طوال عهد النظام الحاكم و بلغوا أعلى المستويات ضيقة و جامدة .

وكان كثير من المسئولين الحكوميين متحذلقين أو محافظين للغاية بحيث تعذر عليهم أن يكونوا مديرين أكفاء فضلاً عن سوء تكيفهم الذى جعل من الصعب عليهم التعامل مع التحول الإجتماعي أو السياسي .

ولكنه من الخطأ الإنتقاص من شأن ما قدمه المسئولون من العلماء ، وكبار الموظفين من إسهامات فى إحياء الإمبراطورية الصينية و توطيد دعائم الحضارة الصينية ، وكانت بيروقراطية العلماء أكثر التنظيمات الإدارية تقدماً في عصر التانج ، وكان الموظفون الذين يتم اختيارهم عن طريق الإمتحان ويعينون من قبل الإمبراطور يرسلون إلي خارج العاصمة كي يحكموا كافة أقاليم الإمبراطورية ، وبرغم البيئات الإجتماعية الثرية المترفة التي كان العلماء ينتمون إليها فقد كان النظام القائم يولى العلم مهابة وإجلالاً فائقين مقابل المعايير البربرية للقدرة العسكرية أو أصل المرء أو الثروة ، وكغيرها من الأسر الحاكمة كان لدى التانج ترتيب هرمي للشرف الوراثي ولكنه برغم ما كان يوفره امتلاك اللقب من ثراء إلا أنه لم يكن يمنح النفوذ والسلطة بحد ذاته .

كما أسهم نظام كبار الموظفين أيضاً في تحقيق الوحدة الثقافية فى وقت كانت فيه الإمبراطورية تضم كثيراً من الشعوب من الشمال و الشمال الغربى و الجنوب ، والإرتقاء بمفاهيم الولاء للسلطة القائمة و أسبقية المصالح الأسرية وحس قوى للذوق واللياقة ، وبرغم الفترات المتكررة للصراع المدنى والإنقسام السياسى ظلت الوحدة الثقافية الصينية قائمة ، وقد أفاد هذا النظام أسرة التانج قروناً وظل قائماً حتى القرن العشرين .

وهناك قصة يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثامن كشاهد على الأحلام الخاصة بالنجاح العلمى لدى الصينيين من كافة طبقات المجتمع على مدى قرون من الزمان ،

وتُعرف هذه القصة بـ " حلم الدُخن الأصفر" حيث تروى أن : فلاحًا عجوزًا قابل أحد الطاويين فى حانة ، وبينما كان صاحب الحانة يعد وعاء من ثريد الدخن لعشائهما غلب الفلاح النعاس فحلم فى أثناء نومه بأنه اجتاز الإمتحان الحكومى بامتياز وأسندت إليه مناصب هامة و أصبح له بيت خاص و تزوج بسيدة من أعرق العائلات وأخيرًا أصبح حاكمًا للعاصمة والمنتصر على أحد الجيوش البربرية، ثم أنه سلم من الخزى وفقدان الحظوة بسبب مكيدة دبرها له طرف منافس وأعيد إلى منصبه، ولم يحصل أبناؤه على مناصب عليا فحسب بل و أمدوا الأسرة بذرية كبيرة ، وكان يتأمل التقاعد الهانئ ومثواه الأخير مع أسلافه عندما استيقظ ليجد نفسه فى الحانة الحقيرة مرة أخرى حيث كان وعاء الثريد ما يزال ساخنًا ، وقال له الطاوى " هذا هو حال البشر " .

وقد أسهم الفائض الزراعى مقترنًا بالكفاءة الإدارية فى التوسع العظيم الذى حدث خلال عصر التانج ، وظل التناقض قائمًا بين الفلاح الفقير الذى كان يصارع من أجل البقاء و صاحب الأرض المترف المعفى من الضرائب والإلتزامات الأخرى ، لكن الإمبراطورية استفادت من فترة حل فيها الأمن والسلام خلال القرن الأول من عصر التانج الذى شهد التطبيق الأكثر شمولاً لنظام المساواة فى توزيع الأراضى وأعمال الرى والتحرر من السخرة .

وأدى الفائض الزراعى أيضًا إلى الإزدهار المتزايد للصناعات اليدوية وزيادة التجارة ونشأة المدن التى اتسعت رقعتها لتصبح مراكز عالمية مزدهرة ، وبفضل نظام النقل من الجنوب إلى الشمال الذى وفرته القناة العظيمة أمكن حل مشكلة تزويد العاصمة – حيث البيروقراطية على نطاق واسع وكذلك البلاط – بالمؤن إلى حد ما ، وأمكن للعاصمة تشانجان تلقى الدعم من الأقاليم الشرقية الوسطى المنتجة للحبوب – السهل العظيم ووادى نهر اليانجتسى – ونظرًا لأن تشانجان كانت تقع على الهضبة التى تعلو منحدرات سان مين الخطرة للنهر الأصفر فقد كانت الخسائر فى هذه المنطقة من جراء تحطم السفن فادحة ، وفى إحدى المرات تم تجنب هذه المنحدرات بنقل الحبوب إلى عربات على البر حيث وصل عدد العربات المستخدمة لهذا الغرض حوالى ١٨٠٠ عربة ؛ و تم التخلى عن نظام النقل هذا لكونه غير اقتصادى ،

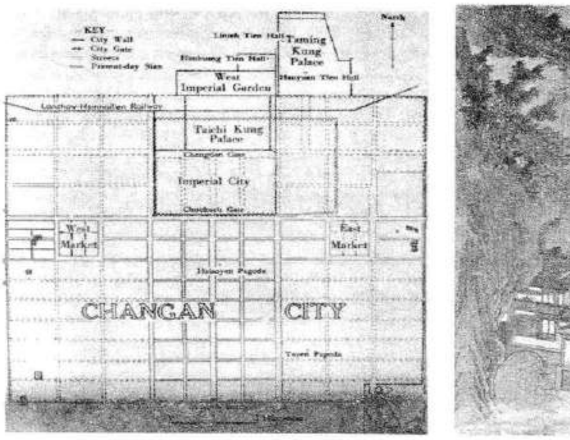
وكانت معظم المدن التى ازدهرت فى عصر التانج تقع على المجارى المائية العظيمة أو خطوط النقل من الأقاليم البعيدة، وامتدت الطرق من تشانجان إلى كافة أنحاء الإمبراطورية .

وقد علق حاج بوذى يابانى يدعى « انين » كان مسافراً عبر المملكة الوسطى فى وقت لاحق من عصر التانج على الطرق العامة التى أُحْسِنَ إنشاؤها فى الإمبراطورية ، وأنه لم يحدث أبداً أن تعرض هو و رفاقه لأى خطر من قطاع الطرق ، ولم يضلوا طريقهم أبداً ، ووصف أبراج المراقبة المقامة على طول الطريق ، والربوات الترابية المربعة المدببة فى القمة والأعرض بأسفل ، والحانات والوجبات الخفيفة المتوافرة فى كل مكان ، وذكر « انين » أنه كانت هناك محطات على طول المجارى المائية وكذلك على الطرق حيث كان يتم تغيير المراكب بدلاً من الخيل .

تشانجان

كانت تشانجان عاصمة للأسر الحاكمة القديمة كـ " التشاو " و " التشين " و " الهان " ، و أعاد « ون تى » مؤسس أسرة السوى الحاكمة بناء المدينة واتخذها عاصمة له وأصبحت أعظم عاصمة فى أسيا فى عصر التانج ، وبلغ عدد سكان المدينة وضواحيها فى قمة ازدهارها قرابة مليونى نسمة ، وكانت عاصمة عالمية ، والطرف الشرقى لطريق القوافل العظيم الذى كان يمر عبر أسيا .

وكانت تشانجان تغطى مساحة مستطيلة تقدر بخمسة أميال x ٦ (حيث تقع مدينة سيان اليوم وتغطى مساحة تقدر بميلين x ٣) ، و كمعظم العواصم القديمة للمملكة الوسطى كانت تشانجان تتكون من ثلاثة أجزاء – القصر والمدينة الإمبراطورية والمدينة الخارجية ، حيث كان يفصل كل منها عن الأخرى أسوار من التراب المدكوك ، وكان عامة الناس يعيشون فى المدينة الخارجية التى كانت تشبه رقعة الشطرنج تقسمها الشوارع المتقاطعة بزوايا قائمة ، وكان لهذا الجزء من المدينة سوق شرقى و سوق غربى مع وجود طريق عام مركزى عظيم يؤدى إلى





على اليسار : مخطط مدينة تشانجان عاصمة أسرة التانج الحاكمة كما كشفت عنها الحفريات ، وقد تعرضت هذه المدينة للنهب و الإحراق عدة مرات.

وعلى اليمين : قصر تشانجان، صورة تقليدية مأخوذة عن لى سو هسون ، عصر التانج.

المدينة الإمبراطورية وممتد إلى المدينة التى يوجد بها القصر، وكانت صفوف أشجار الدردار والخرنوب تحف الخنادق بجوار الطريق العام الرئيسى لتوفر الظل لعربات كبار موظفى الدولة والنبلاء ذات اللون القرمزى و التى كانت تجرها الخيول .

وقد قسمت الأزقة كلا السوقين إلى تسعة مربعات أو أحياء كان المركزى منها هو المركز الإدارى بما فيه من مديرين و مشرفين وكتبة ، وكان كل قسم من السوق يحتوى على أكشاك ومستودعات للتجار والحرفيين المشتغلين بنفس الحرفة ، وكانت الأحياء محاطة بخنادق مائية و متاريس و لم يكن من الممكن دخولها الإ عن طريق الشوارع الرئيسية ، ولم يكن يُسمَح بفتح البوابة مباشرة على الشارع إلا لأحد كبار الموظفين ، و كانت الطبول تقرع علامة على حظر التجول نظرًا لأن الأحياء كانت تُغلق ليلاً :

" كانت الطبول تقرع عند غروب الشمس ثمانمائة مرة وكانت البوابات تُغلق ، وابتداءً من خفارة الليل الثانية كان جند المراقبة الخيالة الذين استخدمهم الضباط

لحفظ الأمن والنظام فى الشوارع يقومون بجولات وإصدار صيحات الخفارة فى حين كانت الدوريات العسكرية تقوم بجولاتها فى صمت ، وفى الخفارة الخامسة كانت الطبول التى كانت فى القصر تقرع أيضاً ثم كان قرع الطبول فى كافة الشوارع حتى يسمع الضجيج فى كل مكان ، ثم تفتح بوابات الأحياء والأسواق . "

وبمرور الزمن أدى النمو التجارى إلى انحطاط نظام الأحياء الصارم ومعه حظر التجول ، وكانت الأسواق تواصل عملها حتى وقت متأخر من الليل فى القرن الثامن ، وكانت المتاجر والورش والأكشاك الخاصة بأكثر من مائتى حرفة تحف الشوارع حيث كانت توفر الحرائر و الثياب و سروج وأطقم الخيل و الحلى والفواكه والمؤن ، وكشفت الحفريات عن عدد كبير ومتنوع من الأشياء والكثير من العملات المعدنية وأشياء عظمية منحوتة كدبابيس الشعر والأمشاط والخرز الزجاجى واللآلئ والحلى المصنوعة من العقيق و البلور ، وطبقاً لما أوردته السجلات التاريخية فقد كان التجار من وسط وغرب آسيا يملكون حوانيت لبيع الخمور والحلى فى السوق الغربى حيث كان يوجد تجار من فارس كانوا خبراء فى تقدير قيمة الجواهر وتجار آخرون كانوا يديرون حوانيت الخمور حيث كانت الفتيات الأجنبيات يقمن على خدمة الزبائن ، وكان بعض هؤلاء الرجال من الأدباء كالشاعر« لى بو » الذى قام بزيارة أحد هذه الأماكن فى أحد الأيام :

" كالزهرة كانت الخادمة الأجنبية

الجالسة خلف الموقد

تبتسم لنسيم الربيع ثم تتقدم للرقص

وتهز كم ثوبها ،

فكيف يمكنك العودة إلى المنزل

دون أن تصير ثملاً ؟ "

وعثر على العملات الساسانية القادمة من فارس والعملات الذهبية من الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى قبور التانج ، كما تدل النقوش على قبور الأجانب على التجارة الدولية المزدهرة آنذاك .

وكانت المدينة التى يوجد بها القصر و يقيم فيها الإمبراطور تغطي مساحة تقدر بحوالى ٢ ميل مربع ، وكان يقع خلفها المتنزه الإمبراطورى الذى كان ينحدر إلى أسفل إلى « نهر وى » ، و كان هذا المتنزه ببحيراته وسرادقاته وحدائقه و قصوره الصغيرة مصممًا لمتعة أسرة الإمبراطور و حاشيته ، وقد أنشىء قصر جديد فى المتنزه الإمبراطورى فى القرن السابع على أرض مرتفعة بعد أن اكتشف أن القصر السابق كان حارًا للغاية فى الصيف ، و فى إحدى قاعات القصر الجديد التى كُسيت أرضيتها بالرخام كان الإمبراطور يقيم الولائم ، و تذكر المدونات التاريخية أنه أقام ذات مرة وليمة لمائتين من ضباط الجيش ، و ينبىء لوح حجرى تم اكتشافه عن طريق الحفر عن بناء للعب بولو قرب القصر فى القرن التاسع ، وتشير المدونات التاريخية الأخرى إلى أن الإمبراطور شاهد مباراة فى البولو بين بعض موظفيه وأفراد من حاشيته التبتيين الذين حضروا لمرافقة الأميرة « ون تشنج » إلى ملك التبت الذى كانت ستتزوجه و ذلك فى القرن الثامن .

والمبانى الصينية التقليدية لها أسوار قليلة ، وكانت هناك حواجز من الخشب أو الخيزران المنحوت للفصل بين المناطق المختلفة ، وكانت عوارض الأسطح والأشغال الخشبية الداعمة الأخرى تطلى أو تدهن فى تصميمات معقدة ذات ألوان زاهية وورق ذهبى اللون ، وكانت الأسطح المكسوة بالآجر آخذة فى الميل لأعلى عند الحافة كالأجنحة لتُنفذَ بذلك أشعة الشمس فى الشتاء وتوفر الظل فى الصيف ، وكان الآجر الموجود بالأطراف عند الإفريز ذى زخارف رائعة .

وكانت المدينة الإمبراطورية التى كان النبلاء وموظفو الدولة يقيمون فيها محاطة بسور أيضًا ، و كانت هذه المنطقة محظورة على العامة ، وتضمن قانون التانج للعقوبات توقيع عقوبة بـ ٧٠ ضربة عصا للساكن من العامة الذى يكتشف تعديه على الأسوار الواقية فى الساحات المسيجة المحيطة بالمبانى الحكومية أو حتى أسوار الأحياء والأسواق .

وشمل التطور الإقتصادى فى عصر التانج اتساع نطاق الرقابة الحكومية ، وكانت الرقابة الحكومية للتعدين مبدأً راسخًا منذ زمن طويل خاصة لمناجم النحاس والفضة – التى كانت توفر المعادن اللازمة لسك العملة وصناعة الأسلحة و الأدوات ،

وقامت الدولة باستخدام أعداد كبيرة من عمال المناجم و عمال سبك المعادن وعادة ما كان أولئك يعفون من الأشكال الأخرى للسخرة و الخدمة العسكرية ، واحتكرت الحكومة انتاج الملح و كان معظم جهاز النقل تابعًا للحكومة ، وكانت السلع الرئيسية والحبوب و القماش تصل العاصمة عبر سلسلة من المراحل المعقدة التى كانت معظمها تخضع لرقابة السلطات العامة ، و كان النقل النهرى والقنوات و مخازن الغلال تابعة للحكومة ، ونتيجة للممارسات و الإجراءات السابقة كانت هناك حاجة للعقود لاتمام كافة عمليات شراء العبيد أو الخيل أو الثيران أو الأرض أو البيوت ، وكانت ضريبة تقدر بـ ٤٪ تدفع على كل عملية بيع ، وكان المشترى يساهم بـ٣٪ والبائع بـ ١٪ ، وكانت الضريبة تذهب إلى خزانة الدولة ،

وعند كل مخاضة من مواضع خوض النهر شرق و غرب مدن العاصمة كان يقام معْلم لموضع الخوض و مخفر شرطة ويعين خمسة بحارة لضبط البضائع المهربة والمهربين ، و كان يتم دفع ضريبة خوض لخزانة الدولة تقدر بـ١٠٪ على البضائع كالقصب و الفحم و السمك و حطب الوقود ، وكان لكل ولاية رئيسية أو فرعية يبلغ الحد الأدنى لعدد سكانها ٣٠٠٠ أسرة (حوالى ١٥٠٠٠ نسمة) الحق فى إقامة سوق نظامى تحت اشراف مدير ، وهكذا كان هناك أكثر من مائة سوق كبير وكثير من الأسواق الصغيرة شمال نهر « هوى » ، وكان كل سوق يخضع لاشراف موظفى الدولة الذين كانوا يفرضون ضرائب باهظة .

وعظم شأن المرابون فى هذه المراكز التجارية ، وكانت أسعار الفائدة ٦٪ شهريا ، وكان للدولة نصيب في الربا الفاحش حيث كانت تفرض رسومًا تقدر بـ ٧٪ على الإعتمادات المالية الحكومية ، وبرغم ارتفاع الضرائب وأسعار الفائدة فقد ازدهرت التجارة منذ القرن الرابع فصاعداً، و أتى كثير من التجار من بلاد ما وراء البحار ، وأقام العرب والفرس مستعمرة تجارية كبيرة فى كانتون .

وكان السوق العظيم فى لويانج مركزًا تجاريًا مزدهرًا منذ عصر أسرة وى الشمالية فى القرن الرابع ، وتجمعت حول المدينة وحدات تقسيم إدارى أو قرى كانت أحياء للحرفيين و التجار ، وكان لكل حرفة قاعدتها الخاصة بها ، وكان إثنان من

الأحياء يعرفان بـ " العلاقات التجارية " و " تداول البضائع " ، وكانت هناك أماكن للهو والتسلية والحانات والنُزُل و المواخير في السوق الجنوبي ، وكانت المشروبات الكحولية تباع على الجانب الغربي ، وكانت الأحياء المعروفة بـ " حب الأم وتقوى الأبناء والاستسلام النهائي " تحوي منشآت خاصة بمتعهدي دفن الموتى و صانعي التوابيت .

وكان هناك توسع عظيم في انتاج الحرير في عصر التانج ، وفي أحد المراكز التي كانت تعمل – بشكل أساسي – في غزل النسيج لتقديمه كحرير الجزية في البلاط كان هناك ما يصل عدده إلى ٥٠٠ نول تعمل جميعها ، كما زاد انتاج الخزف عالي إلى الجودة في عصر التانج أيضًا .

ولم تقلل الفوائد الواضحة للتجارة مما ارتبط بها من خزي وعار ، حيث استمرت النظرة إلى التجارة على أنها نشاط طفيلي وعقيم ، ولم تقتصر معاناة التجار على احتلالهم أدنى منزلة اجتماعية فحسب ، بل حملوا أيضًا العبء الثقيل للمكوس والضرائب التي تم فرضها بهدف دعم خزانة الدولة والسيطرة على نمو النشاط التجاري، و في الوقت الذي كانت فيه مدن العصور الوسطى في أوروبا قاعدة قامت على أساسها المؤسسة التجارية البرجوازية بثورة رأسمالية كانت المدن في الصين في عصر التانج أيضًا مقرًا للحكم المحلي والترتيب الهرمي السائد لموظفي الحكومة المعادين للتجار الذين ظلوا مبعدين تمامًا عن شغل أية وظائف حكومية لفترات طويلة ، وقد ساعدت النقابات التجارية التي تم تشكيلها لحماية مصالح التجار على تعزيز السيطرة البيروقراطية عليهم حيث أصبحت هذه النقابات مسئولة عن توريد شحنات من منتجاتها للحكومة .

وقد دام حكم « لي شيه مين » أعظم أباطرة التانج مدة عشرين عامًا فقط أو نحو ذلك (٦٢٦ – ٦٤٩ م) ، وعندما اعتلى العرش لأول مرة أصابه المرض ، ويقال أن نومه كان يقلقه شيطان ظل يقرع باب غرفة النوم الإمبراطورية بعنف ، وأخذت الإمبراطورة بمشورة كبار الوزراء للتعامل مع هذا الأمر الخطير ، وعرض اثنان من القادة حراسة الأبواب مرتدين عدة الحرب الكاملة ، ونجحت هذه الحيلة، حيث فزع الشيطان ونام لي شيه مين في هدوء ، ورغم ذلك فقد أصبح الإمبراطور قلقًا بعد عدة



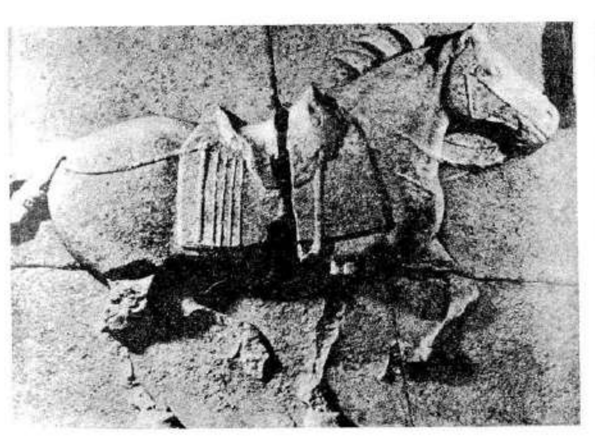
تشونج كوى الإله الحارس ، و يقال أن تشونج كوى كان عالمًا بارعًا فى عصر التانج ورجل طيب القلب برغم مظهره ، وبعد وفاته تم تأليهه كحامى من الأشباح و الشياطين ، وقد وضعت صور الآلهة الحارسة بجانب الأبواب منذ زمن أول إمبراطور للتانج ، و الأبواب الصينية لها جدران أمامية أيضًا كان يعتقد أنها تحمى المقيمين من القوى المؤذية ، رسم تقليدى على قالب خشبى .

ليالى على صحة قادته الذين ظلوا قائمين على راحته على حساب راحتهم الشخصية ، ورأى أن وضع صور للقادة خارج باب غرفته سوف يؤدى نفس الغرض .

وكما كان متوقعاً فقد اعتقدت الشياطين الساذجة بأن هذه الصور حقيقية ، واستراح القادة وشفى الإمبراطور، ونجحت نفس الحيل على الباب الخلفى الذى حول الشياطين انتباههم إليه عندما عاد إليهم ذكاؤهم ، ومنذ ذلك الحين ظلت صور القادة وهم بلباس الحرب تعلق كإجراء وقائى على أبواب المنازل فى أنحاء المملكة الوسطى .

ولم يكد الزمن يدور دورته حتى عاد الشيطان الخبيث لينجح هذه المرة ، و عندما علم بدنو أجله اعتزل « لى شيه مين » فى صيف عام ٦٤٩م وذهب إلى مقر اقامته الصيفى المفضل فى قصر كينجفيشر الأزرق فى جبال نان شان جنوب العاصمة حيث توفى فى سن التاسعة و الأربعين .

ومن بين آثار اهتمامه بالثقافة والفنون أربعة ألواح حجرية بقيت من تشانجان نقشت عليها كتب الكلاسيكيات و نسخت بفرشاة الإمبراطور الخاصة ، وازدانت الطرق المؤدية إلى قبره فى تشاولنج فى شنسى بالصور الشهيرة المنقوشة للخيل والتى رسمت فى حياة الإمبراطور ،





على اليسار : « شيه فا تشيه » أحد أفراس القتال الست الشهيرة للإمبراطور « تاى تسونج » ، وقد نحتت بأمر الإمبراطور .
وعلى اليمين : الإمبراطورة وو " ابن السماء" (٦٩٠– ٧٠٥م) و هى المرأة الوحيدة التى حكمت الصين كملكة بحكم حقها الشخصى خلفاً للإمبراطور ، صورة تقليدية .

وواصلت سيدة الصين الأولى و الوحيدة التي حكمت كمملكة عن جدارة واستحقاق الحكم المكين الذي افتتح به العهد، وعلى مدى قرون كان الحكم على الإمبراطورة « وو » (٦٨٣ – ٧٠٥ م) بأنها امرأة شريرة وحاكمة قاسية ، ومن المحتمل أن وجهة النظر هذه لها جذورها في المدونات المسمومة لمؤرخي البلاط الذين كانوا يؤيدون الأحزاب المنافسة و يرفعون الألوية التقليدية التي كانت تنكر دور النساء في الحياة العامة و تتوقع منهن البقاء خانعات للرجال ، ومن غير الممكن معرفة مدى صدق القصة التقليدية التي تُروى عن توليها الحكم ، ولكن حتى إذا كان جزء صغير منها فقط صحيحاً فقد أثبتت الإمبراطورة أنها ذات حنكة سياسية لا حدود لها ومضاء عزم لا يلين وحصافة ورجاحة عقل .

وتم استدعاء « وو تشاو » وكانت فتاة جميلة في الثالثة عشر من عمرها إلى بلاط لي شيه مين ، حيث انضمت إلى الحريم الإمبراطوري بمنزلة محظية من الدرجة الخامسة ويلقب " الأنيقة " ، (وكان القصر الداخلي يضم ما لايقل عن ١٢٢ سيدة يحملن درجات رسمية و محظيات من مختلف الدرجات ، وبالطبع كانت الإمبراطورة السيدة الأولى التي كانت الخلافة من حق أولادها فقط .) وكان يسبق « وو » في المرتبة " الجميلات " و " بارعات الجمال " .

وعندما توفي الإمبراطور كانت « وو » في الرابعة و العشرين من عمرها و تتمتع بما يكفي من الطاقة و الحيوية والطموح على نحو يفوق أي عدد من أبناء السماء ، وكانت قد نجحت في ذلك الوقت في جذب انتباه ولي العهد، وتم إرسال « وو تشاو » بعيداً عن القصر مع غيرها من المحظيات إلى دير بوذي كما كان معتاداً حيث كانت السيدات الزائدات عن العدد المطلوب يحلقن رؤوسهن و يعشن بقية حياتهن محتشمات في عزلة ، وبعد زيارة الإمبراطور الجديد « تانج كاو تسونج » للدير أُعيدت « وو » إلى البلاط ، وقد تسبب هذا الإجراء إلى الإمبراطورة وانج العاقر التي هداها تفكيرها إلى إيجاد انجذاب معاكس لدى الإمبراطور تجاه المحظية التي كان متيماً بها آنذاك ، ونجحت الخطة بشكل يفوق الحد و أنجبت « وو » إبناً للإمبراطور ، و نتيجة للمكيدة التي أعقبت ذلك تم إنزال الإمبراطورة « وانج » من مرتبتها وسجنها ومعها المحبوبة السابقة وتمت ترقية « وو تشاو » لتصبح الإمبراطورة .

وتذكر إحدى روايات القصة أن الإمبراطور رق قلبه عندما راح يفكر في وقت لاحق في المصير التعس للإمبراطورة « وانج » ومحبوبته ، وخوفًا من العودة المحتملة لخصومها للتأثير على الإمبراطور أمرت « وو» بقطع أيديهن وأرجلهن و بعدها أعدمن في وعاء ضخم للتخمير، ويُروى أن المحظية ابتهلت وهي تحتضر أن تعود في المستقبل على هيئة قطة كي تعذب الإمبراطورة « وو » كما تعذب القطة الفأر، ومنذ ذلك الحين أمرت « وو » بعدم الإبقاء على أية قطط في أي من قصورها .

ولما كان الإمبراطور « كاو تسونج » حسن النية ، وضعيف الشخصية و كسول فقد سمح لإمبراطورته الموهوبة بأن تمسك بزمام الأمور فظلت مسيطرة على شئون الحكم على مدى ٣٤ عامًا من مدة حكمه و ساعدها على ذلك السكتة الدماغية التى أصيب بها الإمبراطور و أضعفت قدرته على الإبصار و بقية قدراته .

وكسبت « وو تشاو » تأييد المسئولين من العلماء الذين اعتمدت عليهم في إدارة شئون الإمبراطورية ، وشجعت الزراعة و انتاج الحرير وأخذت في تخفيض الضرائب وطلبات السخرة من بين أولئك المشتغلين بالزراعة وانتاج الحرير ، وأعلنت تبنيها لسياسة خارجية تقوم على السلام و قامت بتسريح عدد كبير من الجند ، ونقلت عاصمتها شرقًا إلى لويانج (ويقولون أن تشانجان حلت عليها لعنات ضحاياها والقطط) .

وتوفى « تانج كاو تسونج » في عام ٦٨٣ م وبقيت السلطة بيد « وو » التى كانت في الخامسة و الخمسين من عمرها آنذاك ، وظل ولدها الإمبراطور الألعوبة يحكم حتى تم خلعه في عام ٦٩٠ م ، و بعدها اتخذت « وو » اللقب الإمبراطورى لنفسها لتكون المرأة الصينية الوحيدة التى آل إليها المُلك إسميًا وفعليًا .

وخلال مدة حكمها تم تنظيم الإدارة بشكل محكم وعم الهدوء والاستقرار المملكة الوسطى ، و رغم ذلك فقد تواصلت المكائد والمؤامرات في البلاط وذاعت القصص حول السلوك غير اللائق للإمبراطورة ، وكان من بين الإجراءات التى أثارت الاستياء البيروقراطى عقد امتحانات للنساء لاختيار بعضهن لشغل الوظائف الحكومية ، وقد صمدت « وو » أمام كافة محاولات النيل منها حتى كان



سيدة من أسرة التانج الحاكمة ، تمثال فخارى منقوش ومدهون.

عام ٧٠٥ م عندما أجبر انقلاب وقع في القصر السيدة العجوز على التنازل عن العرش ، وأمضت الشهور القليلة الأخيرة من حياتها في عزلة لتقضى نحبها في الواحدة والثمانين من عمرها .

وأعيد ولدها الألعوبة المخلوع إلى عرش التنين لينجو من العديد والعديد من مكائد و مؤامرات البلاط على مدى خمس سنوات قبل أن تدس له زوجته السم وينتزع العرش ابن أخ الإمبراطور الراحل وحفيد « وو» الذى ورث بعضًا من موهبة أجداده ليضمن بذلك نصف قرن آخر من الحكم الزاهر المستقر، وكان هذا هو الإمبراطور « تانج هسوان تسونج » (٧١٢ - ٧٥٦ م) الذى كان حكمه فاتحة عهد مُشرِق للفن الصينى .

هسوان تسانج الحاج البوذى

زاد النفوذ البوذى فى مطلع عصر التانج ومن المرجح أنه بلغ ذروته فى القرن السابع فى ظل حكم الإمبراطورة « وو » التى كانت نصيرة غيور للبوذية ، وازدهرت الأديرة البوذية فى تلك الآونة حيث كانت تحصل على الأوقاف من الأراضى والثروة من الحكام وغيرهم من الأتباع الأثرياء ، وأصبحت هذه الأديرة من بين أصحاب الأراضى الهامين و المجتمعات الزراعية الغنية ، وزاد ثراؤها عن طريق الربا .

وظل التوهج التبشيرى فى مطلع عصر التانج هاديًا و ملهمًا للمساعى البوذية ، وقام هسوان تسانج و كان " أمير الحجيج " آنذاك برحلة إلى الهند ذهابًا وعودة عن طريق آسيا الوسطى لجمع النصوص البوذية من مصادرها ، وغادر الإمبراطورية الصينية فى مطلع عصر « لى شيه مين » دون الحصول على الإذن الإمبراطورى عندما لم يكن الدمار الذى أحدثته الحرب الأهلية قد خبت جذوته بعد ، ويخبرنا كاتب سيرته :

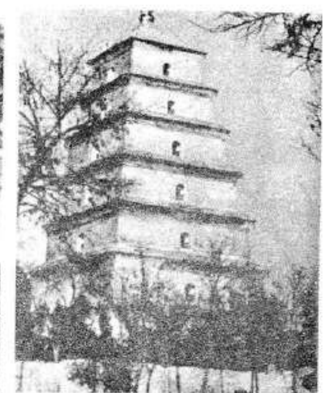
" لقد أصبحت العاصمة الإمبراطورية وكرًا لقطاع الطرق واللصوص واحتل غلاظ القلوب والأشرار المنطقة الواقعة بين النهر الأصفر ونهر لو ، وانهارت الحضارة

في هذه المنطقة وتشتت الشعب البوذي ، وحولت الهياكل العظمية المتناثرة في كل مكان لون الحقول والطرق إلى اللون الأبيض ... وكانت الحكومة الإمبراطورية حديثة العهد أنذاك ولم تكن حدود الإمبراطورية واسعة وكان محظوراً على العامة الذهاب إلى الأقاليم الغربية بموجب مرسوم إمبراطوري .

وقد ارتحل « هسوان تسانج » عبر صحارى وسلاسل جبال آسيا الوسطى بعد قرنين من قيام « فا هسيين » بذلك لكن الطريق كان لايزال مرتعًا للآلهة والشياطين سريعة الغضب إن لم تكن حادة الطبع حقًا ، وعادة ماكانت الآلهة الضارية تعترض طريق المسافرين وتتحرش بهم موجهة إليهم ضرباتها ، وكان يتعين على أولئك الذين يسافرون عبر هذا الطريق ألا يرتدوا ثيابًا حمراء أو يحملوا معهم حلى تحدث رنينًا عاليًا ... وكان من الممكن لأقل تهاون في اتخاذ هذه الإحتياطات أن يتسبب في جعل الوحش المفترس يثير عاصفة من الرياح العاتية والرمال المتحركة التى كانت أشبه بالسياط التى تجلد جسد المسافر حتى ينال منه الإجهاد والتعب الشديد..وعندما يجد نفسه وحيداً مهجوراً يقدم المسافر على اجتياز الخراب الرملي وتكون وسيلته الوحيدة في ذلك ملاحظة معالم الطريق المكون من أكوام العظام وروث الخيل؛ وهكذا يتقدم ببطء وحذر حتى يرى أمامه فجأة جماعة من الجند يصل عددهم إلى عدة مئات يغطون السهل الرملي ؛ وهم يتقدمون أحيانًا و يتوقفون أحيانًا أخرى ، وكان هؤلاء الجند يرتدون الفرو و اللباد ، وبعد ذلك تقع عيناه على الجِمَالُ و الخيل وبريق الألوية و الرماح ؛ وبعدها تظهر فجأة أشكال وأشخاص جدد تتغير أشكالهم إلى آلاف الأشكال و يكونون على بعد شاسع ثم يصبحون قريبين في المتناول ثم يتلاشون تماماً .

واعتقد بادىء الأمر أنهم لصوص لكنه أدرك بعد ذلك أنهم كانوا شياطين ... ومن الصحراء التي يسكنها الشياطين امتد طريقه عبر الخراب المتجمد لجبال البامير و جبل الجليد الذى كان شديد الإنحدار و يبدو عاليًا علو السماء ، ومنذ أن خُلِقَ العالم ظل مغطى بالثلوج التى تراكمت و تحولت إلى جليد، ولم يحدث أبدًا أن ذاب هذا الجليد شتاءً أو صيفًا ، ويختلط الضباب البارد بالسحاب، وعندما كان المرء ينظر



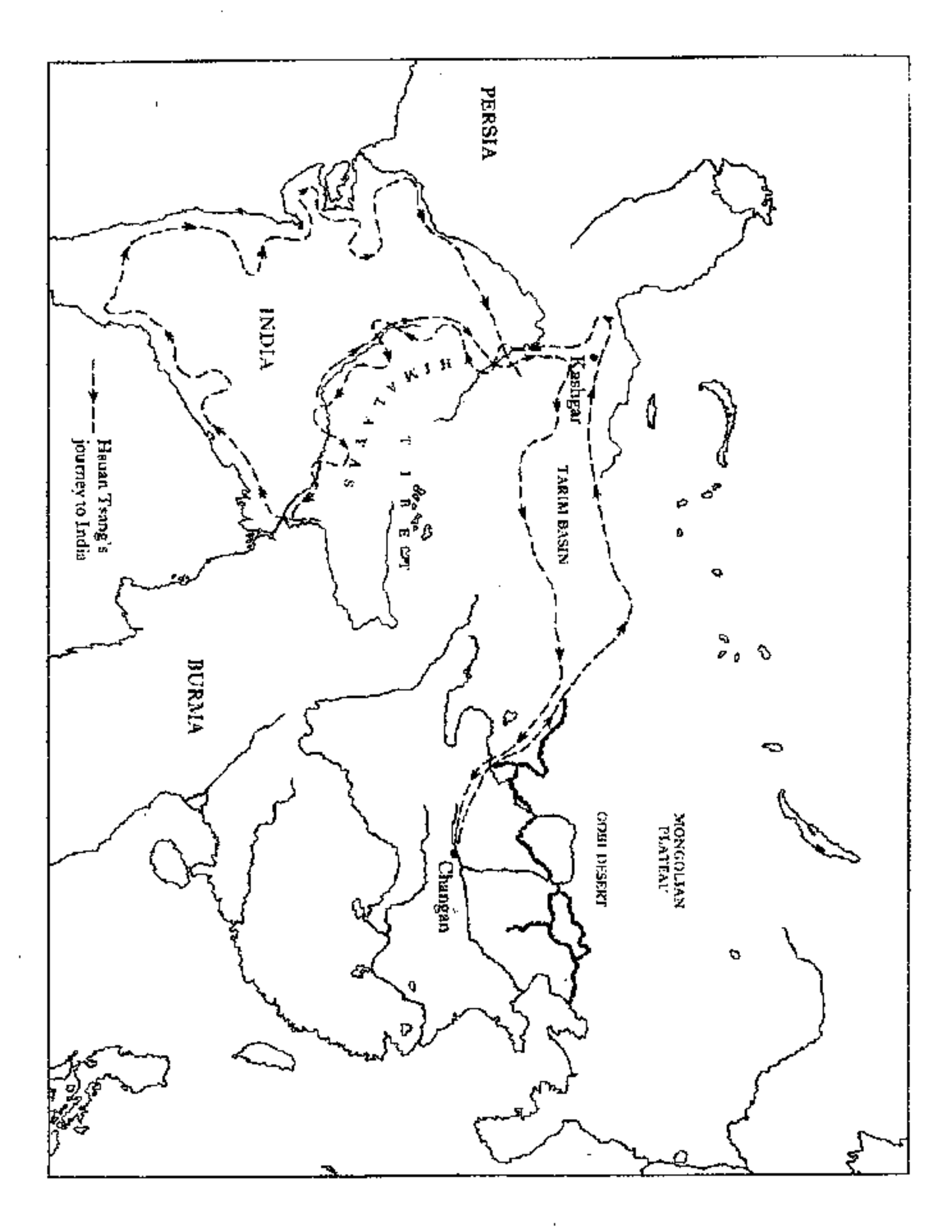


على اليسار : عودة الحاج البوذى هسوان تسانج إلى العاصمة و الترحيب الإمبراطورى به . مأخوذ عن صورة تقليدية .

وعلى اليمين : تاين باجودا فى الضواحى الجنوبية من سيان كما هى اليوم ، وقد شيدها هسوان تسانج فى عام ٦٥٢ م لحفظ الآثار المقدسة و الكتب التى جاء بها من الهند و حيث ترجم الكتب البوذية المقدسة من السنسكريتية .

لأعلى كان يمكنه أن يرى الثلج الأبيض فقط ممتداً بلا نهاية ، " ومكث هسوان تسانج فى الهند مدة عشرة أعوام ، وعاد إلى الصين بالكثير من الكتب البوذية المقدسة وأمضى عشرين عاماً فى ترجمتها ، وعند عودته إلى الإمبراطورية الصينية فى عام ٦٤٥م استقبل بترحيب إمبراطورى :

" فى ذلك اليوم أصدرت السلطات أوامرها لجميع الأديرة بإخراج جميع بيارقها وأقمشتها المطرزة بالرسوم وغيرها من أدوات الطقوس والشعائر لتجميعها فى شارع الطائر الأحمر فى صباح اليوم التالى لاستقبال كتب بوذا المقدسة وصوره التى وصلت مؤخراً ، و تسابق الناس فى اتخاذ الترتيبات المهيبة بحماس عظيم وأخذوا يعدون أفضل بيارقهم و أقمشتهم المطرزة بالرسوم والصور والمظلات والموائد والعربات الفارهة ، وقامت مختلف الأديرة بإخراج مواكبها الرسمية من طرق مختلفة يتبعها الرهبان و الراهبات الذين ارتدوا ما يليق بهذه المناسبة العظيمة من ثياب



خريطة رحلة هسوان تسانج إلى الهند

دينية ، وراح عازفو البلاط والأديرة يعزفون موسيقاهم في المقدمة يتبعهم الناس الذين كانوا يحملون المباخر ... وبينما كانوا يحملون كتب بوذا المقدسة وصوره تقدمت مسيرتهم وقد أخذ الناس ينثرون اللآلىء واليشب الذى كان يصدر رنيناً فى الهواء والأزهار الذهبية على الطريق ، وبداية من شارع الطائر الأحمر وانتهاء بالبوابة الرئيسية لدير « هونج فو » اصطف أهل العاصمة والعلماء والموظفون الإمبراطوريون والمحليون على جانبى الطريق وهم ينظرون إلى الموكب فى إجلال وتعظيم ... وعندما أصبح الشارع مزدحماً أكثر من اللازم أصدرت السلطات – خشية أن يدهس الناس بعضهم البعض – أوامرها لهم بألا يبرحوا أماكنهم وأن يحرقوا البخور وينثرون الزهور من حيث كانوا يقفون .

وعرض الإمبراطور على « هسوان تسانج » أن يكون مستشاراً إمبراطورياً له لكن الحاج رفض العودة إلى الحياة الدنيوية .

ونظراً لخوفه من ضياع الكتب المقدسة مستقبلاً أو احتراقها إذا ما وقع حريق قرر المعلم بناء معبد (باغودا) حجرى فى الجانب الجنوبى للبوابة الرئيسية للدير لتخزين الكتب المقدسة و صور بوذا التى أعادها من البلدان الغربية ، وصمم الباغودا بارتفاع ٢٠٠ قدماً كى يظهر عظمة بلد عظيم و كى يكون أثراً خالداً لـ " ساكيوموني بوذا " ، و قبل أن يشرع فى بنائه أعد تقريراً للإمبراطور الذى أمر وزيره الإمبراطورى بأن يبلغ المعلم بأنه " نظراً للإرتفاع الشاهق للباغودا الذى يعتزم بناءه فربما يكون من الصعب بناؤه بالحجر ويجب بناؤه بالآجر ، ولا أريد للمعلم أن يقلق بهذا الشأن ." ... وهكذا تم بناء الباغودا بالآجر فى الفناء الغربى للدير ... وشارك المعلم فى بناء الباغودا بحمل الآجر و الأحجار له واستغرق بناؤه عامين .

وخلال مسيرتها نشأ عدد من الطوائف للبوذية ، وفى الصين كانت لها طائفتين رئيسيتين : طائفة الأرض الطاهرة أو فردوس أميدا الغربى وهى طائفة أكدت على فاعلية التعبير البسيط عن الإيمان من خلال ترديد اسم بوذا ، و تشان (زن اليابانى) التى أكدت على أهمية التأمل و التبصر الحدسى .

ويمرور الوقت اكتسبت الأديرة البوذية الكثير من الوظائف الوقتية ، فقامت بدور الأماكن المقدسة والنزل للمسافرين و المستشفيات والمراحيض العامة وما هو أكثر

من ذلك حتى أصبحت تمثل تحدياً للدولة والرأى القويم ، ولم يكن من الملائم – طبقًا للتعاليم الكونفوشيوسية – تخلى الناس عن دورهم الأسرى من أجل تبتل الحياة الرهبانية ، و علاوة على ذلك فقد عمدت الأديرة إلى سحب الناس – بأعداد كبيرة – من النشاط الإنتاجى فى الأرض فى الوقت الذى استنفدت فيه سجلات الضرائب بنفس الدرجة فحُرِمَتْ الدولة بذلك من الفلاحين بينما جذبت ثروة الأديرة انتباه مسئولى الدولة الجشعين ، وركن كثير من المجتمعات فى ذلك الوقت إلى التراخى والتهاون وأصبحت مراكزًا للانغماس فى اللهو و الملذات وتشجيع أنشطة الدجالين والمشعوذين .

ولذلك فقد علت الأصوات فى عصر التانج تنادى بضرورة الحد من إقامة الأديرة وفرض قيود على العاملين بها و ثرواتهم ، ولم تتردد الدولة فى وضع ضوابط بهذا الشأن كما كان الحال فى غيره من المجالات الإجتماعية ، وكان الحد الأقصى من الأديرة لكل ولاية دير واحد يضم ثلاثين راهبًا فقط، وكانت الحكومة تجرد ما زاد عن ذلك العدد من الرهبان من سلطتهم ، وتم عمل إحصاء لأعداد الكهنة فى عام ٧٢٩م لإبقاء الأعداد تحت السيطرة ، وبعد مرور عقدين من الزمان شرعت الحكومة فى إصدار رخص للحد من تنصيب رهبان جدد، وكان جميع الرهبان مطالبين بحمل رخصة حكومية .

وكان هناك جور و اضطهاد من حين لآخر كان يشعل جذوته أحيانًا بعض الكهنة الطاويين الذين كانوا يتنافسون مع البوذيين من أجل الرعاية الإمبراطورية و أحيانًا أخرى بسبب الأصل الأجنبى و المذهب الدينى ، وكانت الأهداف مادية و ليست مذهبية ، وكان هناك استهجان للأديرة كمؤسسات طفيلية ، وتعرض البوذيون لأعنف تحدى مضاد فى الأربعينات من القرن التاسع فى ظل حكم أحد أباطرة التانج الذى كان قد أصبح باحثًا متعصبًا وراء الخلود الطاوى ، و تشير البيانات الرسمية إلى تدمير أربعة آلاف دير وأربعين ألف ضريح ، وتم تجريد ما يقرب من ربع مليون راهب وراهبة من سلطتهم و تم إعادة إدراج هؤلاء ومعهم ١٥٠ ألفًا من العبيد الذين كانوا يعملون فى ضياعهم فى سجلات الضرائب .

وقد حدث في تلك الفترة أن قام الحاج البوذي الياباني « انين » بعبور البحر إلى الصين (٨٢٨ م) وجاب أنحاء امبراطورية التانج على مدى عقد من الزمان قبل عودته إلى اليابان ، و كان يدون يوميات لأسفاره فكانت أول سجل معروف للحياة في الصين يدونه زائر أجنبي، وشأنه شأن ماركو بولو الذي جاء بعده بقرون عدة فقد لاحظ « انين » استخدام الصينيين للفحم في التسخين : " على الجبل الصخري الذي يطلق عليه تشين شان يوجد فحم في أنحاء الجبل ويأتي الناس كافة من الولايات القريبة والبعيدة للحصول عليه لإحراقه حيث يصدر عنه قدر كبير من الحرارة اللازمة لطهو الطعام " .

وذكر عبوره للنهر الأصفر بواسطة " المعديات على كلتا الضفتين اللتين كان لكل منهما سياج محاط بسور " و كثير من المراكب التي يكلف ركوبها – الشخص الواحد – خمس قطع نقدية و الحمار خمسة عشر قطعة نقدية ، وقام « انين » ورفاقه بالحج إلى أحد الأماكن المقدسة على جبل « وو طاي » جنوب السور الطويل ، وكانت رحلة محفوفة بالمخاطر حقًا نظرًا لأنه :

" عند القدوم إلى جبل « وو طاي » من جهة الشرق يجتاز المرء الجبال و الوديان لمسافة ٥٠٠ لى صعودًا إلى قمم الجرف والصخور شديدة الإنحدار ونزولاً إلى أرضيات الوديان العميقة ، وكان هناك ٥٠٠ من الأتنة السامة مختبئة في الجبال وكانت تنفث الرياح و السحب ... وعندما تصفو السماوات فجأة ... يرى المرء على المصاطب الخمس ضوء أصفر شاحب ، ثم يرى على المصاطب عمامة من السحاب ترتفع وفجأة تغطى السحب الثقيلة الجبال " .

إمبراطورية التانج :

لقد شهد عصر التانج توسعًا عظيمًا للإمبراطورية بلغ أوجه في النصف الأول من القرن الثامن عندما اعترفت شعوب التبت و آسيا الوسطى في الغرب وصولاً إلى سلسلة جبال البامير ومنغوليا ومنشوريا وكوريا في الشمال ، وأنام في الجنوب بالسيادة الصينية .

البدو الأتراك

كان البدو الهون قد بدأوا هجرتهم غرباً خلال عصر « الهان » وانتقلت قبائل بدوية أخرى إلى الهضبة المنغولية ، واجتاحت بعض القبائل كالطوبا شمال الصين وأسست أسراً حاكمة استقرت هناك ، وأصبحت بعض القبائل الأخرى تابعة للمملكة الوسطى ؛ وأمدوا الصينيين بفرق من الفرسان لاستخدامها ضد القبائل البدوية المنافسة ، و في المقابل أتيحت لهم ظروف تجارية مواتية مع الصين وأرسلت الأميرات الصينيات كزوجات لحكام البدو، وظلت قبائل أخرى تقاوم ذلك التقارب واستمرت فى شن هجمات متكررة جنوب السور، و كان من بين القبائل الجديدة العنيدة فى منتصف القرن السادس شعب قوى تركي اللغة والثقافة ، وقد وطد أولئك الأتراك دعائم سلطانهم على امبراطورية امتدت من جبال منغوليا إلى الغرب عبر آسيا الوسطى إلى الكاسبيان ، وفى عصر السوى انقسموا إلى أتراك شرقيين وغربيين ، وأعاق الأتراك الشرقيون توحيد امبراطورية التانج بما كانوا يثيرونه من اضطرابات وقلاقل في الأراضى الحدودية حيث كانوا يقومون بخطف الصينيين وبيعهم كعبيد وتشجيع القبائل الأخرى على مهاجمة المملكة الوسطى .

وأعد « لى شيه مين » العدة للحرب ، وجمع ودرس المعلومات التى توفرت لديه عن الأتراك و شارك بنفسه في تدريب الجند ، و فى عام ٦٣٠ م و فى وقت كان يعانى فيه الأتراك من الصراعات الأهلية بسبب سياسات خانهم الظالمة شن « لى شيه مين » « هجوم مباغت على مقر الخان الشرقى فى جبال ين شان ، وهزم الأتراك وردهم على أعقابهم ، وفى حملات لاحقة تمكن امبراطور التانج – بمعاونة القبائل البدوية الأخرى – من إنزال الهزيمة بالأتراك الغربيين، وإعادة السيادة الصينية على حوض نهر التاريم ، وذاعت شهرة هذه الحملات فى أنحاء آسيا الوسطى و امتد سلطان التانج إلى وادى « أوكسس » ، وأصبح الطريق إلى الغرب آمنا وعادت القوافل للخروج فى رحلاتها عبر القارات بين تشانجان و سمرقند و القسطنطينية .

وتطورت وسائل النقل البحرى و ترددت سفن الشحن بين يانجتشو و كانتون وموانيء الخليج الفارسى ، وفى غضون عقد من الهجرة (هجرة محمد ص من مكه





على اليسار : محارب فى أثناء القتال . من مغارة تونهوانج ، عصر التانج .
وعلى اليمين : فرس مقاتل . عصر التانج .فخارى من الطين ذى اللون الأحمر الوردى
المدهون باللون الأحمر و البرتقالى و الوردى .

إلى المدينة عـام ٦٢٢ م) وصل بعض المسلمين إلى الشـواطىء الصـينيـة ، ونظراً لتسامحه فى الأمور الدينية فقد سمح « لى شيه مين » للعرب ببناء أول مسجد فى الصين فى كانتون ، حيث استقرت جماعة من المسلمين ، ووصل الحرير الصينى والخزف والورق الصينى إلى الغرب ، وجاءت العطور والأدوية والجواهر واللآلىء وأنياب الفيلة وقرون الكركدن إلى الصين .

وقد توجه الحدادون وصائغو الذهب و الفضة و صانعو الورق إلى آسيا الوسطى فى عصر التانج حيث أثروا الصناعات الحرفية فى تلك المنطقة ، ووصل فن صناعة الورق من الصين إلى آسيا الوسطى فى منتصف القرن الثامن ،

التبت

كان أهل التبت الذين كانوا يعيشون على الهضبة الواقعة غرب الصين من البرابرة الذين ظلوا يثيرون الإضطرابات والقلاقل فى الأراضى الحدودية للمملكة الوسطى على مدى عدة قرون ، و كان أهل التبت فى عصر التانج بدويين من ناحية

ومزارعين من ناحية أخرى حيث كانوا يزرعون الشعير و القمح في المنطقة الجبلية ، وكانت قطعانهم الرئيسية من حيوان الياك و الجِمَالُ العربية ، وكانوا يصنعون ثيابهم من اللباد ويلطخون وجوههم بالدهان الأحمر للزينة ، وكانوا يعيشون في خيام من اللباد ، وكانت خيام النبلاء متجاورة وتتسع للمئات من الناس ، وكان أهل التبت من البونيين .

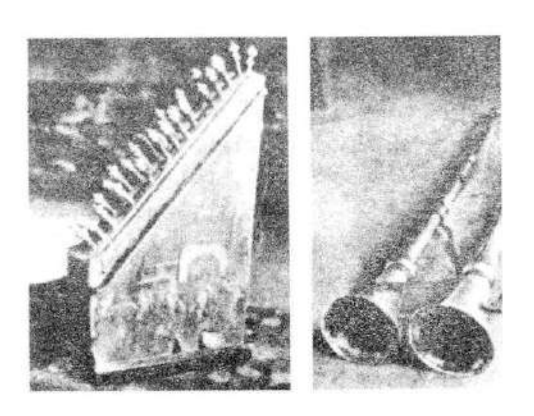
وقد توحدت قبائل التبت في مطلع القرن السابع في ظل حاكم يدعى « سرونجتسان جامبو » الذى أقام عاصمته في لهاسا ، وحضر مبعوث تبتى إلى بلاط التانج في تشانجان نيابة عن أميرهم طالبًا يد ابنة « لي شيه مين » الأميرة « ون تشنج » التي اشتهرت بجمالها و مواهبها ، ورحلت الأميرة « ون تشنج » إلى لهاسا حاملة معها مهراً اشتمل على بذور الحبوب و أدوات الزراعة و بيض دودة القز وكتب عن الأساليب الزراعية و الحرفية وكذلك الأعمال الكلاسيكية الصينية ، و كان بين رجال حاشيتها الحرفيين والفنيين و أوركسترا ، وهكذا وصلت كثير من الحرف الجديدة إلى التبت ، و أرسل سرونجتسان أبناء النبلاء من أهل التبت للدراسة في الصين ودعا علماء التانج إلى التبت ، ولم يكتف ببناء قصر على طراز التانج لأميرته ولكنه بنى ديرا في وسط لهاسا نزولاً على رغبتها ، و حضرت الأميرة في أحد الأيام كي تتفقد سير العمل ، واضطرب من كانوا ينحتون الحجارة وارتبكوا عندما رأوها حتى أن أحدهم قطع أنف الأسد الحجرى الذى كان ينحته وهو شارد الذهن ، وحتى تتشابه جميع الأسود الحجرية تم نحتها بدون أنوف ، ولذا توجد أسود بلا أنوف في دير جوخان في لهاسا حتى يومنا هذا .

وأخذ الملك « جامبو » وكثير من أبناء شعبه تدريجيًا في مبادلة ثيابهم المصنوعة من اللباد الصوفي الخشن أو الفراء بالحرائر و الساتان ، ورسخت فنون التانج في تربية دود القز و صناعة الخمور و استخدام الورق والحبر و بناء البيوت ، في حين كانت منتجات التبت كالخيل و أواني الذهب و العقيق ترسل إلى إمبراطورية التانج .

وكانت هناك حملات مشئومة ضد كوريا في عصر السوى ، حيث هزمت جيوش « لي شيه مين » في شمال كوريا ، لكن شبه الجزيرة – التى صارت موحدة في القرن السابع – خضعت للسيادة الصينية الإسمية في عهد خلفائه ، وكما كان الحال في التبت كان هناك تبادل ثقافي و اقتصادى كبير .



تمثال لأميرة التانج ون تشنج (٦٢١ – ٦٨٠ م) التى تزوجت « سرونجتسان جامبو » ملك التبت .



الآلات الموسيقية التى كانت تستخدمها الأوركسترا التى جاءت بها الأميرة
« ون تشنج » إلى التبت والتى تم حفظها فى دير جوخان الذى شيده الملك
« سرونجتسان جامبو » إذعانًا لرغبة أميرته .

وامتد تأثير التانج الثقافى إلى ما وراء البحر الشرقي إلى اليابان ، وقد أرسلت اليابان خلال القرن الثامن كثير من المبعوثين والطلاب إلى الصين ، لدراسة النظام السياسى الصينى والفلسفة الصينية وتاريخ الصين والحرف الصينية ، وأقام المبشرون البوذيون مثل « انين » اتصالات مع زملائه لتعلم المزيد عن دينهم من المصادر الأقرب إلى المنشأ ، وعادت الإرساليات التبشيرية التى غالبا ما كانت تعد بالمئات إلى جزرها بالكثير من تجارب التانج المتقدمة التى تم تبنيها فى الحكم والثقافة بصفة عامة ، و قد شُيِّدتْ العاصمة اليابانية على طراز تشانجان ، وظل تأثير التانج على اليابان قائما حتى العصور الحديثة .

ويمكن الحكم على مدى تأثير التانج عبر آسيا عن طريق الصدام الذى وقع بين الإمبراطورية الصينية والعالم الإسلامى فى منتصف القرن الثامن ، وقال محمد (ص) مؤسس الدولة الإسلامية ذات مرة " اطلبوا العلم ولو فى الصين " وفى عام ٧١٣ م أرسل خليفة محمد سفارة استقبلت فى تشانجان ، وقد أتت الجيوش العربية الإسلامية بدينها إلى الغرب عبر أراضى البحر الأبيض المتوسط و إلى الشرق عبر فارس إلى آسيا الوسطى ، وأتوا بسيوفهم و دينهم إلى سمرقند و بخارى حيث تحول سكانها من البوذية إلى عبادة الله ، وتحولت المعابد البوذية إلى مساجد ، ودار قتال بين الجيش الصينى فى البامير و القوات العربية أسفر عن هزيمة ساحقة للجيش الصينى فى معركة تالاس (عام ٧٥١ م) شمال فرغانا ، وكان هذا إيذانًا بوقف التوسع الصينى غربًا ، و أخذت السيادة الصينية فى آسيا الوسطى فى الضعف والإنحطاط و حلت محلها السيادة الإسلامية .

وقبل هذه المعركة بقرن من الزمان ألحقت الجيوش الإسلامية الهزيمة بالفرس فى معركة نهاوند (عام ٦٤٢ م) ، وردت الهزيمة ملك الفرس يزدجرد الثالث على أعقابه إلى ميرف حيث طلب المدد من الصينيين ضد العرب ولم يلق منهم أية مساعدة ، ووصل فيروز ابن يزدجرد إلى تشانجان كلاجىء فى عام ٦٧٤ م حيث منح لقب قائد فى الحرس الإمبراطورى ، وأقام فى الصين حتى وفاته بعد بضع سنوات ، و سمح للاجئين الفرس ببناء معابد لهم و ممارسة شعائر الديانة الزرادشتية فى الصين ، كما عادت العلاقات الودية مع العرب الذين استنجد بهم أحد أباطرة التانج اللاحقين عندما واجهته ثورة داخلية ، وقام الخليفة بالفعل بإرسال المرتزقة العرب إلى الصين تأييداً

لابن السماء ، و استقروا فى الصين حيث أقاموا المزيد من المجتمعات الإسلامية التى صمدت فى وجه الهجمات ضد البوذيين و العقائد الدخيلة الأخرى قرب نهاية عصر التانج .

شعراء التانج

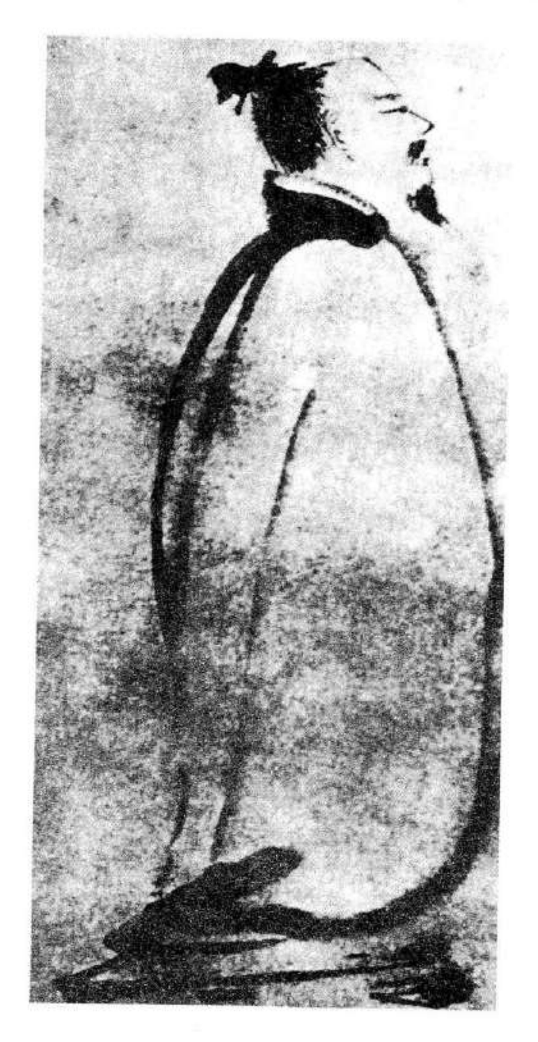
وأعقب حكم الإمبراطورة « وو » بعد فترة قصيرة لخلو العرش حكم حفيدها « تانج هسوان تسونج » وهو ثالث حكام التانج البارزين (٧١٢ - ٧٥٦ م) ، وتميز هذا العهد بالإنجازات الثقافية العظيمة خاصة فى مجال الشعر الذى حظى برعاية ابن السماء .

وكان جميع شعراء التانج العظماء تقريبًا من موظفى الدولة ، وخابت آمالهم البيروقراطية وتحرروا من أوهامهم و أدركوا حقيقة الممارسات الحكومية و الحياة فى البلاط ، ووجد الكثيرون منهم ما يعزون به أنفسهم فى الشراب ، وقد حظيت أعمالهم بمكانة عالمية و تمت ترجمتها إلى كثير من اللغات، وعلى الرغم من أننا لا نستطيع الإستمتاع بجماليات أشعارهم كاملة فى ترجماتها يمكننا أن ندرك من مضمونها ماهية نظرتهم إلى العالم من حولهم وما كتبوه عنه .



التأمل تحت أشجار الصنوبر ، ويظهر فى هذه الصورة لرسام التانج هان هوانج العديد من الشعراء والعلماء وهم يتأملون و يترنمون بالشعر .

وكان « لى بو » (٧٠١ – ٧٦٢م) واحداً من أعظم هؤلاء الشعراء وواحداً من القلائل الذين لم يطمحوا أو يحصلوا على منصب رسمى ، و كان عضواً فى جماعة أدبية من مدمنى الخمر عرفت بـ " العاطلين الستة لأيكة الخيزران " وجماعة أخرى عرفت بـ " الخالدين الثمانية لكأس الخمر " .



الشاعر « لى بو ». مأخوذ من لوحة زيتية من عصر السونج رسمها « ليانج كاى » .

وبعد فترة زاهية و ماجنة في البلاط وقع ضحية المكائد وتم نفيه وحكم عليه بالإعدام في تلك الأثناء ، وأرجىء تنفيذ الحكم لكنه نُفي ، وطبقًا للرواية التاريخية فقد لقى حتفه غرقًا عندما تعلق بالحافة العليا لجانب مركب في محاولة لاحتضان صورة القمر المنعكسة على صفحة الماء .

... عندما أستيقظ و أطل على المرج

أسمع بين الأزهار طائرًا يغرد .

وأتساءل " أهو المساء أم الفجر ؟ " .

ويصفر طائر المانجو « إنه الربيع » .

ويغلبني جمال المنظر

فأصب كأسا أخرى مترعة

أمضى في الغناء حتى يسطع القمر وضاءً -

ولكن سرعان ما أصبح ثملاً كما كنت من قبل .

وكان « لي بو » شاعرًا مرحًا إجمالاً وذخرت قصائده بالموضوعات التقليدية للشعر الصيني وهي الطبيعة والخمر والصداقة والموت والخلود .

وكان تو فو (٧١٢ - ٧٧٠ م) أحد معاصريه وأصدقائه ، ولم يحقق نجاحًا في الإمتحانات الحكومية، لكنه تقلد فيما بعد مناصبًا ثانوية في العاصمة وفي الأقاليم ، وتبددت آماله السياسية ولم يكن لديه ما يكفيه كي يعول نفسه وأسرته حتى قيل أن بعض أطفاله ماتوا بسبب نقص التغذية .

في الفجر أطرق أبواب الشباب الأثرياء

وعند الشفق أتبع الغبار الذي تثيره خيلهم القوية

فأقبل ثمالة الخمر والفتات الباردة من الولائم

وأخفي حزن قلبي المتوجع .



الشاعر « تو فو » : نقش حجرى من عصر التشنج . صورة تقليدية .

وفى أثناء الإضطرابات التى وقعت فى نهاية ذلك العهد أسره الثوار وفر منهم معرضًا حياته لخطر عظيم ، وتخلى عن منصب ثانوى كان قد مُنح له وذهب ليعيش فى " كوخ مسقوف بالقش" (تعبيرا عن المنزل المتواضع) بناه فى « تشنجتو ، سزيشوان » ، وقد هدم هذا المنزل فى عاصفة ، ومات هو الآخر فى مركب فى أثناء تجواله عبر سزيشوان .

وكغيره من شعراء عصره ولكن ربما على نحو أكثر مرارة وقسوة كانت أعماله تعكس النفور والإشمئزاز من الفساد و البذخ فى حياة البلاط و التعاطف مع الفقراء فى معاناتهم ، وفى قصيدة بعنوان "السيدات الجميلات" راح يهجو البلاط والسيدة « يانج كوى فى » محبوبة الإمبراطور ، وتصف قصيدة أخرى بعنوان " عربات الجيش" منظر المجندين الذين تم جمعهم للخدمة على الحدود ، وكتب عن حياة البلاط قائلاً :

إن الحرير الذى يجرى تقسيمه فى قصر فيرميليون

نسجته أيدى النساء الفقيرات ،

النساء اللاتى كان أزواجهن يجلدون فى منازلهم

على أيدى جباة الضرائب الذين كانوا يأخذون الحرير إلى البلاط .

والآن هناك الكثيرون من رجال الحاشية يحتشدون في أنحاء البلاط .

ولذا فلابد للمخلصين أن ترتعد فرائصهم !

ويقال أن أدوات المائدة الذهبية من الخزانة

قد ذهبت إلى عشيرة السيدة يانج .

وفى بيوتهم ترقص الفتيات كالجنيات

بأثواب شفافة كالضباب الرقيق على أغصان تشبه اليشب

بينما يجلس الضيوف ينعمون بالدفء و هم يرتدون فراء السمور،

وتصاحب الأعواد عالية النغمات القيثارات ذات النغمات العذبة .

ويقدم ما لذ و طاب من الطعام – لبد أقدام الجمال

والبرتقال الشتوى المتراكم فوق المندرين الذى تفوح رائحته الذكية

وخلف أبواب فيرميليون تلك يُهدَرُ اللحم و الخمر

بينما بالخارج على الطريق ترقد عظام أناس تجمدوا حتى الموت ...

وتحمل واحدة من أجمل و أشهر قصائده عنوان " مرحبًا بالمطر فى إحدى ليالى الربيع " :

المطر الطيب يعرف موسمه .

ويأتى عندما يكون الربيع هنا ؛

وفى أثر الريح ينسل خفية إلى الليل ؛

وفى صمت و رقة يندى كل شيء .

وفى آخر قصائده التى كتبها على ظهر المركب قبل موته كان عقله مشغولاً بفكرة أن :

الدماء ما زالت تسيل فى المعارك منذ القدم .

وانذارات الحرب ما زال يمكن سماعها .

ويقال أيضًا أنه مات متأثرًا بالجوع الذى أعقبه انغماس فاق الحد فى تناول اللحم المشوى واحتساء النبيذ الأبيض .

وكان « بو تشو الأول » (٧٧٢ - ٨٤٦ م) شاعراً آخر من موظفى الدولة من جيل لاحق ؛ وعلى عكس الآخرين فقد كانت سيرة حياته العملية كموظف حكومى ناجحة نسبياً ، وقد عين حاكما لـ "هانجتشاو" في وقت من الأوقات حيث مازال جسر و سد عند بحيرة « ويست » يحملان اسمه تقديراً لمشروع التحكم فى المياه الذى قام برعايته،



الشاعر « بو تشو الأول » ، صورة تقليدية .

وانتهى به الحال إلى أن أصبح حاكمًا لإقليم « هونان » ، وكتب أيضًا عن محنة الشعب ، وعندما كان في طريقه لمغادرة « هانجتشاو » في عام ٨٢٤ م كتب بعد أن ودع الناس يقول :

ما السبب في انهمار دموعكم هكذا ؟

لقد كانت ضرائبي باهظة رغم فقر الكثير من الناس ؛

وكان المزارعون جوعى نظرًا لأن حقولهم غالبًا ما كانت جافة .

وكل ما فعلته هو إقامة سد للتحكم في مياه البحيرة

والمساعدة قليلاً في أوقات الشدة .

وتروى قصيدته " الرجل العجوز ذو الذراع المكسور" قصة فلاح فضل كسر ذراعه على أن يؤخذ إلى الجيش و عاش ستين عامًا وهو يتألم من ذراعه المكسور ، وتحمل قصيدة " الككتوه (ببغاء) الأحمر " تعليقًا مميزًا أيضًا :

أُرسِلُ كهدية من « أنام »

ككتوه أحمر .

لونه يشبه لون زهرة شجرة الخوخ ،

ويتكلم بكلام الناس .

فصنعوا معه ما كانوا يصنعونه يومًا

مع المتعلمين و الفصحاء

فأتوا بقفص له قضبان قوية

وحبسوه بداخله .

ولم يكن هؤلاء سوى قليل من كثير من الشعراء الذين كانوا مفخرة لعصر التانج .



الشاعر « لى بو » ثملاً ، لوحة زيتية تقليدية من عصر التشنج .

« آن لو شان » وثورات الفلاحين

إنتهى عهد الإمبراطور « هسوان تسونج » بالخراب والدمار ، وكانت حدود الإمبراطورية طويلة وعرضة للهجوم ، وفاق اهتمام الحكام المحليين ببناء قوتهم الخاصة اهتمامهم بالنواحى الدفاعية ، و لم تستطع الحكومة المركزية السيطرة على الجيوش الإقليمية بشكل فعلى ، وفتح انهيار القبائل التركية الذى أعقب هزيمتها أمام «لى شيه مين » الطريق أمام هجوم قبائل أخرى ، حتى أولئك الذين كانوا حلفاء مخلصين فيما مضى كانوا على استعداد لاغتنام الفرصة للإنقضاض على الإمبراطورية ، وفى النصف الثانى من القرن الثامن تعرض التانج لسلسلة من الهزائم على أيدى البرابرة وكان ذلك علامة على بداية الإنهيار، وفى نفس الفترة التى شهدت الهزيمة فى « تالاس » بآسيا الوسطى (٧٥١ م) هزمت جيوش التانج فى الجنوب الغربى .

ومرة أخرى عاد الإنفاق العسكرى كي يفرض عبئًا لا يطاق على خزانة الدولة مجدداً ، ومن جديد عاد أصحاب الأراضى للتهرب من دفع الضرائب و الإستيلاء على أراضى الفلاحين الذين تركوها لعدم قدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم الضريبية ، وبرغم الجهود التى بذلت لاعادة العمل به فقد كان نظام المساواة فى توزيع الأراضى فى انحطاط بحلول منتصف القرن الثامن ، و من خلال نزع ملكياتهم أو توسعهم السكاني ورث الفلاحون أقل من ١٠٠ مو من الأرض ، وأدت المنح الإمبراطورية للمقربين من البلاط إلى انقاص مساحة الأرض المتاحة للفلاحين دافعي الضرائب . وتهرب القادة و الموظفون الإقليميون من دفع الضرائب المستحقة للحكومة المركزية .

وعلى الرغم من أن النظام الضريبى قد سمح بالإعفاء من السخرة عند دفع كمية اضافية من الحرير فغالبًا ما كانت الحكومة تصر – فى هذه المرحلة – على العمل بالسخرة ، و أمضى بعض الفلاحين حياتهم كاملة فى الخدمة العسكرية بمناطق نائية ، وكان عبء الخدمة العسكرية خاصة في شمال الصين ثقيلاً للغاية ، وكان بمقدور الأثرياء الدفع للبدلاء للقيام بالعمل و الخدمة العسكرية بدلاً منهم لكن السخرة جعلت الفقراء معدمين وعادة ماكانوا يفرون من الخدمة ، وبدأ تجنيد المرتزقة – الذين عادة ما كان يتم الإتيان بهم من القبائل البربرية التى لم يكن من الممكن الوثوق فى ولائها– يحل محل نظام الخدمة العسكرية .

وقد أصبحت حياة البلاط وموظفى الدولة فى عهد الإمبراطور « هسوان تسونج » حياة إسراف و بذخ ، وأدت الصراعات الطائفية إلى اضعاف الحكومة ، وأصبحت البيروقراطية راسخة بشدة خاصة منذ عهد الإمبراطورة « وو » التى أفرطت فى الإعتماد عليها ، و رغم ذلك فقد شكل القادة الإقليميون أخطر تهديد .

وأقام التانج حاميات كبيرة فى المناطق الحدودية للتصدى لعدوان الجيران ، وكان قادة هذه الحاميات والذين عرفوا بـ " نواب الملك " رجالاً أشداء بحق ومسئولين عن كافة شئون الحكومة المدنية فى أقاليمهم وكذلك الشئون العسكرية ،

وكان « آن لو شان » نائبًا للملك على ثلاثة من القادة الحدوديين فى منتصف القرن الثامن ، و فى عام ٧٥٥ م خرج فى ثورة ، وقد أصبحت الظروف السيئة للثورة مادة للأساطير فى المملكة الوسطى .

ووقع الإمبراطور الهَرِم « هسوان تسونج » ضحية لجمال زوجة ابنه « يانج كوى فى » ، وقام الإبن بتطليق السيدة التى انضمت إلى حريم الإمبراطور و صار لها نفوذ عظيم على ابن السماء العجوز ، وأخذت هذه السيدة أحد الأتراك فى كنفها وكان مجهول الأصل حيث ولد فيما وراء السور العظيم ، ووقع فى الأسر قبل أن يباع كعبد لضابط صينى فى حامية شمالية ، و كان التركى « أن لو شانْ » رجلاً موهوباً نوعًا ما ، وترقى إلى رتبة ضابط و أصبح قائداً فى وقت لاحق ، وعندما صار بدينًا بشكل فظ عمد إلى اظهار نفسه بمظهر غير مُبالٍ فكان فى ذلك تسلية و تلهية لأفراد البلاط و بالأخص السيدة « يانج كوى فى » التى تبنته كابن لها ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا ترقى « أن لو شان » سريعًا فعين حاكمًا لإقليم حدودى وأخيراً حصل على لقب أمير من الطبقة الثانية ، وقام بتجنيد أعداد كبيرة من البدو فى صفوف قواته ، وتلقى الإمبراطور تحذيرات تفيد بأن هذا الدجال كان يخطط للثورة لكن ابن السماء لم يلتفت لأى منها، وفى غضون ذلك تم تعيين شقيق السيدة « يانج » وزيراً أول للإمبراطور .

وعندما اندلعت الثورة كانت كاسحة ، ولم تكن حكومة التانج قد أعدت عدتها لمواجهتها ، وأنزل « أن لو شان » هزيمة نكراء بالقوات الإمبراطورية وواصل زحفه نحو العاصمة، وفر الإمبراطور « هسوان تسونج » وأفراد البلاط ، واحتل الثوار « تشانجان » ونهبوا القصر ، وفر الحزب الإمبراطورى مع جماعة من الجند وضعاف المعنويات والذين لم يكن لديهم ما يكفى من المؤن ، فقاموا بدورهم بثورة مُتَهِمينَ الوزير الأول بالخيانة و انقضوا عليه وقتلوه ، وحاول الإمبراطور تهدئة الجند الذين طالبوا أيضا برأس السيدة « يانج كوى فى » ، وبعد أن أقنعه أفراد بلاطه الخائفين وخوفًا على حياته أجابهم ابن السماء إلى طلبهم ، و قام كبير الخصيان بأخذ السيدة « يانج » بعيدًا حيث قام بشنقها فى معبد (باغودا) القرية ، واكتسبت هذه القصة شهرة فى قصيدة لـ " بو تشو الأول " وكثير من الحكايات و المسرحيات التى تناولت هذا الموضوع ، وتنازل الإمبراطور (الذى كان فى الثانية والسبعين من عمره أنذاك) لابنه عن العرش ،

وأنشأ الإمبراطور الجديد قوة من الصينيين و الحلفاء شملت أيضًا العرب الذين أرسلهم الخليفة ، واغتيل آن لو شان لكن غيره من القادة الثائرين حلوا محله ، واستمرت الحرب على مدى عقد من الزمان لكن الحكومة لم تستطع إحكام قبضتها على الأقاليم بصورة كاملة ، و على الرغم من انتهاء الثورة في عام ٧٦٣ م فقد عادت الإمبراطورية الصينية للتفكك مرة أخرى .

ولم يحدث أبداً أن ذهبت الضرائب التي كانت تُجبى من بعض الأقاليم إلى الحكومة ، و تم دفع النفقات العسكرية عن طريق فرض ضرائب جديدة كانت تُجبى مرتين سنوياً ، وعاد الفلاحون الذين لم يكن باستطاعتهم الوفاء بما كانوا مطالبين به للجوء إلى البرية من جديد ، واستولى كبار أصحاب الأراضي على أراضيهم ، وعلى سبيل المثال فقد سقط أكثر من نصف الأراضي الواقعة في ضواحي تشانجان في أيدي الخصيان و أصدقائهم بالبلاط .

وتواصلت ثورات الفلاحين التي اندلعت في السبعينات من القرن التاسع على مدى عقد آخر من الزمان برغم معارضة نواب الملك الذين تناسوا خلافاتهم ووحدوا صفوفهم لبعض الوقت كي ينزلوا الهزيمة بجيوش الفلاحين ، وبعد هزيمة الفلاحين تقاتل القادة فيما بينهم على مدى قرابة خمسة و سبعين عاما، وقد فتحت هذه الفترة الثانية من الشقاق و الصراع الباب مجدداً للإنقسام بين الشمال و الجنوب .

خمس أسر حاكمة (٩٠٧ - ٩٦٠م)

في وادي النهر الأصفر في الشمال تعاقبت خمس أسر على تولي الخلافة (٩٠٧ - ٩٦٠ م) ، وكان حكامها مغامرين عسكريين من أصل بربري (تترى) في أغلب الأحيان :

على مدى سنوات طويلة تقاتل الأتنة و النمور ،

وفي الأسر الحاكمة الخمس : ليانج ، وتانج ، وتسين ، و هان ، وتشاو

قامت دول وسقطت دول كالشموع في مهب الريح ...

وأصبح الجنوب مقسماً بين عشر دول .

وخلال فترة الصراع هذه بين القادة العسكريين نهضت أمة جديدة من البدو تعرف بـ " خيطان " فى الجزء الشمالى الشرقي و توحدت تحت حكم خان منتخب قرب نهاية القرن التاسع ، و تعلم الخيطان من كثير من اللاجئين الهان فنون الزراعة والنسيج و صهر الحديد و أنشأوا اقتصاداً رعويًا / زراعيًا مختلطاً، وبمساعدة الخيطان اعتلى أحد القادة العسكريين و هو « شيه شنج تانج » العرش فى الشمال فكانت مكافأته لهم على مساعدتهم بعد أن أصبح الحاكم الجديد أن منحهم ١٦ إقليما (امتدت من بكين إلى السور العظيم) و جزية سنوية كبيرة ، واتخذ



السيدة « يانج كوى فى» محظية إمبراطور التانج « هسوان تسونج » . صورة تقليدية . وقد وصف شاعر التانج « بو تشو الأول » حزن الأمير العجوز بعد موتها قائلا :

عند عودته لم يكن فى الحديقة
أى تغير
بما كان فيها من اللوتس و الصفصاف
وذكره اللوتس بصورة وجهها
وذكره الصفصاف بحاجبيها
و عندما رأى كل هذا
لم يستطع حبس دموعه .

الخيطان من بكين عاصمة لهم ، (ومن الخيطان اشتقت كلمة خيطاى – كاثاى – وهو الإسم الذى عرف به شمال الصين لأوروبا العصور الوسطى و كانت كيتاى الكلمة الروسية للصين .)

وعندما امتنع خليفة « شيه شنج تانج » عن دفع جزيته للخيطان قضوا على أسرته الحاكمة و استولوا على العاصمة كايفنج ، وطالبوا بعرش التنين لأنفسهم باسم أسرة لياو الحاكمة ، ورغم ذلك فقد رُدُّوا على أعقابهم وأجلست الإنقلابات العسكرية المتلاحقة الحاكم تلو الآخر على العرش حتى كان عام ٩٦٠م عندما انتزع أحد قادة الجيش و هو « تشاو كوانج ين » السلطة من إمبراطورة وصية على العرش وحاكم صبى ، ووطد « تشاو كوانج ين » دعائم حكمه و أسس أسرة سونج الحاكمة التى ظلت قائمة زهاء ثلاثة قرون ، وأدت الرغبة شبه العامة فى تحقيق السلام والوحدة إلى إخضاع بقية الدول الجنوبية وفى غضون عقدين من الزمان توحدت الإمبراطورية الصينية من جديد .

" هاهى تشانجان يسطع فوقها قمر جديد و أنا فى المساء

أستمع إلى أصوات كثير من النساء يضربن الثياب

بالماء .

وتهب رياح خريفية و أعرف جيداً

أن كثيرا من النساء يشعرن ببرودتها و يتلهفن لرؤية

أزواجهن الذين يقاتلون فى أقصى الشمال الغربى –

ثم تحدث إحداهن نفسها قائلة " أتساءل متى سوف تضع الحرب

أوزارها كى لا يعود زوجى للقتال ثانية ."

كان هذا ما كتبه « لى بو » فى القرن الثامن ، لكن المشكلة المفزعة التى تمثلت فى التعرض للهجوم من قبل البرابرة الشماليين ظلت قائمة ، و كتب شاعر آخر فى القرن العاشر يقول :

" لقد أقسموا أن الهون سوف يهلكوا .

....

وحتي الآن لقى خمسة آلاف يرتدون فراء السمور
مصارعهم فى أرض التتار .
وعلى طول ضفة النهر
تناثرت عظامهم
لكن صورهم ما زالت تظهر فى الأحلام
واضحة من بعيد ."



الصيادون ، لوحة جدارية من مغارة تونهوانج . عصر التانج .

وخلال القرون التالية لأسرة سونج الحاكمة كان هناك تفضيل لسياسة التسوية مع الغازى على سياسة المقاومة .

الفصل الثامن

السونج الشمالية

٩٦٠ - ١١٢٧ م

يقال أن القائد « تشاو كوانج ين » مؤسس أسرة السونج الحاكمة التى أعادت توحيد الصين التى أنهكتها الحرب بعد قرابة ٧٥ عاماً من الحكم المقسم تولت السلطة مكرهة ، وبصفته قائداً لخيرة جند التشاو آخر الأسر الحاكمة الخمس ، فقد تم إرساله لصد عدوان الخيطان خلال القلاقل التى وقعت على الحدود ، وقام ضباط الجيش بحركة تمرد بعد مرور بضعة أيام و جاءوا إلى تشاو كوانج ين الذى كان نائماً فى خيمته ، وأصروا وسيوفهم مشهرة على ارتدائه الثوب الأصفر رمزا للسلطة الإمبراطورية وأن يعود بالجيش للإستيلاء على العاصمة .

وعندما تحقق هذا دعا الإمبراطور المتعض الذى عرف بـ " سونج تاى تسو " قادة الجيش وتقول الرواية التاريخية : دعاهم إلى مأدبة و عندما أسرفت الصحبة فى الشراب و انتشوا قال لهم : " إننى لا أنام فى هدوء ليلاً ." وسألوه مستفسرين " لماذا" ؟ فأجابهم الإمبراطور قائلاً " ليس من الصعب فهم ذلك ، من منكم لا يطمع فى عرشى ؟ " وبالغ القادة فى الإنحناء للإمبراطور و احتجوا جميعًا قائلين له " لماذا تقولون جلالتكم ذلك وقد استتب الأمر لمن فوضته السماء ، فمن منا ما زالت لديه أهداف غادرة ؟ " وأجابهم الإمبراطور قائلاً " لا أشك فى ولائكم ، ولكن اذا نهض أحدكم فجر أحد الأيام وأُجبِرَ على ارتداء ثوب أصفر حتى وإن كان كارهًا لذلك فكيف يمكنه تجنب إجباره على الإطاحة بالسونج مثلى تماماً عندما أُجبرت على الإطاحة بالتشاو ؟



الإمبراطور المتعض : أول أباطرة السونج . تاي تسو (٩٦٠ - ٩٧٦ م)

" واحتج الجميع بأن أحداً منهم لم يكن موهوباً بما يكفى للتفكير فى مثل هذا الأمر وطلبوا مشورته ، و قال لهم الإمبراطور " إن حياة الإنسان قصيرة ، والسعادة تكون فى امتلاك الثروة ووسائل الإستمتاع بالحياة ثم القدرة على ترك نفس الرخاء للأحفاد ، وإذا تخليتم أنتم يا ضباطى عن سلطتكم « العسكرية » وأويتم إلى الأقاليم واخترتم أفضل الأراضى هناك وأكثر الأماكن إمتاعًا للإقامة هناك وتمضية بقية حياتكم فى سعادة و طمأنينة حتى تموتوا فى سن متقدمة ، ألن يكون ذلك أفضل من عيش حياة

يسيطر عليها الخطر و الشك ؟ و بذلك لن تبقى ذرة شك بين الأمير والوزراء ونوحد أسرنا عن طريق الزيجات وهكذا يرتبط الحاكم و الرعية برباط الصداقة والمودة وننعم بالهدوء و الطمأنينة ..، وفى اليوم التالى قدم جميع قادة الجيش استقالاتهم وأبلغوا عن اصابتهم بالأمراض (الخيالية) وانسحبوا إلى أحياء البلد حيث عينهم الإمبراطور الذى أجزل لهم العطاء فى مناصب رسمية رفيعة .

وهكذا قلَّم أول إمبراطور للسونج مخالب نواب الملك والقادة ووضع حداً لخطر القادة العسكريين المحليين ، وأصبح الجيش جيشًا وطنيًا يخضع لسيطرته المباشرة .

نظام الإمتحان

أقام « تاى تسو » حكمًا مركزيًا قويًا بعد أن تفككت الإدارة خلال الصراعات ، وأعيد العمل بنظام الإمتحان لاختيار موظفى الدولة ، وتم التوسع فيه بشكل أكبر ، وأصبحت الإمتحانات ذاتها التى كانت تعقد بشكل متفرق فى السابق تُعقَد كل ثلاث سنوات على مستوى الأحياء و كان يتقدم لها آلاف المرشحين ، ومن بين جميع هؤلاء المرشحين كان يقع الإختيار – فى نهاية الأمر– على مائتين فقط سنويًا ليحصلوا على وظائف حكومية و كان ذلك بين القرنين العاشر والثانى عشر، و كانوا نخبة لا تبارى مطيعة لأوامر الإمبراطور فى مجتمع تنافسى .

وأصبحت الإمتحانات عملاً بدنيًا وذهنيًا دالاً على البراعة و القوة ، وكان يتم احتجاز المرشحين فى حجرات صغيرة عدة أيام و ليال معزولين عن العالم الخارجى دون أن يوجد لديهم ما يقيم أودهم سوى المؤن المعدة مسبقًا وطموحهم ، ويقال أن البعض منهم فقد صوابه أو مات من فرط التعب والإجهاد فى أثناء ذلك ، وكانت هناك محاولة للقضاء على الغش و المحاباة عن طريق نظام يقوم على جعل المرشح مجهولاً واستخدام عدة ممتحنين ، و رغم ذلك كان من الممكن رشوة الممتحنين واتباع أشكال مختلفة من الغش والإحتيال ، وكان يمكن أحيانًا للمرشح الحصول على ممتحن أفضل كبديل ، وفى إحدى المرات تم اكتشاف نفق ممتد أسفل حجرات الإمتحان حيث كان يجرى تهريب الأجوبة الصحيحة من خلاله .

وكان بإمكان المرشحين غير الناجحين دخول الإمتحان المرة تلو المرة واستمر بعضهم فى ذلك حتى تقدمت به السن ،

" كم كان ذلك مؤلمًا منذ ثلاثين عامًا

فى العاصمة إنتظارًا لظهور القوائم ... "

كان هذا ما كتبه أحد الشعراء و هو يسترجع ذكرياته بشأن الإمتحانات التى قاسى منها .

" قابلت شخصًا ما أخبرنى بأننى نجحت ،

ولم أتمالك نفسى من فرط السعادة و الدهشة

واعتقدت بأن ذلك غير صحيح و أنه مجرد حلم ،

وكنت فى حالة بائسة من الشك والفزع ...

وبقدر ماكان الأبوين يحبان طفلهما

لم يكن باستطاعتهما وضعه بين القلة المختارة .

وكان بمقدور المتحن فقط لفت نظر الشباب ،

وأن يصعد بهم إلى السماء من قلب الظلام ".

وعلى الرغم من أن نظام الإمتحان كان السبيل الرئيسى إلى المنصب الرسمى فقد مهدت محاباة الأقارب و الثراء أيضًا الطريق إلى المنصب ، و كان باستطاعة الموظفين المغمورين الحصول على الترقية السريعة عن طريق تزكية رؤسائهم ، وقد أفاد هذا من اصطنعتهم الأسر الكبيرة بصورة خاصة ، و كان بيع المنصب إجراء عادة ما كانت خزائن الدولة المعوزة تلجأ إليه ، وأتاح للتجار الأثرياء شراء طريقهم للوصول إلى البيروقراطية ، و قد بُذلت جهود فى عصر السونج لمنع التعامل التجارى بين موظفى الدولة الذين كانت تربطهم صلات قرابة و منع أقارب الأزواج

الإمبراطوريين من شغل المناصب العليا ، وكان يجرى اختيارموظفي الدولة خلال هذه الفترة من عدد أكبر من الطبقات الإجتماعية عما كانت عليه من قبل ، ورغم ذلك فقد كان نصفهم تقريبًا منحدر من أسر ذات تقاليد بيروقراطية ، وكان كثير من كبار موظفي الدولة التابعين لإدارة السونج من العلماء المشهورين الذين تفوقوا في الإمتحانات .

وفي القرن الحادى عشر تم افتتاح الكليات في الأقاليم بمبادرة من الوزير الإصلاحى « وانج أن شيه » الذى سعى أيضًا لإدخال المزيد من المواد العملية في المنهج ، ورغم ذلك تم توجيه التعليم إجمالاً بعد المرحلة الإبتدائية نحو تخريج المرشحين للإمتحانات الرسمية التى كانت تتطلب حفظ الأعمال الكلاسيكية الرئيسية عن ظهر قلب و القدرة على قرض الشعر ، وفي القرن الثاني عشر تم تأسيس الجامعة الوطنية في « كايفنج » حيث كان الطلاب يحصلون على الطعام مجانًا ويعيشون في ظل نظام حاكم بالغ الصرامة للإختبارات الشهرية و امتحانات كاملة كل ربيع و خريف .

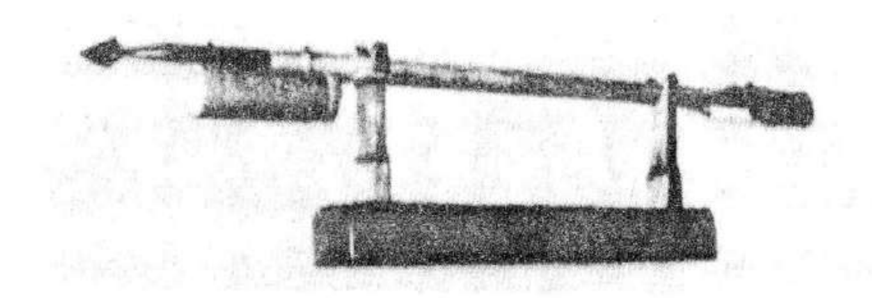
الخيطان و بدو الهسيا

حاول أول إمبراطور للسونج التخلص من مصدر الصراع العسكرى الداخلى ، وبقيت الأخطار الداخلية ، وامتد سلطان السونج - بشكل جزئى فقط - على الأراضى التى تم توحيدها من قبل فى الإمبراطورية الصينية ، وكانت الأقاليم الشمالية - الشرقية لا تزال خاضعة لحكم البدو الخيطان الذين كانوا يسيطرون أيضًا على شمال السور وفي منشوريا ، وكان ممر كانسو في الشمال الغربي والمشرف على الطريق إلى أسيا الوسطى وإلى طريق الحرير القديم يخضع لسيادة قبائل الهسيا ، وهاجم السونج الخيطان مرتين لاسترداد ١٦ إقليمًا كانوا قد تخلوا عنها لهم وهُزِمُوا فى المرتين ، و عندما هاجم الخيطان العاصمة في عام ١٠٠٤م وبدا أنهم يتقدمون نحوها فزع وزراء السونج برغم ما حققته قواتهم من نجاحات عدة فى ميدان القتال ، وعقد الإمبراطور صلحا مع الخيطان واعترف بالحدود القائمة معهم ووافق على أن يدفع لهم تعويضًا سنويًا مقداره ١٠٠ ألف تايل من الفضة و ٢٠٠ ألف

لفة حرير ، و تمت زيادة هذا التعويض بصورة فعلية بعد مرور ثلاثة عقود فى ظل التعرض للمزيد من الضغوط من قبل الخيطان .

وفى الوقت ذاته قويت شوكة قبائل الهسيا فى الجزء الشمالى الغربى وشنت عدة هجمات ضد السونج الذين تكبدوا خسائر فادحة ، وأبرمت معاهدة سلام بين السونج و الهسيا عام ١٠٤٤م حيث وافق السونج على دفع تعويض سنوى مقداره ٧٠ ألف تايل من الفضة و ١٥٠ ألف لفة حرير و ٣٠ ألف كاتى من الشاى و تسببت شروط الصلح المميزة لسياسة السونج فى نشوب الصراع فى البلاط والبلد ككل بين أنصار سياسة استرضاء العدو عن طريق تسليم الأرض و الجزية السنوية وأولئك الذين كانوا يؤيدون مواصلة النضال العسكرى ضد البرابرة .

وتميزت القرون الثلاثة لأسرة السونج الحاكمة (المعاصرة تقريبا لعهد السيطرة النورمندية على بريطانيا) بسياسات الإسترضاء هذه و تقديم المصالح المدنية على المصالح العسكرية بصفة عامة ، و ظل أباطرة السونج على عدائهم لسلطات رجال الجيش وكانت منزلة الجندى بين عامة الناس وضيعة ، ومنذ القرن الثامن وعندما لم يعد الجيش يتألف من المجندين و لكن من المرتزقة فقد كان يُنظَر إلى الجند على أنهم حثالة الشعب فحسب : " الرجل المهذب لا يصير جندياً إلا إذا استخدم أفضل نوع من الحديد فى صنع المسامير ."



نموذج لسهم نارى ابتكر خلال عصر السونج الشماليين . وتم اكتشاف البارود فى عصر التانج لكنه استخدم بادئ الأمر فى صناعة الألعاب النارية . وفى عصر السونج استخدم لدفع أول صواريخ عسكرية كانت تطلق بإشعال خرطوشة مثبتة فى السهم . وكان مدى النموذج ١٥٠ – ٢٠٠ متراً.

ومن الغريب أن الفترة التى اشتُهِرَتْ بالضعف في ميدان القتال كانت الفترة التي شهدت إدخال البارود كسلاح عسكرى في مطلع القرن العاشر، وقد اكتشف البارود في عصر التانج واستخدم بداية في الألعاب النارية ، وتم إعداده خلال عصر السونج لدفع أول صواريخ عسكرية ، وبحلول القرن الحادى عشر كان قد تم تطوير قذائف متفجرة مع نوع من القنابل اليدوية ، و لم يكن المدفع قد ظهر بعد لكن استخدام المدفعية كان في تزايد ، وعندما أدخل في أوروبا ساعد البارود على تدمير معاقل الإقطاع و المجتمع الإقطاعي في نهاية الأمر، و لم يؤد هذا الإختراع إلى إحداث أى تغيير في المجتمع الصيني .

وعلى الرغم من أن السونج كانوا يكرهون التورط في القتال فقد شعروا بالحاجة إلى الإحتفاظ بقوات مسلحة على نطاق واسع و كان لهم جيش من المرتزقة مكون من حوالي مليون و ٢٥٠ ألف مقاتل في القرون الأولى ، و في وقت لاحق أضافوا إلى قواتهم البرية قوة بحرية للدفاع عن السواحل والموانىء الواقعة على الأنهار .

وكانت القوات البرية تتألف من كل من المشاة و الفرسان تحميهم الدروع المصنوعة من المعدن و الجلود ، و كان يجرى تدريبهم على الرماية واستخدام القوس وفنون القتال بالسيف والمصارعة و الملاكمة وكانوا مزودين بالكثير من أنواع المنجنيق (وكان البعض منها يحتاج إلى تزويده بالعشرات من جند المشاه) التى كانت تقذف الحجارة والمعدن المصهور والطلقات و القنابل المسممة ، ومنذ القرن الحادى عشر كان يجرى تسليح السفن الشراعية الحربية أيضًا بالمنجنيق القاذف للقنابل المتفجرة .

ولم تكن هذه القوات فعالة بشكل واضح ، و كان سلاح الفرسان ضعيفًا بشكل خاص ، وكان يفتقر إلى الخيل من سهول الشمال التى لم تعد جزءًا من الإمبراطورية ، وكان مستوى تدريب المرتزقة سيئًا وكانت معنوياتهم هابطة ، وكانت هناك زيادة فى الإنتاج الزراعي فى مطلع عصر السونج ، وساعدت مشروعات التحكم فى المياه على رى حقول الأرز و زراعة الأرض البور ، و سهل استخدام الإطار الخشبي لنقل نبتات الأرز الصغيرة – بشكل جزئى – واحداً من أصعب الأعمال المرتبطة بإنتاج الأرز ، وكان المحراث مهيئًا كى يناسب العمالة البشرية حيث كان هناك افتقار إلى حيوانات

جر الأثقال ، وتمت زراعة أنواع مختلفة من محصول الأرز وغيره من المحاصيل عالية الإنتاجية ، وتم التوسع في زراعة الشاي على سفوح الجبال واختراع طاحونة مائية لطحن أوراق الشاي ، وزادت رقعة الإنتاج الزراعي وصاحبتها زيادة في عدد السكان ، ويبدو أن اجمالي عدد سكان المملكة الوسطى قد تضاعف في القرن الحادي عشر حيث بلغ قرابة ١٠٠ مليون نسمة قرب نهاية عصر السونج ، وقد استفادت الألسنة الممتدة من نهر اليانجتسي - بشكل خاص - من مشروعات الصرف ، وقيل أن كل بوصة كانت تزرع بالأرز وأشجار التوت .

وتطورت الزراعة لكن حالة الفلاحين كانت بائسة ، وكانت سلطة كبار أصحاب الأراضي كبيرة للغاية حيث كانوا يمتلكون ثلاثة أرباع الأرض التي قاموا بتأجيرها للمستأجرين ، وكان يحق لصاحب الأرض الحصول على نصف إنتاج المستأجر كإيجار لكنه غالبًا ما كان يطالب بالمزيد ، ونادراً ما كان يتبقى من المحصول الجيد ما يكفي لسد الحاجات الأساسية للمزارع ، وأتت السنوات العجاف بالديون وفي أحيان كثيرة جداً بالمجاعة ، وترتب على ذلك التخلي عن الأرض أو بيعها المصحوب ببيع الأطفال للبيوتات العريقة أو اللصوصية أو الإنتحار ، وهو نفس النمط التقليدي لحالة المعاناة الإجتماعية في الريف برغم التقدم التقني خلال قرون عصر السونج ، وقد بقيت العقود التي توضح أن أسعار الفائدة على القروض بلغت ٢٠بالمائة نقداً في الشهر الواحد و ٥٠ بالمائة على الحبوب الغذائية وقت الحصاد ، وتسجل إحدى الوثائق - النموذجية بالتأكيد - بيع ابن رجل حرفي فقير مقابل السخرة الزراعية :

" إن عامل البناء الأثري « تشاو تسو » ، نظرًا ... لافتقاره إلى المواد الخام التي لا يستطيع جلبها بأية وسيلة أخرى ، يبيع اليوم - مع حق إعادة الشراء - ولده تشيو تسو إلى ... السيد لي تشيين تنج ، وتم تحديد سعر البيع بمائتي بوشل من الحنطة ومائتي بوشل من الذرة ، وبمجرد أن يتم إبرام عقد البيع فلن يكون هناك أي شيء يُدفَع كإيجار من قبل الرجل أو فائدة على المواد الخام ، وإذا حدث أن مرض الرجل الذي تم بيعه و هو تشيو تسو وتوفي يصبح شقيقه الأكبر مسئولاً عن رد قيمة ذلك الجزء من البضائع (المرتبطة بمدة الإيجار التي لن تكن قد انتهت بعد) ،

وإذا حدث أن سرق تشيو تسو أى شيء ذا قيمة حقيرة أو كبيرة من شخص ثالث سواء فى الريف أو فى المدينة يكون تشيو تسو نفسه (وليس مستخدمه) مطالبًا بدفع كافة التعويضات ... وتم تحديد أقرب موعد لإعادة شراء تشيو تسو فى العام السادس، وعندما تنقضى هذه المدة فقط يمكن الإعتراف بقرابته لإعادة شرائه ، وخوفًا من طلب سعر أعلى له فقد تم إبرام هذا العقد لإقامة البينة على هذا الإتفاق ."

وقد اكتشف هذا العقد الذى يرجع تاريخه إلى عصر السونج فى تونهاونج على الحد الشمالى الغربى فى نهاية طريق الحرير القديم .

وكانت الحروب ضد الخيطان و الهسيا - برغم أنها لم تتواصل كى تُحسَم عسكريا - باهظة التكاليف للغاية و أدت التعويضات السنوية التى ترتبت على ذلك إلى استنزاف موارد الخزانة ، وكما كان معتادًا فقد تحمل القسم الأضعف من المجتمع وهم الفلاحين هذا العبء ، وبلغ فرض الضرائب درجة عالية من التفنن والبراعة ، فعندما كان القادة العسكريون يلجأون للقتال لحسم خلافاتهم في عهود الأسر الخمس الحاكمة تم فرض عدد من الضرائب الزراعية الإضافية ، و عندما كان ينفق ثور كان صاحبه يضطر إلى بيع جلد الحيوان للحكومة بثمن زهيد لصناعة العتاد العسكرى ، وتلي ذلك مصادرة الحكومة لجلد الحيوان صراحة دون دفع ثمنه ، وكانت المرحلة التالية المطالبة بدفع ضريبة علي جلد الثور بصرف النظر عن ملكية الثور حيًا أو نافقًا، و تمت زيادة الضرائب على الأدوات الزراعية التي يملكها الفلاحون ، و كانوا يدفعون المكوس لعبور الجسور و ضرائب على ملح الطعام ، وفُرِضَتْ ضريبة الخمر على الفلاح رغم أنه لم يكن يشرب الخمر مطلقا ، وأضيفت " ضريبة العصفور والفأر " إلى ضريبة الأرض لتعويض الخسارة المفترضة من الحبوب بسبب العصافير والفئران .

وعلي الرغم من أنه قد تم رفع بعض هذه الضرائب أوائل عصر السونج فسرعان ما عادت الضرائب و الأعباء الأخرى للمساعدة فى الوفاء بالنفقات العسكرية للدولة ومظاهر البذخ و الترف فى البلاط .

وفي « سزيشوان » تم تنظيم أعمال السخرة الزراعية فيما يشبه العملية العسكرية : " وتم تنظيم السخرة الجماعية في حقول الأرز بواسطة ساعة مائية ، وكانت تُقَرع طبلة لاستدعاء العاملين معًا وايجاد إيقاع للعمل وحثهم على القيام بأعمالهم ومنعهم من الثرثرة ، و كان يمكن سماع صدى قرع الطبلة ليل نهار ."

وفي غضون ثلاثة عقود من قيام أسرة السونج قامت ثورات الفلاحين ، ورغم أن هذه الثورات قد تم إخمادها إلا أن القلاقل استمرت ، وبعد القرن الأول من حكم السونج عَيّن الإمبراطور وانّج آن شيه رئيسا لوزرائه ، وكان رجل دولة درس ما قام به الأسلاف من اصلاحات و اقترح سلسلة من الإجراءات لمنع تكرار القلاقل ، وكان كثير من " القوانين الجديدة " - كما كان يطلق عليها - التي قام بوضعها إجراءات تقليدية في واقع الأمر أو إحياء لاصلاحات سابقة ، وكان هناك تشجيع لاستصلاح الأرض البور عن طريق مشروعات التحكم في الماء ، وتم تخصيص قروض سابقة للحصاد من قبل الحكومة بأسعار فائدة تقدر بـ ٢٠ بالمائة وذلك لتحرير الفلاح من قبضة صاحب الأرض والمرابين التجار ، و أمكن للفلاحين ضمان الإعفاء من السخرة بدفع رسم إعفاء ، وتقرر إجراء مسح جديد لأرض كل منزل لضمان إدراج أراضي موظفي الدولة وأصحاب الأراضي ضمن نظام الضرائب ، وأعيد العمل بالإجراءات المتعلقة بمراقبة الأسعار وكان يجرى شراء كميات وفيرة من السلع و البضائع لإعادة بيعها بأسعار معقولة عندما تكون هناك ندرة في المؤن و ذلك للقضاء على المضاربة بين التجار ، وتم الحد من إنتاج السلع الكمالية ، واقترح إنشاء ميليشيا بمشاركة عدد معلوم من الأفراد الذين ينتمون لجماعات من الأسر ، وكان يجرى اختيار المجندين من الفلاحين وتدريبهم خلال موسم الركود في الريف حيث كان مقدراً لهم أن يحلوا محل المرتزقة بشكل تدريجي ، و كان مقدراً لأصحاب الأراضي توريد الخيل للفرسان .

وقد حققت هذه الإجراءات نجاحًا وقتيًا لكنها واجهت معارضة الشعب الذي لحقت به صنوف الضرر و الأذى على أيدي أصحاب الأراضي وموظفي الدولة والتجار ، وبموت وانج آن شيه (١٠٨٦) ومصطنعه الإمبراطور تم وقف العمل بالقوانين الجديدة و عادت المساوئ القديمة .

التتار الكين :

لم تكن أسرة السونج في حالة أو وضع يسمح لها بالتعامل مع التهديدات المتواصلة من جيرانها الشماليين ، و كان الخيطان قد استسلموا للضغوط الحضارية الصينية إن لم يكن لقوة الأسلحة الصينية ، ومع تخليهم عن حياة البداوة من أجل الحياة المستقرة تبنوا العادات و اللغة الصينية ، وبذلك فقدوا مكانتهم بين أفراد شعبهم ، و أطاحت إحدى القبائل التابعة وهى التتار الكين (الذهبيين) من وادى سونجارى بسيدهم ، واتجه من بقى من الخيطان غربًا واستقروا فى وادى « ايلى » بآسيا الوسطى ، ورأى السونج أن الوقت قد حان لاسترداد الأقاليم الشمالية التى سبق لهم التخلى عنها للخيطان ، و كانوا قد عقدوا تحالفًا مع التتار الكين قبل هزيمة الخيطان حيث تعهدوا بتحويل الجزية التى كانوا يدفعونها فى السابق للخيطان إلى الكين اذا ما لحقت الهزيمة بالخيطان في هجوم مشترك و أعيدت الأقاليم للسونج ، ورغم ذلك فبمجرد أن بدأ الكين الهجوم لم يكن من الممكن وقفهم ، فبعد أن طردوا الخيطان من بكين انقضوا على كايفنج عاصمة السونج .

وحوصرت كايفنج فى عام ١١٢٦ ، و كان أحد الأحزاب فى بلاط السونج يحظى بتأييد شعبي قوى و كان يؤيد المقاومة الصريحة للتتار الكين ، و كان الإمبراطور وعدد من موظفى الدولة يؤيدون سياسة الإسترضاء آملين فى الحصول على شروط الصلح من الكين مع عرض لتقديم كمية ضخمة من الفضة ، وفى عام ١١٢٧ استولت قوات الكين على كايفنج بعد مقاومة فاترة من جانب امبراطور السونج الذى تنازل عن عرشه لابنه ، وأُخِذَ الوالد وولده و معهما أفراد البلاط الإمبراطورى كأسرى و نقلوا إلى منشوريا .

وفر ابن آخر من أبناء الإمبراطور جنوبًا واتخذ اللون الأصفر الإمبراطورى – رمز السلطة – وبعد فترة من التيه أقام بلاطه فى هانجتشو التى أصبحت عاصمة البقية الجنوبية من مملكة السونج ، وواصل التتار الكين زحفهم جنوبًا وعبروا نهر اليانجتسى ، وبرغم الأعمال البطولية لقائد السونج « يو فى » فى رد التتار على أعقابهم إلى ما وراء نهرى اليانجتسى وهوى انتصر حزب السلام فى البلاط ،

وأُعَدِمَ "يو في" بتهمة ملفقة وعقد الصلح مع الكين الذين تم الإعتراف بحكمهم الذى امتد إلى هوى جنوبًا ، و احتفظ السونج بالسيادة على وادى اليانجتسى والمناطق الجنوبية ، ودام هذا التقسيم مجدداً إلى شمال و جنوب على مدى قرن ونصف القرن من الزمان .

الفصل التاسع

السونج الجنوبية

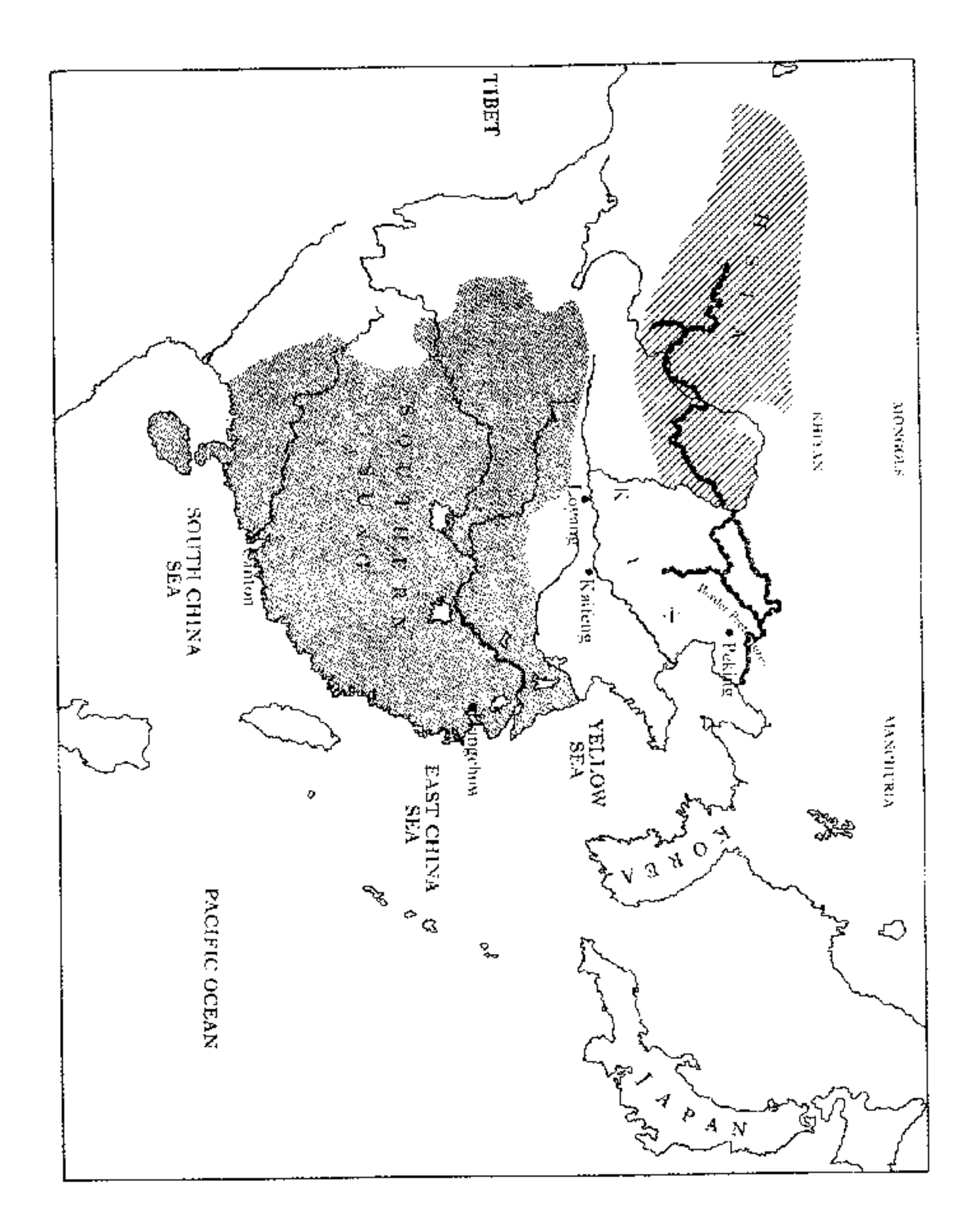
١١٢٧ - ١٢٧٩ م

التجارة :

برغم التمزق السياسى الذى أعقب سقوط أسرة التانج فى القرن العاشر وفقدان الجزء الشمالى من المملكة الوسطى لصالح التتار الكين فى القرن الثانى عشر ، فقد استمرت التجارة فى التوسع فى بقية المملكة، ولذا فبحلول القرن الثالث عشر حدث ما يشبه الثورة التجارية فى جنوب الصين .

ولقى الميل للحصول على المنتجات الصينية خاصة الشاى والمنسوجات الحريرية، ذلك الميل الذى اكتسبه البرابرة فى الشمال مزيداً من التشجيع عن طريق وصول ملايين من شعب الهان إلى امبراطوريات التتار الكين و الهسيا ، ولم يف تدفق الجزية السنوية بهذا الطلب الذى عملت التجارة المتزايدة بين السونج وأهل الشمال على الوفاء به ، و كانت الخيل اللازمة للفرسان البند الرئيسى فى واردات السونج .

وقد تطورت التجارة البحرية أيضاً بنسب هائلة فى زمن السونج الجنوبية وساعد على ذلك التحسينات التى تم ادخالها على الملاحة ، وقد عرف الصينيون الإستقطاب المغناطيسى منذ القرن الثالث الميلادى و استخدموا البوصلة (فى الصين «ابرة تشير جهة الجنوب ») فى تجارتهم مع جنوب شرق آسيا مع مطلع القرن الثانى عشر و ذلك قبل أن يدخلها البحارة العرب إلى أوروبا بعدة عقود ، و كانت السفن الشراعية الصينية الضخمة التى تحمل عدة مئات من الرجال تذرع البحار الجنوبية جيئة وذهاباً كل عام حيث كانت تبحر مع الرياح الموسمية و تحمل الشحنات للأنديز



خريطة السونج الجنوبية

الشرقية والهند والساحل الشرقي لإفريقيا ، وكانت هذه السفن تعتمد على الأشرعة المصنوعة من الحصير أو قماش القنب ، و على المجاديف التي كان يعمل على كل منها أربعة رجال في جو هادئ ، وكانت السفن الشراعية تجر خلفها مراكب تحمل المؤن من الطعام والماء ، كما كانت تستخدم السفن المجدافية التي كانت تدفع على طاحون الدوس .

وتركزت تجارة المحيطات والسواحل في الموانيء الكبيرة مثل كانتون وهانجتشو وشوانتشو (زايتون كما أطلق عليها ماركو بولو) حيث كان المراقبون الحكوميون يجمعون الرسوم الجمركية و الضرائب (بين ١٠ و٢٠بالمائة من قيمة المبيعات من البضائع) و رسوم رسو ، ولم تقتصر الصادرات الصينية في ذلك الوقت على الحرير فحسب بل و الخزف الصيني أيضًا والذي كان يذهب بكميات كبيرة إلى الشرق الأوسط و أخيرا إلى أوروبا ، و من اليابان و كوريا اللتان استمد تطورهما الثقافي الكثير من المملكة الوسطى جاء الطلب على الكتب و اللوحات الزيتية والأعمال الفنية العامة ، وكانت الصين في عصر السونج تستورد السلع الكمالية كالجواهر والتوابل والعاج والأخشاب عالية الجودة من آسيا ، كما كانت المنسوجات القطنية تُستَورد على نطاق واسع أيضًا .

واستقرت المجتمعات التجارية الأجنبية في الموانيء وشملت الكوريين الذين سيطروا على التجارة مع الجزر الشرقية بشكل أساسي والفرس والعرب الذين سيطروا على التجارة عبر البحار الغربية ، وبدأت المناطق الساحلية وموانيء شرق الصين تحل محل الممر الشمالي الغربي إلى آسيا الوسطى كبوابة عبور إلى العالم الخارجي و كمنطقة اتصال مع البرابرة الخارجيين .

وقد ساعد على هذا النمو التجاري و سانده نشأة اقتصاد مالي واضح ومحدد بشكل كبير ، و أدت التجارة المتزايدة إلى تزايد الطلب على العملة ، وكانت وحدة المحاسبة في الدولة سلسلة من ألف قطعة نقدية مربوطة معًا بحبل يمر عبر فتحة مربعة في الوسط ، وفي الأسواق كانت الوحدة العامة سلسلة من مائة قطعة نقدية.

وفى كل عام كانت الحكومة تقوم بسك ملايين من قطع العملة النقدية النحاسية لكنها لم تكن تفى بالطلب الداخلى و الخارجى .

وعلاوة على ذلك فقد واجه الموظفون الحكوميون والتجار مضايقة وخطر نقل كميات هائلة من النقد النحاسى لمسافات كبيرة ، وفى عصر التانج أودع التجار أوراقًا نقدية لدى الأسر الثرية نظير إيرادات (" أموال متنقلة ") كان يمكن صرفها فى أماكن أخرى بواسطة وكلاء معتمدين ، و خلال عصر السونج لقيت هذه الأوراق النقدية – كشكل من أشكال النقد الورقى – قبولاً على نطاق واسع ، وأتاحت الأوراق النقدية التى كانت تصدرها الحكومة للتجار – الذين كانوا يشترونها – مقايضتها بالشاى أو الملح من مستودعات المنشأ أو مستودعات الدولة ، وبالعكس كان يمكن الدفع للتجار الذين يقومون بالتسليم فى مناطق نائية بالأوراق المالية القابلة للتحويل إلى سلع فى العاصمة ، و فى مطلع القرن الحادى عشر تولت الدولة أمر الأوراق النقدية التى كان يصدرها أصحاب البنوك الخاصة ، و شأنها شأن الأوراق النقدية الخاصة كانت الشهادات الحكومية خاضعة لرسم خدمة بنسبة ٣ بالمائة ، وكانت سارية المفعول لمدة ثلاث سنوات ، وكان ذلك قيداً ضرورياً نظراً لتدهور أحوال الورق ، و بحلول النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت الحكومة قد أخذت فى طرح الأوراق النقدية – التى كانت صالحة للتحويل و التداول فى أنحاء الإمبراطورية – للتداول ، وفى الوقت الذى لم يبق فيه أى من الأوراق النقدية الأصلية من هذه العصور فقد تم اكتشاف لوح لطبعها فى "جيهول" ، وكانت الأوراق النقدية التى أنتجها تحمل – علاوة على الرقم المسلسل – الوعيد أو الوعد " سوف تقطع رؤوس المزورين " ، و " سوف يكافأ من يقوم بالإبلاغ عن المزورين بثلاثمائة سلسلة نقدية.»

ولقيت المحاسبة السريعة تشجيعًا وشهدت تطوراً فى أواخر عصر السونج بإدخال أول آلة حاسبة وهى المعداد .

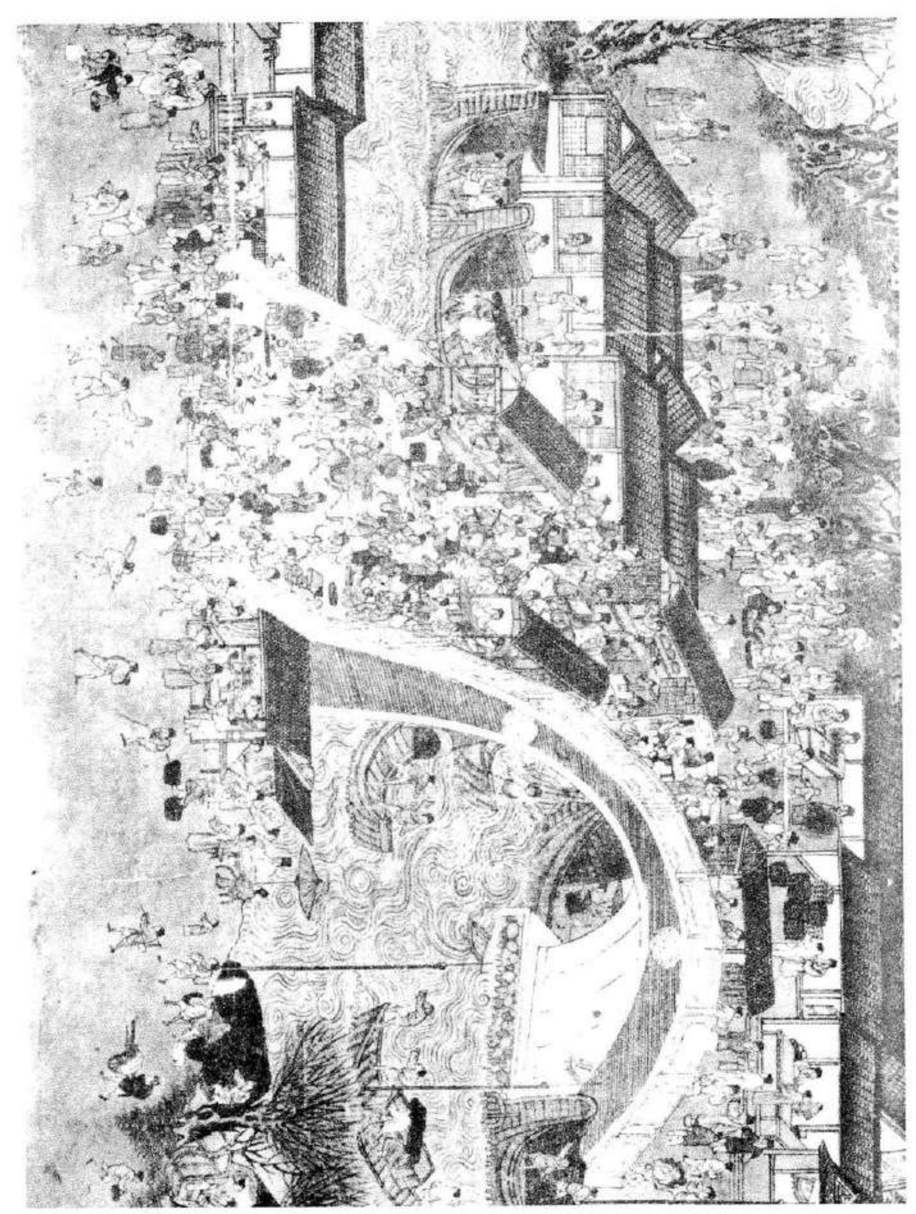
وكان هناك توافق أيضًا بين إيرادات الدولة و الزيادة فى النشاط التجارى وتوسع النظام النقدى ، وخلال عهد السونج الجنوبية وبعد فقدان الأراضى الزراعية في الشمال بدأت الدولة فى تلقى نسبة أكبر من ضرائبها بالعملة تفوق نسبتها من الحبوب والمنسوجات ، وكان هناك أيضًا اعتماد أكبر على إيراد المصادر التجارية ، وحتى مطلع عصر التانج كانت الإيرادات الحكومية تعتمد بشكل شبه كامل على الضرائب الزراعية ، وقرب نهاية عصر التانج أتت الإحتكارات الحكومية للسلع كالشاى و الملح و الخمر- جنبًا إلى جنب مع الضرائب التجارية المختلفة - بنسبة كبيرة من إيرادات الدولة على نحو متزايد ، وخلال عصر السونج الجنوبية حدث أن فاق الدخل الذى كان يتحقق من المصادر التجارية (التى وفرت نصف تكلفة الإحتفاظ بالجيش) الدخل المستمد من ضريبة الأرض .

وشهد عصر السونج تقدمًا تقنيًا كبيرًا ، وكان التقدم الحرفى والصناعى أساسًا للنمو التجارى العظيم ، وتم التوسع فى التعدين وبناء السفن ، وأدخلت المنافخ التى تعمل بواسطة ساقية فى صهر الحديد وساعدت هذه الصناعة على الوفاء - جزئيًا - بالطلب المتزايد بشكل كبير على الأدوات الزراعية و أدوات الحرفيين .

وشهدت القزازة (إنتاج الحرير الخام بتربية دود القز) تقدمًا كبيرًا أيضًا وازدهرت صناعة الحرير سواء التى تديرها الدولة أو التى يديرها أفراد من التجار ، وفى كايفنج و لويانج و أماكن أخرى كانت هناك مصانع كبيرة تديرها الحكومة للغزل والنسيج ، كما كانت الحكومة تشترى أيضا الحرير من المشروعات الأخرى ، وبدأ إنتاج المنسوجات القطنية فى الصين آنذاك .

وبرزت الحرفية البارعة فى عصر السونج و تميزت - بشكل خاص - فى إنتاج الخزف الصينى ، وقد حققت الظلال المخففة للآنية ذات الألوان الأخضر والرمادى والأزرق والطبقات الزجاجية العاجية والبيضاء بلون القمر و الشكل الأنيق والتصميم البسيط للمنتجات الخزفية فى عصر السونج شهرة عالمية .

وكان التوجه نحو تمدين المجتمع فى عصر السونج ملازمًا للتوسع التجارى ، وكانت كايفنج - عاصمة السونج الشمالية - تضم فى بداية القرن الثانى عشر أكثر



مهرجان تشنج منج (الربيع) فى كايفنج عاصمة السونج الشمالية . مأخوذ عن لفيفة يدوية من الرق رسمها تشانج تسى توان

من ربع مليون منزل أو مليونين وربع المليون نسمة ، وقرب نهاية القرن التالى كانت هانجتشو تضم حوالى ٤٠٠ ألف منزل ، وكان هناك كثير من المراكز الكبيرة الأخرى للمدنية ، وأصبح المجتمع - فى ذلك الوقت - خاضعًا لسيطرة سكان المدن بشكل متزايد ، ولم يكن موظفى الدولة والطبقة الأرستقراطية يعيشون في ضِيَاعِهِمْ الريفية بل كانوا يعيشون فى المدن التى كانت تضم أيضًا أعدادًا هائلة من الحرفيين والتجار وأصحاب الحوانيت والعمال .

وحدث تحول فى الإهتمام من الريف إلى المدينة فى نفس الوقت الذى حدث فيه تحول في التوجه فى المملكة الوسطى من وادى النهر الأصفر فى الشمال إلى المناطق الجنوبية ، وكانت الأراضى الواقعة إلى الجنوب تروى بشكل أفضل وكانت أكثر خصوبة بصفة عامة عن مثيلاتها فى الشمال ، وكانت الأقاليم الوسطى والجنوبية فى مقدمة الأقاليم المنتجة للأرز والشاى والحرير، وبعد فرارها أمام البرابرة البدو اتجهت أعداد متزايدة من الأسر التى كانت تقيم فى الشمال إلى الجنوب و استقرت هناك ، وكانت الأسر الحاكمة للإمبراطورية الصينية فى الماضى تتخذ قاعدتها فى الشمال وتقيم عواصمها فى واديى النهرين الأصفر و وى ، وكانت هانجتشو عاصمة السونج الجنوبية تقع جنوب نهر اليانجتسى .

هانجتشو

شهد عصر السونج زيادة فى عدد السكان بشكل مذهل فى الجنوب حيث ظهرت أكبر كثافة سكانية تركزت فى المدن، ولم تعد مدن السونج مراكزًا للإدارة الإقليمية مقسمة إلى أحياء ، حيث كانت الأسواق تحيط بها المتاريس و الأسوار ويفرض فيها حظر التجول و القيود الأخرى ، وتوضح نشأة هانجتشو ونموها التحول من الضروريات البيروقراطية إلى الضروريات التجارية .

وعندما وطد البلاط دعائمه في هانجتشو فى النصف الأول من القرن الثانى عشر لم تكن المدينة أكبر من كثير من المراكز الإقليمية الأخرى ، ومن المؤكد أنه

لم يكن لها الحق فى ادعاء العظمة ، فقد كانت مدينة متواضعة تحيط بها بحيرة وكانت الزيادة الفجائية فى عدد السكان تعنى أن كثيراً من موظفى الدولة كانوا يقيمون مع زوجاتهم و محظياتهم فى معسكرات الجيش ، بينما وجد آخرون مأوى لهم فى الأديرة التى امتلأت بها هانجتشو ، وفضلاً عن أن هانجتشو كانت بعيدة كل البعد عن المناطق التى كان يتهددها الغزو البدوى و تحيط بها البحيرات وحقول الأرز مع كونها أرض وعرة بالنسبة للرماة الخيالة فقد كان بها بضعة مزايا بادئ الأمر تؤهلها لأن تكون عاصمة للإمبراطورية الصينية إضافة إلى سحر طبيعتها ، وهناك مثل صينى قديم يقول " السماء من فوق و هانجتشو على الأرض " ، ووصفها أحد المعلقين الصينيين من القرن الثالث عشر قائلاً :

" الجبال الخضراء تحيط بمياه البحيرة الساكنة من كل جانب ، وتقوم السرادقات والأبراج بلون الذهب والأزرق السماوى هنا و هناك حتى أن المرء ليقول أنه منظر طبيعى ألفه رسام ، و باتجاه الشرق فقط – حيث لا توجد تلال – كانت الأرض منبسطة حيث كان القرميد الملون اللامع لألف سطح من أسطح المنازل يتلألأ كحراشف السمك ."

وكان بناء المنازل و المعابد و القصور يختلف عن بنائها فى الغرب ، ذلك أنهم لم يبنوا أساسات أو جدران حاملة لكنهم أقاموا أعمدة خشبية قوية على دعائم حجرية غائرة فى الأرض ، و كانت الأبنية مستطيلة الشكل و كان لها أرضية فقط أو ارتفاع طابق واحد ، وكان السطح أهم و أغلى جزء ولم يكن يقوم على جدران بل كانت تحمله أعمدة يفصل بين كل منها مسافة ثلاثة أمتار تقريباً وعدد من العوارض الخشبية المستقيمة والمتقاطعة ، و كانت أكثر الأسطح جمالا مغطاة بالقرميد الأصفر والأخضر الباهت أو اليشبى ومطلية بطبقة زجاجية لامعة ، و كان يُسَمحْ بأن يكون للمبانى الحكومية والمبانى الخاصة بأصحاب المقامات الرفيعة أسطح مقوسة بشكل أنيق فى تناغم تام مع مناظر الطبيعة ، وكانت مثل هذه الجدران غير سميكة و مستقلة عن البناء الرئيسى ، و كانت تقوم كطوق يعلو الأرض ببضعة أقدام فقط ، وكانت التقسيمات الأخرى تتألف من مواضع لا نوافذ فيها و ستائر وتعريشات من الخيزران ، وكانت المبانى تؤدى إلى مناظر ظليلة و باردة ، وكانت النوافذ مصنوعة من

تعريشات مربعة بها فراغات مغطاة بورق زيتي ، و كان مستوى الأرض الخاص بالمباني أعلى قليلاً من الفناءات التي أمامها ، وكانت قوانين الإنفاق تتحكم في حجم الأبواب التي كانت تسمح بالدخول إلى الفناءات ، ولم يكن يسمح لعامة الناس بأن يكون لديهم أبواب يزيد عرضها على باع واحد (الباع هو المسافة بين دعامتي قنطرة – المترجم) .

وكانت الأجزاء المكشوفة للعيان من الضلوع الخشبية للأسطح تزدان بالنقوش وتدهن بألوان زاهية، وعادة ما كانت الأثاثات في بيوت الأثرياء مصنوعة من الخشب المطلي باللك الأسود (وقد قصر مرسوم امبراطوري استخدام الأسرة المصنوعة من الخشب المطلي باللك الأحمر على الإمبراطور) ، و كان الحصير الأسلي يستخدم للفرش بصفة عامة مع أغطية مبطنة بخيوط الحرير، وكانت الوسائد مصنوعة من الأسل المجدول أو الخشب المطلي باللك أو الفخار المدهون ، وكانت لفائف الورق المكتوب – المعلقة رأسيًا أو المنشورة أفقيًا – شكلاً معتادًا للزينة و كذلك الأزهار والنباتات الجميلة ، وكان الإهتمام بالزينة يفوق الإهتمام بالراحة في هذه البيوت ، وكان الأثرياء يحرقون البخور لتعطير الجو .

وكاد وقع النشاط التجاري – عظيم المدى في هانجتشو – على المعاصرين الصينيين خلال عصر السونج أن يعادل وقعه على « ماركو بولو » في وقت لاحق ، وطبقا للروايات الصينية فقد أفسحت البيوت الصينية التقليدية المكونة من طابق واحد الطريق للمباني متعددة الطوابق في هانجتشو ، وذلك للتغلب على زيادة الكثافة السكانية ، وكان كبار موظفي الدولة يعيشون على "هضبة العشرة آلاف شجرة صنوبر" ، وكان التجار الذين جمعوا ثرواتهم من التجارة البحرية يعيشون على جبل العنقاء إلى الجنوب ، وهناك كانت المنازل والسرادقات الصيفية منتشرة هنا و هناك بين البساتين و الحدائق .

وكان عرض الطريق الإمبراطوري الذي كان أجمل طريق عام في هانجتشو ٦٠ ياردة وكان ممتدًا لمسافة تزيد على ٣ أميال ، و كانت الحواجز إحداها مدهون باللون الأسود والآخر مدهون باللون الأحمر وكانت تقسم الطريق بطوله تاركة ممر في

الوسط محظور على العامة والخيل وحكر للإمبراطور، وكانت حركة المرور الأخرى مقصورة على الممرات المقنطرة وراء الحواجز ، وكانت القنوات الضيقة تجرى بطول هذه الممرات المقنطرة حيث زرعت حدودها باللوتس و الأشجار المزهرة من البرقوق والخوخ و الكمثرى و المشمش ، وكانت المدينة مليئة بالقنوات وبدت لـ "ماركو بولو" عندما جاء إليها أشبه بمدينة البندقية الشرقية ، وكانت القنوات في هانجتشو مزدحمة ببوارج لنقل الأرز و مراكب محملة بالأخشاب والفحم والآجر و البلاط وأكياس الملح والنوتية والأسر التي كانت تعيش على أسطح المراكب .

وكما ذكر أحد المؤلفين لم يكن لأرصفة الشحن على طول القنوات في السابق أية أسوار متصلة وإنما حواجز فقط شيدت هنا و هناك بواسطة أصحاب الأراضي المحاذية للماء ، وغالبًا ما كان المعربدين السكارى الذين كانت تربكهم الأنوار يسقطون فيها وكان عشرات بل مئات منهم يغرقون فيها كل عام حتى كان اليوم الذى أمر فيه حاكم المدينة بإقامة أسوار على طول الضفاف لها بوابات في أماكن شحن السفن ، وبرغم وجود شبكة القنوات والتفضيل الشعبي للمراكب فعادة ما كان هناك زحام مرورى في الشوارع خاصة عند أبواب المدينة التى كانت ضيقة للغاية بحيث لم تكن تسمح بمرور عدد كبير من العربات والخيل والحمير والحمالين وكذلك كان الحال عند المداخل المؤدية إلى الجسور الضيقة المحدبة (التى عرفت بالصينية بـ " جسور قوس قزح ") ، وكتب أحد السكان يقول أن أحد الأشخاص انحرف عن الشوارع الرئيسية فدخل في الزحام المضطرب للأزقة فى المناطق الاكثر فقراً مخاطراً بذلك بحياته ، وكان الحمالون والحيوانات المحملة بالأكياس والمشاة يتدافعون ويصطدمون ببعضهم البعض في هرج ومرج دائبين .

وكان المنتجان الأكثر استهلاكًا من قبل أهل المدينة الأرز ولحم الخنزير، وكان سوق الخنازير يقع فى وسط المدينة تمامًا قرب الطريق الإمبراطورى ، وكان يجرى ذبح عدة مئات من الحيوانات في زقاقين يوميًا ، وكانت أجزاء من لحم الخنزير وفضلات الذبائح تباع للتجار البسطاء و صالات الشاى والحانات ومحلات لحم الخنزير المملح وكذلك للباعة الجائلين الذين كانوا ينادون فى الشوارع على بضاعتهم من الوجبات الخفيفة من لحم الخنزير المشوى ، وكتب أحد المواطنين معبراً عن

سعادته بما شهده التسويق من تطور قائلاً :

" هناك أنواع عديدة و مختلفة من الأرز كالأرز المبكر والأرز المتأخر والأرز الذى تم طحنه حديثًا والأرز الشتوى المقشور والأرز الأبيض الفاخر و الأرز الأبيض متوسط الجودة و الأرز قرنفلى اللون بلون اللوتس والأرز الأصفر والأرز على الساق والأرز العادى والأرز الدبق والأرز الأصفر العادى والأرز قصير الساق والأرز الأصفر والأرز القديم .. ، وكان أهل مدينة هانج يحبون دومًا قدوم السفن المحملة بالأرز بشكل فوضوى من جميع الأنحاء ، ويجدون أنه من المريح للغاية وصول هذه السفن طوال اليوم دون توقف ....وفى كل مكان في المناطق وفى الشوارع وعلى الجسور وعند أبواب المدينة وفى كل ركن من أركان المدينة كانت توجد عربات يد وحوانيت ومتاجر تعمل ، وكان السبب فى هذا أن الناس كانوا بحاجة يومية لضروريات الحياة كحطب الوقود والأرز والملح والخل والشاى والى السلع الكمالية إلى حد ما فى حين أن الأرز والحساء كانا ضرورتين مطلقتين من ضروريات الحياة نظراً لأن أفقر الناس كان لا يستطيع الإستغناء عنهما ، والحقيقة أن سكان هانجتشو كانوا مدللين ومن الصعب إرضائهم ....

... ولنأخذ السمك كمثال ... فقد أعدت قائمة بكافة أنواع السمك المختلفة التى يبيعها تجار السمك ...السمكة الفضية والسرطانات البحرية والسمك المجفف من « هوى » والسرطانات الصغيرة والبط المملح والبورى المقلى و السمك المجمد والسمك المجفف المجمد والأبراميس المقلى واللتش المقلى فى الزيد والأنقليس المقلى والسمك المسلوق والربيان البيضاء المقلية ، وإضافة إلى ذلك كانت هذه السلع تباع بواسطة الباعة الجائلين في الشوارع لسد حاجات المستهلكين فى الدروب والأزقة الصغيرة ، وهو ما كان أمرًا مريحا للغاية ."

وكان السمك المملح يأتى فى المرتبة التالية بعد الأرز ولحم الخنزير فى النظام الغذائى للشعب ، وكان هناك قرابة مائتى محل لم تكن تبيع أى شيء سوى السمك المملح ، وكانت هناك أسواق خاصة للخضروات خارج ما كان يطلق عليه " الباب الجديد " وسوق للسمك الطازج جنوب شرق المدينة خارج ما كان يطلق عليه " الباب

الذى ينتظر المرء عنده مجيء المد " ، وسوق للسرطانات البحرية على ضفة النهر ، وسوق القماش خارج المتاريس الجنوبية ، و كانت هناك أسواق للزيتون والبرتقال والأزهار والجواهر والنباتات الطبية والكتب، وعلاوة على ذلك كانت هناك العديد من وسائل اللهو والتسلية فى الشوارع كان يمكن لأهل المدينة الإستمتاع بها ، فكان هناك المشعوذين والبهلوانات وعروض الدمى المتحركة وخيال الظل والقصاصين ، وقال ماركو بولو أن " كوينساى (هانجتشو) ...هى أعظم مدينة يمكن أن توجد فى العالم حيث المتع والمباهج التى تجعل المرء يخال نفسه فى الجنة ." لكن الأمر المحير والمثير للشك هو ما اذا كانت الجماليات التى تركت ذلك الإنطباع لدى ماركو بولو من صنع الطبيعة .

وقَدّرَ هذا التاجر القادم من البندقية أنه كان يوجد فى العاصمة المؤقتة لهانجتشو " إثنا عشر نقابة للحرف المختلفة وكانت كل نقابة تضم ١٢ منزلاً يقيم بها عمال هذه النقابات ... وكان عدد التجار وثرواتهم وكمية البضائع التى كانت تمر من تحت أيديهم هائلة على نحو لا يمكن معه لأى امرئ أن يأتى بتقدير دقيق لها ."

وكتب عن التجار قائلاً :

" إن كبار أصحاب هذه المتاجر الأثرياء لا يعملون بأيديهم ويتظاهرون – على عكس ذلك – بسلوكيات تتسم بالوقار واللياقة ، وينطبق نفس الشيء على سيداتهم الحسناوات كما ذكرنا توا : فقد تمت تنشئتهن على اكتساب العادات الخاصة بالخجل والرقة الشديدين ويكشف لباسهن عن الفخامة الفائقة للحرير والحلى حتى أنه يستحيل تقدير التكلفة ."

وكان الرجال والنساء من الأثرياء يرتدون ملابس طويلة إلى الكاحل ذات أكمام طويلة فضفاضة ، وكانت المعاطف مبطنة بمشاقة الحرير أو الفرو التى تقى من البرد ، وكان العامة يرتدون قمصاناً طويلة وبنطلونات من خامة ملونة خفيفة ، ولم يكن أحد يخرج حافي القدمين أوحاسر الرأس ، حتى أفقر الناس كانوا يرتدون نوعًا ما من الصندل ، وكان الرهبان البوذيون الوحيدين الذين كانوا يخرجون حاسرى الرؤوس وكانوا حليقين تمامًا فى واقع الأمر ، وكان النساء يرتدين غطاءً

للرأس وكانوا يكتفين أحيانًا بوضع دبابيس الشعر والأمشاط للزينة ، وكانت النساء الأكثر ثراءً يضعن أمشاطًا مزخرفة و زينة من الأزهار و الحلى ، وكانت الخادمات تُعرفن بتسريحة شعرهن – شعر مصفف فوق الجبين وخصلتى شعر تتجهان إلى مقدم الرأس ومربوطتان بأشرطة ملونة ، وكانت رؤوس الأطفال حليقة تمامًا عدا خصلة فى مقدم الرأس ، وكان الحرفيون والتجار يرتدون نوعًا من العمائم حيث كان لون وشكل العمامة يدلان على حرفة الرجل .

وعندما كان أحد الحكام من ذوى المنزلة الأدبية يقوم بزيارة كان يرتدى رداءً خاصًا بالزيارة مختلف تمامًا عن لباسه اليومى .... واذا تصادف أن قابل المرء شخصًا لم يكن يرتدى رداءه الفوقى الذى يطلقون عليه رداء المجاملة كان يمتنع عن تحيته بالإيماءات المعتادة حتى يرتديه ، وعادة ما كان المرء يصطحب معه خادم يحمل عنه هذا الرداء الطقسى ، ورغم ذلك فإذا التقى صديقان وكان أحدهما يرتدى عباءة الزيارة والآخر لا يرتديها قام من يرتديها بخلعها ...

وكان تصميم الملابس هامًا خاصة لذوى المراتب ، فقد كان لكل من غطاء الرأس و لون وزركشة الرداء وتصميم الحزام دلالة اجتماعية أشبه بالأزياء العسكرية فى الغرب ، وكان استخدام أشكال معينة من التطريز والفرو الخاص كفرو السمور والثعلب والوشق قاصراً على موظفى الدولة الذين كانت تميزهم أزرار بقلنسواتهم ، وكانت هناك ألوان مخصصة للدرجات المختلفة للموظفين ، فكانت الثياب الأرجوانية لمن هم أعلى من الدرجة الثالثة ، والثياب القرمزية لمن هم أعلى من الدرجة السادسة ، والثياب الخضراء لمن هم أعلى من الدرجة السابعة ، والثياب ذات اللون الأزرق المخضر لمن هم أعلى من الدرجة التاسعة ، وكان العامة يرتدون الثياب ذات اللونين الأبيض و الأسود ، وكان اللون الأصفر حكرا على الإستخدام الإمبراطورى ، ورغم ذلك فبعد مدة من الزمن أصبحت بعض هذه الفروق اللونية غير واضحة ، حيث منح البلاط على سبيل المثال الحق فى ارتداء اللون الأرجوانى للموظفين من جميع الدرجات ، وقد وصف « ريتشى » المبشر اليسوعى الرسمية الكونفوشيوسية فيما يتعلق بالملبس والتى بقيت حتى القرن السابع عشر بقوله :

" يمكن لأولئك الذين ينتمون للقوالب الأدبية أن يرتدوا قبعات مربعة ...ومن سواهم يرتدون القبعات المستديرة .

وغطاء الرأس شأنه شأن الأحزمة له دلالة خاصة ، ووصف ريتشي قلنسوات كبار الموظفين الصينيين قائلاً :

" إن جميع الحكام سواءً من كان منهم رفيع أم وضيع الشأن يرتدون نفس النوع من القلنسوة السوداء ذات الجناحين البيضويين فوق الأذنين تمامًا والمتصلين قليلاً جداً بالقلنسوة حتى أنهما ليتدليان بغاية السهولة ، وكما يقولون فالداعي إلى هذا الترتيب الخاص هو ضمان أن يسير من يرتدي هذه القلنسوة منتصب القامة في تواضع – دون أن يحني رأسه ولو قليلاً ...

ويستطيع الصينيون التمييز بين حكامهم عن طريق المظلات الخفيفة التي يستخدمونها ... فالبعض منها أزرق والبعض الآخر أصفر ... كما يمكن التعرف عليهم أيضا من خلال وسيلة النقل ، فأصحاب المراتب الدنيا يركبون الخيل وأصحاب المراتب الرفيعة يحملون على أكتاف خدمهم في كراسي المحفة ."

وكان استخدام المظلات الخفيفة المستديرة من الحرير الأزرق المخضر حكرًا في بادىء الأمر على الأمراء من العائلة الإمبراطورية ، ومنذ نهاية القرن العاشر تم السماح لبعض موظفي الدولة بحمل هذه المظلات الخفيفة ، ثم مُنِحَ هذا الحق لنساء القصر عند قيامهن بزيارات للمدينة ، وكانت الفتحات العريضة للأكمام التي غالبا ما كانت توضع لها حاشية من الحرير ذو اللون الأغمق كالرقبة تستخدم كجيوب حيث كانت تحمل الأشياء الصغيرة كالمراوح ، وكانت ملابس النساء تقفل في الجانب الأيسر وملابس الرجال في الجانب الأيمن بأزرار مستطيلة وعقد مسمارية .

وكان من بين التطورات الأقل جاذبية التي شهدها عصر السونج انحطاط وضع المرأة بصورة أكبر ، ولم يحدث أبداً أن علا شأن المرأة في المملكة الوسطى ، وقد أكدت التعاليم الأخلاقية الكونفوشيوسية على خضوع المرأة وتبعيتها للرجل ، ورغم ذلك ففي مجتمع يقوم على الزراعة بشكل أساسي كان للنساء على اختلاف طبقاتهن

الإجتماعية مهام لها قيمتها ، والواقع أن العمل اليدوى للنساء الفلاحات كان لا غنى عنه من الناحية الإقتصادية ، وفى المدن كان العمل أقل ضرورة ، وحدث مزيد من الإنحطاط للوضع الإجتماعى للمرأة خاصة بين الأثرياء الذين أصبحت المرأة بالنسبة لهم كالدمية وموضعًا للانغماس فى الملذات و رمزًا للغنى ورغد العيش أكثر من أى وقت آخر مضى . وقد نشأت موضة ربط القدم فى تلك الفترة بداية بين النساء من الطبقة الأرستقراطية كعادة ميزتهن و نويهن عن الطبقات الأخرى لكنها انتشرت بمرور الزمن حتى بين الفلاحين ، وقد أشير إلى أن هذه العادة كانت من وحى راقصات آسيا الوسطى اللاتى كن يربطن أقدامهن حتى يصلن بها إلى حوالى نصف الحجم الطبيعى ، ووصل الأمر إلى اعتبار "القدم الزنبقية " هذه صفة للأناقة والجمال الجنسى ليس فقط بالنسبة للرجال ولكن للنساء أيضًا الذين استمروا فى إخضاع بناتهم لهذا العذاب حتى القرن العشرين .



القدم الزنبقية ، ففى سن صغيرة جداً كانت الفتيات يقمن بثنى أقدامهن وربطها بإحكام حتى ينكسر قوس القدم و تنثنى الأصابع تحته فتتخذ القدم شكل حافر يبلغ طوله نصف الطول الطبيعى وعندما لم يكن يجرى تغيير الأربطة بشكل كاف فى أغلب الأحيان كان الجلد المتقيح يزيد من معاناة الفتيات الصغيرات .

وقد شجع المجتمع المدني – الباحث عن المتعة والمكون من الأدعياء إلى حد كبير والذى كان يشترى طريقه إلى البيروقراطية – بنجاحاته التجارية التطور الثقافى ذى الطبيعة الأكثر شعبية عن تلك الخاصة برجال الأدب التقليديين ، وفى المدن الكبيرة خلال عصر السونج أدخل القصاصون البهجة على قلوب جماهيرهم من المستمعين للحكايات باللغة العامية التى تقوم على الروايات الشعبية أو ما اجتمع لديهم من نصوص مكتوبة من مدونات الملقنين التى ظهرت من خلالها الرواية كشكل من أشكال الأدب الصينى فيما بعد .

التصوير الزيتى فى عصر السونج

حلت الإهتمامات ووسائل التسلية المدنية محل وسائل التسلية الريفية بالنسبة لقطاعات كبيرة من المجتمع ، حيث اختفت رياضة الصيد كرياضة أرستقراطية فى عصر السونج ، كما نشأ أسلوب مدنى رومانسى على نحو مميز للتعامل مع الطبيعة حيث كان يمكن إعداد الفرد المنعزل ، البعيد ، الهادئ للتكيف مع النظام الطبيعى . وكانت هناك أمثلة لهذا الموقف الذى امتزج بالموقف الطاوى كمدخل صوفى فى كثير من الصور الزيتية لعصر السونج التى حققت المجد الفنى لذلك العصر ، ففى العمل الصامت أحادى اللون لـ " ما يوان " على سبيل المثال يقف الأفراد – بشكل رومانسى – كأقزام أمام البيئة الطبيعية الهائلة حيث الفراغ واللانهائية ببضع لمسات من الفرشاة .

وقد حظى هذا الفن برعاية البلاط و أقيمت أكاديمية للتصوير الزيتى فى معبد « لنج ين » بـ « هانجتشو » اجتذبت بعضاً من عظماء رسامى ذلك العصر بمن فيهم « ما يوان » و « كسيا كوى » ، كما كان فن الخط من بين الفنون التى احتلت أعلى المراتب ولم يكن احترام فرشاة الخطاط بأقل من احترام الفنان التصويرى .

وظلت الطباعة على لوح خشبى لنصوص وصور ذات صفحات كاملة قائمة فى الصين منذ القرن السابع ، و تلتها ذلك الطباعة بواسطة مجموعة من الحروف المطبوعة القابلة للتحريك اخترعها « بى شنج » فى الصين خلال عصر السونج



ما « يوان » - أحد كبار الأساتذة فى عصر السونج - يقوم بإحراق البخور وأشجار الخيزران

الشمالية (١٠٤٥م - حوالى ٤٠٠ عام قبل أن يخترع يوهان جوتنبرج المطبعة فى ألمانيا) ، وتم إخراج عدد كبير من الأعمال الفلسفية والعلمية والأعمال الكلاسيكية والموسوعات التى غالبًا ما كانت تذخر بالصور المطبوعة على أكليشيهات خشبية والتى أصبحت أيضًا فنًا متطورًا بدرجة عالية ، وأصبح من الممكن آنذاك نشر طبعات معتمدة من الأعمال الكلاسيكية بصورة أكبر فى شكل كتب ، وكانت هناك زيادة فى عدد المدارس والأكاديميات الخاصة ، وأصبحت فرص التعليم والتعيين بالوظائف الكبيرة بالدولة متاحة لعدد أكبر من الأسر .

وقد أتت الأعمال الأدبية لعصر السونج من مصادر أكبر بكثير من أعمال المؤرخين الرسميين والشعراء المتعلمين فى الأزمنة السابقة ، حيث تضمنت مذكرات موجزة للمواطنين من المراقبين اليقظين والنصوص التلقينية للقصاصين . و كما

لاحظنا فقد كان المواطنون التجار أكثر اهتماماً بتفاصيل الحياة اليومية من الموظفين المتعلمين ، وحظى الطب باهتمام عظيم ، وتم إخراج مصنفات فى الصيدلة والوخز بالإبر العلاجية ، وكان من بين الإنجازات الخالدة موسوعة طبية تم تأليفها برعاية الإمبراطور بواسطة اثنى عشر من أعلام عصره ومصنف آخر ألفه أحد الرحالة حيث ضمنه نصائحه بشأن الأشياء الضرورية التى يتعين أن تحتوى عليها عدة المرء فى ترحاله فذكر المعطف الواقى من المطر وصندوق الأدوية ومقدار وافر من الملابس والأمشاط الإضافية وصندوق للأطعمة المحفوظة والشاى وصندوق آخر يحوى الورق والفرشاة والحبر والمقص وقاموس للقوافى وعود ، ولم يكن من الممكن نسيان الشموع والسكاكين وأحجار الشطرنج وصندوق لحفظ الكتب التى قد يتم شراؤها فى الطريق مع بعض من مسحوق المبيد الحشرى للوقاية من عثة الكتب .

وفى أواخر عصر السونج كان البلاط و المواطنون الأثرياء أكثر نشاطاً سعياً وراء المتعة أكثر من سعيهم وراء العلم والثقافة ، وتجاسر أحد رجال الدولة والعلماء على توجيه مذكرة إلى الإمبراطور بشأن البذخ الإمبراطورى :

" بلغنى أنه بسبب مولد احدى الأميرات مؤخراً كانت الخزانة مطالبة بما لا يقل عن ٨٠٠٠ قطعة حرير.

والآن أما وقد بلغت قسوة الشتاء ذروتها حيث يجد عمال الصباغة البؤساء أنفسهم مجبرين على تكسير الثلوج قبل أن يتمكنوا من الحصول على الماء فسوف يعانون من مشاق لا توصف فى توريد الكمية المطلوبة ، ونظراً لما عرف عن جلالتكم من مشاعر إنسانية واقتصاد لا يمكننى أن أصدق أن يجرى فرض هذه السخرة الهدامة برغم ما أشيع عن أن عمال الصبغة يعملون بجد » .

وتخبرنا قصة من عصر السونج بأن " العاصمة اتخذت مظهراً كاذباً وسطحياً للثراء و الرخاء." و الحقيقة أنه كان هناك دليل فى كل مكان فى هانجتشو على ترف السونج وتفانيهم فى السعى وراء المتعة :

" كانت أشهر صالات الشاى فى ذلك الوقت الجنَة الثمانية ، والبهجة الخالصة ، واللؤلؤة ، ومنزل أسرة بان ، والتكريم المضاعف ، و التكريم ثلاثة أضعاف ... وقد



تمثال من البرونز من عصر السونج لتدريب الأطباء على الوخز بالإبر كشكل تقليدى للعلاج ، وتوجد ثقوب بالمواضع الهامة بالجسم للوخز بالإبر ، وقد أغلقت هذه الثقوب بالشمع و تم ملأ التمثال بالماء ، وعندما كان الطالب يثقب الموضع الصحيح كان الماء يسيل من التمثال

دأبوا في هذه الأماكن على وضع باقات من الزهور النضرة بحسب موسم زراعتها ،،، وعلى النضد كان يُباع إما شاى " الرعد الثمين " وهو شاى من الفطائر المقلية والبصل أو مرق التخليل ، وفي الجو الحار كان هناك الخمر المصنوع من فقاقيع الثلج وزهرة المشمش أو أنواع أخرى من الشراب المنعش .

ونظراً لوفرة الخدم الذين كانوا يتقاضون أجوراً زهيدة لم يكن أحد ليحلم بالقيام ولو بعمل بسيط بنفسه ، فالضيوف في الولائم وحتى الزبائن في المطاعم الرخيصة لم يكن يُسمح لهم بتقطيع ما يقدم لهم من لحم بأنفسهم حيث كان يجرى تقطيع كل شيء إلى قطع صغيرة بما يكفى لالتقاطه بزوج من العيدان ، وكان خمر الأرز الدافىء يقدم مع معظم الأطباق .

وكانت أكياس المال و سلوكيات حديثى العهد بالثراء والريفيين السذج تسلية لتجار المدينة و أصحاب المطاعم البارعين :

" قرب المساء كانت المصابيح والشموع تُضاء لتنتشر وهج الضياء في كل مكان ." وكان أصحاب المطاعم يطلبون من النادلات من الفتيات المغنيات اقتراح أطباق خاصة على الزبائن عديمى الخبرة " حتى ترتفع قيمة الفاتورة ، و في سائر المطاعم كان المرء اذا أراد كسب التقدير كزبون بدأ أولاً باختيار مكانه ثم يراجع قائمة الطعام ويأمر بالخمر ، ووقتها فقط كان المرء يمضى في أناة لانتقاء العديد من الأطباق المختارة بعناية . ونظراً لأنهم لم يكونوا على دراية بعادات العاصمة بعد كان السادة من الأقاليم يبدأون بتناول الطعام على الفور وكانوا أضحوكة في نظر صاحب المطعم ."

ومع ذلك لم يصبح كل شخص في المدن تاجراً ثرياً ، و كان الفقر مشكلة خطيرة في المدن وفى الريف على حد سواء ، وكثر الشحاذون في العاصمة وفى المدن الأخرى :

في أسمالهم وقبعاتهم البالية المتسخة

كانوا يحملون البُسُطَ الرثة و حصيرهم الممزق ،

وفى أيديهم عصى الخيزران

وأوعية الأرز المكسورة

كانوا يتزاحمون على باب الرجل الغنى قائلين له :

كيف حالك وهم يرتعدون وجلاً .

وكان مولد طفل إضافي لأسرة فقيرة يُعَد كارثة ، ويذكر التاريخ أنه عند مولد طفل في القرن الثاني عشر كان يتم إعداد دلو من الماء للقيام بما كان يطلق عليه " تحميم الطفل "، وكانت عادة التخلي عن الأطفال حديثي الولادة مفضلة في المدن ، وكانت بعض الأسر الفقيرة تعهد أو تبيع نسلها للأسر الثرية كي تتم تنشئتهم كخدم ، وكتب الرحالة المسلم " ابن بطوطة " في مطلع القرن الرابع عشر أن "الإماء الشابات رخيصات الثمن للغاية في الصين ، و الحقيقة أن جميع الصينيين على استعداد لبيع أبنائهم وبناتهم كعبيد و إماء سواء بسواء ولا يُعَد ذلك عملاً مخزيًا ."

وأصبح التخلي عن الأطفال أمرًا مألوفًا حتى صدر مرسوم يحظر ممارسة هذه العادة في القرن الثاني عشر في حين أنشئت مستشفيات للقطاء على نفقة الدولة – "وكان يتم إحضار أعداد كبيرة من الرضع إلى المستشفيات في السنين العجاف ."وكانت الأسر التي بحاجة لتبني أطفال تحضر لأخذهم من مستشفى اللقطاء ، وتم اتخاذ إجراءات و تدابير اجتماعية للتخفيف من معاناة الفقراء في المدن ، وتم إحياء مخازن الغلال التابعة للدولة ومخزون السلع الذي كان يُحفَظ لأوقات الحاجة مع تخصيص اعتمادات مالية (على نطاق محدود) لإعانة الفقراء ، وتم تعيين موظف مسئول عن بناء دور للمسنين و المعدمين ، وبدأت الهيئات و المصالح العامة والخاصة في توفير أشكال أخرى لإعانة الفقراء كإقامة المآتم للمحتاجين ، وتم إلحاق العاطلين بالجيش وتخصيص اعتماد مالي للعلاج المجاني ، ورغم ذلك لم يصل الفقراء سوى مقدار محدود من مخصصات الإعانات نظرًا لأن الكثير منها كان يتسرب إلى جيوب المدراء وأصدقائهم .

كما كانت الدولة تقدم الإعانات لضحايا الكوارث كما كان يحدث عند تعرض هانجتشو (والمدن الأخرى) للحرائق رغم أنه كانت توجد مراكز للحراسة على بعد كل ٥٠٠ ياردة و أبراج للمراقبة لم تكن تخلو أبدًا من الجند الذين كانوا يرفعون الأعلام التحذيرية نهارًا إذا رأوا دخانًا يتصاعد و يضيئون المصابيح التحذيرية ليلاً . وقد تعرضت هانجتشو في عصر السونج للدمار عدة مرات بسبب الحرائق حيث أتت النيران على عشرات الآلاف من المنازل ، و في أعقاب إحدى هذه الحرائق في صيف



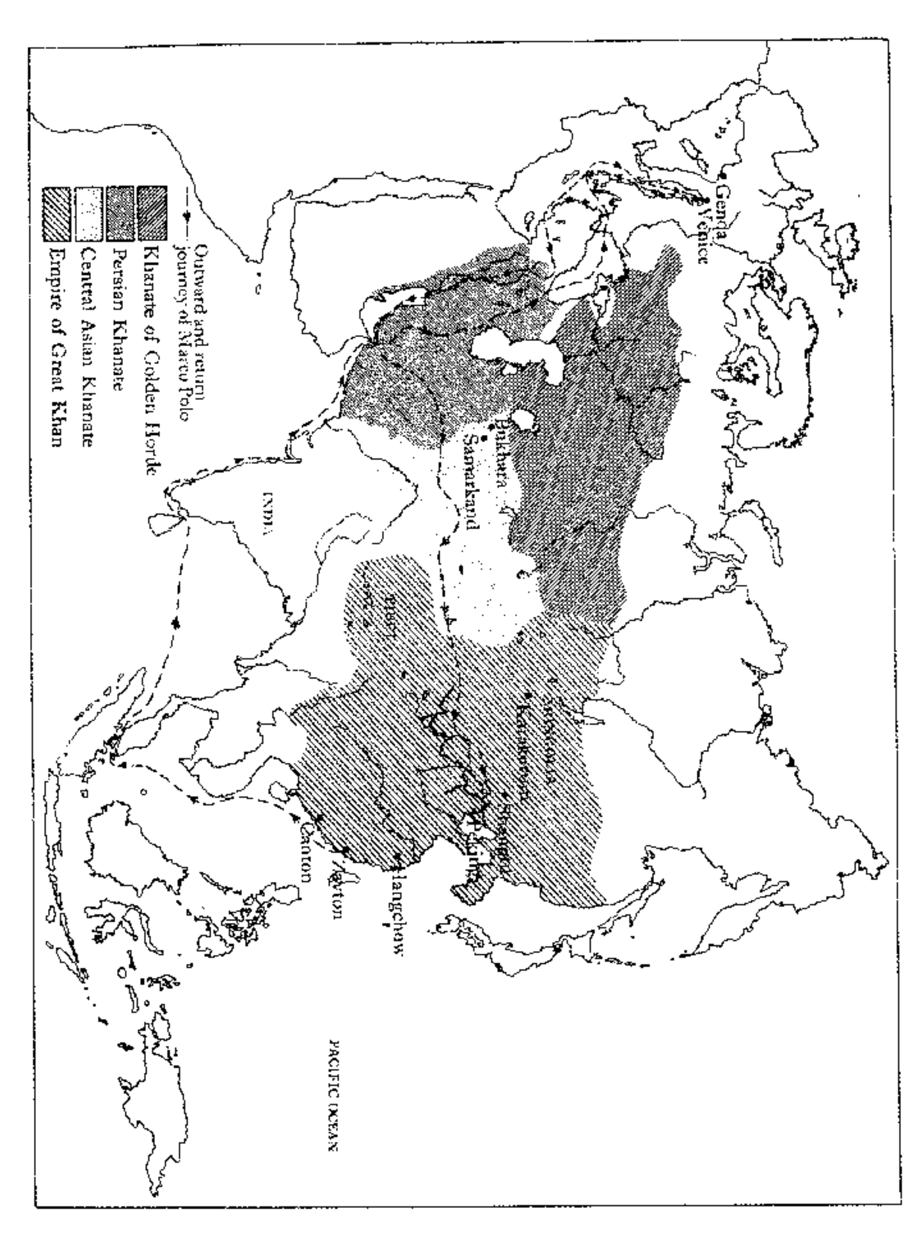
كأس من عصر السونج بلون أزرق باهت مع بقع أرجوانية ومكسو بطبقة رقيقة مصقولة ولامعة مرقطة باللون الأخضر

عام ١١٣٢ م قام البلاط بتوزيع ١٢٠طنًا من الأرز على الفقراء وصرح للضحايا بأن يعسكروا فى الأديرة البوذية ، وتم تعليق الضرائب من بيع الألواح الخشبية وحصير الأسل المقاوم للماء وذلك لبعض الوقت فى أعقاب الحريق ، كما تم تعليق دفع الإيجارات أيضًا ، وأعقب حريق ظل مشتعلاً مدة أربعة أيام فى عام ١٢٠٨م اتخاذ إجراءات مماثلة، وكانت المؤسسات الخيرية الخاصة فى المدن تقوم أحيانًا برعاية الأيتام والمسنين أو التكفل بدفن الفقراء .

وكانت التطورات التجارية فى الصين طوال تلك الفترة مع التوسع فى التجارة الداخلية والخارجية والاقتصاد المالى المتقدم والإنجازات التقنية وتخصيص وتطوير الإنتاج وتمدن قطاعات من المجتمع معاصرة لتطورات اقتصادية مماثلة فى أوروبا فى مطلع عصر النهضة ، و فى أوروبا أدت هذه التحولات إلى ظهور الطبقة البرجوازية وصراعاتها السياسية والرأسمالية والثورة الصناعية . وفى الصين سيطرت الدولة

على التجارة واقترن الإحتكار الحكومي لإنتاج السلع الضرورية كالحديد مع سيطرة وأيديولوجية كبار الموظفين لمنع استثمار رأس المال في التقنيات المتقدمة والحيولة دون تولي البرجوازيين للسلطة ، وجاءت الرأسمالية إلى الصين بعد عدة قرون في سفن الشحن القادمة من الغرب ، وربما تكون قد نشأت لكنها لم تنمو في مدن السونج المزدحمة التي ظلت مراكزًا للسيطرة البيروقراطية .

وانتهى عصر السونج بمثل ما انتهت به عصور الأسر الحاكمة السابقة من ضعف وانحطاط ، وأمام مشاعر السخط والإستياء التي عمت الريف والفساد المستشرى في البلاط لم يكن الحكام في وضع يؤهلهم للصمود بشكل فعلي أمام تحدى إمبراطورية المغول - آخر الإمبراطوريات البدوية التي كانت تهددهم من الشمال ، وتمكن الفاتحون المغول من إخضاع معظم آسيا و جزء كبير من أوروبا قبل أن ينجحوا بعد عدة عقود من المقاومة في إخضاع المملكة الوسطى .



خريطة إمبراطورية المغول في عهد « خوبيلاي خان » ورحلة « ماركو بولو »

الفصل العاشر

المغول

كانت هناك حالة حرب مزمنة شمال السور العظيم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بين قبائل البدو الفرسان الذين حلوا محل الهون السابقين ، وكانت بعض هذه القبائل تعرف بالتتار، والبعض منها بالأتراك، وكان هناك الكثير من القبائل الأخرى، وحدث أن أطلقت عليهم هذه الأسماء كاسم المغول بشكل جماعي، ولم يكن هناك أي حكم موحد لهم وكانت الصراعات بينهم لا تتوقف .

ويخبرنا " التاريخ السرى للمغول " وهو وصف معاصر كتبه أو أملاه ضابط مغولي على ضفاف نهر "كيرولن" بأن :

السماوات المزدانة بالنجوم أسقطت .

الناس يحاولون جاهدين قتل بعضهم البعض

فلا وجود للسلام في أي مكان .

وعندما يكافح الجميع سعيًا وراء الكسب

يكون العالم الواسع بأسره ممزقًا

لأن الناس يحاولون جاهدين قتل بعضهم البعض .

واختفى التضامن القديم بين العشائر حتى أنه لم يكن من الممكن الوثوق حتى بالأقرباء، ولم تعد هذه العشائر قادرة على الدفاع عن نفسها ضد القبائل المنافسة .

ولم تفلح محاولة خابول خان - أحد قادة المغول في القرن الثاني عشر - توحيد القبائل ، وقد ولد جنكيز خان - الذي نجح أخيراً في هذه المهمة - عام ١١٥٥م في

أسرة "يسو كاى باتو" أحد أحفاد خابول خان ، وطبقًا لما ورد فى التاريخ السرى فقد خرج يسو كاى للصيد فى أحد الأيام مستعينًا بالصقر بجوار نهر "أونون" ، و هناك لقى رجلاً من قبيلة "ميركيت" مصطحبًا زوجته إلى المنزل فى عربة ، ونادى يسو كاى أخويه فكان فى ذلك تعزيزًا له وطارد الميركيتى و أخذ الزوجة الجميلة ، " ويبدو أن صرخاتها أثارت الأمواج فى نهر "أونون" وهزت أشجار الغابة ، و اتخذ يسو كاى المرأة زوجة له ،" وبعد فترة قصيرة وعلى ضفاف نهر "أونون" أيضًا وضعت المرأة ولداً أسموه تيموجين.



"جنكيز خان" (١٢٠٦ - ١٢٢٧ م) . صورة تقليدية .

وكانت الأيام الأولى من حياة "تيموجين" الخان القادم للمغول عصيبة ، فعندما كان صغيراً فقد أبيه الذى دس له خصومه من التتار السم كما ذكر التاريخ السرى ، وتخلى الخدم والأتباع عن أسرته ، وتربى "تيموجين" واخوته الثلاثة على الجذور والأعشاب وحساء السمك وثمار العليق ، ونشأ الصبى كرفاقه لا يعرف قلبه الرحمة فى الدفاع عن نفسه والتخلص من منافسيه ، واشتهر "تيموجين" بقوة بأسه وسعة حيلته

خاصة في القتال وسخائه مع أنصاره ، وخدم فترة كمرتزق مع الكين حيث كان يقاتل أعداءه القبليين ويضم إليه الأتباع .

ويقول التاريخ السري أنه : " في وقت لاحق من عام الكلب (١٢٠٢م) خاض جنكيز خان معركة .... حيث أصدر أوامره سلفًا لرجاله بألا يتدافعوا بالمناكب على عجل لجمع الأسلاب و الغنائم ليقبض كل واحد منهم على نصيبه منها ، وأن الغنائم سوف تقسم بالتساوي بينهم بعد نهاية المعركة ، و إذا حدث أن تراجع أي منهم إلى صفه في ساحة القتال فعليه أن يستجمع شجاعته ويقتحم صفوف الأعداء على الفور ، وإذا أخفق في القيام بذلك ضُرِبَ عنقه بالسيف ." وهكذا ضمنوا تحقيق النصر على التتار في نهاية الأمر .

وكانت أسرة الكين في ذلك الوقت عاجزة عن السيطرة على أراضيها البعيدة ونجح "تيموجين" في توحيد الأتراك والتتار والمغول وكثير من القبائل الأخرى في أمة واحدة ، وبرع في إيقاع الفُرقة بين صفوف أعدائه وتوحيد أنصاره، وفي عام ١٢٠٦م بلغت هذه العملية ذروتها بتجمع القبائل المنغولية على نهر "كيرولن" وقبولها تيموجين حاكمًا بلقب جنكيز خان الذي يعني "الحاكم العام" فكان في ذلك نهاية لحالة الحرب التي دامت قرونًا بين القبائل .

وفي السنوات الخمس أو الست التالية اجتاح المغول أراضي جيرانهم وصولاً إلى شمال السور العظيم ، وأدت هزيمة مملكة الهسيا الحدودية إلى إمداد جنكيز خان بالجمال كاحتياطي لفرسانه وقاعدة للهجوم على الكين في شمال الصين والذين لم يكونوا ندًا لتابعهم السابق ، " و عاد ليقود حملة ضد الكين في عام الكلب (١٢١٤م) .... ووصل الحال بمن بقي من المدافعين الكين إلى أكل لحوم البشر ، وآل ما كان يملكه إمبراطور الكين في العاصمة المركزية من ذهب و حرير إلى "جنكيز خان" ، وسقطت بكين في يد "جنكيز" في عام ١٢١٥م .

وكان "جنكيز خان" في سن الستين تقريبًا عندما تم فتح شمال الصين .

وقد اختلفت طريقة عيش المغول تمامًا عن طريقة عيش رعاياهم المستقرين ، فقد كانوا يحترمون شعبهم دون سواه وفرسان السهل و كانوا يحتقرون الفلاحين ، ويذكر تاريخ الصين أنه :

" عندما غزا جنكيز البلدان الغربية لم يكن في مخازنه مكيال واحد من الأرز أو باردة من الحرير، وعندما (وصلوا إلى أول الأقاليم الصينية) قال له مستشاروه " : برغم أنك قد قهرت رجال الهان فلا فائدة ترجى منهم وسوف يكون من الأفضل قتلهم جميعًا وتحويل الأرض مجدداً إلى مرعى حتى تتمكن من إطعام بهائمنا ." لكن وزيره "يهلو" قال له " : أما و أنك قد فتحت كل مكان أظلته السماء و انتزعت كافة ثروات البحار الأربعة فبإمكانك أن تحصل على كل ما تريد لكنك لم تعد العدة لذلك بعد ، ويجب عليك أن تفرض ضرائب على الأرض و التجار وأن تحقق أرباحًا من الخمور والملح والحديد وما تنتجه الجبال والمستنقعات ، وبهذه الطريقة سوف تحصل في العام الواحد على ٥٠٠ ألف أونصة من الفضة و ٨٠ ألف لفة حرير و ٤٠ ألف بيكول من الحبوب ، فكيف يمكنك القول بأن الشعب الصيني لا فائدة منه بالنسبة لك ... ؟ " ووافق جنكيز خان على القيام بذلك .

وقد حقق الإقتصاد الرعوي للبدو اكتفاء ذاتيًا على المدى القصير حيث أمدتهم أغنامهم بالطعام والصوف والجلود لملبسهم و اللباد لتغطية خيامهم المستديرة ، وكان روث الأغنام يُحَرق كوقود ، وزاد استخدامهم للحديد في ذلك الوقت لصناعة أسلحتم ، ولم يكونوا في حاجة للزراعة إلا لتوفير الحبوب كغذاء إضافي لقطعانهم ، ولم يمض وقت طويل حتى استساغ البدو أو زعماؤهم – على الأقل – شرب الشاي واستخدام المنسوجات الناعمة، و أخذوا في الاعتماد على المعادن بشكل متزايد في صناعة أسلحتهم و أدواتهم .

وترك لنا كثير من التجار والمبشرين الذين أتوا من الغرب في تلك الفترة وصفًا لحياة التنقل والترحال التي كان يعيشها المغول نظراً لأن معظمهم قدموا عن طريق البحر الأبيض المتوسط عبر الأراضي السهلية في آسيا إلى الصين و أمضوا بعض الوقت مع القبائل البدوية في أراضيها .

" إنهم يمضون الشتاء في السهول والمناطق الدافئة حيث كان يطيب الكلأ والمرعى لحيواناتهم، وفي الصيف يقيمون في المناطق الباردة بين الجبال و الوديان حيث يجدون الماء والغابة وكذلك المرعى ، و الميزة الإضافية في المناطق الأكثر برودة عدم

وجـود ذباب الخـيل أوالماشـيــة أو مـا شـابه من الحـشـرات المؤذية لمضـايقـتـهم هـم وحيواناتهم ، و يمضون شهرين أو ثلاثة أشهر فى تسلق الجبال بشكل دائم والرعى فى أثناء تنقلهم ، ذلك أنهم لو اقتصروا فى رعيـهـم على بقـعـة واحـدة فلن يـكـون هـنـاك ما يكفي من الحشائش للأعداد الكبيرة من قطعانهم .

ولديهم منازل دائرية مصنوعة من الخشب ومغطاة باللباد كانوا يحملونها معهم على عربات ذات أربع عجلات أينما ذهبوا ، ويرجع ذلك إلى الإتقان الشديد و المهارة الفائقة فى تركيب الإطارات من الأعواد الخشبية مما جعلها خفيفة عند حملها ، وفى كل مرة يبسطون فيها منزلهم ويقيمونه يتجه الباب جنوبيًا دائما، كما أن لديهم عربات ممتازة ذات عجلتين ومغطاة باللباد الأسود وذات تصميم متقن بحيث إنه إذا استمر هطول المطر طوال الوقت فلن يبلل المطر أى شيء فى العربة ، وتقوم الثيران و الجمال بجر هذه العربات ، و فى هذه العربات يحملون زوجاتهم و أبناءهم وكل ما يحتاجونه فى طريقهم من أدوات وأوانى" .

كان هذا ما ذكره "ماركو بولو" ، تاجر البندقية .

ويذكر "ابن بطوطه" التاجر المسلم القادم من "تانجير" ما شاهده قائلاً :

" رأينا مدينة واسعة تتحرك بجميع سكانها وتحوى مساجد وأسواقًا والدخان يتصاعد من المطابخ فى الهواء ، وعندما وصلنا إلى المخيم أنزلوا الخيام من العربات ونصبوها على الأرض نظرًا لأنها كانت خفيفة للغاية وفعلوا نفس الشيء بالمساجد والحوانيت " .

وكان البدو يرتحلون حاملين معهم كافة ممتلكاتهم ، فكان الراعى التابع يحمل معه خيمة متواضعة على ظهر جمل ، و كان الزعيم يحمل معه الخيام الكبيرة الفخمة ومجموعات من الخيل والزوجات والعبيد .

وقد عاش المغول فى أسر أو منازل حيث كان كل منزل يضم خيمة واحدة أو أكثر (يورتة) بحسب عدد الزوجات ، و كانت الأسر تجتمع فى عشائر لها شيوخ أجلاء ، وكانت العشائر التى تربطها صلات قرابة تشكل الوحدة القبلية ، وكانوا يتنقلون معًا



"جنكيز خان" مع زوجاته و أبنائه . صورة طبق الأصل لضريح "جنكيز خان" في "أيكن هورو" في منطقة أوردوس بشمال الصين .

كقبيلة أو معسكر ، وكانت عادات تعدد الزوجات و تحريم الزواج داخل العشيرة أو العشائر التي تربطها صلات قرابة وثيقة تعني أن ممارسة انتزاع الزوجات كانت شائعة ، وبخلاف ذلك كانت الزوجات تشترى وكانت مهورهن من الحيوانات والسلع المنزلية وحقوق الماء و المرعى و أحيانًا الكماليات بحسب منزلة الأسرة ، و عند الزواج كانت الفتاة تنتقل من يورتة (خيمة) أبويها إلى يورتة زوجها ، وجرى العرف قديماً على أن يتزوج الابن المغولي سائر زوجات أبيه الراحل عدا أمه التي ولدته ، وكذلك كان يفعل مع زوجات أخيه المتوفى .

وكان النساء و الرجال من البدو يقومون بالأعمال والمهام الحيوية ، وكانت واجبات المرأة تتمثل في قيادة العربات ونصب أو حزم خيامهم على العربات وانزالها ودباغة

وخياطة الجلود لصنع الثياب ، وكانت واجبات الرجل تتمثل في تركيب الخيام والعربات وخض شراب الكومس (لبن الفرس المخمر) وصناعة الأكياس الخاصة به و رعاية الجمال وتحميلها ، وكان الرجال والنساء - على حد سواء - يرعون الأغنام والماعز ، وقال "ماركو بولو" أن " الرجال لاهمَّ لهم سوى الصيد والحرب واستخدام الصقور في الصيد ."

و خرج الراهب "جون بيان دى كاربينى" وكان راهبًا فرانسيسكانيا جليلاً فى إرسالية من قبل البابا إلى خان المغول وعاد بعد عامين برد الخان (الذى بقى فى أرشيف الفاتيكان) وبواحد من أول الأوصاف الغربية للمغول :

" إن المغول أو التتار يختلفون عن كافة الشعوب الأخرى ، فلديهم فارق أوسع بين العينين والوجنتين عن شعوب الأمم الأخرى ، ولهم أنوف مسطحة وصغيرة ، وعيون وجفون تتجه لأعلى فى وضع مستقيم ، وهم حليقى الرؤوس كالكهنة و يطيلون شعورهم قليلاً بجوار الأذنين عنه فوق جباههم و يدعونه ينمو ويطول فى الخلف كشعر المرأة ويضفرونه فى جديلتين يربطون كل واحدة منهما خلف كلتا الأذنين .

وتتشابه ثياب رجالهم و نسائهم جميعًا ، وهم لا يرتدون العباءات أو القبعات أو القلنسوات لكنهم يرتدون السترات المصنوعة بطريقة غريبة من قماش البقرم القرمزى أو المقصب ، وثيابهم يكسوها الشعر من الخارج ومفتوحة من الخلف وذات ذيول تتدلى إلى مآبضهم ، وهم لا يغسلون ثيابهم ولا يسمحون بغسلها خاصة وقت الرعد .....

وهم أغنياء للغاية بالماشية كالجمال والثيران والأغنام والماعز، وأعتقد بأن لديهم من الخيل والأفراس ما يفوق عدده ما يوجد منها فى بقية أنحاء العالم ، لكنهم لا يملكون أى أبقار أو بهائم أخرى ، ويمتلك أباطرتهم وزعماؤهم وغيرهم من النبلاء الكثير من الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة .

وتتنوع سلوكياتهم بين ما هو جدير بالثناء و ما هو بغيض ، ولايوجد لصوص أو سارقون واسعو الثراء بينهم ... وهم أيضًا أولو بأس وعندما يصومون يومًا أو يومين يغنون ويبتهجون كما لو كانوا قد أكلوا ملء بطونهم ، وعند ركوب الخيل يتحملون الكثير من البرد والحر القائظ ، ولا توجد بينهم أية خلافات ، وبالرغم من أنهم غالبًا ما يكونون سكارى فهم لا يختلفون فى أثناء سكرهم، والسكر له احترامه لديهم ،

ونساؤهم عفيفات .... والتتار متغطرسون ووقحون ... ومخادعون وغادرون تجاه الشعوب الأخرى .... ولا يلقون بالاً لقتل الشعوب الأخرى .

وكانت القبيلة البدوية أشبه بجيش متأهب دائماً ، وكانوا جميعاً مدربين على تولى السلطة منذ نعومة أظفارهم ويتعلمون الرماية والاستكشاف والقتال بمجرد تعلمهم المشى ، ويسجل نصب تذكارى حجرى أقامه "جنكيز خان" فى عام ١٢٢٥م تكريماً لراميه "يسونكى" أنه في أحد الاحتفالات بالنصر أصاب الرامي هدفه على بعد ٧٠٢,٥ متراً . وكانت الأسر ترتحل بأكملها سواء فى الهجرات الموسمية أو الحملات العسكرية، وكانت النساء والأطفال والقطعان ترافق الجند دائماً لتوفير الإكتفاء الذاتى الذى كان يزيد من قوتهم العسكرية وقدرتهم على التنقل ، وفى غياب السلب والنهب كان يمكن للقبائل العيش على لبن الفرس فقط ، ورغم ذلك ففى حالة الهزيمة فى المعركة كانت أسر وقطعان المهزوم تسقط في يد المنتصر كجزء من الغنيمة المعتادة .



بدوى فى عهد جنكيز خان ، من موسوعة "تشنج" .

وقد لاحظ "كاربينى" أن التترى كان مطالبًا بامتلاك قوس واحد على الأقل وثلاث جعاب مليئة بالسهام وفأس وحبل ، وكان الأثرياء يملكون سيوفًا أحادية الحد وذات نهايات حادة مقوسة وخوذات مدببة ودروع من الزرد فى حين كانت هناك دروع تحمى صدور وأكتاف خيلهم .

وكان العنصر الأساسى فى جيش "جنكيز خان" يتألف من الرماة الفرسان ، وكانت الشعوب المستقرة فى الأراضى التى فتحت والتى كانت تُجبَر على الخدمة فى الجيش تلعب دورًا ثانويًا ، وكان السكان المستقرين مصدرًا للإمداد بوحدات المشاة والمدفعية فى تلك الفترة وكذلك الجند للقيام بأعمال السخرة والحصار واستخدام المنجنيق والكبش (الذى كان يستخدم لدك أسوار المدن المحاصرة) والسهام النارية وقاذفات اللهب ، وكان المغول سريعين فى تعلم الخصائص التفجيرية للبارود من الصينيين حيث استخدموه فى التلغيم والتعدين ، واستخدموا قاذفات اللهب والقنابل المملوءة بالنفط لإحراق دفاعات العدو ، وكانت السهام النارية التى كانت تصنع بوضع بارود بطىء الإشتعال فى رؤوس السهام تضرم النار فى المواد القابلة للإشتعال .

وأدى الاستخدام المتزايد للحديد فى صناعة أسلحتهم كرؤوس السهام – على سبيل المثال – إلى تعزيز قدرة البدو القتالية بصفة عامة فى القرن الثالث عشر ، ولاحظ "كاربينى" أنهم كانوا يحملون مبردًا فى جعابهم لإبقاء رؤوس السهام حادة على النحو المرغوب فيه ، وفى نصحه للمسيحيين حول أفضل السبل للتغلب على هؤلاء " الناس البغيضين " أوصى – بصفة عامة – بفعل ما فعله التتار ، و بخاصة عند صنع رؤوس السهام وغمسها – كعادة التتار – ساخنة لدرجة التوهج فى محلول ملحى حتى تصير قوية بما يكفى لاختراق دروع الأعداء .

وفى عهد جنكيز خان نشأت المؤسسات التى عززت كفاءة المغول العسكرية ، وسرعان ما تحول حرسه الخاص إلى فيلق من خيرة المحاربين المخلصين المتميزين والمنضبطين للغاية فاختار جنكيز خان من بينهم قادته ومستشاريه .

وكانت جيوشه منظمة فى شكل وحدات ذات نمط ثابت للتنظيم يقدر قوامها بالتومان (عشرة آلاف) والآلاف والمئات و العشرات ، فكان لها ميمنة و ميسرة وهلم جره، حيث كانت كل عشيرة و أسرة تعرف مكانها عندما يعسكرون كما كان يحدث فى

المعارك ، " وما كان لأحد أن ينتقل إلى وحدة أخرى بخلاف المائة أو الألف أو العشرة التي تم تعيينها له أو أن يطلب اللجوء في مكان آخر ."

ولم يصل إلينا بعد القانون العرفي الكامل والتنظيم القبلي عند المغول ، ورغم ذلك فقد أعلنه جنكيز خان الذي " وضع حكمًا لكل مناسبة و نظامًا لكل الظروف وحدد عقوبة لكل جريمة ، ونظرًا لأن الشعب التتاري لم يكن لديه أي نص مكتوب خاص به فقد أصدر جنكيز أوامره بأن يتعلم أطفال المغول الكتابة من الأويغور Uighurs ، وتدوين الياسات (القوانين) والأحكام على لفائف ." وكانت هناك مجموعة هامة من الأحكام تتناول توزيع الغنائم بعد المعركة ، ومجموعة أخرى من الأحكام تتناول أعمال السلب والنهب ، وقد تم وضع عقوبة مشددة للسرقة خاصة سرقة الجياد .

وتصدر الصيد قائمة الرياضات التي كان التتار مولعين بها حتى عندما كان لديهم اكتفاء في الطعام من قطعانهم أو عندما كان بمقدورهم تحقيق هذا الاكتفاء عن طريق شن غارات على جيرانهم ، وقد شجع جنكيز خان الصيد ليس لتعلم القتل فحسب ولكن من أجل اكتساب المهارة والقدرة على التحمل التي ينميهما الصيد، فكان ذلك بمثابة تدريب للجيش ، وكانت رحلات الصيد التي كان يتم الترتيب لها للخان تتسم بالعظمة والفخامة وكانت تُتخذ من أجلها التدابير والاجراءات المحكمة .

وكان التقويم المغولي يتألف من دورة زمنية من ١٢ عام ، وكان كل عام يسمى باسم حيوان ما على النحو التالي: الفأر، الثور ، النمر ، الأرنب ، التنين (أو السمكة) ، الأفعى ، الحصان ، الخروف ، القرد ، الدجاجة ، الكلب ، الخنزير، وتقول الأسطورة القديمة أنه عندما ظهرت الحيوانات في موكب سماوي لجعل الأعوام تسمى بأسمائها جاء الجمل بوصفه الأكثر نبلاً بينها في المرتبة الأولى ، لكن الفأر زحف فوق رأسه ونجح في جعل العام الأول يسمى باسمه و لم يرد أي ذكر للجمل على الإطلاق ، وتعزو أسطورة أخرى الدورة الزمنية الحيوانية إلى أنشطة الصيد الخاصة بخان تركي : فرت الحيوانات هربًا منه وعبرت أحد الأنهار ، وأصبح ترتيبها في الهروب عبر النهر ترتيب الدورة الزمنية للتقويم ، ومازال بعض الناس في الصين ومنغوليا يستخدمون التقويم الحيواني حتى يومنا هذا .

إمبراطورية المغول

بعد هزيمة الكين عاد جنكيز خان بالجزء الأكبر من جيشه إلي أراضي القبائل في كيرولن تاركًا خلفه قائدًا واحدًا ومعه حشد من الجند كقوة احتلال في الصين ، وأرسل جنكيز خان السفارات والقوافل التجارية إلي الغرب عبر طريق الحرير القديم لإقامة علاقات تجارية مع ممالك آسيا الوسطى ، وعندما قُتِل رسله زحف جنكيزخان بفرسانه الذين بلغ عددهم قرابة ٢٠٠ ألف من الفرسان الأشداء غربًا في مهمة إنتقامية عبر قلب القارة وجنوبًا فوق الجبال لمحق أعدائه الفارين على ضفة نهر "اندوس" .

وعندما خرج جنكيز خان من منغوليا في عام ١٢١٩م كان قد تجاوز الستين من عمره ، ومن المؤكد أنه عندمًا شعر بدنو أجله استدعى - إلي بلاطه - الناسك الطاوى "شانج تشون" الذى اشتهر بأن لديه العلم الخفي بسر العمر المديد ، وعلي مضض تبع الناسك "جنكيز" عبر آسيا العليا كدأب البدو حيث كانت العائلة الإمبراطورية وأفراد البلاط يرتحلون أينما ارتحل الإمبراطور وجيشه ، وضاق الناسك ذرعاً باضطراره لمصاحبة قافلة المتعلقات الملكية التى كانت تضم عدداً هائلاً من النساء ، وعندما لحق بالإمبراطور الذى كان يحتفل مع حشوده في الجبال شمال كابول شدد الناسك على أن الحياة المعتدلة سوف تكون أكثر نفعًا لصحة الإمبراطور من تعاطي الدواء .

وبعد أن ترك جزء من الحشد الإمبراطورى للتقدم غربًا وبعد غياب دام سبع سنوات تحول "جنكيز خان" بفرسه صوب الوطن ، وفي عام ١٢٢٧ (عام الخنزير) خرج على رأس حملة تأديبية ضد الهسيا الذين أخفقوا في الالتزام بتعهداتهم بامداده بالجند ، وفي أثناء حملته هذه توفي الحاكم العام .

وكانت حشوده الغربية في ذلك الوقت قد تقدمت عبر روسيا الجنوبية ووصلت إلى القوقاز وأرمينيا وفارس والخليج الفارسي .

وقد قام جنكيز في حياته بتقسيم إمبراطوريته بالطريقة القبلية المتعارف عليها بين أبنائه الأربعة من زوجته الأولى ، و قامت أربعة ممالك مغولية عظيمة في فارس وآسيا الوسطى وروسيا الجنوبية (التى عرفت بالقبيلة الذهبية) والصين ، ونودي بـ "أوجودى"

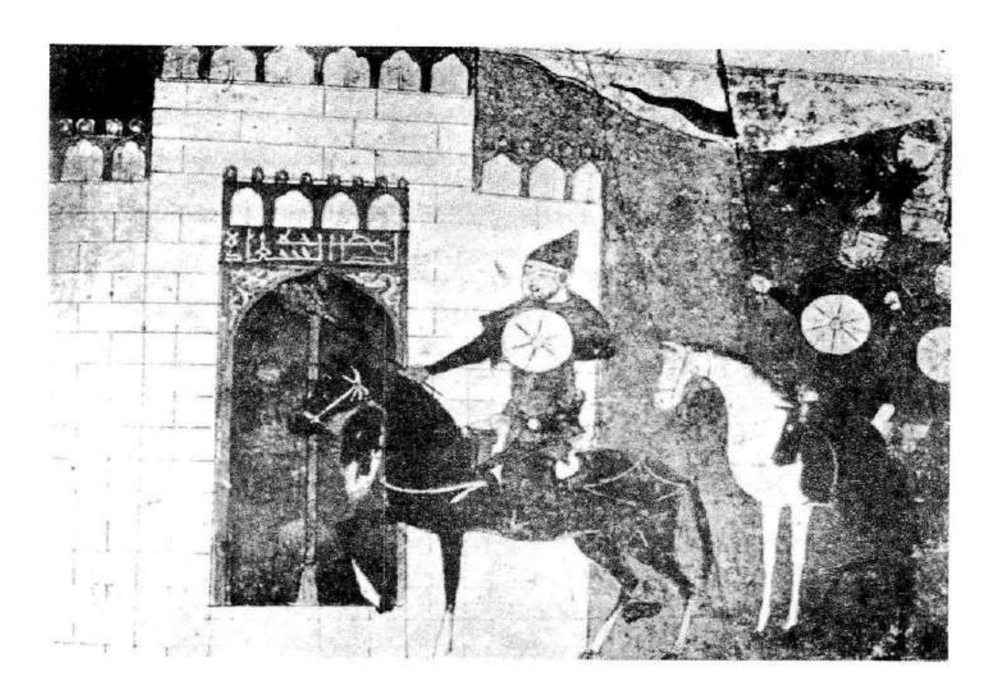
الإبن الثالث لـ " جنكيز " خانًا أعظم ، و أقام فى أرض أبيه الأصلية على "الأورخون" ، وأقام فى "كاراكوروم" أول عاصمة سكنية للمغول حيث شيد القصور لأسرته وبلاطه وجلب الصناع الأسرى من حملاته لبناء العاصمة و تزيينها .

وزحفت القبائل المغولية بقيادة "باتو" حفيد "جنكيز" من سهول روسيا إلى مراعى أوروبا ، وبحلول عام ١٢٤١م كانت المجر قد سقطت فى قبضة المغول ، وكان المنتصرون قد وطدوا دعائم وجودهم فى السهل المجرى العظيم عندما أصدر باتو أوامره بالانسحاب بعد أن وصلهم نبأ وفاة أوجودى الذى توفى آسفًا قائلاً : بعد أن رفعنى والدى الإمبراطور كى أعتلى العرش العظيم وآلت إلىَّ أملاكه الشاسعة إقترفت إثمًا بأن سمحت للخمر أن تغلبنى " .

ولم يستغرق عبور الجماعات من فرسان المغول - التى أتت بنبأ وفاة الخان الأعظم فجأة فى غيبوبة سكره - القارة الأوراسية سوى أيام عبر طريق البريد الإمبراطورى الذى أقامه "أوجودى" فى عام ١٢٣٥م ؛ وقد وفرت محطات البريد - التى كان يقوم على خدمتها عمال السخرة و تصل إليها السلع الأساسية - المأوى والمؤن خاصة الخيل القوية للإتصالات الإمبراطورية ، واستطاع الرسل الأشداء من المغول - باستخدام مجموعات من الجياد - قطع ٢٠٠ ميل فى اليوم ، وأصبح الطريق عبر آسيا و الذى تم الحفاظ عليه آمنًا من اللصوص وقطاع الطرق و سالكًا لمرور الجياد أكثر ازدحامًا و أمانًا من أى وقت آخر مضى ؛ وتضاعف عدد القوافل التجارية التى كانت تذرع الطريق جيئة و ذهابًا .

وبقيت الضريبة الخاصة بخدمة محطات البريد فى منغوليا حتى عام ١٩٤٩م .

وواصل أحفاد جنكيز خان توسعة الإمبراطورية المغولية ؛ وتواصل الهجوم على الصين فى عهد الخان الأعظم أوجودى ، وبعد أن استولوا على بكين هاجم المغول الهسيا و هزموهم ؛ وبعد ذلك أرسلوا رسلهم إلى السونج الجنوبية للتفاوض بشأن شن هجوم مشترك على من بقى من الكين ، و لأنهم لم يتعلموا شيئًا من الماضى فقد وافق السونج على العرض وإذا بهم يقفزون " من الذئب إلى فم النمر " (أو كالمستجير من الرمضاء بالنار) كما يقول الصينيون ، و فى عام ١٢٣٤م هُزم الكين من جراء تعرضهم لهجوم مشترك واحتل جند المغول شمال الصين كاملاً .



الحصار المغولى لمدينة صينية .

وتوفى الخان الأعظم الثالث بعد عامين ، واستُأنفَتْ العمليات العسكرية ضد السونج الجنوبيين فى الصين فى عهد الخان الرابع "مونجك" الذى كان حفيداً لجنكيز أيضاً ، وكانت الحملة بقيادة "خوبيلاى" شقيق "مونجك" الذى خلف شقيقه ليصبح الخان الأعظم الخامس (١٢٦٠ – ١٢٩٤م) ، وطالت مدة الحملة فى الجنوب ، وأبدى جيش وشعب الصين مقاومة عنيفة واضطر المغول الذين كانوا يتنازعون فيما بينهم على الخلافة إلى سحب جيوشهم لبعض الوقت .

وفى عهد خوبيلاى عاد المغول لمهاجمة السونج الجنوبيين مجدداً ، فحاصروا مدينة هسيانجيانج التى كانت ملتقى الطرق الرئيسية للإتصالات البرية والبحرية بين شمال وجنوب الصين وبوابة العبور إلى الألسنة الوسطى الممتدة لنهر اليانجتسى ، وقد

صمدت المدينة على مدى خمس سنوات قبل أن تسقط أخيراً ، وبعد سقوط هسيانجيانج اتجه جند المغول شرقًا ، وفى عام ١٢٧٦م استسلمت هانجتشو ، وحُمِلَ امبراطور السونج أسيراً إلى الشمال ، وبعد مرور ثلاث سنوات تم الإيقاع بآخر المدعين السونج وكان صبيًا صغيراً مع ما بقى من أسطوله فى كانتون ، وقفز أحد الوزراء الملكيين فى الماء حاملاً الإمبراطور الصغير فوق ظهره لينتهى عهد أسرة السونج الحاكمة بنهايتهما .



"خوبيلاى خان" مؤسس أسرة "يوان" الحاكمة (١٢٧١ - ١٢٩٤ م) . صورة تقليدية .

وزحف الفاتحون المغول جنوبًا من السور العظيم وصولاً إلى أدغال بورما فى الوقت الذى كان خوبيلاى خان قد قام فيه بنقل عاصمته من كاراكوروم فى قلب منغوليا إلى بكين ، وبحلول عام ١٢٧١م كان قد أعلن نفسه إمبراطوراً للصين وأسس أسرة "يوان" الحاكمة ، وخضعت الصين بأكملها لأول مرة لحكم البرابرة القادمين من وراء السور العظيم .

ولم تخضع ممالك المغول الثلاث الأخرى لسلطان الخان الأعظم خوبيلاى حفيد جنكيز بشكل محكم ، وأصبحت بكين - عاصمة الإمبراطورية التى امتدت من إحدى

نهايتي العالم المعروفة إلى نهايته الأخرى – المحطة الأخيرة لطريق امتد عبر القارات تم افتتاحه بين البحر الأبيض المتوسط والصين ، وربطت إمبراطورية البرابرة بين الشرق والغرب .

وكان ينظر إلى المغول بمشاعر مختلطة في الغرب ، وأنزل هدير حشود المغول بقيادة باتو خان في المجر الرعب في أنحاء أوروبا وصولاً إلى بريطانيا وكان الخوف من المغول عظيماً إلى درجة أنه كانت هناك وفرة من أسماك الرنكة في يارماوث في عام ١٢٣٨م ، وسجل ماثيو باريس – الذي كان يكتب في سان ألبانز في ذلك الوقت – أن البحارة الهولنديين والبلطيق الذين كانوا يخشون زحف التتار من خلفهم لم يتمكنوا من المجيء إلى يارماوث لصيد أسماك الرنكة ، ونتيجة لذلك كانت أسماك الرنكة تباع بالأربعين والخمسين سمكة مقابل قطعة واحدة من الفضة في الأماكن الداخلية البعيدة عن الساحل الإنجليزي .

وبدا أن هياج المغول تجاه أوروبا التي كانت غارقة في الآثام والمعاصي لم يعدو كونه عقاب شيطاني ، وذكر ماثيو "التقي" أيضاً أن " أمة بغيضة من أمم الشيطان – أعني بذلك جيش التتار الجرار – قد خرجت من موطنها الجبلي ... وراحوا يتدفقون كالشياطين من الجحيم ... واحتشدوا كالجراد على وجه الأرض فأحدثوا دماراً رهيباً بالأجزاء الشرقية (من أوروبا) وخربوها باشعال الحرائق و ارتكاب المذابح ... ليست لديهم قوانين بشرية ولا يعرفون أية وسائل للراحة وهم أكثر ضراوة من الأسود والدببة ولديهم مراكب مصنوعة من جلود الثيران .... وهم يهيمون مع قطعانهم وتتعلم زوجاتهم القتال كالرجال " .

ومن ناحية أخرى فقد كان هذا العصر عصر الحملات الصليبية في أوروبا ، وبدت الأخطار المتوقعة من الشياطين الذين انسحبوا إلى جحيمهم الشرقي البعيد أقل ترويعاً من جند الإسلام الذين ظلوا يطرقون أبواب المسيحية بعنف منذ القرن الحادي عشر والذين أخفقت أجيال من الصليبيين في طردهم وبتشجيع أيضاً من أسطورة "بريستر جون" عن ملك من ملوك الشرق كان مسيحياً وجد البابوات و الأمراء في أوروبا – الذين عجزوا عن التوحد بشكل فعلي داخل أخويتهم الخاصة ضد العدو

المشترك – الفرصة لتحويل المبادرة للدفاع عن العالم المسيحى إلى المغول – رماة السهول غير المخلصين – الذين فاقوا كل وصف وقامت البابوية والممالك الصليبية فى الغرب بإرسال سلسلة من البعثات الدبلوماسية والإنجيلية فى القرن الثالث عشر طلبًا للمغول فى وطنهم وعرض تكوين حلف مقدس معهم .

وفى عام ١٢٤٧م عاد الراهب "جون بيان كاربينى" برسالة سبق ذكرها كتبت بالفارسية من جويوج الخان الأعظم الثالث ، وكانت الرسالة تحمل دعوة للبابا للحضور مع جميع ملوك أوروبا لتقديم فروض الطاعة والولاء للخان الأعظم ، وأضافت الرسالة أن الله وحده يعلم العواقب إذا لم يفعلوا ذلك :

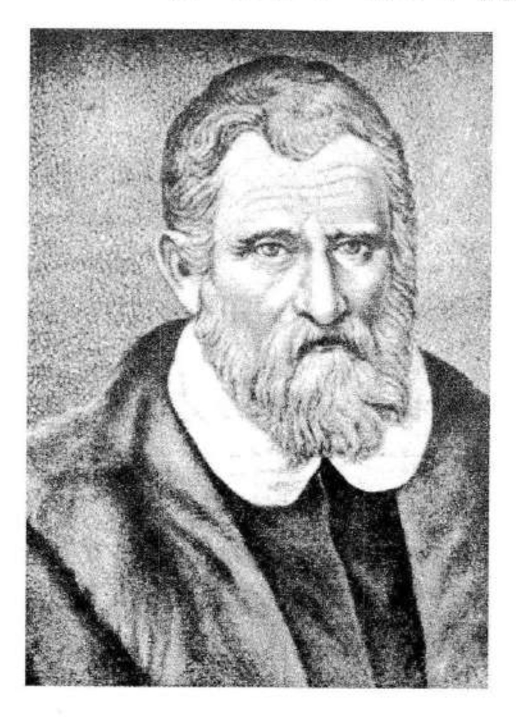
" بعون السماوات الأبدية نحن الحاكم العام أمرنا شعب الأرض العظيم بأكمله : هذا أمرنا للبابا العظيم حتى يعرفه ويفهمه .... لقد أوتينا جميع الأراضى من مشارق الأرض إلى مغاربها بين يدى الله ؛ فكيف للمرء أن يعمل دون أمر الله ؟ واليوم ينبغى عليكم أن تقولوا من صميم قلوبكم : سوف نكون لكم تبعًا ، وسوف نمدكم بقوتنا ،" وعليك أنت شخصيًا على رأس الملوك جميعًا دون استثناء أن تحضروا لتقديم فروض الطاعة والولاء لنا ؛ وعندئذ سوف نقر بخضوعكم لنا ، وإذا لم تطيعوا أمر الله وعصيتم أوامرنا فسوف نعرف أنكم أعداءنا" .

وبالرغم من هذا الرد الخالى من التقوى والورع فقد خرج المزيد من البعثات عبر الطريق إلى تارتارى والصين وزاد تفاؤلهم فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بفضل إستيلاء المغول على بغداد مقر الخلافة الإسلامية (١٢٦٨م) .

البولو

لم يكن العمل التجارى بأقل جرأة من المساعى التبشيرية ، وفى العام الذى اعتلى فيه خوبيلاى خان العرش غادر تاجران من مدينة البندقية القسطنطينية للتجارة فى القرم ، وكانا الأخوين مافيو ونيكولو بولو اللذين انتعشت آمالهما التجارية بعد أن اخترقت النجاحات المغولية فى بلاد ما بين النهرين حدود الممالك الاسلامية عبر طرق التجارة فى غرب آسيا وأضعفت احتكار التجار المسلمين لتجارة الشرق وتفجر العداء بين الخانية المغولية للقبيلة الذهبية فى روسيا والخانية الفارسية ، وقُطِعَ عليهما طريق العودة فتابع الأخوان بولو طريقهما وتوغلا فى قلب آسيا حتى وصلا إلى بخارى

حيث أقاما ثلاثة أعوام ؛ وبعدها إنضما إلى فريق من رسل الخان الأعظم العائدين إلى الوطن ورحلا معهم إلى الصين ، وأحسن الخان الأعظم خوبيلاى استقبالهما وسألهما متودداً عن أحوال أوروبا و ملوكها وباباواتها وأرسلهما مجدداً بطلب إلى البابا كى يرسل مائة من المبشرين للإتيان بالديانة المسيحية إلى كاثاى وبعض الزيت من القبر المقدس لتيسير الأمر ؛ واستغرقت رحلة عودة البولو ثلاثة أعوام، وقد توفى أحد الباباوات فى تلك الأثناء وتوقفت المغامرات التجارية لمدة عامين إنتظاراً لانتخاب البابا الجديد ، وبعدها خرجا ثانية (فى عام ١٢٧١م) وقد رافقهما هذه المرة ماركو ابن نيكولو الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ١٧ عاماً وبركة البابا الجديد وبعض الزيت المقدس واثنان فقط من الرهبان للأغراض الإنجيلية ، وكان الراهبان قد وصلا إلى أرمينيا على الحد الغربى لآسيا عندما حملتهما شائعات الحرب على الفرار والعودة إلى الوطن وواصل البولو رحلتهم .



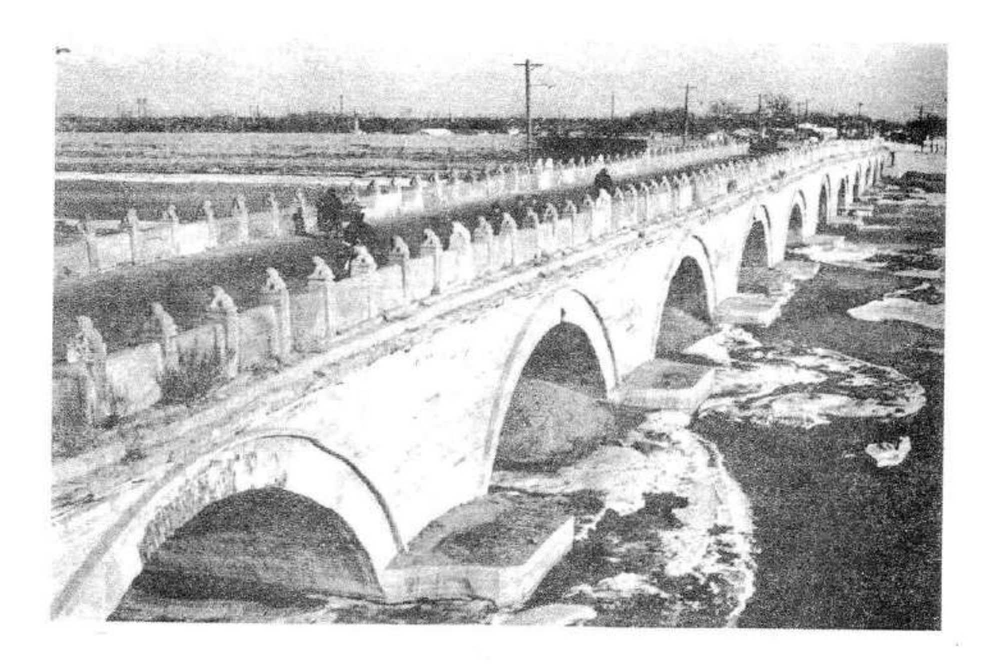
ماركو بولو . صورة من القرن السابع عشر .

ووصلوا إلى بلاط خوبيلاى فى بكين بعد رحلة استغرقت ثلاثة أعوام ونصف ، وعندما تعلم ماركو لغة وعادات المغول أسند اليه الخان عملاً رسميًا و أرسله فى مهام إلى الجنوب ، وقد عاش البولو ١٧ عامًا فى الصين وأصبحوا غاية فى الثراء ، وكان الخان آخذا فى الهرم آنذاك ومن المؤكد أن أبناء مدينة البندقية (البولو) قد خافوا على مركزهم فى ظل خليفته ، ورفض خوبيلاى بادىء الأمر طلبهم العودة إلى وطنهم ، وحدث فى ذلك الوقت أن فقد أرغون حاكم فارس المغولى زوجته الحبيبة بولجانا ، وبناء على رغبتها عند موتها أرسل الرسل إلى البلاط فى بكين لضمان الفوز بعروس آخر من نفس القبيلة المغولية ، و نظراً لأن الطرق البرية لم تكن آمنة بسبب النضال المغولى المتواصل فقد جهز خوبيلاى أسطولاً من السفن الشراعية الصينية (الينك) و أميرة عمرها ١٧ عامًا لإعادتهم إلى الغرب ، ونظراً لخبرتهم فى ركوب البحر تم السماح للبولو بالعودة مع الأميرة و حاشيتها ، واستغرقت الرحلة قرابة عامين ، وفُقِدَ ٦٠٠ رجل فى تلك الرحلة لكن الأميرة والبولو الأشداء كُتِبَتْ لهم النجاة، و عندما وصلوا إلى فارس اكتشفوا أن الخان أرغون قد توفى وخلفه ابنه الذى ورث الأميرة ، ووصل فى ذلك الوقت نبأ وفاة الخان الأعظم خوبيلاى عن عمر يناهز الثمانين عامًا .

وواصل البولو رحلتهم إلى البندقية (١٢٩٥م) ، و كان أهل البندقية يقاتلون خصومهم أهل جنوه آنذاك فتم استدعاء ماركو لتجهيز سفينة شراعية للتصدى لهم وأبحر بها كقائد : وهُزِمَ وحُمِلَ أسيراً إلى جنوه حيث مكث حوالى ثلاثة أعوام ، وأملى قصته لأحد رفاقه السجناء الذى دونها بفرنسية ركيكة ، وبقيت عدة نسخ مترجمة منها لكن أحداً منها لم يكن الأصل ، وكان هذا العمل سببًا فى معرفة أوروبا بآسيا بوجه عام والصين بوجه خاص ، وهى المعرفة التى كانت متاحة بالفعل للعالم الإسلامى وصرفت أوروبا النظر عنها إلى حد بعيد معتبرة إياها ضربًا من الخيال ، وقيل أنه عندما اتهم وهو فى فراش موته بأنه كان مبالغًا بشكل فاضح أجاب ماركو بولو بأنه لم يخبر عن نصف ما شاهده .

وبعد مرور مائتى عام أبحر "كولومبس" الربان البحرى من أبناء جنوه – بعد أن ألهمه كتاب بولو – غربًا على أمل اكتشاف جزر الهند والصين ، واكتشف أمريكا .

وفى مقابل عناد الرحالة المسيحيين كان عناد الرحالة المسلمين الذين ترك أحدهم على الأقل سجلاً طويلاً لرحلاته ، وكان ابن بطوطه قد غادر بلدته "تانجير" فى عام



جسر "ماركو بولو" على بعد حوالى ١٠ أميال من بكين ، ووصفه "بولو" بأنه " جسر حجرى جميل ، طوله ٣٠٠ ذراعًا و عرضه ثمانية أذرع وبذلك يمكن لعشرة رجال السير عليه جنبًا إلى جنب دون مشقة ، وله ٢٤ قنطرة تحملها ٢٥ دعامة أقيمت فى مياه الحجر السربنتين وشيدت بمهارة عالية ، وعلى كل جانب و من طرف لآخر يوجد حاجز مكون من ألواح وأعمدة الرخام تم ترتيبها بطريقة بارعة . . . وقد ملئت جميع الفراغات بين كل عمود و العمود الآخر على طول الجسر بألواح الرخام التى نحتت بشكل لافت ... وتعلوها الأسود" . "وقد شُيد هذا الجسر فى القرن الثانى عشر ، وله ١٤٠ درابزين يعلو كل منها أسد حجرى منحوت هو وصغاره ، و حتى وقت متأخر لم يستطع أحد أن يحصى عدد الأسود الموجودة يقينًا – فهناك عدد لا حصر له من الأشبال القلقة التى تطل من حين لآخر من تحت لبد أمهاتها ثم تختفى ، و قد أجرى الصينيون مؤخرًا إحصاءً رسميًا وقدروا عدد الأسود على الجسر بـ ٤٨٥ أسد وشبل، و مازال الجسر يخدم حركة المرور الكثيف .

١٣٢٥م، وسافر عبر آسيا الوسطى إلى الهند حيث دخل فى خدمة سلطان دلهى ، وبعدها انضم إلى سفارة السلطان التى حملت الهدايا لإمبراطور الصين ، وركب مع الرسل على متن إحدى سفن الأسطول الصينى العائدة إلى الوطن بعد مهمة تجارية وكان من بين القلة الناجين من العاصفة التى حطمت الأسطول ، و اتسع نطاق رحلاته

فى الصين وعاد إلى الوطن بعد غياب دام ٢٤ عاماً بعد أن استقر كمسلم صالح وكون أسر فى عدة أجزاء من العالم .

ولم تكن الأمور تسير على وتيرة واحدة طوال الوقت ، فهناك سجل "رابان سوما" الذى ولد قرب بكين وكان مسيحياً نسطورياً ، ورحل عن الصين عام ١٢٧٥م مع زميل له للحج إلى القدس ، ووصل إلى مملكة المغول فى فارس حيث استقبله الخان استقبالاً حاراً ، ومن منطلق دوافع مماثلة لدوافع الملوك المسيحيين أرسل الخان رابان سوما فى مهمة أخرى إلى أوروبا لعرض تكوين حلف بين الصليبيين والمغول ضد أعدائه المسلمين فى مصر ، ووعد الخان أرغون - الذى توقع انتصار المغول سلفاً - ملك فرنسا باعطائه القدس إذا اشترك معه ، واستُقبل رابان سوما من قبل البابا و ملك فرنسا ، وقابل أيضاً إدوارد الأول ملك انجلترا فى جاسكونى لكن التحالف المغولى - المسيحى لم يتحقق .



الأسود و أشبالهم على جسر "ماركو بولو" .

وقد سهلت إمبراطورية المغول أيضاً تجارة العرب على طول طريق القوافل من بغداد إلى بكين وبالسفن بحراً من الخليج الفارسى إلى موانىء جنوب الصين ، وأسهمت حركة المرور من الشرق إلى الغرب بشكل ملحوظ فى نشر الإنجازات التقنية الصينية (خاصة الطباعة والبارود) فى بقية أنحاء العالم خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

الفصل الحادى عشر

يوان

١٢٧١- ١٣٦٨م

دام الحكم المغولى فى الصين قرابة قرن من الزمان ، ودام عهد الوحدة الإمبراطورية التى أعيدت حتى القرن العشرين ، ولكنه برغم التفوق العسكرى للمغول واتساع رقعة الإمبراطورية المغولية لم يكن الأمل فى تحقيق النصر النهائى معقوداً على فرسان السهل بل على الفلاحين فى الأراضى الزراعية .

ونظراً لضعف حضارتهم المدنية وافتقارهم للخبرة البيروقراطية للمجتمع الزراعى إضطر المغول – فى الصين – للإعتماد على الأجانب وليس عشيرتهم فى إدارة شئون البلاد ، وفى الوقت الذى كانوا فيه على استعداد لقبول الصينيين فى المراكز الإدارية الدنيا فقد تشككوا فى نواياهم إلى حد جعلهم يحجمون عن إسناد أية سلطة سياسية إليهم ، وغالبًا ما كانوا يعهدون بمهمة تنظيم جباية الضرائب إلى الخبراء الماليين والتجار المسلمين القادمين من المراكز التجارية المفتوحة فى بخارى وسمرقند ، كما كان يجرى أيضًا استخدام البرابرة الآخرين المقهورين من ذوى المستوى الثقافى الرفيع : الأويغور ، والخيطان ، والتبتيون ، واستطاع غير الصينيين كـ " ماركو بولو " أن يحصلوا على مناصب ذات سلطة وثقة كان الصينيون مُبعَدينَ عنها ، وعلى سبيل المثال فقد كان "يهلو" وزير "جنكيز خان" – الذى أشار على الخان الأعظم بعدم اللجوء للإبادة الجماعية للصينيين حتى يتسنى له إستغلالهم – من الخيطان وحفيداً للعائلة المالكة .



خزف صينى من عصر "يوان" . وقد أخذت الأفران في شمال الصين فى عصر "يوان" فى الزوال بينما تطورت فى الجنوب . وكانت كافة الآنية الزرقاء و البيضاء المصنوعة من الخزف الصينى – على وجه الحصر تقريبًا – للتصدير وعُثِرَ على نماذج قليلة منها فقط فى الصين . وقد اكتشف هذا النموذج ذى اللونين الأزرق و الأبيض و الطبقة اللامعة المصقولة التحتية باللون الأحمر و الزخرفة الوردية مؤخرًا فى إقليم "هوبى" .

وكما تشهد سجلات الرحالة الغربيين فقد ظلت التجارة المزدهرة لعصر السونج قائمة فى عهد اليوان وتوسعت فى بعض النواحى .

وقد سهلت العربات التى تدفعها الأيدى العاملة أو تجرها الحيوانات أو تعمل بالطاقة المائية أعمال الرى والصرف فى الزراعة ، وبدأ تحويل القطن الذى ظل يُزرع منذ عصر السونج إلى نسيج عالى الجودة خاصة فى الأراضى المنخفضة الممتدة من نهر اليانجتسى ونهر هوى حيث اشتهرت إمرأة تدعى "هوانج تاو بو" باستحداث طرق لغزل ونسج القطن .

نقش بالكتابة المربعة التى قام "فاجسبا" وزير "خوبيلاى" بوضع أحرف الهجاء الكاملة لها

و تم الإبقاء على الصناعات الأخرى كالمنسوجات والخزف على سبيل المثال على مستوى عال من الجودة ، وجرت عادة المغول فى الصين - كما كان الحال فى جميع أنحاء إمبراطوريتهم - على حمل الحرفيين من المناطق التى قهروا أهلها للعمل لحساب الفاتحين فى المؤسسات والورش الحكومية حيث كانوا يعملون كالعبيد ، وكانت منتجاتهم ذات جودة عالية وتحظى بإقبال شديد من جانب نبلاء المغول وكذلك التجار الأجانب ، وأصبحت هانجتشو العاصمة القديمة للسونج الجنوبيين وبكين العاصمة الجديدة للمغول معروفتين بثرائهما ومنتجاتهما فى طول آسيا وعرضها ، وذكر "فراير كاربينى" أنه " فى جميع الحِرف التى يعرفها الناس لم يكن هناك حرفيين أفضل منهم فى جميع أنحاء العالم ، فبلدهم غنى بالقمح والذرة والخمور والذهب والحرير والسلع الأخرى ."

وكان "خوبيلاى خان" (١٢٧١ - ١٢٩٤م) الخان الأعظم الخامس ومؤسس أسرة "يوان" الحاكمة بَنّاءً فَذًا برغم أصله البدوى ، ولم تكن بكين - عاصمة الإمبراطورية المغولية - بأقل تألقًا من العواصم الصينية السابقة ، وكانت القصور والمتنزهات والسرادقات والبحيرات تزين المدينة ، وكجده "جنكيز خان" كان "خوبيلاى" متسامحًا مع كافة الأديان وكانت هذه سياسة أملاها التعقل والتدبر وليست الإنسانية ، ونقل "ماركو بولو" عن الإمبراطور قوله أن " هناك أربعة أنبياء يُجِلهم العالم أجمع ويعظمهم،

فالمسيحيون يقولون أن نبيهم هو يسوع المسيح و المسلمون يقولون أن نبيهم محمد واليهود يقولون أن نبيهم موسى و الوثنيون يقولون أن نبيهم ساكيامونى بورخان (بوذا) الذى كان أول من تم تصويره على أنه الله فى شكل وثن ، وأنا أجلهم و أبجلهم جميعاً حتى أتيقن من أننى أفعل ذلك من أجله هو الأعظم والحق فى السماء ، وله أصلى طلباً للعون" .

ويرى "بولو" أن هذا الرجل الدنيوى المخلص كان من الممكن أن يعتنق المسيحية دون عناء لو أن أتباع المسيح كانوا قد تفوقوا على الوثنيين أو أنهم تمكنوا على الأقل من تجريد دعاة الوثنية من براعتهم الفائقة .

وكان لدى "خوبيلاى خان" العديد من الإهتمامات الثقافية ، فبعد أن أسس مرصداً وتم حفظ آلاته وسجلاته بشكل جزئى أدخل تقويماً جديداً إلى الصين مدته عام مقداره ٣٦٥.٢ يوماً كانت دقته لافتة للنظر، وازدهر علما الجغرافيا والفلك ، وقام الخان بإرسال البعثات لاكتشاف منبع النهر الأصفر، وأدخِلَت تحسينات على القناة العظيمة التى تربط مناطق زراعة الأرز فى نهر اليانجتسى بالعاصمة ، وفى عهد "جنكيز خان" تبنى المغول- الذين لم يكن لديهم حتى ذلك الوقت شكل واحد للغة المكتوبة – الأبجدية الأويغورية الخاصة بجيرانهم الغربيين ، و أراد "خوبيلاى خان" إبتداع أبجدية من شأنها تمكين جميع رعايا الإمبراطورية – متعددة اللغات – من الإتصال والتواصل ويمكن تطبيقها على كافة اللغات ، وعين العالم التبتى العظيم "فاجسبا لاما" وزيراً له وتلقى "فاجسبا" أمر الخان بوضع أبجدية من شأنها تحقيق هذا الغرض ،وفى غضون بضع سنوات تمكن فاجسبا المدهش، واللاما العظيم لساكيا حاكم التبت فى عهد خوبيلاى من وضع جدول أبجدى مؤلف من ألف حرف ، وكانت الكتابة المقطعية التى وضعها تقوم على الأبجدية التبتية ، وكانت تتألف من ٤١ رمزاً أساسيًا إضافة إلى ٥٠ رمزاً أخرى كانت تستخدم لنقل اللغة السنسكريتية واللغة التبتية ،وأمكن الجمع بين هذه الرموز فى حوالى ١٢٠٠ مقطع ، وأمكن للكتابة بهذه الطريقة التى عُرِفَت بالكتابة المربعة أن تقدم الرموز الصوتية للكثير من اللغات بأمانة ، وفى عام ١٢٦٩م أصدر خوبيلاى مرسوماً يقضى بأن تصبح الكتابة المربعة اللغة

الرسمية المكتوبة لإمبراطوريته حيث استخدمت المراسيم والسجلات الإمبراطورية والنقود الورقية ... إلخ حتى الجزء الأخير من القرن الرابع عشر عندما أطيح بأسرة اليوان الحاكمة ، كما تمت طباعة بعض الكتب بالأبجدية المربعة .

وشهد عصر اليوان ازدهار شكلين أدبيين تأصلا خلال عصر السونج وهما الرواية والدراما ، ويُعتقد أن افتقار العلماء الصينيين لفرص الترقي في الخدمة الحكومية قد أدى إلى إعادة توجيه مواهبهم إلى مجال يتطلب البراعة الأدبية ، وإن لم يكن ذلك بالشكل الكلاسيكي القديم ، وكتب "كوان هان تشنج" وهو واحد من أعظم الكتاب المسرحيين الصينيين المسرحيات الكوميدية و التراجيدية خلال هذا العصر ، وكان كثير منها يقوم على موضوعات اجتماعية كالتعارض بين العواطف الإنسانية والروابط الاجتماعية المتعلقة بين الأبناء وتقواهم تجاه آبائهم وكفاح الأفراد ضد الظلم الاجتماعي ويتناول عدد من مسرحياته كـ " ثلوج في منتصف الصيف " كفاح النساء ضد الإضطهاد التقليدي لهن .

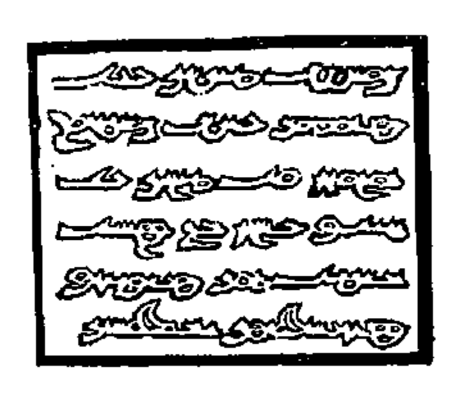
ومن بين الروايات الأكثر شعبية التي يرجع تاريخها إلى عصر اليوان رواية بعنوان " حواف الماء " التي ترجمت أيضًا على أنها " جميع الناس أخوة " ، وتصف هذه الرواية – التي تقوم على الحكايات الشعبية في القرنين السابقين – نمط "روبين هود" في مغامرات الـ ١٠٨ من الشجعان و الخارجين على القانون الجسورين الذين يهزمون موظفي الدولة ويساعدون المضطهدين .

وقد تزامن ضعف أسرة اليوان الحاكمة في الصين مع ضعف إمبراطورية المغول التي قامت في عهد "خوبيلاي" خامس و آخر الخانات العظام ، وعندما تحول "خوبيلاي" من استخدام الفرسان إلى إرسال الحملات البحرية تعرض لكارثة حيث دُمِرَ أسطول عظيم أرسله لقتال اليابان عن آخره بفعل العواصف والمقاومة اليابانية .

وضَعُفَ ما كانت تتمتع به أسرة جنكيز المالكة من وحدة ونظام ، وواجهت سلطة خوبيلاي – كخان أعظم – تحديًا من البداية من جانب أخيه الذي أخذ جانب المعارضة وكسب تأييد الخانات من القبيلة الذهبية ، وتفاقم الشقاق والخلاف – الذي كان آخذًا

فى الانتشار عبر السهول الروسية - مع هذه المملكة المغولية بتحول القبيلة الذهبية إلى الدين الإسلامى فى نهاية القرن الثالث عشر ، الأمر الذى أدى إلى انضمامهم إلى إخوانهم من مسلمى مصر فى مهاجمة عشيرتهم من حكام فارس من المغول .

وعلاوة على ذلك فطوال عهده كان خوبيلاى فى حرب مع الأمير المغولى للخانية الرابعة فى آسيا الوسطى ، و كان خوبيلاى فى واقع الأمر آخر ملك إسمى لإمبراطورية المغول ، ورفض الخانات المسلمون الاعتراف بخليفته الذى كان بوذيًا ،كما ضعفت سلطة الخان الأعظم داخل وطن المغول أيضًا وساعد على هذا انتقال البلاط من كاراكوروم إلى بكين ، وضاقت كثير من القبائل المغولية خارج الصين ذرعًا بالحكم الذى كان مقره بكين حيث الحياة المستقرة عقيمة و غريبة ومهينة فى نظر بدو السهل .



لوح حجرى أقامه "جنكيز خان" تكريمًا لراميه "يسونكى" الذى أصاب هدفه من مسافة ٧٠٢,٥ مترًا

وفى الصين نفسها كان هناك شعور بأن الحكم الجائر للفاتح لا يحتمل حتى فى أيام خوبيلاى خان المتنور نسبيًا ، وكانت إدارة الموظفين الأجانب خاصة من مسلمى آسيا الوسطى الذين عادة ما أضافوا الربا إلى أنشطتهم الرسمية بحسهم التجارى القوى موضع إستياء شديد ، وقد علق "ماركو بولو" على ذلك قائلاً :

" لابد أن تدرك أن جميع الكاثيين يمقتون حكومة الخان الأعظم نظرًا لأنه غالبًا ما كان يولى عليهم حكامًا من التتار المسلمين ، ولم يستطيعوا تحمل ذلك لما جعلهم

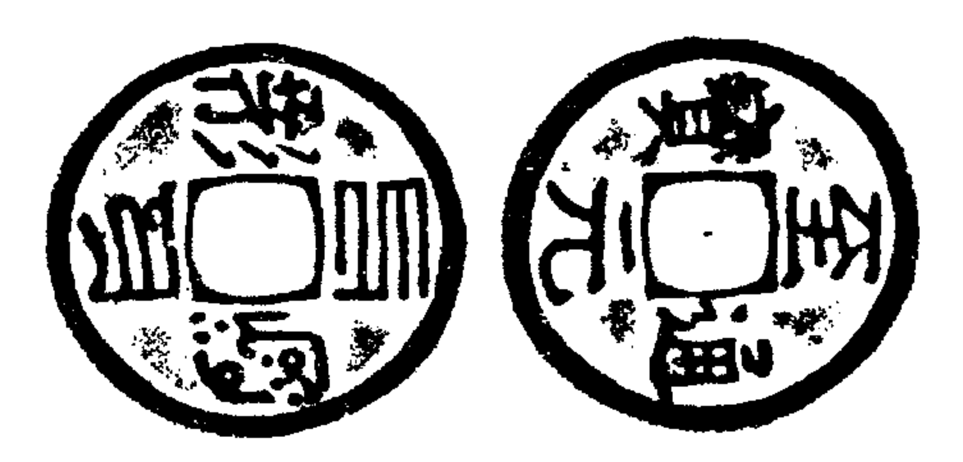
يشعرون به من أنهم مجرد عبيد .وعلاوة على ذلك لم يكن لدى الخان الأعظم أى حق شرعى فى حكم إقليم كاثاى الذى حصل عليه بالقوة ، ونظراً لعدم ثقته بالشعب فقد عهد بحكم البلاد إلى التتار من المسلمين والمسيحيين الذين ارتبطوا بأسرته والموالين له شخصياً وليسوا من أبناء كاثاى .

وقد أثار "أحمد" وزير المالية في عهد خوبيلاى كراهية شديدة حتى أنه اغتيل فى القصر نفسه و قد سجل "بولو" هذه الحادثة وذكر أيضًا أنه منذ الإحتلال المغولى ظل مواطنو هانجتشو ملزمين بإلصاق قائمة على مدخل كل منزل لحصر من فيه من السكان كإجراء أمنى .

وفي المدن تم فرض حظر التجوال ، وتضمنت القيود الأخرى حظر كافة الاجتماعات بين الصينيين وحظر إقامة المعارض والأسواق و السفر ليلاً ، ولم يكن مصرحًا الصينيين بامتلاك أو صنع الأسلحة ، وشمل هذا سكاكين الخضروات وسواطير اللحم التى لم يكن مصرحًا باستخدام أكثر من واحدة منها لكل عشر أسر،كما كان محظوراً عليهم أيضًا ممارسة أية رياضة قد تساعد على تنمية المهارة القتالية ، وفي المدن كان يتم تعيين جاسوس أو عميل لكل عشر أسر للإبلاغ عن أية بادرة للنشاط الثورى .

وكانت الإجراءات القمعية صارمة بالنسبة للصينيين الجنوبيين بوجه خاص ، وقام المغول بتقسيم شعب الإمبراطورية الصينية إلىّ أربعة فئات : الأولى المغول أنفسهم الذين يتمتعون بكافة الإمتيازات ، والثانية مساعديهم من آسيا الوسطى بمن فيهم بعض التتار من المناطق الحدودية و الذين كان يتم استخدامهم فى الوظائف ذات المسئولية ، والثالثة الصينيين الشماليين ، والرابعة الصينيين الجنوبيين من الهان الذين كانوا يحملون عبء الإضطهاد السياسي والإقتصادى كاملاً ، وإذا حدث أن قام أحد المغول بضرب أحد الهان لم يكن مسموحًا للأخير بالثأر لنفسه أو الحصول على أى تعويض .

وكان مد القنوات وبناء الأساطيل لحمل المؤن من وسط إلى جنوب الصين لسد إحتياجات الكثافة السكانية المتضخمة فى بكين يعنى زيادة أعمال السخرة ، وتسببت الصدوع فى سدود النهر الأصفر فى كرب ومجاعة فى المناطق الشمالية الشرقية وأدت



قطعتان من عملة أسرة يوان الحاكمة تم سكها عام ١٢٧٩ م ونقش عليها بأربع لغات : المغولية والعربية و التبتية والتانجوت .

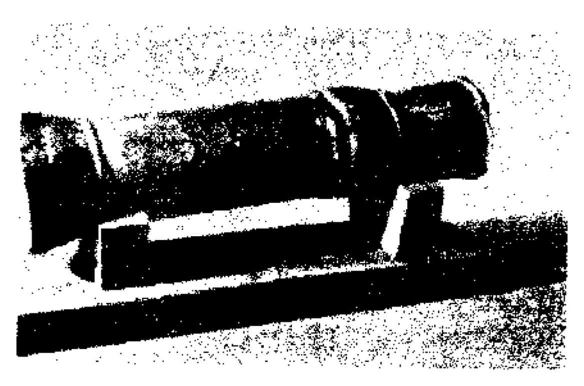
إلى ارتفاع حاد فى الأسعار . وقد شجع التسامح الدينى على قيام المؤسسات الدينية ذات الثراء العظيم والتى استغلت العمالة من الفلاحين لكنها تهربت من الضرائب ، وقبل ذلك كله فقد استولى نبلاء المغول على الأرض الصالحة للزراعة من الفلاحين وقاموا بتحويلها إلى مراعى أو تركها بور،وقد ساعد هذا التحول عن الأرض الصالحة للزراعة فى الشمال الغربى على تكون مناطق القفار والمناطق الصحراوية ، وبرغم المظاهر العظيمة للثراء بين أصحاب الإمتيازات فى المدن يبدو أن سدس سكان الصين كانوا يتضورون جوعًا فى القرن الرابع عشر.

ثورة العمائم الحمراء

كان خوبيلاى خان آخر حكام المغول الأقوياء ، وخلفه خانات لم يكونوا أقل كفاءة منه فحسب بل كانوا فاسقين أيضًا خاصة "توغون تيمور" – آخر أفراد الأسرة – الذى كان فاسدًا للغاية حتى أنه جعل مؤرخى الحوليات الصينيين يعزون سقوط كل أسرة حاكمة إلى فساد أفرادها المتأخرين .

وقد فقدت القبائل المغولية فى الصين اهتماماتها و مهاراتها القتالية بحلول منتصف القرن الرابع عشر ، وولد الكثيرون منهم جنوب السور العظيم بعيدًا عن

السهل وافتقروا إلى تدريب الطفولة على الرماية من فوق ظهور الخيل التى كانت تميز أجدادهم .



مدفع برونزى يرجع تاريخه إلى عام ١٣٣٢م – وهو أقدم مدفع عرفه العالم .

و تزايد نشاط الجمعيات السرية أكثر فأكثر فى المملكة الوسطى ، وتقول الحوليات الصينية أنه " كان هناك هجوم فى الشرق و اضطهاد فى الغرب و أعمال انتقامية فى الجنوب وحرب فى الشمال حيث كان الجميع يأملون فى ظهور محرر ."

وفى الخمسينات من القرن الرابع عشر انتشرت حركة عرفت بالعمائم الحمراء فى أنحاء الشمال ، وكان قادتها من الفلاحين والحرفيين وفى بعض الأحيان من صغار التجار .

وفى عام ١٣٥٦م سقطت نانكنج القريبة من هانجتشو فى أيدى الثوار بزعامة فلاح فقير يدعى "تشو يوان شانج" ، وقد أصبح هذا الرجل راهبًا بوذيًا فى شبابه المحروم وعاش على التسول و الشحاذة ، وبعد انضمامه إلى الثوار سرعان ما وصل إلى السلطة، وفى غضون عشرة أعوام كان قد أحكم سيطرته على المناطق الإقتصادية الهامة فى الأراضى الوسطى والمنخفضة الممتدة من نهر اليانجتسى وتمكن من طرد المغول إلى الشمال .

وفى عام ١٣٦٨م أعلن "تشو يوان شانج" نفسه إمبراطورًا وأصبح اسمه "هونج وو" كأول إمبراطور لأسرة "منج" الحاكمة وأقام عاصمته بالمنطقة المنخفضة بوادى نهر

اليانجتسى فى "نانكنج" ، وفي نفس العام طرد "اليوان" من بكين ، وفر إمبراطور المغول إلى مقره الصيفى فى "شانجتو" التى سقطت هى الأخرى أيضًا ، وقد تمكن الإمبراطور من الهرب مع زوجته الإمبراطورة و محظياته تحت جنح الظلام إلى "كاراكوروم" عاصمة المغول الأصلية التى حل بها الفساد والإنحلال منذ ذلك الحين .

الفصل الثاني عشر

المنج

١٣٦٨ - ١٦٤٤م

كانت قرون أسرة المنج نموذجًا لعصر الأسرة الحاكمة حيث تتجلى في هذا العصر معظم الملامح الخاصة بعصر الأسرة الحاكمة : النهوض بالزراعة وتخفيض الضرائب على الفلاحين ، وإنشاء إدارة موحدة وفاعلة عن طريق البيروقراطية وإعادة الإيرادات الإمبراطورية إلى سابق عهدها ، والجهود التى كانت تبذل لاحتواء هجمات البدو من السهول الشمالية ، ثم التركز المتزايد للأرض والموارد فى أيدى أصحاب الأراضي الموظفين على حساب الفلاحين ، والجهود العقيمة من جانب الحكومات اللاحقة - بعد أن أصبحت فاسدة وعاجزة - للسيطرة على الشعور المتزايد بالسخط والإستياء لدى الفلاحين ، وأخيرًا القضاء على الأسرة الحاكمة في ثورات الفلاحين في أنحاء الأمة مصحوبة بغزو البرابرة .

ومن ناحية أخرى فقد كان عصر "المنج" عصرًا تقليديًا بفضل الكفاح من أجل إعادة إرساء الأساليب والمعايير المألوفة فى الحياة السياسية والإجتماعية فى المملكة الوسطى، وكان عصر "المنج" العصر الوحيد - بعد عصر التانج - الذى شهد توحد الصين الإمبراطورية فى ظل حكم وطنى .

وعندما استولى "تشو يوان تشانج" على السلطة وأصبح أول إمبراطور للمنج عرف بـ " هونج وو " (١٣٦٨ - ١٣٩٨م) كان النهوض بالزراعة أمرًا ملحًا للغاية خاصة فى شمال الصين حيث الأراضى التى عمد المغول إلى تركها بورًا وظلت تعانى على مدى عدة عقود القحط المتكرر الذى كانت تعقبه الفيضانات عندما كان النهر

الأصفر يفيض على ضفافه،ولتشجيع استصلاح الأراضي مُنِحَ الفلاحون الأراضي التي أعادوها للإنتاج كملكية خاصة لهم علاوة على منحهم اعفاءً ضريبيًا على مثل هذه الأراضي على مدى السنوات الثلاث الأولى ، وتم إعداد سجلات جديدة للأرض وتخفيض الضرائب بعض الشيء ، وكان "المنج" يقومون بجباية الضرائب مرتين سنويًا من الفضة والحبوب والحرير،ونص مرسوم على ضرورة زراعة نسبة من جميع قطع الأراضي بالمحاصيل النقدية كأشجار التوت من أجل الحرير والقطن والقنب ،و قد ساعد هذا على توفير المواد الخام لصناعة المنسوجات وكذلك مصدر دخل للفلاحين ، وكانت أعمال السخرة بحسب عدد البالغين من الذكور في الأسرة .



"هونج وو" ، أول أباطرة المنج (١٣٦٨ - ١٣٩٩م)، وقد عُرِفَ بالملك الشحاذ نظرًا لأصله الوضيع ، وكان فلاحًا قبل أن يصبح راهبًا بوذيًا وكان يتسول طلبًا للرزق .

وقد تجاوب الإنتاج الزراعي مع هذه الاجراءات التي صاحبها إصلاح مشاريع حفظ المياه التي كانت مهملة ، كما تم تشجيع الحرف والصناعات بشكل مماثل ، وكان من الممكن تكليف الحرفيين بالعمل الحكومي ولكنهم عندما كانوا لا يعملون لحساب الحكومة كان يصرح لهم بالعمل لحسابهم الخاص وبيع منتجاتهم في السوق ، وأدى

هذا التساهل من جانب الحكومة مع الحرفيين إلى زيادة جودة وكمية المنتجات ، وأنتج الحرفيون في عصر المنج منسوجات ممتازة واشتهروا بخزفهم ، وظهرت الطواحين ذات الأذرع العديدة والأفران الضخمة .

وشكل "هونج وو" حكومته على غرار نظام التانج حيث أعاد العمل بالمبادىء والتعاليم الكونفوشيوسية ، ورغم ذلك فقد تركزت السلطة في يد الحكومة الإمبراطورية بشكل أكبر خاصة في يد الإمبراطور نفسه ، وتقلصت سلطات حكام الأقاليم فاقتصرت على الشئون المدنية والمالية ، وتولى موظفون آخرون الشئون القضائية والعسكرية ، وتولى خمسة ضباط متساوين في الرتبة الشئون العسكرية من تجنيد وإدارة لكنهم لم يتولوا قيادة الجند و عندما كانت تندلع الحرب كان الإمبراطور يعين قائداً عاماً للقوات مدة الحرب فقط .

وألغى "هونج وو" منصب رئيس الوزراء وتولى هو نفسه الوزارات الست التقليدية (الإدارات المدنية، والطقوس و الشعائر، و الإيرادات ، و الحرب ، و العقوبات ، والأشغال) بمساعدة كبار الوزراء الذين شكلوا سلطة تنفيذية أشبه بمجلس الوزراء إلى حد ما ، و عادت سلطة البيروقراطية و تم إحياء نظام الإمتحان و أصبح أكثر رسوخاً ، وقد وصف ريتشى المبشر اليسوعى هذه الإجراءات تفصيلياً قائلاً :

" هناك قصر ضخم شُيِّد خصيصاً لهذا الإمتحان في كل مدينة من مدن العاصمة يحيط به سور عظيم ، ويوجد به عدد من الأجنحة و الحجرات الصغيرة المعزولة عن كل ما يشغل أو يلهى خُصصَتْ للممتحنين عند مناقشتهم للمخطوطات المقدمة ، ويوجد فى وسط هذا القصر أكثر من أربعة آلاف حجرة صغيرة تتسع الواحدة منها لاحتواء منضدة صغيرة و مقعد لشخص واحد ، وقد تم بناء هذه الحجرات بحيث لا يستطيع من يشغلها التحدث إلى من يشغل الحجرة المجاورة أو حتى رؤيته .

وفي الوقت الذى كان يجرى فيه مراجعة المخطوطات ليل نهار كان هناك حرس من القضاة والخفراء العسكريين يجولون في حركة دائبة لمنع أى اتصال شفهى أو كتابى بين أولئك المنشغلين داخل القصر وأولئك الذين خارجه ، وتم تخصيص نفس الأيام الثلاثة للإمتحان فى أنحاء المملكة ، ويسمح للمشاركين في الإمتحانات بالكتابة من الفجر إلى الغروب خلف أبواب مغلقة وتقدم لهم الوجبات الخفيفة التى أعدت فى

اليوم السابق على نفقة الدولة ، وعندما يؤذن للمرشحين بدخول القصر يجرى تفتيشهم بعناية للتأكد من أنه لا توجد أى كتب أو مواد مكتوبة بحوزتهم ، وعند دخولهم الامتحان يسمح لهم بحمل عدة فرش للكتابة ولوحة ألوان وكذلك حبر وورق ، ويتم تفتيش ملابسهم والفرش ولوحات الألوان بعناية خشية أن تحوى أى شىء مضلل واذا اكتشف أى نوع من الغش لا يقتصر الأمر على الإستبعاد من الإمتحان فحسب بل والعقوبة الشديدة أيضاً .

وعندما يُصرَح للمرشحين بدخول القصر وتغلق الأبواب وتختم من الخارج بالختم العام يقوم كلا الموظفين المسئولين اللذين عينهما الملك بشرح ثلاث فقرات علانية .... ثم يقدم هذه الفقرات على أنها الموضوع العام ، ويتعين كتابة مقال منفصل عن الموضوع الذى اختاره كل ممتحن ، وبعدها يتم اختيار أربع فقرات من أى من بين الكتب الخمسة للعقائد وتخصص كمادة إضافية للإمتحان ، ولابد أن تظهر هذه المقالات السبع المكتوبة الدليل ليس فقط على الإستخدام الصحيح للكلمات ولكن أيضاً على العرض الصحيح للأفكار التى تحتوى عليها العقائد ومراعاة دقيقة لقواعد البلاغة الصينية ،ويجب ألا يتجاوز أى مقال خمسمائة حرف .



حجرات الإمتحان للمرشحين فى الإمتحانات الإمبراطورية ، صورة من أواخر القرن التاسع عشر .

وفى اليوم الثانى للإمتحان وبعد يومين للراحة وخلف الأبواب المغلقة كما كان الحال في السابق، تعرض الموضوعات للإمتحان فيما له صلة بالأحداث التى وقعت فى الماضى وحوليات القدماء والأحداث التى قد يُتوقع وقوعها فى المستقبل القريب ، وتكتب هذه المقالات من ثلاث نسخ فى شكل وثيقة إستشارية موجهة إلى الملك لمعرفة أفضل السبل التى يمكن إتباعها لصالح الإمبراطورية فى مثل هذه الظروف المحتملة .

وفى اليوم الثالث تعرض ثلاث صعوبات أو حجج للإمتحان ... ويتعين على كل واحد إعادة نسخ مخطوطته في دفتر خط أُعدَ لهذا الغرض ، وفى النهاية وإضافة إلى كتابة اسمه الشخصى يوقع باسمى والديه وأجداده وأسلافهم .

وبعدها يُختَم الدفتر حتى لا يفتح إلا على أيدى النواب .

ويقوم كل واحد باستخدام أى عدد من دفاتر الخط يمكن أن يحتاج إليها ويقدمها شخصياً إلى النائب، ويُعاد نسخ هذه الدفاتر ثانية من قبل أمناء المكتبة المعينين لهذا الغرض ، ولمنع أى تحيز يتم تمييز الدفاتر بحرف خاص باللون الأحمر قبل تقديمها للممتحنين وتحذَف التوقيعات ،وتقدم هذه الدفاتر للممتحنين لتقدير الدرجات، ويتم حصر النسخ الموقعة لمطابقتها مع العلامات الموجودة على المخطوطات المقدمة ، وتُتّبع هذه الطريقة لمنع التعرف على المخطوطة ولإخفاء هوية المؤلف و خط يده .

ويتم اختيار المجموعة الأولى من الممتحنين من القضاة المحليين الذين ينظرون فى المقالات المقدمة ويرفضون الردىء منها ... ولا يتجاوز عدد المقالات التى ترفع إلى الممتحنين الملكيين ضعف عدد المرشحين للدرجة ، فإذا كان عدد الدرجات التى سوف يتم منحها ١٥٠ درجة يتم اختيار ٣٠٠ مخطوط .

وعندما تنتهى الإمتحانات و تنتهى المراسم الخاصة بها يقوم الممتحنون الملكيون بنشر كتاب يوزع فى أنحاء الإمبراطورية يحتوى على النتائج وأسماء المجازين الجدد وأبرز المخطوطات حول مختلف الموضوعات ، ويُنشَر الكتاب فى طبعة فاخرة .

وكان يقوم على إدارة نظام الإمتحان مجلس الطقوس والشعائر ، وكان يتم تحديد عدد المرشحين الناجحين لكل منطقة ،وكان يتم إرسال الممتحنين من العاصمة للإشراف على الإمتحانات فى الأقاليم ، واكتسبت هذه العملية مزيداً من الطابع الرسمى من خلال التنظيم بإدخال صيغة للإلتزام عند كتابة الأجوبة ، حيث كان يتعين كتابة المقالات



الضيوف يصلون إلى القصر،صورة تقليدية رسمها " فنج تشو " من عصر "المنج" .
منظر للقصر الإمبراطورى فى بكين.

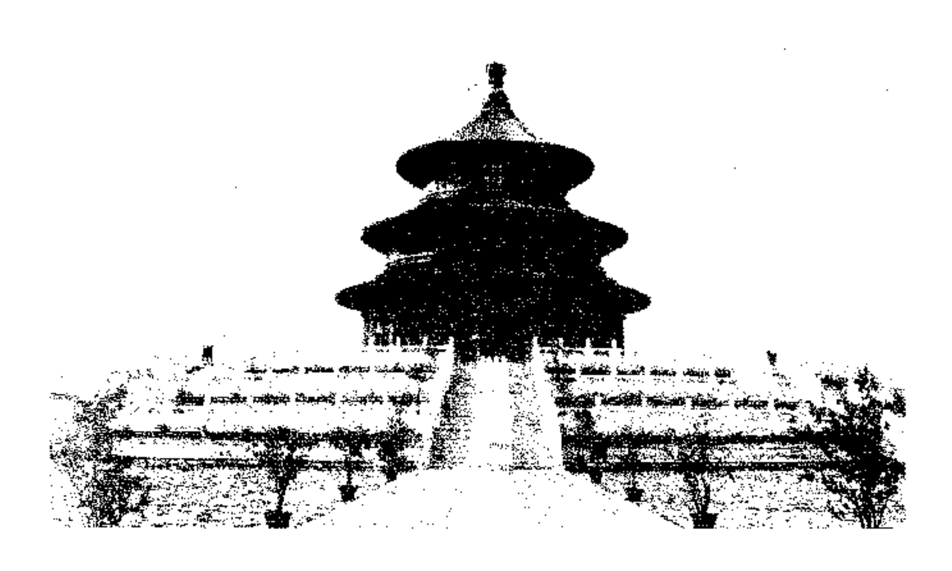
تحت ثمان عناوين رئيسية باستخدام عدد من الأحرف لا يتجاوز السبعمائة حرف إجمالاً وهو الأسلوب الذى عرف بـ " المقالة ذات الثمانية قوائم " ، وكان الموضوع قاصراً على الكلاسيكيات الخمس والكتب الأربعة التى أرست قواعد التفسير القويم للتعاليم والمبادىء الكونفوشيوسية فى عصر السونج .

ولم يقتصر الإصرار على الاستقامة على كبار موظفى الدولة ، وتحقيقًا لمنفعة الناس جميعًا كانت التعاليم الكونفوشيوسية تُتلى بشكل منتظم فى المعابد المحلية وكانت الأوامر والوصايا الإمبراطورية للحياة القويمة تُلصق على الجدران فى سائر القرى ، وكانت هذه الأوامر والوصايا تحض الناس على التمسك بالآداب والتعاليم الكونفوشيوسية و طاعة الأبناء لأبائهم و احترام كبار السن والأجداد وتعليم الأبناء والتماس أسباب الرزق فى هدوء وسلام .

ولم يلتزم "هونج وو" نفسه بأى من الوصايا الكونفوشيوسية الأساسية بأن يكون الحاكم القدوة لشعبه ، وأن يحكم من خلال تمسكه بالفضيلة فى أفعاله ، ووفاء لمهنته كراهب سابق فقد كان معتدلاً للغاية ولم يكن محبًا للبذخ والإسراف .. ورغم ذلك يبدو أنه كان قلق المزاج و نزاعًا للشك بشكل زائد ، وكان يخشى دائمًا أن يكون هدفًا للإهانات غير المكشوفة من جانب وزرائه وكان يعاقبهم بأشد الطرق و أكثرها قسوة .

وكان ابن السماء على وعي تام بالخطر الذى تشكله سلطة الخصيان وأحزاب الخصيان فى البلاط ، وأقام لوحًا فى القصر يأمر فيه بإبعاد الخصيان عن الإدارة ، وقام "هونج وو" نفسه بتقييد سلطاتهم و مراتبهم وأصدر مرسومًا بإبقائهم على أميتهم، لكن الأسرة الحاكمة قاست فيما بعد من جراء التنافس بين أحزاب الخصيان وموظفى الدولة مثلما قاست الأسر الحاكمة السابقة ، وتفاقمت المشكلة باعتلاء عدد من أبناء السماء القُصّرْ عرش الإمبراطورية الواحد منهم تلو الآخر .

و قد أقام "هونج وو" عاصمته فى "نانكنج" بالقرب من قلب المملكة الإقتصادى ، وإضافة إلى القصور التى شيدت من أجل العاصمة الجديدة أقيمت أسوار شاهقة بلغ إرتفاع الواحد منها ستين قدمًا للدفاع عن المدينة ، وقام خليفته "يونج لو" (١٤٠٣ – ١٤٢٤م) بنقل العاصمة مرة أخرى إلى بكين فى عام ١٤٢١م بهدف إحكام السيطرة على الحد الشمالى و استمرت بكين عاصمة للإمبراطورية حتى نهاية العهد الإمبراطورى ، وفى ظل الحكم المغولى لم تكن هناك حاجة للحصون والإستحكامات



معبد السماء فى بكين واحد من أجمل الإنجازات المعمارية فى عصر "المنج"
ويرمز سطحه الثلاثى الطبقات و المغطى بالآجر ذى السطح الأملس اللامع واللون الأزرق للسماء
ويعكس صورتها وهو الآن جزء من متنزه عام .

للتصدى لغارات البرابرة الشماليين ، وكان السور العظيم بحاجة إلى الترميم ، وكان في مقدمة إهتمامات أباطرة المنج ترميم السور العظيم و غيره من الحصون والإستحكامات و تم ترميم السور العظيم و أعيد بناء بعض أجزائه ، وعندما انتقلت العاصمة من نانكنج إلى بكين كانت أسوار المدن و المواقع الحصينة من بين أعمال البناء الرئيسية العديدة التى تم القيام بها ، وتمت تعبئة جيوش من الفلاحين لهذا العمل، ويمكن مشاهدة القصور والمعابد التي شيدوها للأباطرة في بكين حتى يومنا هذا بعد أن تحولت إلى متنزهات عامة و متاحف .

وأعاد المنج بناء أسوار عدة مئات من المدن الأخرى و رغم ذلك لم تكن أنشطتهم العسكرية دفاعية بصورة كاملة ، وبعد سقوط "اليوان" انسحب معظم المغول إلى موطنهم فى السهول وانشغلوا بحروبهم القبلية فيما بينهم ، و كانوا لا يزالون أقوياء بما يكفى لشن حملات ضد "المنج" الذين عمد أباطرتهم أنفسهم إلى تجريد عدة حملات ضد المغول ، وفى إحدى المرات وصلت جيوش المنج إلى "كاراكوروم" عاصمة المغول

فقدوا بنيانها من القواعد ودمروها تمامًا، ولم تدم هذه الصراعات طويلاً وقامت العلاقات الودية التي لم يعكر صفوها سوى المناوشات الحدودية من حين لآخر، واندمج من بقى من أولئك المغول في الصين داخل المملكة الوسطى . والواقع أن بعض نبلاء المغول احتفظوا بأملاكهم جنوب السور العظيم و دانوا بالولاء لابن السماء من "المنج".

نظام الجزية والحملات البحرية

توطدت دعائم إمبراطورية المملكة الوسطى في عهد المنج وتوسعت في بعض المناطق ، واندمجت منطقة يونان والجنوب الغربي و استقرتا ، وتم ضم منشوريا واستعمرها المستوطنون ، وفي الشمال الغربي قنع "المنج" بإحكام قبضتهم على "هامي" المحطة الأولى على طريق الحرير القديم لكنهم لم يتوغلوا لأبعد من ذلك داخل آسيا الوسطى ، و كان اهتمام "هونج وو" بالحصول على اعتراف بأسرته الحاكمة من جانب القوى الأجنبية يفوق اهتمامه بالفتوحات ، وفور اعتلائه العرش أرسل الرسل الواحد تلو الآخر ببيان رسمي إسترضائي إلى حكام سائر الدول الأجنبية التي يمكن الوصول إليها بعروض الصداقة والتجارة ودعوة لختم الإتفاق بإرسال "الجزية" إلى بلاط "المنج"، وجاء في البيان الرسمي أنه :

"منذ أن فقدت أسرة السونج العرش و قطعت السماء قربانهم خرجت أسرة "اليوان" من الصحراء لتدخل الصين و تحكمها لأكثر من مائة عام ، وعندما سئمت السماء سوء حكمهم و فسادهم جعلت مصيرهم الخراب و الدمار أيضًا جزاءً وفاقًا لهم، وظلت شئون الصين في حالة من الفوضى على مدى ثمانية عشر عامًا، ولكن عندما بدأت الأمة في النهوض من كبوتها رأينا نحن الفلاح البسيط من هواي - يو أن من واجبنا الوطني إنقاذ الشعب ، و شاء الخالق أن يسلك موظفونا المدنيون والعسكريون طريقهم شرقا إلى الجانب الأيسر من النهر.... وقد أرسينا دعائم السلام في الإمبراطورية و استعدنا الحدود القديمة لأرضنا الوسطى ،كما اختارنا شعبنا أيضًا لاعتلاء عرش الصين الإمبراطوري .... وقد أرسلنا موظفينا إلى سائر الممالك الأجنبية بالبيان الرسمي ، وبرغم أننا لسنا بمثل حكمة حكامنا الأقدمين الذين اعترف العالم بأسره بفضائلهم ومناقبهم فلا يسعنا إلا أن نُطلِعَ العالم على عزمنا على حفظ السلام في أراضي البحار الأربعة ، وعلى هذا الأساس فحسب أصدرنا هذا البيان الرسمي."

وتضيف الحوليات التي سجلت هذا البيان الرسمي أن السفراء حملوا الهدايا من الحرير إلى البلدان المعنية التي أرسلت سفراءها بالجزية بعد ذلك .

ولم يكن نظام الجزية عند "المنج" أكثر من مجرد التعبير التقليدي – في شكل رسمي – عن سيادة المملكة الوسطى على سائر الدول الأخرى ، و لم يتجاوز ما اقتضاه ذلك – على أقصى تقدير – تبادل البعثات والعلاقات التجارية الطيبة و نقل الهدايا التي كان يمكن قبولها كجزية مصحوبة بتملق المبعوثين .

واستجاب كثير من الدول للعرض وأرسل الجزية و كان من بينها – كما ذكرت حوليات المنج – كوريا وأنام (فيتنام) و سيام وكمبوديا و بورنيو و جافا وسومطره وتلتها سوريا على البحر الأبيض المتوسط ، كما ذكرت الحوليات أيضاً حضور مبعوثين من هولندا وايطاليا .

وأثارت اليابان مشكلة خاصة حيث كان القراصنة ينطلقون من أراضيها دومًا للإغارة على الساحل الصيني ، وتم إرسال عدد من البعثات إلى حاكم اليابان ولكن دون جدوى حيث تواصلت أعمال القرصنة ، وطفح الكيل و جن جنون هونج وو فكتب إلى حاكم اليابان قائلاً له : " أنتم أيها البرابرة الشرقيون الأغبياء تعيشون بعيداً جداً عبر البحر ... إنكم متغطرسون و عديمي الولاء ، إنكم تسمحون لرعاياكم بفعل الشر .... " ، وجاءه الرد من بعيد عبر البحر يقول " إن السماء والأرض واسعتان وليستا حكرًا على حاكم واحد ... والعالم ملك العالم و ليس ملكًا لشخص واحد ."

وبحلول عام ١٤٠١م كانت العلاقات الودية قد عادت و جاءت بعثة يابانية بجزية عظيمة من الجياد والمراوح و الدروع والسيوف و ألف أونصة من الذهب قدمت مصحوبة بمذكرة مهذبة من حاكم اليابان يعبر فيها عن " الخوف الحقيقي والفزع والخضوع مراراً و تكراراً " ، وكان ابن السماء رحب الصدر واسع الأفق بقوله :

" لقد كان يُطلق على اليابان دومًا بلد الشعر والكتب وظلت في قلبنا دومًا .... فلتكن الطاعة والولاء نصب أعينكم دائمًا حتى تلزموا جادة الطريق .

ومُنح اليابانيون تسهيلات للتجارة في الموانيء الصينية ، و رغم ذلك ففي التسعينات من القرن السادس عشر شن اليابانيون هجمات على الصين عن طريق كوريا التي تعرضت للغزو مرتين ، وانسحب اليابانيون في نهاية الأمر لكن الصراع معهم أضعف قوة "المنج" بصورة كبيرة .

وكان أسهل طريق تجارى مع العالم الغربى فى زمن "الهان" "والتانج" الطريق الصحراوى البرى عبر آسيا الوسطى ، وفى عصر "المنج" استمر المغول فى الإغارة بشكل متكرر على هذه المنطقة ، وظهر فاتح بدوى آخر يدعى "تامبرلين" زعم أنه من أحفاد "جنكيز خان" فى آسيا الوسطى ، و عسكرت قبائل "تامبرلين" على جانبى طريق الحرير القديم وهددت بالإستيلاء على سائر الممالك التى كانت تتألف منها إمبراطورية المغول فى أوج مجدها وبدأت حملة تامبرلين على الصين و التى أعد لها طويلاً فى مطلع القرن الخامس عشر ولكن سرعان ما تم التخلى عنها عندما توفى وهو فى طريقه بعيداً عن عاصمته سمرقند فى آسيا الوسطى مسيرة عدة أيام .

وكان الجزء الأكبر من التجارة فى عصر "المنج" يُحَملُ بحرًا كما كان الحال فى عصر السونج ، وقد حققت صناعة بناء السفن تقدمًا عظيمًا فى الصين بنهاية عصر "السونج" ، وكتب "تشو كو فى" يقول :

" إن السفن التى تبحر فى البحر الجنوبى و جنوبه تشبه المنازل ، و عندما تنشر شراعها تكون أشبه بالسحب العظيمة فى السماء ، ويبلغ طول دفة الواحدة منها عشرات الأقدام ، وتحمل السفينة الواحدة مئات البشر، وعلى متنها تخزن مؤونة عام من الحبوب ، و يأكلون لحوم الخنازير و يخمرون الشراب ، ولا يبالون بالأموات أو الأحياء و ما من سبيل للعودة إلى البر متى دخلوا البحر الأزرق القاتم ، وعند اعتلاء ظهر السفينة يُقرَع قرص نحاسى معلنًا عن اليوم وتشرب الحيوانات بنهم و الضيوف والمضيفين بدورهم متناسين الأخطار المحدقة بهم ، والناس على متن السفينة لا يرون شيئًا فالجبال و علامات الحدود وبلدان الأجانب جميعها ضائعة فى الفضاء ... والسفينة الكبيرة بحمولتها الثقيلة لا تخشى الأمواج العاتية على الإطلاق لكنها تتعثر فى المياه الضحلة ."

و على متن مثل هذه السفن كان بحارة "المنج" يبحرون فى المحيطات الغربية فى بداية النشاط البحرى فى السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، وطبقًا لحوليات المنج فقد أمر الإمبراطور فى عام ١٤٠٥م "تشنج هو" أن يخرج على رأس حملة قوامها ٢٨ ألف رجل إلى الغرب وأعطاه كميات كبيرة من الذهب والحرير وبنى له أسطول عظيم ، وكان "تشنج هو" أحد خصيان البلاط و أثبت أنه قائد قدير، و قاد سبع حملات كبرى كان بعضها يتألف من أساطيل تضم ما يربو على ستين سفينة محملة بالكنوز ،

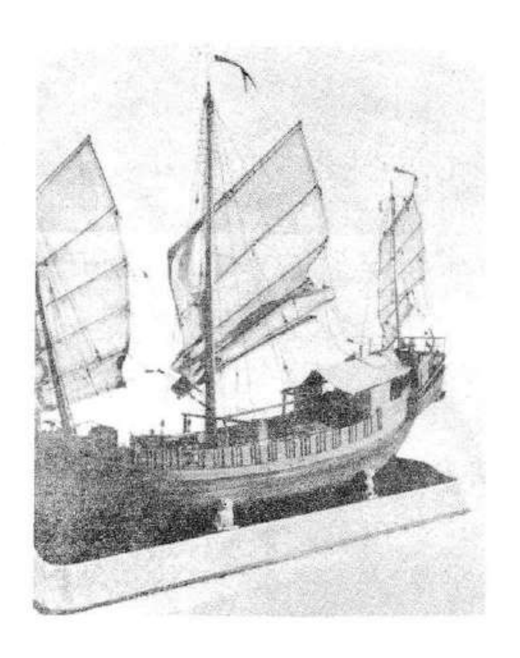
وأبحرت الحملة غرباً إلى إندونيسيا والملايا والهند حتى وصلت إلى إفريقيا والخليج الفارسي .



"تشنج هو" على متن سفينة ، نقش خشبي من عصر "المنج" .

ولم يكن الدافع الرئيسي لهذه الحملات معلوماً ، وتذكر الحوليات أنها خرجت للبحث عن ابن أخ الإمبراطور الشاب وهو الوريث المنتخب لـ " هونج وو "وكان قد لاذ بالفرار بعد أن فقد عرش التنين الذي استولى عليه عمه ، لكنه من المستبعد أن يكون البحث قد قاد السفن إلى إفريقيا ، وعلى أية حال يبدو أن "تشنج هو" قد زُوِدَ ببيانات رسمية لحكام الممالك الغربية تعرض عليهم - بالأسلوب التقليدي - إقامة العلاقات التجارية ودفع الجزية ، ومن المحتمل أن يكون "يونج لو" العم الذي اغتصب العرش قد شعر بالحاجة إلى تأكيد أنه تلقى تفويض السماء في شكل اعتراف بسلطانه من قبل البرابرة عن طريق دفع الجزية ، ويقول النقش الموجود على عمود حجري أقامه "تشنج هو" في معبد قريب من شنغهاي :

" إن جميع البلدان الواقعة وراء الأفق وفى أقاصى الأرض أصبحت تابعة لنا ، جميع البلدان من أقصى الغرب إلى أقصى الغرب و من أقصى الشمال إلى أقصى الشمال مهما تباعدت و مهما كانت المسافات والطرق التى تفصل بينها ، وهكذا فبرغم بُعد بلادهم حقًا فهاهم البرابرة من وراء البحار ... جاءوا يحملون الأشياء والهدايا الثمينة ."



سفينة شراعية صينية – بعد إعادة بنائها – مسافرة بحراً ، من مطلع عصر "المنج" .

و من المؤكد أن الجزية نفسها كانت شيئًا مرغوبًا حيث كانت تتألف من سلع كمالية وكذلك مخلوقات نادرة و عجيبة من أراضى الغرب البربرى ، و جاء أحد السفراء و كان من مصر بالأسود والنمور و المارية (بقر الوحش الإفريقى) و الحُمُر الوحشية والنعام لحديقة الحيوان الصينية ، وأرسل حاكم البنغال الجديد زرافة كهدية من المحتمل أن تكون قد جاءته من إفريقيا .

و أقيمت علاقات التجارة و دفع الجزية مع أكثر من ثلاثين بلد و يبدو أنها لم تتأثر ببعثات "تشنج هو" الدبلوماسية الصارمة التى كان يعود منها حاملاً معه - كما حدث مع سيلان وبالمبانج على سبيل المثال لا الحصر - الملوك المحليين بالإكراه لتقديم فروض الطاعة و الولاء شخصياً أمام عرش التنين .



طبق من عصر المنج مدهون باللون الأزرق وله سطح أملس لامع ذو لون أحمر داكن : تنين يلعب بلؤلؤة بين السحب ، وكانت الأتنة الملتوية موضوعاً مفضلاً لدى الخزافين فى عصر "المنج" .

وقد ساعد نظام الجزية على زيادة الوهم بأن حاكم المملكة الوسطى كانت له السيادة على " كل ما تظله السماء " ، و كان الجيران القريبين إستثناءً حيث لم تكن العلاقة معهم أكثر من مجرد رباط شكلي ليس له أساس فى السيادة أو التبعية الحقيقية ، وكانت حالة دفع الجزية العلاقة الوحيدة المعروفة أو المفهومة للدولة الصينية ، ولم تظهر مسألة الروابط المتبادلة على أساس المساواة مع البلاد الأجنبية فى المملكة الوسطى .

وتوقفت هذه الحملات فى الثلاثينات من القرن الخامس عشر عشية بدء الرحلات الغربية العظيمة للإكتشافات و المغامرات التجارية البحرية وذلك لأسباب مبهمة ، وآل زمام المبادرة فى المحيطات الجنوبية إلى العرب والبرتغاليين و الهولنديين و من بعدهم البريطانيين ، وربما كان السبب فى تراجع النشاط البحرى يرجع إلى التنافس الذى بدأ يسيطر على بلاط المنج بين أحزاب الموظفين و الخصيان ، وقام بعض الموظفين الحاقدين بإتلاف سرد "تشنج هو" الشخصى لرحلاته ولم يبق من هذا السرد سوى ما تركه مساعدوه ، ورغم ذلك فقد كانت هذه الرحلات دافعًا للهجرة الصينية إلى الأراضى المجاورة وإلى الجزر فى البحار الجنوبية ، و بذلك تم الإبقاء على أولئك الذين إعتادوا ركوب البحر .

وعلى الرغم من أن الجهود البحرية الصينية كانت قد تضاءلت بحلول القرن السادس عشر فقد زاد الإهتمام التبشيرى و التجارى الغربى بالصين وأصبح مكثفًا وفى عام ١٥٨٢م وصلت ارسالية يسوعية يقودها "ماتيو ريتشى" إلى جزيرة ماكاو البعيدة عن الشاطىء و بعد حوالى عشرين عامًا نجحت فى الوصول إلى بكين ، وأحسن رجال البلاط استقبال المبشرين برغم المعارضة الأولية من جانب كبار الموظفين الذين تأثروا دون ريب لكون أحد الخصيان كان أول من قدم الغربيين إلى الإمبراطور ، و راحوا يهزءون بالصور المسيحية و الآثار المقدسة التى أحضرتها الإرسالية التبشيرية، وتخبرنا الحوليات بأن وزراء مجلس الطقوس والشعائر أعدوا تقريراً مطولاً للإمبراطور أشاروا فيه إلى أن الأجنبى يبدو لهم كذابًا ، وقد أكد لهم "ريتشى" أنه رجل قادم من المحيط الغربى العظيم لكنهم لم يكونوا يعرفون أى محيط بذلك الاسم ، وجاء فى هذا التقرير ما يلى :

" وعلاوة على ذلك فقد حضر هذا الرجل إلى البلاط بعد عشرين عامًا من وصوله إلى الصين ، ولم يقدم للإمبراطور- كجزية - سوى أشياء غريبة لا تشبه تلك الأشياء

النادرة والثمينة التي عادة ما يقدمها الرسل القادمون من البلاد البعيدة ،وعلى سبيل المثال فقد أحضر معه صوراً ليسوع وأمه وكذلك بعض عظام الخالدين (القديسين) وهل ينبغي للخالد الذى يحلق إلى السماء أن تكون له عظاماً ! و قال هانيو (وكان عالمًا من التانج) أن مثل هذه الأشياء الغامضة لا يمكن أن تأتي إلا بالأذى و لذا ينبغي ألا تدخل القصر ."

وبعد ذلك ألقى التقرير باللوم على "ما تانج" الخصى الذى كان يجب عليه الرجوع إلى مجلس الطقوس و الشعائر قبل أن يأتي بـ " ريتشي " إلى القصر نظرًا لأن المجلس عادة ما كان يقوم بفحص الهدايا التي تُقدم كجزية .

" إن هذا الرجل المدعو "ريتشي" يقيم سراً في معبد بوذى في بكين ونحن لا نعرف شيئًا عنه و عن نواياه ،وقد جرى العرف على أنه فى حالة قيام بلد أجنبى بإرسال الجزية إلى البلاط يكافأ الرسل و يكرمون كضيوف ، ولذا فنحن نقترح منح ريتشي قبعة و حزامًا و إعادته إلى بلده ، ويجب ألا يسمح له بالعيش سراً في أى من العاصمتين أو أن يقيم علاقات صداقة ومودة مع أبناء شعبنا ."

ورغم ذلك لم يستطع ابن السماء حزم أمره و اتخاذ القرار بإبعاد الأجنبي وعاد مجلس الطقوس والشعائر فقدم إليه تقريراً يشكو فيه أعضاؤه من أنهم انتظروا دون جدوى طيلة خمسة أشهر صدور قرار جلالته بشأن "ريتشي" محاولين بذلك إثبات أن شاغلهم الأوحد هو صالح ريتشي وخوفهم من تأثير طول الإقامة على صحته: "مثل الطير أو الغزال عندما يوضع في قفص ينوح على غاباته و مرعاه الخصب كذلك حال البشر لايشعرون بالراحة فى المدينة ". واقترح مجلس الطقوس طرده إلى الجبال والوديان العميقة فى إقليم كيانجسي حيث كان يُقال أن الناس يعمرون حتى يبلغون أرذل العمر، ولم يعر الإمبراطور هذه المناورات أى اهتمام ، فقد كان مسروراً من ذلك الرجل الذى حضر من مكان بعيد جداً و أمر ببقائه فى العاصمة و إعطائه منزلاً وإعالته ومنحه هدايا أخرى ، والواقع أن "ريتشي" أقام في بكين حتى وفاته فى عام ١٦١٠م وكان موضع تقدير عظيم لدى كثير من الناس بمن فيهم موظفى الدولة ، وتعاون اليسوعيون فى إعادة تكوين التقويم الصيني و إدخال العلوم والتكنولوجيا الغربية إلى الصين برغم ما فرضته الفاتيكان من قيود عليهم لمنعهم من تعليم النظام الفلكي الكوبرنيكى (نسبة إلى كوبرنيكوس) ، وقام "ريتشي" الذى كان رياضيًا و فلكيًا بارزًا بترجمة

الكثير من الكتب المتخصصة التي أثارت اهتمامًا عظيمًا إلى اللغة الصينية ، ومن ناحية أخرى فقد نشأ لديه هو و زملائه شعوراً بالتعاطف مع وجهة النظر الصينية حتى في المسائل الدينية ، هذا التعاطف الذي لم ترعاه الإرساليات التبشيرية اللاحقة التي رافقت أقطاب التجارة ، وأقر "ريتشي" أنه "من بين كافة الطوائف الوثنية المعروفة في أوروبا لا أعرف شعبًا وقع في عدد أقل من الأخطاء في المراحل الأولى من تاريخه القديم من الشعب الصيني ."

التطورات الثقافية

كانت أوروبا خلال هذه القرون تنعم بواحد من أزهى العصور في تاريخها ، وكان هذا العصر هو عصر النهضة والاستكشاف والإكتشاف في كثير من المجالات و قيام الدول القومية ، فكان ذلك نذيراً بقيام الثورات السياسية والصناعية العظيمة .

و كرد فعل للحكم المغولي راحت الصين تنظر إلى الوراء إلى ماضيها و تركز جهودها على إعادة أزيائها وتقاليدها الراسخة إلى سابق عهدها ، و كانت هناك محاولة متأنية لإخراج الأجنبي و إعادة الوطني إلى سابق عهده ، و تجلى ذلك في إحياء أساليب الحكم التي كان تتبعها أسرتا التانج والسونج وفي المجال الثقافي الأرحب ، وحاول "هونج وو" أول أباطرة المنج حظر الأزياء الأجنبية في الملبس لصالح أزياء التانج ، وكان من كبار المتمسكين بالتقاليد ، و كان من بين أعماله الأولى ضمان حفظ تاريخ الأسرة المغولية السابقة كما جرت العادة ، وقال تعليقًا على ذلك " عند سقوط عاصمة اليوان (بكين) مؤخراً حصلنا على السجلات التاريخية الحقيقية لهؤلاء الحكام الثلاثة عشر ، و برغم أن دولتهم قد دُمرت فمن الواجب تسجيل أحداثها ، والتاريخ يسجل النجاح والفشل ،و يقدم دروسًا في الترغيب والترهيب و لذا ينبغي علينا ألا نهمله ."

و أعاد المنج دراسة الكلاسيكيات،وكان هناك كثير من التصنيف ولكن لم يكن هناك سوى القليل من الإبداع ، وكان من أعظم الإنجازات التي تحققت في عهد الإمبراطور الثالث "يونج لو" إخراج موسوعة ضخمة ، وقد شارك في إخراج هذا العمل أكثر من ألفي عالم واستغرق إخراجه أربعة أعوام ، وجُمِعَتْ الكتب النادرة من جميع أنحاء الامبراطورية الصينية ونسخت قبل اعادتها ، وجُمِعَتْ أمهات الكتب الموروثة من الماضي في ١١,٠٩٥ مجلداً و كان كثير منها أعمالاً فريدة ، و لسوء الحظ

فقد كانت طويلة جداً بحيث تعذر طباعتها، وتم الإكتفاء بعمل نسختين منها بخط اليد ، ودُمِرَ الجزء الأكبر من هذه المجموعة في نهاية القرن الماضي خلال الهجوم الغربي على القصر الصيفي الإمبراطوري و لم يبق منها سوى أقل من ٤٠٠ مجلد .

و كان لي شيه تشن عالمًا طبيًا بارزًا و كذلك مُصنّفًا لعصر "المنج" ، وأخرج موسوعة في علم الصيدلة ضمنها أكثر من ٨ آلاف وصفة تقوم على الأدوية الحيوانية والنباتية والمعدنية ، ووصف – من بين مظاهر التقدم الطبي الهامة – طريقة التلقيح ضد الجدري والتي كانت تستخدم في الصين – كما جرت العادة – منذ القرن الحادي عشر.



"تشين هونج شو" ، رسام من عصر "المنج"

و في الأدب كانت أهم الأعمال من الروايات التي نشأت كشكل أدبي في عصر السونج ، ويرجع تاريخ البعض من أعظم الروايات الصينية إلى هذا العصر ، وكانت رواية " قصة حب الممالك الثلاث " سرداً مبهراً للصراعات في الصين في القرن الثالث و رواية " حواف الماء " عن الصين في القرن الثاني عشر وكانت رواية "القرد" نقداً ساخراً للخرافات الشعبية حول عالم الأرواح وكانت تقوم على رحلة "هسوانج تسانج"

إلى الغرب للحصول على النصوص البوذية ، والشخصية الرئيسية التي تقوم بالرحلة الخرافية هي شخصية القرد الثائر على السلطة كمخلوق جريء ذي قدرات خارقة يُشيع الفوضى في السماء ."

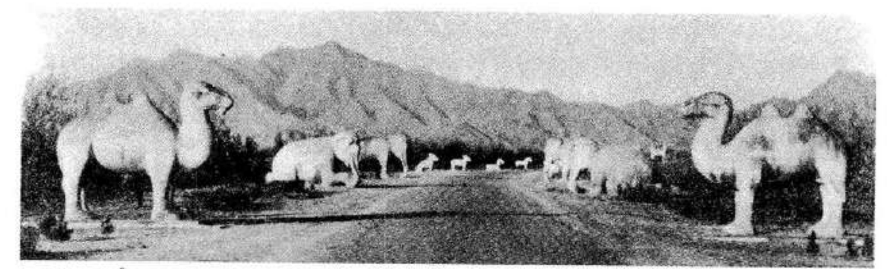
وواصلت الدراما ازدهارها في عصر "المنج" ، ويرجع أصل الكثير من أشكال الدراما و الأوبرا التي نراها اليوم إلى ذلك العصر، نظراً لأن أداء الأدوار في الدراما الصينية كان غنائياً وكان وجود أوركسترا صغيرة تشتمل على الأقراص النحاسية لا غنى عنه . وعلى مدى زمن طويل كان الرجال يقومون بتمثيل جميع الأدوار وحتى في قرننا هذا فقد حقق البعض من أبرز الممثلين شهرتهم عن طريق قيامهم بالأدوار النسائية . وكانت خشبة المسرح تخلو من الستائر والتجهيزات ، ويُستَعاض عن المناظر بالأشياء المتعارف عليها ؛ فكان اللحن المنمق من الأوركسترا يشير إلى تغير المنظر أو بداية فصل جديد من المسرحية ، و يمكن الاشارة إلى متاريس المدينة أو جبل بمنضدة أو كرسي ، وكان الإمساك بالسوط دلالة على أن الممثل يمتطي جوادا وعندما يرفع ساقه فهذا يعني أنه ينزل من فوق ظهر الجواد، وكان القتال على خشبة المسرح أداءً بهلوانياً بارعاً ، ومازالت الأزياء المترفة ، وهي تطور لتصميمات المنج ، على خشبة المسرح حتى يومنا هذا تشير إلى الوضع الإجتماعي للشخصيات، و العلماء على خشبة المسرح يحملون مراوح ، والأشخاص الذين يرتدون السواد يُنظَر إليهم على أنهم غير مرئيين، ويكون المكياج ثقيلاً وأشبه بالقناع ويستخدم للدلالة على ملامح الشخصية، ويمكن تمييز النذل ببقع بيضاء كبيرة على وجهه ترمز لمكره وخداعه ، ويُعد اللون الأخضر علامة أخرى مميزة للإنحطاط ، ويرمز اللون الأحمر إلى الإخلاص والولاء واللون الأسود لتكامل الشخصية ، ويخضب الوجه المحبب لدى الناس باللون الوردي .

و الجمهور منذ ثلاثة قرون كالجمهور اليوم سرعان ما يتفاعل ويتجاوب مع أداء وبراعة الممثل ويكون رقي أسلوبه موضع تقدير عظيم تماماً مثل موضوع المسرحية ، ويروى أنه في القرن السابع عشر قدمت مسرحية توضح إعدام قائد السونج الوطني" يو في بسبب غدر أحد منافسيه ، وقد قام بدور المنافس الغادر ممثل أتقن الدور إلى حد أثار أحد المشاهدين بشكل فاق قدرته على الاحتمال فما كان منه إلا أن وثب على خشبة المسرح وطعن الممثل حتى الموت .



شيه تشين ، أحد أبطال الرواية الشعبية " حواف الماء " ، صورة توضيحية لـ " تشين هونج شو " وهو رسام من عصر "المنج"

وكان القرن الأول لحكم "المنج" قرن الاستقرار برغم وجود بعض الخلافات والمنازعات بين أبناء الأسرة الحاكمة ، فقد توفى الوريث المنتخب للإمبراطور المؤسس قبل أن يعتلى العرش الذى آل لابنه البالغ من العمر ١٦ عامًا ، وخرج أحد الأعمام من العائلة الإمبراطورية (الإبن الرابع لـ "هونج وو ")، وكان قائدًا للجبهة الشمالية ومقيمًا فى بكين، على الوريث الصغير واستولى على العاصمة نانكنج واعتلى عرش التنين ، وكان هذا العم هو "يونج لو" الذى نقل العاصمة إلى بكين ، وهرب ابن الأخ المطرود وأمضى بقية حياته متسولاً هائمًا على وجهه فى أنحاء الصين ،(وطبقًا لما أوردته الحوليات فقد كان البحث عن هذا الأمير الدافع لحملات" تشنج هو")، وأخيراً عاد إلى الصين فى عهد أكبر أحفاد "يونج لو" ، وتم التعرف عليه لكنه آثر أن يمضى بقية حياته فى العاصمة فى هدوء بعيداً عن أعين الناس .



طريق الوحوش الحجرية والقادة يحرسون الطريق العام المؤدى إلى قبور "المنج" حيث دُفِنَ ثلاثة عشر من أباطرة "المنج" فى التلال الواقعة فى شمال غرب بكين



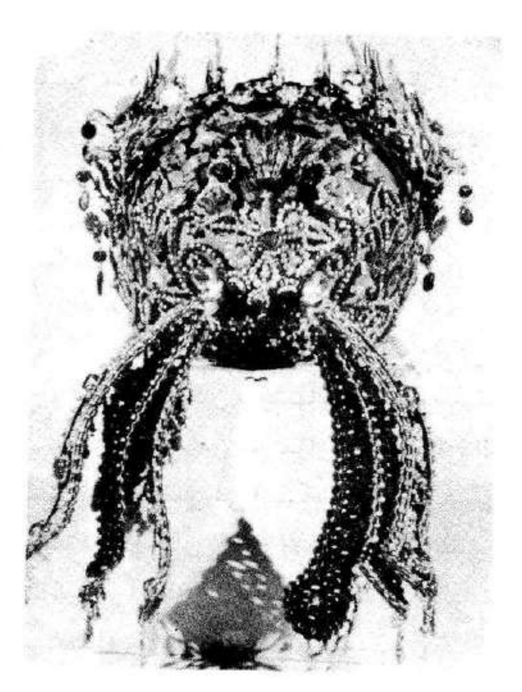
أحد الحراس على طول الطريق المؤدى إلى قبور "المنج"

و بعد عهدى "هونج وو" و "يونج لو" اعتلى العرش أباطرة أطفال أو ضعفاء خضعوا لنفوذ الخصيان ، وبمنتصف القرن الخامس عشر خُفِفَتْ القيود التى كانت مفروضة على سلطة الخصيان ، و أصبحوا متعلمين وأسندت إليهم مناصب فى الدولة ، و زادت أعدادهم و معها زاد ثراؤهم وأراضيهم وممتلكاتهم التى جمعوها لأنفسهم ، وتسابق الأمراء الملكيون مع الخصيان الجشعين فى الإستيلاء على الأراضى فجمعوا ثروات طائلة وأملاكًا شاسعة .



قبور المنج فى وادى هادىء قرب بكين ،وقد اختير هذا المكان من قبل الإمبراطور "يونج لو" الذى نقل العاصمة من نانكنج إلى بكين ،وبدأ "وان لى" الإمبراطور الثالث عشر للمنج (١٥٧٣ – ١٦٢٠م) بناء قبره وهو شاب فى سن الثانية و العشرين ، وعندما تم الإنتهاء من بنائه بعد مرور ست سنوات يقول التاريخ أنه أقام حفلاً هناك ، ويطلق على هذا المكان "تنج لنج" ، قبر الأمن الملكى .

وقد اكتشف قبر هذا الإمبراطور فى عام ١٩٥٦م ويتكون من تل من صنع الإنسان زرع بالصنوبر داكن اللون وتحته غرفة الدفن الضخمة ، ولم تكن هناك أية آثار للنهب ،وقد أغلقت الغرفة بأداة ذاتية الغلق ، وعندما كانت تغلق الأبواب الحجرية كان يسقط لوح آخر تلقائياً داخل تجويف خلف الباب فيمنعه من أن يفتح ثانية ، وكانت جميع المداخل تغلق بإحكام بنفس الطريقة ، وكان القبو يحوى ثلاثة عروش ثمينة من الرخام الأبيض و ثلاثة توابيت من خشب اللاك جنباً إلى جنب على أريكة حجرية، وكانت الألوان زاهية برغم وجودها داخل القبر على مدى ثلاثمائة عام ، وهنا يرقد الإمبراطور و إمبراطورتان ، و قد اكتست الهياكل الثلاثة بالثياب الذهبية والسوداء ، وبقيت عظام الإمبراطور "وان لى" مع قليل من بقايا الشعر واللحية ، وكان يرتدى عباءة التنين ذات الأكمام العريضة الطويلة ودفنت معه عباءة إضافية ، وكان يوجد كثير من لفائف الحرير فى القبر مع أشياء ثمينة أخرى ، وكان هناك صندوقين يحويان خاتماً إمبراطورياً خشبياً و ألواح خشبية ، وفى صندوق ثالث كانت توجد خوذة حديدية مزدانة بالذهب والجواهر وسترة من الدرع المصفح وسيف و قوس مركب وسهام ذات رؤوس حديدية ، وكانت الصناديق الخشبية الأخرى البالية تحوى الحلى والتماثيل الخشبية والجواهر والقلائد والأحزمة و الملابس و الأحذية ، وكان أحد الصناديق يحوى حوالى ٢٠٠ إناء بيوترى مصغر و أطقم من المصنوعات الذهبية – زوجين من أعواد تناول الطعام وزوج من الملاعق والأباريق وأحواض الغسيل ، وكان هناك أيضاً نماذج للمحفات و العربات التى تجرها الخيول والرماح والأقواس والسهام والأشياء الأخرى التى كانت تُستَخدم فى المواكب الإمبراطورية ، وكانت هناك تيجان ذهبية وكثير من الأشياء المصنوعة من اليشب ، وكان يُعتقد أن اليشب له القدرة على حماية الجسد من التحلل ،وبجوار العروش كانت توجد أوعية خزفية ضخمة لإحراق الزيت فى " المصابيح الأبدية " مع بقاء بعض الزيت بداخلها .



تاج الإمبراطورة يزينه الريش الأزرق لطائر "القرلى"، تم الكشف عنه فى قبور "المنج"



إبريق و جرة ذهبيان مرصعان بالجواهر و الأحجار الكريمة

و بحلول القرن السابع عشر كان وضع الحكومة قد تدهور بشكل خطير ، وفاق جشع الخصيان وفسادهم كل الحدود حتى أن ثروة أحد الخصيان قُدِرَتْ بثلاثة آلاف خاتم و بروش ذهبى وأربعة آلاف حزام مرصع بالجواهر و قناطير مقَنطرة من الذهب والفضة .

ثورة الفلاحين و «لى تسى تشنج» :

ترافقت حياة البذخ والترف التى كان يعيشها البلاط مع حياة البؤس و الفقر التى كان يعيشها الفلاحون ، وطُرِدَ الفلاحون من مزارعهم لإفساح الطريق لأملاك رجال الحاشية ، ودأب أصحاب الأراضى فى أنحاء المملكة الوسطى على زيادة رقعة أراضيهم و بمنتصف عصر "المنج" كان الجزء الأكبر من الأراضى قد أصبح فى أيدى الإمبراطور و الأمراء الملكيين و موظفى الحكومة و كبار أصحاب الأراضى ، وكانت جميع هذه الأراضى معفاة من الضرائب ، و كتب "ريتشى" الذى وجد الكثير مما أعجبه فى المملكة الوسطى يقول :

"إن أولئك الذين اشتهروا بأنهم من أصل ملكى يعيشون على نفقة الدولة ، ومن المفترض أن عددهم الحالى قد تجاوز الستين ألفًا بقليل و نظرًا لزيادتهم المستمرة يمكن للمرء أن يتخيل حجم العبء العام الذى يشكلونه ، فبعد أن تم استبعادهم من كافة المناصب العامة والإدارة تحولوا إلى طبقة مرفهة مولعة بالحياة الماجنة والغطرسة.

و تدهور الإقتصاد الريفى ، وأصبح ٩٠٪ من الفلاحين بلا أرض فى الوقت الذى زادت فيه الضرائب ، وكانت الجهود العسكرية للمنج ضد اليابانيين فى كوريا باهظة التكاليف ،وذهب أكثر من ثلث إيرادات الدولة فى الإنفاق على مؤن الجيش ، وأصبحت المملكة الوسطى نهبًا لجمهور غفير من جُباة الضرائب الذى كانوا يجدون ضحاياهم فى القرى و المدن ، و كتب "ريتشى" يقول : " كم هى عظيمة شهوة السيادة لدى الحكام حتى أنه ليصعب القول بأن أحدًا يمكن أن يأمن على ممتلكاته وهو يعيش فى خوف متواصل من أن يُجَرَد من ممتلكاته بتهمة ملفقة ." و علق المبشر اليسوعى أيضًا على بيع الأطفال كعبيد قائلاً :

" عندما كان عدد أفراد الأسرة يزيد عن الحد بحيث تتعذر إعالتهم ... كان الأطفال يُبَاعون كعبيد مقابل نفس الثمن تقريباً الذى يدفعه المرء لشراء خنزير أو حمار صغير رخيص ... والنتيجة هى إكتظاظ البلد بأكمله بالعبيد ، ولكنهم ليسوا كالعبيد الذين كان يتم أسرهم فى الحرب أو يجلبون من الخارج ، فقد وُلِدوا فى نفس البلد ونفس المدينة أو القرية التي كانوا يعيشون فيها، كما كان البرتغاليون و الأسبان يأخذون الكثيرين منهم أيضاً إلى خارج البلاد كعبيد ."

و ذكر "ريتشى" أيضاً أن " الشر الأكبر من ذلك بكثير – فى بعض الأقاليم التى كان يجرى فيها التخلص من الأطفال من الإناث بإغراقهن – يأس آبائهم من قدرتهم على إعالتهم " و كذلك ما ذكره عن : " عادة الإنتحار عند اليأس من كسب القوت أو عند القنوط التام بسبب سوء الحظ أو نكاية فى عدو .... بشنق أو خنق النفس حتى الموت فى مكان عام أو ربما أمام منزل عدو ، وأن القفز فى الأنهار وتناول السم من بين الطرق الأخرى الشائعة للإنتحار ...

و علق "ريتشى" على :

"عادة خصى عدد كبير من الأطفال الذكور حتى يصبحوا خدماً أو عبيداً للملك ... وتكاد أن تكون إدارة المملكة بأكملها فى أيدى هذه الطبقة من أشباه الرجال الذين يبلغ عددهم قرابة العشرة آلاف ويعملون فى خدمة القصر الملكى وحده ، وهم طبقة تبدو هزيلة من الأميين ، نشئوا فى عبودية أبدية ، وهم أناس أغبياء متبلدى الحس ، وعاجزين عن فهم أى أمر هام يصدر إليهم مثلما هم غير أكفاء لتنفيذه."

وتضاعفت الضرائب التجارية مع التوسع فى الحرف اليدوية و التجارة ، وبنهاية القرن السادس عشر راح أباطرة "المنج" يرسلون الخصيان إلى المدن لجباية الضرائب، وعادة ما كانوا يلقون القبض على من شاءوا القبض عليه و يقتلون من شاءوا قتله ، وأدت عجرفتهم وظلمهم إلى إندلاع الثورة فى المراكز المدنية ، وفى عام ١٥٩٩م ثار أهل وو-تشانج ضد "تشين فنج" جابى الضرائب فأمر بخروج الجند لكن الثورة انتشرت وفر "تشين فنج" لكن بعض معاونيه وقعوا فى الأسر وأُلقىَ بهم فى نهر اليانجتسى ، وفى الأعوام التالية ثار عمال النسيج ضد جباة الضرائب وتوالت الثورات المدنية الأخرى، وكان هذا تطوراً جديداً فى تاريخ الصين حيث كانت المرة الأولى التى يشارك فيها العمال المدنيون فى الثورة .

وفى الريف كانت هناك أيضًا مقاومة واسعة الإنتشار لجباة الضرائب ، وضربت المجاعة الأقاليم الشمالية الغربية لعدة مواسم و ماتت أعداد كبيرة من الناس جوعًا، وتأخر صرف رواتب الجند المتمركزين فى المنطقة على مدى عامين أو ثلاثة ، وقام الجند بأعمال شغب و نهب للخزانة المحلية ، وفى الثلاثينات من القرن السابع عشر قامت ثورات فى أنحاء الشمال الغربى ، وقتل أصحاب الأراضى و الموظفون ووُزِعَت أراضيهم على الفلاحين الفقراء ، وتوحدت الثورات المتفرقة فى الأقاليم المختلفة فى أواخر الثلاثينات من القرن السابع عشر بقيادة الفلاح الثائر "لى تسى تشنغ" ، وبحلول عام ١٦٤٠م بلغ تعداد جيوش الفلاحين بقيادة "لى" مئات الآلاف، وفى العام التالى تم الإستيلاء على "لويانج" و أُسِرَ الأمير "تشو تشانج هسون" الذى كان يملك مليونى «مو» من الأرض .

ووُزِعَ ما كان يمتلكه "تشو تشانج هسون" من مخازن الغلال والذهب و الفضة على الفقراء ، وكانت السمة المميزة لجيوش الفلاحين نظامها وانضباطها ، فقد كان محظوراً على الرجال الحصول على غنيمة شخصية أو احتلال منازل الفلاحين بالقوة ، وكانت عقوبة الإعدام جزاءً للجرائم مثل ركوب الخيل عبر حقول المحاصيل ، وفى مطلع عام ١٦٤٤م خرج جيش "لى" الجرار من "سيان" وزحف على بكين ، ولم يبد رجال البلاط المحبطون الذين مزقت الصراعات والانقسامات وحدتهم سوى مقاومة هزيلة ، واستسلم كثيرون من جند المنح لقوات الفلاحين ، وفى إبريل سقطت بكين فى أيديهم ، وفى الليلة السابقة أمر الإمبراطور زوجته الإمبراطورة بالإنتحار و أرسل أبناءه الثلاثة إلى مكان يختبئون فيه بعيداً عن الأنظار،وحاول ابن السماء قتل أكبر الأميرات سنًا لكنه تمكن فقط من قطع ذراعها ، و فى الفجر دق الجرس لدعوة رجال البلاط للإجتماع لكن أحداً لم يحضر، وتسلق ابن السماء التل الواقع خلف القصر الإمبراطورى وشنق نفسه بحزامه الخاص من شجرة خرنوب مثلما فعل أحد الخصيان الأوفياء ، وقد كتب الإمبراطور رسالة قصيرة بائسة قال فيها : " بضعف الفضيلة و الشخصية المتأملة جلبت غضب الله فى عليائه ، لقد خدعنى وزرائى ، وأخجل من لقاء أجدادى، ولذا فأنا أخلع تاجى بنفسى و بوجهى الذى يغطيه شعرى أنتظر أيدى الثوار كى تفتك بى .... لا تؤذوا أحداً من شعبى ! "

المانشو

في السنوات الأولى من القرن السابع عشر قويت شوكة القبائل التى كانت تدعى نوتشينز فى المنطقة الشمالية الشرقية أو منشوريا ، وكانوا من التتار من نفس أصل مؤسسى أسرة الكين لكن إقتصادهم كان يقوم على الصيد و تربية الحيوانات والزراعة، وبحلول عام ١٦١٦م كانت هذه القبائل قد توحدت بقيادة "نورهاتشى" وتغلبت خلال العقدين التاليين على سلطة "المنج" فى منشوريا و أقامت دولتها فى ظل أسرة حاكمة عرفت "بالتشنج" ، و شنت القوات المنشورية هجمات متكررة جنوب السور العظيم و فى إحدى المراحل عرض القائد الفلاح "لى تسى تشنج" التعاون مع جيش "المنج" فى ردهم ، لكن عرضه قوبل بالرفض ، وعلى النقيض فضل أحد قادة المنج طلب مساعدة المانشو ضد الثوار الفلاحين . وكان انتصار "لى تسى تشنج" بعد انهيار "المنج" فى بكين قصير الأجل ، فقد زحفت قوات المانشو جنوبًا و احتلت بكين بعد مرور شهر واحد فقط على انتحار إمبراطور "المنج" ، وانسحب "لى تسى تشنج" إلى سيان ، وفى عام ١٦٤٥م هاجمت قوات "المانشو" سيان و استولت عليها واغتيل "لى" ، وظهر قادة آخرون للفلاحين وواصلوا الكفاح ضد "المانشو" على مدى عقد آخر من الزمان أو نحو ذلك ، وفى عام ١٦٥٩م تم القضاء على آخر المطالبين بالعرش من "المنج" ، وقد جاء "المانشو" - مثلما جاء المغول قبل أربعة قرون - كى يبقوا ، وهكذا وضع الفاتحون البرابرة و الثورة الشعبية النهاية التقليدية للأسرة الحاكمة ، ولم يكن سقوط "المنج" سوى حلقة جديدة من بين حلقات أخرى فى السلسلة الطويلة لانهيار الأسر الحاكمة .

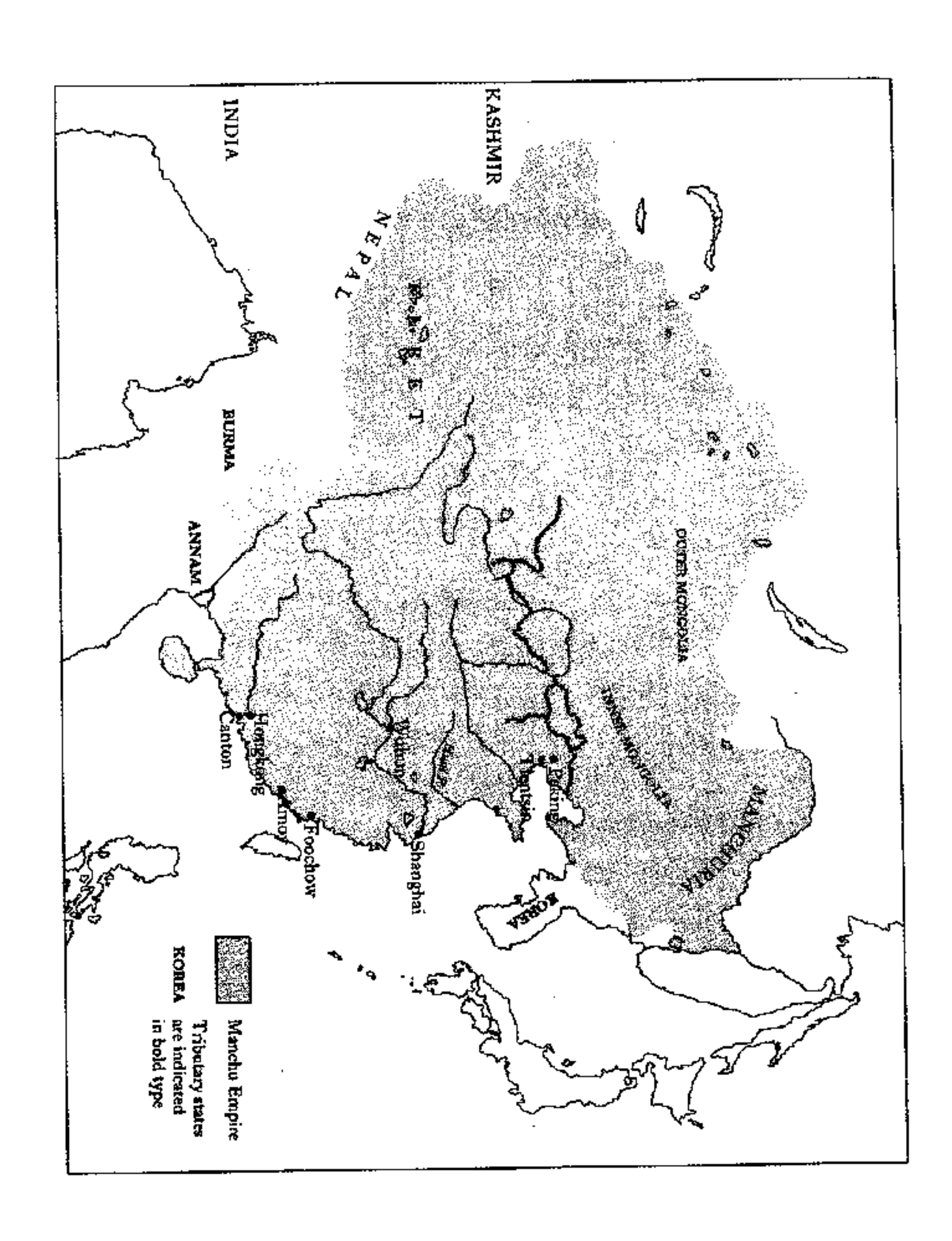
الفصل الثالث عشر

التشنج

١٦٤٤ - ١٩١١م

احتل المانشو شمال الصين دون مقاومة استجابة لدعوة أحد قادة "المنج" الخائنين ، و تواصلت المقاومة الشديدة لهم فى جنوب الصين على مدى أربعة عقود أخرى ، و ظل الشعور بالسخط و الاستياء ضد المانشو قوياً فى هذه المناطق ، ومن بين الأشياء البغيضة التى كانت تذكر الصينيين عامة بأنهم خضعوا لحكم بربرى أجنبى إجبار الرجال على اتباع طريقة المانشو فى تغطية الرأس ، وبدلاً من جمع الشعر الطويل فى قنزعة (القنزعة هى الشعر الذى يكسو قمة الرأس - المترجم) على الطريقة الصينية التقليدية أجبر الرجال على حلق مقدم رؤوسهم وعمل ضفيرة تتدلى من مؤخر الرأس على طريقة "المانشو" ، وظل يُنظَر إلى هذا على أنه رمز للعبودية زمناً طويلاً ، و كان السبيل الأوحد لتجنب ذلك هو أن يصبح المرء راهباً بوذياً برأس حليق تماماً أو كاهناً طاوياً ذو قنزعة .

ومنعاً لتصاعد المقاومة الداخلية بفعل مؤثرات خارجية حول "المانشو" إهتمامهم إلى المناطق الحدودية ،وعن طريق المؤامرات السياسية والفتوحات إندمجت تركستان ومنغوليا والتبت داخل الإمبراطورية وأصبحت دول بورما وكوريا وآنام دولاً تابعة تدفع الجزية ، وبعد حوالى قرن من حكم المانشو للصين إمتدت الإمبراطورية الصينية مرة أخرى من المحيط الهادىء إلى جبال البامير و من سيبيريا شمالاً إلى الجزر البعيدة عن الشاطىء جنوبياً ، وفى الأقاليم النائية خاصة سنكيانج (تركستان) ومنشوريا زرعت الأراضى واستُعمِرتْ .



خريطة إمبراطورية "المانشو"

وخلال تكوينهم السابق لدولتهم قام المانشو بتنظيم شعبهم كاملاً فى جماعات من الرفاق أو "الألوية " التى كان يوجد منها فى الأصل أربعة هى الأصفر و الأبيض والأزرق والأحمر، وكانت الألوية تتألف من جماعات عسكرية و إدارية كان يتم من خلالها تسجيل جميع رجال قبائل المانشو و عبيدهم وقِنّهُم وفرض الضرائب عليهم وتجنيدهم ، وحل موظفون معينون محل الزعماء الوراثيين لكن أحفاد «نورهاتشى» ظلوا هم العشيرة الإمبراطورية وعندما كانت هناك حاجة للقوات العسكرية كان كل لواء يقدم العدد المقرر .

وكانت ألوية المانشو موزعة فى أنحاء الصين ، ولم يكن لهم عمل سوى خدمة وحماية دولة المانشو و كان محظوراً عليهم العمل بالتجارة أو الصناعة ، وكانوا يعيشون على أرز الجزية و الضرائب الأخرى التى كانت تُجبى ويُؤتى بها من الجنوب على الأخص ، كما كان محظوراً عليهم التزاوج مع الصينيين ، وأحكم المانشو سيطرتهم السياسية لكنه لم يكن لديهم أى عرف إدارى خاص بهم (لم يكن لديهم نص مكتوب للغتهم حتى القرن السابع عشر) واضطروا لقبول النظام الصينى للإدارة المدنية الذى كان يقوم على خدمته الصينيون المؤيدون للنظام الحاكم ، وتم تبنى نظام الامتحان الخاص بالمنح لاختيار الموظفين كاملاً دون تغيير مع نسخ مركزى كبير وكامل للهيكل الإدارى وقوانين المنح ، وساعد على ذلك إستقامة التعاليم الكونفوشيوسية الجامدة التى ظلت أساساً للسيطرة الإجتماعية فى أنحاء الإمبراطورية ، وكان الموظفون و أبناء الطبقة العليا فى المجتمع يقومون بشرح المبادىء و الحِكَم الكونفوشيوسية مرة واحدة كل أسبوعين فى كل قرية و يحضون الناس على التقوى والورع و العمل و على أن يقتصدوا و يحترموا السلطة و يلتزموا بالقوانين و يدفعوا الضرائب ، وفى الجزء الأخير من القرن ال ١٧ و فى القرن ال ١٨ خضعت الامبراطورية الصينية لحكم أباطرة المانشو الأكفاء الذين حققوا السلام والإستقرار الداخلى ونهضوا بأعمال الرى والزراعة وصاروا رعاة للحضارة الصينية ، وكان أبرز هؤلاء "تشيين لونج" (١٧٣٥ - ١٧٩٥م) الذى كان عالمًا و شاعراً فى آن واحد .

وقد أفادت الحكومة الموحدة فى هذا العهد التنمية الإقتصادية والثقافية داخل الإمبراطورية ، وتبادلت المناطق الوسطى الأدوات الحديدية و المنسوجات القطنية

والشاى والملح مع المقاطعات الحدودية مقابل المسك والزعفران و"الراوند" (من الأعشاب ذات المنافع الطبية) من التبت ، والجلود و الدواجن و الماشية من منغوليا ، واليشب من "سنكيانج "، والعقاقير والأخشاب من الجنوب الغربي ، وحققت الزراعة والصناعة والحرف اليدوية والتجارة تقدمًا متوسطًا لكنه كان مطردًا .

وعلى عكس المغول حاول المانشو الإبقاء على المجتمع الصينى دون تغيير ،وبعد تبنيهم للتعاليم الكونفوشيوسية البالغة الصرامة أصبحوا مقاومين للتغيير ، وبدأت فترة ركود تعرض فيها الإبداع والتغيير للمقاومة بشكل أعمى ،وفى الوقت الذى كانت فيه الرأسمالية الصناعية فى أوروبا سريعة النمو كان المانشو يوطدون دعائم حكمهم فى الصين على أساس الماضى ، وظلت الصين تحتضر إجتماعيًا وسياسيًا كإمبراطورية تعتمد على الإقتصاد القروى المكتفى ذاتيًا بالكاد حيث كان الفلاحون ينتجون الحبوب التى كانوا يستهلكونها ومعظم السلع اللازمة للإستخدام اليومى ، وجمع أصحاب الأراضى والموظفون أموالاً طائلة من الإيجارات و الضرائب لكنها ما لبثت أن زالت بسبب استهلاك الكماليات و الإقبال على مظاهر الترف ، ولم يكن هناك أى استثمار ملحوظ فى المنتجات أو التجارة الرأسمالية .

المانشو والغرب

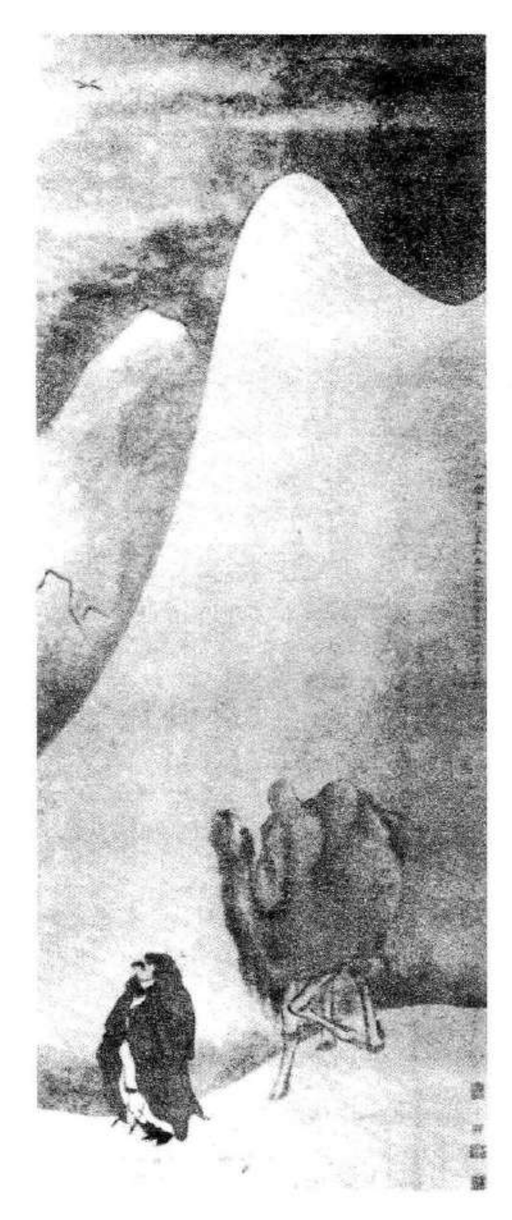
كان من بين ما استوعبه المانشو دون عناء من ميثولوجيا كبار الموظفين الإعتقاد بأن الصين هى المملكة الوسطى وقلب الأرض الحضارى و الجغرافى الذى يحيط به البرابرة الأجلاف الذين لا شأن لهم لكنهم مثيرى قلاقل ،وفى مطلع القرن الـ ١٨ كتب أحد موظفى المانشو فى "كانتون" يقول : " فى أقصى الغرب يوجد أجانب غربيين ذوى شعر أحمر و هم أناس شديدو البأس و شرسين ويختلفون تماما عن البرابرة الآخرين فى الجزر الغربية، ومن بينهم الإنجليز والمسلمين والفرنسيين والهولنديين والاسبان والبرتغاليين ،وهم جميعًا أمم غاية فى العنف والشراسة ولديهم سفن قوية لا تهاب الأعاصير ، وبنادقهم وبارودهم وذخيرتهم الحربية تفوق مثيلاتها لدى الصينيين بوجه عام ، وهم ذوو طبائع شريرة وخطيرة وغامضة ، و أينما ذهبوا أرسلوا عيونهم فى جميع الأنحاء بقصد الاستيلاء على أراضى الشعوب الأخرى ، ومن بين سائر البرابرة

بالجزر الذين أظلتهم السماء فإن أكثرهم شراسة أولئك البرابرة ذوى الشعر الأحمر والبرابرة الغربيون و اليابانيون ،وكانت "سنغافوره" تابعة - فى الأصل- للملايا التى اعتادت التجارة مع هؤلاء البرابرة ذوى الشعر الأحمر ، وقاموا بطردهم فيما بعد وأصبح المكان ميناءً ومركزًا تجاريًا للبرابرة ، وفى عهد "المنج" ثارت اليابان واجتاح اليابانيون كثير من الأقاليم حتى أن أهل تلك الأجزاء لا يستطيعون تذكر اسم الأقزام من اللصوص دون أن ترتعد فرائصهم ."



"لم يكن الناس قديماً يرون قمر اليوم ، لكن قمر اليوم هو نفس القمر الذى كان يسطع عليهم" ، مثل صينى . قمر الخريف فوق مصطبة الندى ، لوحة زيتية تقليدية رسمها "يوان ياو" ، عصر التشنج".

وكان لمثل هذه الآراء بشأن "البرابرة" مبررًا تجريبيًا ما ، ولم يحول تدفق التجارة الصينية إتجاهه من الشرق إلى الغرب إلا فى القرون الأخيرة ، وفى عصر استكشاف



فى قمم جبال تينشان التى يكسوها الجليد يركب مسافر يرتدى عباءة حمراء جملاً يحدق مثله فى بطة برية وحيدة عبر السماء الشتوية ، لوحة زيتية رسمها "هوا ين" ، عصر التشنج.

العالم من قبل البحارة الغربيين فى مطلع القرن ال ١٦ أخذ البرتغاليون بزمام المبادرة والتجارة فى المياه الإقليمية الشرقية ،وبرغم أساليب السلب و النهب والقتل الوحشى التى أدت إلى طردهم من الموانىء الصينية الرئيسية فقد أوجدوا لأنفسهم قاعدة – فى وقت لاحق – فى جزيرة "ماكاو" حيث بنوا قلعة و أمدوا "المنح" بالمدفعية .

و كان مما قاله "ماتيو ريتشى" أن : " الصينيين ينظرون إلى جميع الأجانب على أنهم أميون وبرابرة ولايشيرون إليهم إلا بهذه الكلمات... وغير مصرح على الإطلاق لأحد فى المملكة بأكملها التعامل مع الأجانب إلا فى أوقات و أماكن معينة كما هو الحال فى جزيرة "ماكاو" حيث أقيمت سوق تجارية مع البرتغاليين ."

ولم ينهزم الإنجليز فى سباق التجارة الصينية أمام البرتغاليين فحسب بل وأمام الهولنديين أيضا ، وأطلق عليهم " ذوى الشعر الأحمر" وهو لقب تحقيرى شبههم بالجن الذين كانوا يرسمون عادة بشعر أحمر أو أزرق (على عكس الصينيين ذوى الشعر الأسود) وأطلق أيضًا على الأوروبيين الشماليين بصفة عامة ،وفى مساعيها لفتح طرق التجارة مع الصين فى النصف الأول من القرن ال ١٧ أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية ثلاث سفن إلى كانتون وعندما ضاقوا ذرعًا بالقيود و التأخيرات نزل فريق منهم إلى البر وقاموا بأعمال عدائية ومزقوا العلم الصينى ، وكما ذكر القائد "جون ويدل" لم نتورع عن إرتكاب أى عمل من أعمال السلب و النهب بحق الصينيين ،"وفشل المشروع البريطانى وظل البرتغاليون محتكرين للتجارة فى "ماكاو" .

ونظرًا لقلقهم على أمن أسرتهم الحاكمة خاصة في الجنوب خشى "المانشو" المقاومة القادمة من البر ومن القواعد عبر البحار وتبنوا سياسة أكثر صرامة وتشددًا ، وفى مطلع عهد "التشنج" أُخرِجَ الصينيون من الجزر البعيدة عن الشاطىء وفُرِضَت قيود على حركة السفن و رحل سكان القطاع الساحلى الجنوبى الشرقى إلى داخل البلاد ، واقتصرت التجارة الخارجية على كانتون حيث أقيمت سوق رسمية وحيث كان جميع التجار الأجانب مطالبين بإتمام صفقاتهم التجارية من خلال وسطاء رسميين ، وتم إخضاع البضائع والسلع الأجنبية لضرائب الإستيراد و قيود نوعية وكمية .

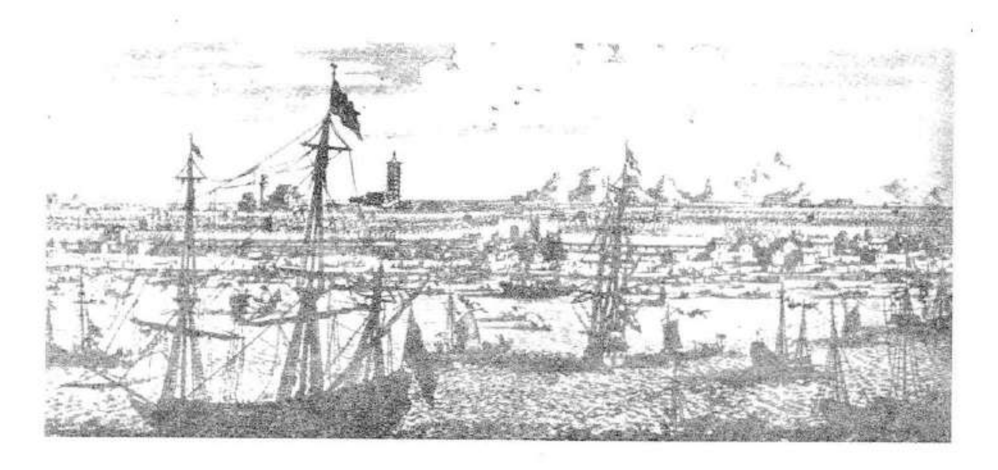
ولم تكن مثل هذه القيود لتحتمل من قبل التجار الغربيين خاصة البريطانيين الذين كانت حرية التجارة بالنسبة لهم حرمة قدسية بحد ذاتها، وفي عام ١٧٩٣م وصلت أول سفارة بريطانية رسمية إلى الصين بقيادة "لورد ماكارتني" وكان من نبلاء "يولستر" إلى بلاط إمبراطور المانشو "تشيين لونج" ، وكان ابن السماء فى الثالثة والثمانين من عمره أنذاك لكنه كان ما يزال متماسكًا حسبما ذكر "ماكارتني" ، وأرادت الحكومة البريطانية فتح باب المفاوضات لرفع القيود التجارية و تعيين سفير دائم لها في بكين ، ولم تتحقق أى من هذه الغايات البريطانية، وتبادر إلى الأذهان أن لورد ماكارتنى مبعوث يحمل الجزية من دولة تابعة وتسبب فى وقوع اضطراب كبير في البلاط الصينى برفضه أداء – كما جرت العادة في مثل هذه الحالات – ثلاث ركعات وتسع سجدات أمام الإمبراطور، وقبل موظفو المانشو – على مضض – التسوية التى اقترحها ماكارتنى بأن يكون سلوكه مع ابن السماء كسلوكه مع حاكمه الملك جورج الثالث وأن يقوم بتقبيل يد الإمبراطور .

و أفاد الرد الصيني الذى أرسل إلى جورج الثالث بأن المملكة الوسطى لم تكن بحاجة إلى أشياء تافهة رخيصة من البرابرة : " إن الامبراطورية الصينية تمتلك وفرة فى كل شىء و ليست بحاجة لأى منتج داخل حدودها ، ولذا ليست هناك حاجة لاستيراد مصنوعات البرابرة الخارجيين في مقابل منتجاتنا ."

حرب الأفيون الأولى

ربما لم يكن هذا الرد يتسم بقصر النظر أكثر مما أتسمت به محاولة إقناع الصينيين بالإهتمام بالمنتجات البريطانية كالتماثيل البرونزية وأربطة الجوارب المطاطية والصدريات و الجوارب الصوفية الناعمة التى ورد ذكرها فى قائمة ماكارتنى للصادرات الممكنة أو الاهتمام بالمخزون الهائل من الأفيون الذى جلبته شركة الهند الشرقية البريطانية بطريقة غير شرعية إلى الصين فى العام الذى سبق وصول "ماكارتنى" ، وبدأت شركة الهند الشرقية البريطانية فى إحراز تقدم فى الأسواق الصينية خاصة بعد هزيمة المنافسين البحريين فى حروب نابليون ، وقاموا بداية بإرسال سفن طلبًا للحرير والشاى والخزف الصينى والتى كانوا يدفعون جزء من

بالسلع الكمالية الأوروبية كالساعات الكبيرة وبعض المنسوجات و الفضة بصفة أساسية ، وأدى الدفع بالفضة إلى تزايد عجز الشركة التجارى نظرًا لضعف اهتمام الصينيين - الذين كانوا يعتمدون على اقتصادهم القروى و الحرفى - بالمنسوجات أو الأدوات الكمالية التى كانت الشركة تتلهف لتسويقها ، و أدى الضغط الذى مارسه أصحاب مصانع النسيج فى وقت لاحق فى إنجلترا إلى وضع تنظيم فُرِضَت بموجبه حصة مقررة من المنسوجات كحمولة على جميع السفن التى كانت تبحر من إنجلترا .



"كانتون" فى القرن السابع عشر،لوحة زيتية من القرن التاسع عشر.

وأدت نشأة تجارة الأفيون إلى تغير الموقف ، فقد زادت عادة تدخين الأفيون (الجديدة على الصين) و نشأ سوق للأفيون انقلب معه ميزان المدفوعات و بدلاً من تدفق الفضة إلى الداخل بدأت تتدفق إلى الخارج ، وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية الناقل الرئيسى للمخدرات من الهند إلى ساحل الصين ، ووصلت أولى الشحنات فى الثمانينات من القرن الثامن عشر ، و مع بداية القرن التاسع عشر بلغت ٤٠ ألف صندوق سنويًا تقدر قيمتها بعشرين مليون دولار فضى ، وانزعجت حكومة التشنج لاستنزاف الفضة وتم تحريم استيراد وتدخين الأفيون ، وعُينَ المفوض "لين تسى" لمعالجة هذه المشكلة ، و كان "لين" أحد كبار الموظفين المؤثرين و عالمًا و رجلاً ذى

مبادئ، وكان من أول أعماله كتابة رسالة أخلاقية موجهة إلى ملكة إنجلترا أشار فيها إلى خطأ الأساليب الإنجليزية ، وأوضحت رسالته إلى الملكة فيكتوريا أنه :

" لا انحياز في شرع الله ، و لا يجوز إيذاء شخص آخر لتحقيق النفع الذاتي ، وإذا كانت مشاعر البشر واحدة فهل هناك أحد لا يبغض القتل ولا يحب الحياة ، وفي أمتكم العظيمة التي تقع على بعد ٢٠ ألف لي و تفصل بيننا و بينها عدة محيطات لا اختلاف في شرع الله و مشاعر البشر ، و ليس هناك أحد لا يدرك الفرق بين الموت والحياة ، و النفع و الضرر ."

واعتبر التجارة مع بريطانيا بمثابة إمتياز خيري من جانب قوة مكتفية ذاتيًا لشعب معرض للفناء :

هل هناك سلعة صينية واحدة ألحقت أي ضرر بالبلدان الأجنبية ؟ ولنأخذ الشاي والراوند كمثال ، فالبلدان الأجنبية لا تستطيع العيش يومًا واحدًا بدونهما ، فإذا قطعت الصين هذه الفوائد دون تعاطف مع أولئك الذين سيعانون فما الذي يمكن للبرابرة الإعتماد عليه كي يبقوا على قيد الحياة ؟ ... ومن ناحية أخرى فالسلع القادمة إلى الصين من الخارج يمكن استخدامها كلعب فقط ، و بمقدورنا أخذها أو الاستغناء عنها .... ورغم ذلك فهناك طبقة من البرابرة الخائنين الذين يصنعون الأفيون ويهربونه للبيع و يخدعون أبناء شعبنا الحمقى لايذاء أجسادهم وتحقيق الربح من ورائهم ، لقد كان المدخنون قليلي العدد في الماضي لكن العدوى انتشرت مؤخرًا وتتزايد سمومها المتدفقة يوميًا .... فإذا كنتم أنتم أنفسكم لا تدخنون لكنكم رغم ذلك تجرؤن على إعداد الأفيون وبيعه وخداع جماهير الحمقى في المملكة الوسطى - وهذا لحماية حياة المرء وإيراد الآخرين موارد الهلاك و تحقيق الربح الشخصي و إيقاع الأذى بالآخرين ، ومثل هذا السلوك يبغضه البشر ولا يجيزه شرع الله ... والرأي عندي الآن أننا يجب أن نتحد لوضع حد للعنة الأفيون هذه ، ويكون ذلك عن طريق حظر استخدامه في المملكة الوسطى ، وعن طريق حظر إعداده في أراضيكم .... و عن طريق التجاوب مع مشاعر البشر على هذا النحو سوف تلقون استحسان حكمائنا الأتقياء ... ويسيطر بيتنا الإلهي على أمم لا حصر لها عن طريق سلطة ملكية روحية لا يسبر غورها ، ولا تقولوا أنكم لم تتلقوا تحذيرًا في حينه ! وفور تسلمكم لهذه الرسالة عليكم أن تسارعوا بالرد

لإطلاعنا على الإجراءات التى تم إتخاذها فى جميع الموانىء البحرية لقطع طرق الإمداد ."



إتلاف أفيون قادم من الخارج قيمته عشرة ملايين دولار على شواطئ كانتون بأمر المفوض "لين تسى هسو" ، وقد بدأ خطابه إلى روح البحر معتذراً عن التلوث بقوله " أيتها الروح التى تجعل منك فضائلك زعيمة الآلهة وتضاهى أفعالك فتح وإغلاق أبواب الطبيعة ، أنت يا من تغسلين جميع الأوساخ وتطهرين من جميع النجاسات ... " و ينتهى بابتهال للروح أن " تروض الطبيعة الوحشية للأجانب وتجعلهم يعرفون إلههم ،" و كان "لين" عالمًا بارعًا نال الإحترام لحسن خطه و شعره و ممارسته العادلة الرحيمة لسلطة منصبه ، صورة حديثة .

و رغم ذلك فقد كان ذلك العصر هو عصر دبلوماسية الزوارق المسلحة للغرب ، وحتى إذا كانت الرسالة قد وصلت إلى الملكة فيكتوريا – وهو أمر غير محتمل – فمن غير المحتمل على حد سواء أنها قد وجدت استجابة " تتفق مع مشاعر البشر فى قلوب ساسة قصر بالمرستون ، واستمرت التجارة ، وفى وقت لاحق من عام ١٨٣٩ حاصر المفوض لين ذلك الجزء من كانتون حيث كان يصرح للتجار البريطانيين والأمريكيين بالعمل و أُجبروا على تسليم ما كان بحوزتهم من مخزون الأفيون حيث بلغ ٢٠ ألف صندوق ، وقام بإتلافها علناً على شواطئ كانتون معتذراً فى خطاب وجهه إلى روح البحر على تلويث مياهه .

و أعلنت الحكومة البريطانية الحرب ، وأرسل قصر بالمرستون ناقلات الجنود والسفن الحربية ، وانتهت أولى حربي الأفيون (١٨٣٩ - ١٨٤٢م) بهزيمة ساحقة للأسلحة النارية البسيطة و أقواس و سهام حملة رايات المانشو الذين كانوا قد فقدوا صفة المقاتلين بعد قرنين من التراخي والتهاون ، وانتهت الحرب بمعاهدة "نانكنج" التى كانت الأولى فى سلسلة طويلة من أعمال الابتزاز المذلة من جانب القوى الأجنبية التى سعت إلى تقسيم الصين فيما بينها خلال المائة عام التالية ، وفتحت معاهدة نانكنج (١٨٤٢م) خمسة موانئ للتجارة الخارجية - كانتون وأموى و فوتشو ونينجبو وشنغهاى - وتم التخلى عن جزيرة هونج كونج لبريطانيا ، ومن خلال المزيد من الإمتيازات فى العام التالى منح الرعايا البريطانيون " حصانة " لم يخضعوا بموجبها للقوانين الصينية وتم تحديد الرسوم الجمركية الصينية بـ ٥ ٪ الأمر الذى أدى إلى حماية الواردات المصنعة من الخارج و إعاقة نمو الصناعة الصينية ، وتم فرض تعويض مالى ضخم عن الأفيون الذى تم إتلافه .

وبعد مرور عامين حصلت الحكومتان الأمريكية و الفرنسية على امتيازات مماثلة من المانشو لصالح تجارهما .

و انتهت العزلة الطويلة لشعب " الإبرة المغناطيسية التى تشير جنوبًا " .

ثورة التايبنج

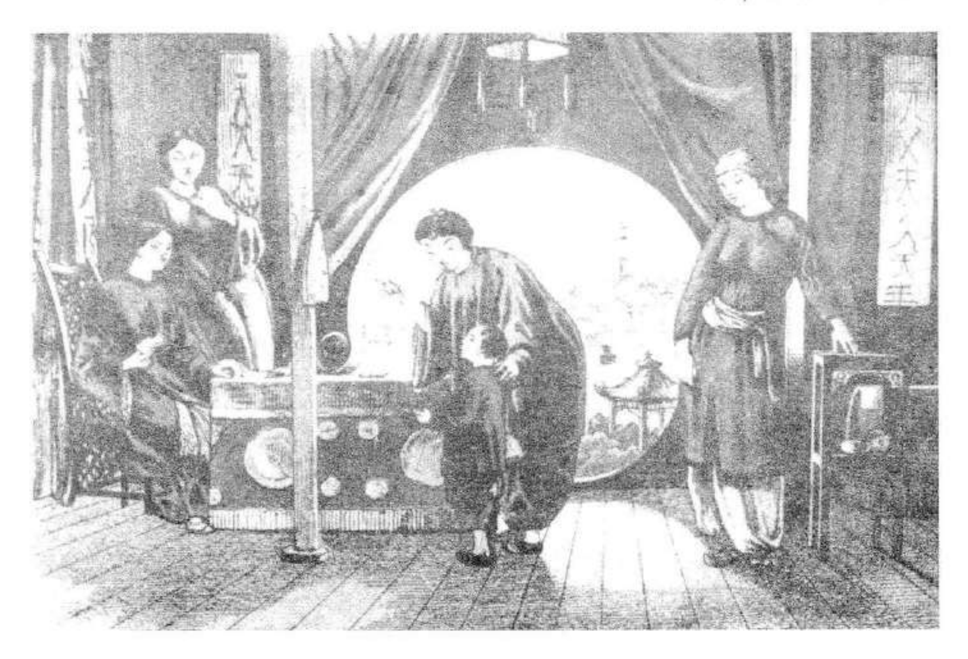
بعد أن وضعت حرب الأفيون الأولى أوزارها زاد استيراد الأفيون إلى الصين بشكل ملحوظ ، لكن استيراد السلع البريطانية والأمريكية و الفرنسية المصنعة خاصة المنسوجات زاد بصورة أكبر، وبعد أن كانت مُصَدِرًا للمنسوجات أصبحت الصين مستورداً لها ، وقُضِىَ على النساجين و غيرهم من الحرفيين فى الصين ، وحلت الموانئ الجديدة التى تم فتحها أمام الأجانب و الآلاف من أصحاب المراكب محل نظام النقل الداخلى القديم الذى كان ينقل تجارة كانتون ففقد الحمالون فى جنوب الصين بذلك مورد رزقهم ، وزاد استنزاف الفضة من الصين لدفع قيمة الواردات ودفع التعويض لبريطانيا ، وارتفع سعر الفضة و كالمعتاد أُثقِلت كواهل الفلاحين بالضرائب للوفاء بالإحتياجات المتزايدة ، و فيما له صلة بارتفاع سعر الفضة قدم أحد كبار الموظفين

تقريراً للإمبراطور أشار فيه إلى أن " البلاط يقوم بجمع المبلغ المعتاد لكنه يتعين على ضعاف الشأن من الناس أن يدفعوا الضعف ، و عدد أولئك الذين ليست لديهم القدرة على الدفع لا يُحصَى .... و قد تم إرسال الجند والموظفين الحكوميين لملاحقتهم وإرغامهم على الدفع ليل نهار حيث عمدوا إلى تمزيق أجسادهم جلداً بالسياط " .

و كانت هناك زيادة هائلة في عدد السكان في مطلع عهد المانشو ، ومع إهمال الري توالت المجاعات وبلغ فساد الموظفين ذروته ، وأضيف عنصر آخر إلى الأزمة التقليدية للإقتصاد الريفي الصيني وهو أعمال الإبتزاز من قبل الغربيين ، ومن بين الأقوال الشائعة في منطقة كانتون آنذاك " الشعب يخشى الموظفين والموظفون يخشون الشياطين الأجانب و الشياطين الأجانب يخشون الشعب "و زالت الثقة في الثقافة الكلاسيكية لكبار الموظفين في هذا العهد ، و شاع الإعتقاد بأن النجاح في الإمتحانات العامة ينتج عن واحد أو أكثر من العوامل المؤثرة الآتية المرتبة بحسب أهميتها : أولاً الحظ ، وثانيًا القضاء والقدر ، وثالثًا تأثير الموضع الملائم لقبور الأجداد ، ورابعًا أعمال الخير خاصة ما كان منها سراً ، و أخيراً الدراسة ، وقد انتقدت رواية "العلماء" التي كتبها "وو تشنج تسو" في عهد التشنج بأسلوب ساخر فساد وجهل كبار الموظفين، ومن بين الروائع الأخرى لذلك العصر رواية " حلم الغرفة الحمراء" لـ " تساو هسويه تشين " التي صور فيها الحياة الجوفاء للطبقة الأرستقراطية .

وجاءت الضرائب الإضافية التي فُرِضَت على الفلاحين في أعقاب حرب الأفيون الأولى في وقت ضعفت فيه الإنتاجية ، وأخذت التجارة التي أدخلها " شياطين المحيط " في إزاحة الإقتصاد القديم واستجمعت ثورات الفلاحين العديدة قواها في الصين خلال الأربعينات من القرن التاسع عشر وبلغت ذروتها في ثورة التايبنج وهي أكبر ثورة في تاريخ الصين و ربما أعظم حرب أهلية شهدها العالم ، وقامت الثورات في أجزاء عديدة من الصين لكن القوة التي وحدتها كانت "التايبنج تين كو" – مملكة السلام العظيم السماوية – وهي حركة بدأت في الجزء الجنوبي الشرقي حول كانتون ، وكان مؤسسها عالمًا فقيراً من أصل ريفي و معلمًا قروياً يدعى "هونج هسيو تشوان" شارك في الشعور العام بالبغض لأسرة التشنج الحاكمة ، وفي مطلع حياته إتصل بالتعاليم المسيحية ونتيجة لـ " رؤى " مر بها خلال مرض شديد ألم به إعتقد بأنه تلقى وحي إلهي

وأمر بنشر الدين ، وكان يعظ قائلاً بأنه يمكن للناس نقل الفردوس من السماء إلى الأرض ببناء دولة تقوم على المساواة و الحرية أطلق عليها "تايبنج تيين كو" – مملكة السلام العظيم السماوية – وفى عام ١٨٤٣ أنشأ " جمعية عبادة الله " فى مسقط رأسه قرب كانتون ، ولم يعترف عباد الله إلا برب المسيحية و لم يجيزوا العبادة البوذية والطاوية ودمروا الكثير من هذه المعابد ، ووزعوا نسخًا مجانية من الإنجيل باللغة الصينية على مؤيديهم والمهتدين ،وكانت الوصايا العشر أساساً لعقيدتهم و أول شيء كان يتعلمه أبناؤهم .



تعليم صلاة الرب بمنزل أسرة موسرة من أسر التايبنج

وكان ظهور التايبنج بداية مرحلة جديدة فى الثورات الريفية الصينية ، و لم تكن تهدف إلى الإطاحة بالأسرة الحاكمة فحسب بل و إلى تغيير المجتمع ، ولم يعد الثوار ينظرون إلى الوراء إلى " العصر الذهبى " الأسطورى و دعوا إلى برنامج ثورى لإعادة توزيع الأراضى و إعطاء كل فلاح ما يكفى لإعالته من الأرض ، "أينما وجدت

الأرض سوف نزرعها سويًا ، و أينما وجد الأرز سوف نأكله سويًا ، و أينما وجد الملبس سوف نرتديه سويًا ، و أينما وجد المال سوف ننفقه سويًا ، لا مكان بلا مساواة، ولا أحد يشعر بالبرد أو الجوع ." وقد اجتذبت هذه الدعوة البسيطة للمساواة الفلاحين الفقراء ، وعندما أُعلِنَ قيام ثورة التايبنج رسميًا في عام ١٨٥١م بعد سلسلة من المجاعات في الجنوب خرج الآلاف في مسيرات مؤيدة لقضية التايبنج ، ومن بين قوى الفلاحين المتفرقة التي توحدت في ظل التايبنج كان كثير منها من الأقليات القومية التي اضطهدها المانشو .

وكانت الإصلاحات الأخرى – موضع التنفيذ أو التفكير من قبل التايبنج – جذرية على حد سواء وشملت تطوير وسائل الإتصال البحرية والسكك الحديدية والإجراءات المتعلقة بتقديم المساعدات للمتضررين من الفيضانات و المجاعات وإنشاء مؤسسات للعمي و الصم ، وحظر قتل المواليد وإلغاء العقوبة الجماعية و كافة أشكال العقاب البدني القاسي و إلغاء العبودية و اتخاذ المحظيات و تحريم الإتجار في الأفيون ، وتم فرض عقوبات على لعب القمار و الفساد ، و علق أحد المراقبين على عدالة التايبنج قائلاً:

" لقد زالت المناظر المقززة التي لازمت دار القضاء عند المانشو كتعذيب الخصوم في دعوى و المجرمين والسجناء ... و لم تعرف ساحة القضاء عند التايبنج نظام الرشوة الشائن ....

و عالم التايبنج واحد من آخر الأماكن التي يمكن أن تُرضي المحامي في هذا العالم ، ذلك أنه يتعين على المدعي و المدعي عليه والسجين أن يدافعوا عن قضاياهم ، والتايبنج لهم عادة فريدة للغاية فيما يتعلق بـ " ساحات القضاء " ، فهناك طبلتان كبيرتان معلقتان دومًا خارج رواق الباب الخارجي مباشرة حتى يستخدمهما أي شخص قد يرى نفسه مظلومًا أو يرغب في تقديم شكوى عندما يكون له مطلق الحرية في قرع الطبلتين وطلب الإنصاف من الرئيس ."

و أشار نفس المراقب إلى أن كثيرًا من إصلاحات التايبنج كانت ذات نفع خاص للنساء اللاتي منحتهم تلك الإصلاحات المساواة الكاملة ، وحظرت التشريعات في

المناطق الخاضعة لسيطرة التايبنج بيع العبيد (و كانت هذه التجارة تتركز على الإناث بشكل أساسي) وبيوت البغاء والزنا وربط القدم :

" إن جميع الأطفال الذين ولدوا منذ البداية الأولى لثورة التايبنج لهم أقدام طبيعية، وهذه الفائدة العظيمة للنساء و ما يترتب عليها من تحسن في مظهرهن وتحرير الرجال من عادة حلق رؤوسهم تماماً عدا ذيل من الشعر يتدلى من الرأس علامة على العبودية السابقة ... من شأنها إحداث أكبر اختلاف وتحسن في المظهر الشخصي للتايبنج مقارنة بأبناء بلدهم الذين يحكمهم التتار ، ولا يسمح لأحد من عامة التايبنج بالزواج إلا من زوجة واحدة و أن يتزوجها بشكل قانوني بواسطة أحد الكهنة ... في تمييز مخالف للمانشو و متى عُقِدَت عقدة النكاح لم يكن من الممكن أبداً حلها ، ولذا لم تلق عادة إطلاق العنان للزوجة أو بيعها - كما كان شائعاً بين الصينيين - أو الإجراءات القانونية الخاصة بمحكمة الطلاق البريطانية استحساناً لديهم ."

وأتاح التايبنج دخول امتحانات الخدمة المدنية أمام الرجال و النساء على حد سواء ، و بلغ تحرير النساء المجال العسكري أيضاً ، وشُكِّلت كتائب حرب العصابات من النساء وقدر ومراقب آخر عدد الوحدات التي رآها من النساء بالربع " الكثير منهن يحمل رتبة عسكرية ومسئول عن سرايا ."

وشجع التايبنج الفن وأنشأوا مجالساً للإشراف على إنتاج أعمال الزخرفة والنسيج و النحت ، و قد بقي عدد من هذه الأعمال و أسسوا جيشاً نظامياً و حظروا النهب والفساد من ناحية لكنهم عاملوا موظفي التشنج و كبار أصحاب الأراضي والمرابين بلا رحمة من ناحية أخرى ، واستولوا على ثرواتهم ووزعوها بين الفقراء ، وزادت أعداد قوات التايبنج غير المأجورين من المتطوعين من ٢٠ ألفاً أو نحو ذلك بادئ الأمر إلى أكثر من مليون ، ولم تكن جيوش البلاط الإمبراطوري - المنحلة ، الفاسدة - نِدًا لقوات التايبنج ، وفي مطلع عام ١٨٥٢ احتل التايبنج مدينة "ووهان" الهامة بالجزء الأوسط من منطقة اليانجتسي و بحلول الربيع كانوا قد دخلوا "نانكنج" حيث أقاموا عاصمتهم ، وأقاموا دولة ثورية للفلاحين حكمت نصف الصين تقريباً على مدى ١١عاماً تحت حكم "هونج هسيو تشوان" الذي أصبح "تيين وانج" (الملك السماوي) رئيس الدولة الدنيوي والروحي .

وكانت الإصلاحات الجذرية التى أدخلوها غير عملية فى ظل الظروف القائمة لكن كثيراً منها تم إلقاء الضوء عليه ، وكانت هناك محاولة ما لتنفيذها ، و كان قانون الإصلاح الزراعى فى عام ١٨٥٣ أساسياً لحركة الإصلاح التى قام بها التايبنج على أساس مبدأ ملكية الفلاحين ، وطبقاً لهذا القانون كان من حق كل رجل وامرأة تجاوزا سن السادسة عشر نصيب كامل من الأرض و من هم دون السادسة عشر نصف نصيب ، وتقرر تقسيم الأرض إلى تسع درجات بحسب خصوبتها ، وظلت الأسرة الوحدة الإدارية و كان متوقعاً من كل أسرة تربية خمس دجاجات واثنتين من أنثى الخنزير ، وشكلت كل ٢٥ أسرة جماعة إشتراكية ذات مخزن مشترك وكنيسة ورئيس للشئون الدنيوية و الروحية ، وبعد الحصاد كان مقرراً لهذا الرئيس إدخار ما يكفى من الحبوب لجماعته وإرسال الفائض إلى المخازن الوطنية من أجل المناطق التى تعانى نقصاً فى الحبوب ، و كان نظام الضريبة الشهرية الذى تم إدخاله أخف وطأة بكثير من النظام الضريبى للتشنج ، وأمكن تنفيذ جزء واحد فقط من هذا الإصلاح الزراعى فى ظل الظروف القائمة للحرب المتواصلة ، و تم إصدار صكوك ملكية فى بعض الحالات و جرت إعادة توزيع لبعض الأراضى لكن كثيراً من الإجراءات والتدابير الأخرى كان يصعب تنفيذه ، ورغم ذلك كانت الغنائم و المؤن التى يتم الإستيلاء عليها خلال الحملات تؤخذ إلى الخزانة المقدسة بما فى ذلك الألف سفينة شراعية الصينية أو نحوها والتى كانت محملة بحبوب الجزية و استولى عليها التايبنج فى القناة العظيمة فى طريقهم إلى بكين وتم نقلها إلى مخزن التايبنج فى نانكنج .

و كان التايبنج ودودين مع الأجانب و يطلقون عليهم " الأخوة الأجانب " بدلاً من النعوت التقليدية كـ " الشياطين الأجانب " أو " البرابرة ذوى الشعر الأحمر "، وأبدوا إستعدادهم لفتح أنحاء الإمبراطورية الصينية أمام تجارة الأجانب الذين كان يمكنهم السفر أو الإقامة حيث يشاءون ، وضربت "رسالة الحرير الأصفر لعباد الله التايبنج" إلى المندوب البريطانى سير "جورج بونهام" فى عام ١٨٥٣ على وتر مختلف تماماً عن رسالة إمبراطور المانشو إلى بريطانيا حيث جاء فيها ما يلى :

" لقد خلق الأب السماوى والرب الأعلى و الإله الأعظم فى البداية السماء والأرض ، والبر والبحر، والناس والأشياء فى ستة أيام ، ومنذ ذلك الوقت و إلى وقتنا

هذا ظل العالم أجمع أسرة واحدة .... و أنتم أيها الإنجليز البعيدون لم تروا فى تلك المسافة الشاسعة التى تقدر بآلاف الأميال التى تفصل بيننا و بينكم ما يحول دون إقراركم بسلطاننا : ولن يكون ذلك مدعاة لابتهاج جند أسرتنا الصينية الحاكمة ورضاهم فحسب بل ورضا واستحسان أبانا السماوى و أخينا الأكبر فى السماء العلا إزاء اخلاصكم و صدقكم ، ولذا فها نحن نصدر هذا المرسوم الخاص الذى يسمح لزعيم الإنجليز بأن يقود اخواننا فى الداخل والخارج بما يتفق تماماً مع إرادتكم ومشيئتكم سواء لمساعدتنا فى القضاء على أعدائنا الأشرار أو مواصلة أعمالكم التجارية ."

و بعد إنشاء حكومتهم فى نانكنج حاول التايبنج الزحف شمالاً لطرد المانشو من بكين ، و كان كبار أصحاب الأراضى و كبار الموظفين - بعدما أيقنوا أنه لا فائدة ترجى من قوات المانشو - قد قاموا فى ذلك الوقت بتعبئة قواتهم الخاصة للدفاع عن أنفسهم تحت قيادة إثنين من الموظفين ذوى الشأن ، وهما "لى هونج تشانج" و "تسنج كو فان" اللذين قاما بحشد أعداد كبيرة من الجند فى شمال الصين ، وفشل التايبنج فى الاستيلاء على بكين لكنهم تمكنوا من صد هجوم للتشنج على نانكنج فى عام ١٨٦٠ .

و احتفظ التايبنج بمكانتهم برغم النزاعات بين القادة منذ عام ١٨٥٦ و مواطن الضعف الأخرى وذلك بفضل التأييد الكبير لهم من جانب الفلاحين والحرفيين و البغض العام لحكم التشنج ، ولاحظ اثنان من المراقبين الفرنسيين فى كانتون فى مطلع الثورة أن " سكان هذه المدينة الكبيرة يعلنون تعاطفهم مع الأسرة الحاكمة الجديدة ، ويتضرعون إلى السماء بكل قواهم للإطاحة بالمانشو ." كما لاحظا أيضاً أن جيش المانشو فى حملته قد عامل " الأصدقاء والأعداء بحياد تامة وراح ينهب الجميع دون تفرقة ." وأشار أحد مؤيدى التايبنج من الإنجليز ويدعى "ليندلى" إلى أن جرائم التايبنج خاصة تلك المتعلقة بسوء معاملة القرويين وتدخين الأفيون كان مرتكبوها يلقون عقاباً شديداً ، كما أنه كان يحتقر قوات التشنج التى كان كثير منها من اللصوص والقراصنة الذين تحولوا إلى مرتزقة وكانت بقيتهم من المجندين رغماً عنهم ، ووصف هجوماً للمانشو كما لو كان مشهداً من أوبرا فى بكين :

" وشمر محاربو المانشو عن سواعدهم أخيراً وأعنى بذلك أنهم رفعوا أطراف ثيابهم و لفوا الضفائر المتدلية من مؤخرة رؤوسهم بعنف حول رؤوسهم الحليقة تماماً وقاموا باستعراض رهيب للرايات الضخمة والأجراس الهادرة ودروع الخيزران ذات الرسوم المخيفة وإهدار بالغ للبارود والتحرك للأمام وهم يطلقون صيحات مروعة تشق عنان السماء واتخذوا مواقعهم فى مأمن خارج مرمى المدافع التى نُصِبَت على الأسوار."

وكانت النمور والأتنة الورقية التى كانوا يرفعونها لإرهاب العدو جزءً من أدوات المانشو العسكرية حتى نهاية القرن .



رمز لثورة "التايبنج" ١٨٥١ - ١٨٦٤م

وبعد سحق هجوم التشنج فى عام ١٨٦٠م أحكم التايبنج قبضتهم على بقية المناطق الواسعة من جنوب ووسط الصين والأقاليم الغنية بالحرير والشاى المدرين للدخل ، وكانت التجارة الداخلية فى أيديهم وبدا كما لو كانت السماء قد سحبت تفويضها من الأسرة الحاكمة فى بكين ،لكن ما سحبته السماء تدخل البريطانيون والفرنسيون و الأمريكيون لإعادته .

حرب الأفيون الثانية :

منذ الخمسينات من القرن ال ١٩ ظلت القوى الغربية تسعى للحصول على المزيد من الإمتيازات في الصين وظلت تطالب بمراجعة المعاهدات التي وقعت عقب حرب الأفيون الأولى ، وفى عام ١٨٥٦م ألقت شرطة المسطحات المائية فى كانتون القبض على المركب " السهم " الذى كان يرفع العلم البريطانى بشبهة التهريب ، وعادت بريطانيا العظمى - التى انضمت فرنسا إليها فى وقت لاحق - إلى شن الحرب على الصين وقامت حرب الأفيون الثانية (١٨٥٦ - ١٨٥٨م) ، ونزلت القوات البريطانية - الفرنسية فى "تينتسين" القريبة من بكين واستسلم المانشو ، وفى معاهدة "تينتسين" (١٨٥٨م) أذعنوا للمطالب الآتية : تشريع تجارة الأفيون فى الصين ، وحرية النشاط التبشيرى ، وفتح موانىء جديدة و نهر اليانجتسى للتجارة الخارجية مع المستعمرات الخاضعة لإدارة أجنبية ، والسيطرة الأجنبية على الجمارك و تحديد التعريفة الجمركية، وحق الأجانب في الإقامة فى بكين ، ودفع تعويض أخر كبير عن الحرب ، وفى عام ١٨٦٠م أنشأت حكومة التشنج وزارة جديدة "التسونجلى يامين " لتولى الشئون الخارجية التى كان ينظر إليها فى السابق على أنها علاقات تبعية .

وعلاوة على ذلك فقد سُمِحَ للقوى الأجنبية بنقل العمالة الصينية للعمل فى أراضيها و مستعمراتها، وأدى هذا إلى نشأة تجارة الحمالين حيث أَخذَ الفلاحون الصينيون كعمال إلى مناجم و مزارع الملايا وغيرها من الأماكن ، و فى الولايات المتحدة الأمريكية كانوا يُستَخدَمون للمساعدة فى بناء سكة حديدية عبر القارة ، وأصبحت الصادرات الرئيسية من الصين الحرير و الشاى والحمالين ، واستفادت روسيا القيصرية والولايات المتحدة الأمريكية بحصولها على إمتيازات مماثلة بعد ذلك بوقت قصير، وعندما تأخر بلاط المانشو فى التصديق على المعاهدات أستُئنِفَت الحرب ، وهاجمت القوات البريطانية - الفرنسية حصون التاكو التى كانت تحرس مداخل تينتسين ودمروها وانقضوا على بكين ، وكرد انتقامى على الهجمات التى تعرض لها مبعوثيهم قاموا بإحراق ونهب القصر الصيفى الإمبراطورى الذى كان خزانة فريدة للفن ، و أعقب هذا التخريب توقيع المعاهدات وتقديم مزيد من التنازلات للقوى الغربية من جانب المانشو ، ولأول مرة فى تاريخ الصين سُمِحَ للسفراء الأجانب بالإقامة فى بكين .

وفى هذه المرحلة بدأ بلاط المانشو فى تقدير فاعلية الأساليب الغربية ونظراً لخوفهم من المتمردين التايبنج الذين كانوا لا يزالوا مستقرين فى الجنوب و عاصمتهم فى نانكنج أكثر من خوفهم من الشياطين الأجانب فقد عدلوا عن موقفهم ونظروا فى امكانية تبنى الطرق الغربية لقمع الثوار، وتخلت القوى التى اشتركت فى المعاهدة عن موقفها الحيادى ازاء التايبنج الذين كانوا جادين إلى حد بعيد فيما يتعلق بالأمور كحظر تجارة الأفيون ، وتعهدت القوى بتزويد المانشو بالأسلحة والمعدات الحديثة وخدمات القادة لتدريب وقيادة قواتهم ،وقام مغامر أمريكى يدعى "وارد" بتكوين فيلق



لى هسيو تشنج - الأمير تشنج (تشونج وانج أو الأمير الملكى) القائد العسكرى البارز للتايبنج ، وكان من أسرة ريفية فقيرة ، وقال عنه "ليندلى" : " كان كثير من زعماء التايبنج يتمتعون بشعبية لدى المدنيين ، وكان البعض منهم مكروهاً ، وكانوا جميعاً يعدون أفضل من المانشو لكن أحداً منهم لم يكن محبوباً مثل تشونج وانج ،" وهناك كثير من الأغانى الشعبية عنه و تقول إحداها :

أيها العصفور ، أيها العصفور ، كم أنت طليق
تطير شرقًا و تطير غربًا – دون هموم
عندما تطير إلى العاصمة
إصنع لى معروفًا
إذهب لترى كيف حال تشونج وانج
هل هو بخير أم لا ؟

من المرتزقة الذين أطلقوا على أنفسهم " الجيش المنتصر دائماً " ، وبعد مقتل "وارد" في معركة على رأس قواته تولى الضابط الإنجليزي "جوردون" (الذي أصبح قائداً في أعقاب ذلك) قيادة " الغوغاء المتمردين " كما أطلق عليهم .

وذكر كابتن "فيشبورن" قائد السفينة البريطانية " هيرمس " الذي كان متواجداً في المياه الإقليمية الصينية آنذاك أن القوى الغربية استخدمت أيضًا سفن القراصنة الصينيين ضد التايبنج :

" بعد استخدام القراصنة خُولَت لهم سلطة إباحة الأعمال الوحشية التي من المؤكد أن هؤلاء كانوا سيقدمون على ارتكابها ، و كما لو كانت هذه الأعمال غير كافية فقد شجعوهم على القيام بما هو أكثر مما كانوا على استعداد للقيام به بخلاف ذلك ووعدوهم بست دولارات على كل رأس يأتون بها ."

ونشطت تجارة الرؤوس و كان أول شيء قام به القراصنة :

" التفرق في كل اتجاه بحثًا عن الرؤوس بصرف النظر عن أي شيء عدا كون من كانوا يملكونها أناس بائسين ولم يكن يهمهم كونهم عاجزين ومسالمين ، فقد كانت رؤوس هؤلاء ولا شيء سواها هي كل ما يبغون .... وشرعوا بادئ الأمر في قطع رؤوسهم على رصيف الميناء المجاور و سرعان ما شغل هذا المكان بأكمله وتعب الجلادون و سار العمل ببطء ، ولذا بدأت مجموعة إضافية في قطع الرؤوس على جوانب المراكب، وعندما تبين لهم أن هذا العمل يسير ببطء شديد أيضًا أخذوا في إلقائهم في البحر من فوق المراكب مكتوفي الأيدي والأقدام . "

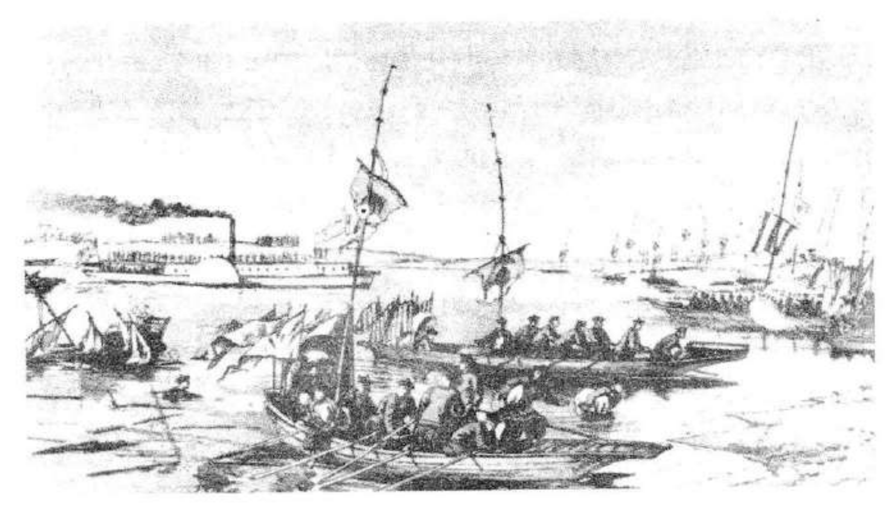
و في " أموي " ظلت الجثث تطفو في أنحاء الميناء لأيام ، وكان كثير منها لأناس لم ينفذ فيهم حكم الإعدام وقد شقت أنوفهم أو جُدِعَتْ ، وقطعت آذان آخرين أو سمروا إلى أعمدة عرضة للشمس ".

و في بريطانيا و البرلمان البريطاني كان هناك انتقاد كبير للتدخل تأييداً للمانشو من قبل كبار الساسة كـ " جولدن " و " برايت " وغيرهما وكذلك المتعاطفين الذين قاتلوا مع الثوار ، و كان أحد هؤلاء المؤيدين للتايينج ويُدعى "أغسطس ليندلي" بحاراً ألقى مرساته بصفته كبير مساعدي الربان على متن باخرة صغيرة كانت تعمل

فى المياه الإقليمية الداخلية لمنطقة شنغهاى لتجارة الحرير مع التايبنج ، و قام بزيارة قادتهم والدخول فى خدمتهم ، وكانوا قد سيطروا فى ذلك الوقت (١٨٥٩م) على ثلث الصين ، وعلى مدى السنوات الأربع التالية قاتل مع جيشهم تحت قيادة القائد البارز "لى هسيو تشنج" (الأمير المخلص) و ساعد فى تدريب المدفعية ، واشترى سفينة للهروب من الحصار و قام برحلات متكررة بين شنغهاى التى كانت فى أيدى الغربيين ونانكنج عاصمة التايبنج حاملاً الطعام و أكبر كم من الأسلحة أمكنه الحصول عليه ، وكذلك المتطوعين و احتمل فى سبيل ذلك الكثير من الأذى على أيدى القراصنة ومن جانب المواقع الأمامية لجيش المانشو ، وعندما أسر ذات مرة من قبل أحد كبار موظفى التشنج المسئول عن مركز الجمارك حصل على حريته عن طريق ادعائه أنه موظف غربى هام حيث أبرز نسخة من جريدة " هونج كونج ديلى بريس " على أنها تفويض له من قبل " صاحب الجلالة ملك أمريكا " ، ورقعتين من ملصقات زجاجات الجعة التى تحمل اسم " باس بالى " على أنهما بطاقاته الرسمية ، وبساط قديم من مانشستر على أنه رايته ، و قدم أفراد طاقم سفينته على أنهم حاشيته .

و قد بذلت "مارى" زوجة ليندلى البرتغالية التى أنقذها من زواج غير مرغوب فيه فى ماكاو و صديقه "ل" الذى تزوج أميرة من التايبنج حياتهما فى الحرب ، وجُرِحَ ليندلى فى إحدى الحملات ، وفى عام ١٨٦٤م أمرت السلطات البريطانية فى شنغهاى بإلقاء القبض عليه وعندما ساءت حالته الصحية اضطر للعودة إلى انجلترا كى يستبدل السيف بالقلم دفاعًا عن ثورة التايبنج التى شاركها مُثلها العليا ، وألف كتاباً من نصف مليون كلمة فى أقل من عامين يصف فيه الثورة و أنشطته الخاصة ، وتوفى بعد ذلك بوقت قصير .

و أخفق التايبنج فى هجومهم على شنغهاى و سرعان ما تحولت عاصمتهم نانكنج – بعد أن انقضت عليها قوات المانشو و القوات الغربية – إلى أنقاض ، وعن حصار نانكنج كتب ليندلى أنه خلال جميع ما مروا به من محَن لم يحدث أبداً أن يئس التايبنج أو جَبُنُوا و لو للحظة : " وسط قتلاه علمهم "تيين وانج" فى هدوء وسمو أن يدعو الله ويسألوه الوسيلة الأكيدة للخلاص من الخطر المحدق بهم ، ومن الجند على الأسوار إلى الأطفال الصغار بين أذرع أمهاتهم صعد صوت الحمد و الإبتهال إلى السماء ."



تحت قيادة "ليندلى" تم تغيير اسم سفينة بخارية كان قد تم الإستيلاء عليها من "فايرفلاى" إلى "تايبنج" لتشن هجوماً على الأسطول الإمبراطورى الصغير.



"مارى" ، كانت حياة "ليندلى" تشبه إلى حد بعيد حياة "جاريبالدى" الشاب ،فبعد أن أنقذ "مارى" – الفتاة البرتغالية القادمة من ماكاو – من الزواج بالإكراه إتخذها ليندلى عروساً له ، وقتلت "مارى" بعد عام فى معركة إلى جانبه بينما كان ليندلى يغطى إنسحاب "التايبنج".

وعملاً بمشورة "جوردون" تم تفجير أسوار "نانكنج" بالديناميت و كما ذكرت رواية المانشو التى أرسلت إلى بكين .

" لقد ملأ الدخان و اللهب المتصاعدان من المبانى المحترقة أرجاء المدينة ... و شنق مئات من خادمات القصر أنفسهن فى الحديقة الأمامية بينما تجاوز عدد الثوار الذين أغرقوا فى المدينة قرابة الألفين ، وبحثنا فى أنحاء المدينة وفى غضون ثلاثة أيام قتل أكثر من مائة ألف رجل ... ولم يسلم أحد من الثوار نفسه عندما تم الإستيلاء على المدينة لكنهم كانوا يقتلون أنفسهم فى كثير من الحالات فيقضون نحبهم دون توبة ."

وعندما قام رجل إنجليزى يدعى "لورد إلجن" بزيارة المنطقة تذكر مدينة بومبى " سرنا على طول الشوارع المهجورة بين أسطح المنازل .... كان هناك شيئًا ما يبعث على الضيق و الإنقباض فى السكون التام الذى لف كل شيء ،" ورأى رحالة إنجليزى آخر الأرض " بيضاء بالمعنى الحرفى كالثلج بفعل ما كان يغطيها من جماجم و عظام ، لابد أن مذبحة التايبنج التعسة (أغلب الظن أنهم كانوا من القرويين المسالمين) كانت مروعة ."

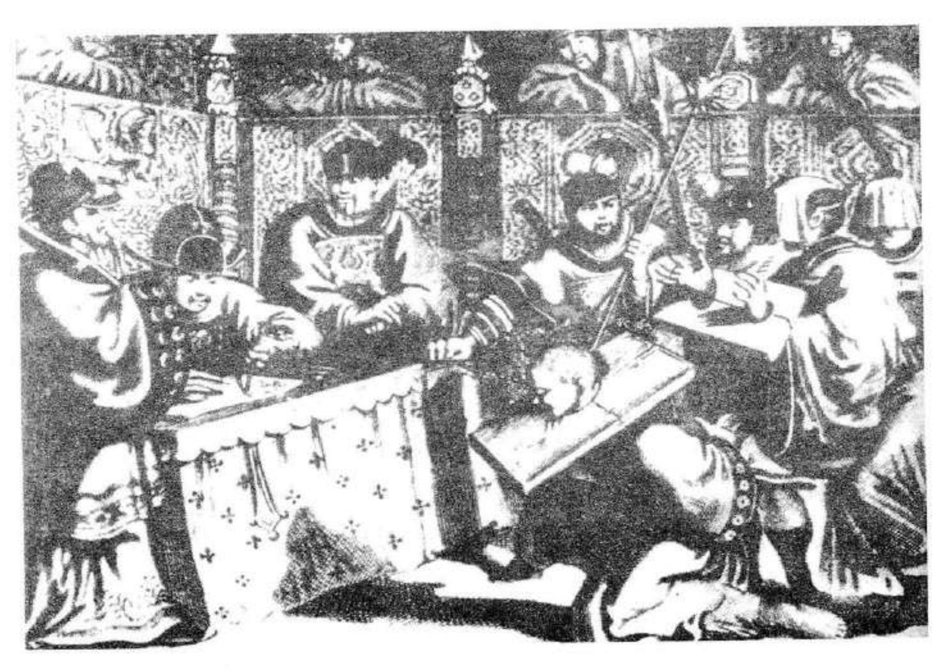
وبسقوط نانكنج فى عام ١٨٦٤م بعد حصار طويل هُزِمَت ثورة التايبنج ، وأُسِرَ تشونج وانج الأمير المخلص و قطعت رأسه ، وانتحر تيين وانج ، وأُرجِيء تنفيذ حكم الإعدام فى أسرة المانشو الحاكمة و أصحاب الأراضى لنصف قرن لا أكثر ، وقد تزعزع النظام الحاكم من أساسه ، وقدر عدد القتلى بما يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ مليون نسمة فى أكثر الحروب الأهلية دمارًا فى تاريخ العالم .وعندما قامت الحكومة الجديدة بإحصاء عدد السكان فى مطلع الخمسينات من القرن العشرين كانت الأقاليم القريبة من مصب نهر اليانجتسى و التى كانت الأكثر تأثرًا بالثورة ما تزال تعانى نقصًا مقداره ٢٠ مليون نسمة مقارنة بعدد سكانها فى عام ١٨٥٠م .

و كوفئ "تسنج كو فان" و كان من كبار الموظفين وأحد قادة قوات المانشو التى ساعدت على قمع ثورة التايبنج بمرسوم من حاكم المانشو جاء فيه " إننا اليوم نمنحه لقب كبير حرس العرش و لقب مركيز من المرتبة الأولى ليكون وراثيًا فى أسرته إلى الأبد ووسام ريشة الطاووس مزدوج البصر ،"ومنح جوردون أيضًا وسام ريشة الطاووس.

واذا كانت ثورة التايبنج قد هزمت فقد بقيت المشكلات التى أثارتها قائمة ، وبدلاً من أن يتضاءل فقد ازداد بؤس الفلاحين فى ظل عودة نظام المانشو الحاكم ، وزادت

التعويضات الخارجية من عبء الضرائب ، وقضت المنتجات الأجنبية التى تدفقت عن طريق الموانىء الجديدة على موارد الرزق لكثير من الحرفيين ، وبقى عدد كبير من إيصالات بيع الأطفال من الأسر الفقيرة والتى يرجع تاريخها إلى هذه الفترة ، وكانت الأقليات القومية التى ثارت جنباً إلى جنب مع التايينج ما تزال مضطهدة ومتلهفة للفرار من الأراضى الخاضعة لسلطان المانشو .

وكان الشعور بالإستياء و السخط تجاه المانشو أشد من أى وقت مضى بين السكان بصفة عامة وربما كان أشد مما كان عليه فى النصف الأول من القرن حيث



مشهد فى محكمة "المانشو" حيث كان كبار الموظفين يقيمون العدل و ينفذون القانون ، وكتب رئيس شمامسة "هونج كونج" فى عام ١٨٧٨م عن ذلك قائلاً : " كانت المحاكمات فى المحاكم الصينية تجرى بالتعذيب ، وعندما كان القاضى يجرى محاكمة كان يجلس خلف طاولة كبيرة بينما يُحمَل السجين على الركوع أمام الطاولة علامة على احترام المحكمة التى تعتبره مذنباً حتى إذا ثبتت براءته ... فإذا كان مراوغاً فى إجاباته تم اللجوء الى التعذيب على الفور باعتباره الوسيلة الوحيدة المتبقية" ، ثم يمضى رئيس الشمامسة ليصف بعضاً من أبسط طرق التعذيب التى كانت تدمر السجناء بدنياً إن لم يكن معنوياً .

زادت منه كراهية الأجنبى الذى سمح له المانشو بدخول المملكة الوسطى ، و كان رجال البلاط والموظفون الفاسدين ما يزالون مقترنين بالماضى و يرفضون فى تعصب إدخال أى إصلاح أو تغيير من أى نوع عدا المهارة العسكرية و مساعدة القوى الغربية ، وبعد هزيمة التايبنج اكتشفت أسرة المانشو الحاكمة أنها تمتلك قوات عسكرية حديثة نسبياً، وعلاوة على ذلك فقد أبقى كبار أصحاب الأراضى والموظفين - الذين قاموا بتنظيم القوات ضد التايبنج - جندهم تحت سيطرتهم وأقاموا نظم إقليمية حاكمة بزعامة القادة العسكريين ، واستخدمت هذه القوات فى قمع عدد من الثورات التى قامت بها الأقليات القومية فى المناطق الحدودية الشمالية والجنوبية خلال العقود التالية .

وقد أسلمت الأسرة الحاكمة قيادها للإمبراطورة الأرملة "تزو هسى" والتى أطلق عليها الإمبراطورة "وو" فى وقت لاحق ، واقترنت قدرتها على التعامل مع الأشكال التقليدية للحكم فى المملكة الوسطى بمقاومتها الإستبدادية للتغيير ، وقد أصبحت هذه



"بوذا العجوز" - الإمبراطورة الأرملة "تزو هسى" ، "كانت صحتها الجيدة وحيويتها غير عادية .... وكانت تتعاطى الأفيون كغيره من مظاهر الترف والرفاهية باعتدال تام لكنها كانت تستمتع كثيراً بتدخين غليونها بعد الإنتهاء من عمل اليوم ، كما اشتهرت أيضاً بوحشيتها الدموية وغضبها القاتل.

المرأة التي تنتمي إلى المانشو محظية الإمبراطور و هي في سن الثامنة عشر، وورث إبنها الوليد العرش في عام ١٨٦١م ، وبوصفها وصية على العرش أصبحت الحاكم الفعلي للصين و هي في سن الخامسة و العشرين ، واستمرت في الحكم الذي تخللته فترات فاصلة قصيرة حتى وفاتها في عام ١٩٠٨م في سن الثالثة و السبعين ، وعرفت لدى الصينيين بـ " بوذا العجوز " وحكمت البلاد من خلال رجال بلاطها من الخصيان وكبار الموظفين بسلطة مطلقة و وحشية دموية باردة .

وعندما تزعزع بنيان الإمبراطورية بفعل تغلغل النفوذ الأجنبي و أصداء الثورة نشأت جماعتان في البلاط ، وحظيت إحدى هاتين الجماعتين بتأييد بوذا العجوز وتمسكت أشد التمسك بكل ما هو قديم في محاولة لوقف تيار التغيير ، و أيدت الجماعة الأخرى التي تزعمها "لي هونج تشانج" و كان أحد كبار الموظفين التعلم من الغرب الصناعي ، وخلال الستينات والسبعينات من القرن الـ ١٩ أقيم عدد من مصانع الذخائر و العتاد الحربي في الصين بتمويل من الحكومة و إدارة موظفين حكوميين ،كما أسسوا أيضًا صناعة السفن و التعدين ، وعلى سبيل المثال فقد قام لي هونج تشانج بتأسيس شركة الصين للملاحة بالسفن البخارية ، وأنشئت مصانع للمعادن والورق والكبريت والمنسوجات على نطاق ضيق في شنغهاي و ووهان وغيرهما من المراكز ، وأخذت الصين في تطوير مشروعاتها الرأسمالية وإن كان ذلك على نطاق ضيق فحسب وظهرت جماعة صغيرة من المقاولين الوطنيين جنبًا إلى جنب مع الطبقة العاملة الناشئة واتفقوا بشكل متبادل على مقاومة تغلغل المصالح الصناعية و التجارية الأجنبية ، وأفلس كثير من هذه المشروعات الأولى أو وقع تحت السيطرة الأجنبية .

التقسيم :

وجاءت الهزة التالية لنظام التشنج الحاكم المتداعي في التسعينات من القرن التاسع عشر كنتيجة مباشرة للضغوط الخارجية ، و خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر اتخذت بريطانيا و فرنسا – على التوالي – من دولتي بورما وفيتنام المجاورتين – اللتين كانتا تابعتين للمملكة الوسطى فيما مضى – مستعمرتين ، وانضمت اليابان في هذه المرحلة إلى سباق القوى من أجل الحصول على امتيازات ، و مع اتجاه الأطماع

نحو كوريا توصلت إلى عـقـد اتفاقية مع المانشـو تقضى بعدم قيـام أى من الصـين أو اليـابان بإرسـال قـوات إلى ذلك البلد دون علم الآخـر، وفى التـسـعينات من القـرن التـاسع عشر إندلعت ثورة ضد الحـاكم فى كوريا فطلب مسـاعدة التشـنج ، وأرسلت قـوات المانشو عبر الحدود لمؤازرة تابعتـها ضد الثوار الكوريين، وهكذا وجدت الصين نفسـها فى حرب مع اليابان (١٨٩٤م) ، وهاجم اليـابانيون الأسطول الصينى وطردوا القوات الصينية من كوريا ثم دخلوا الصين نفسها واحتلوا القواعد البحرية الصينية الجديدة لميناء "آرثر" و "ويهايوى" ، و بعد بضـعة شـهور وفى مطلع عـام ١٨٩٥م كان المانشـو يتوسلون بًا الصلح والسلام بعد أن غُلبوا هذه المرة ليس من قبل قوة صناعية غربية راسخة ولكن من قبل " الأقزام اللصوص " و كانوا جارًا صغيرًا جدًا نسبيًا وحديث عهد بالصناعة .



خيمة فى حدائق القصر الصيفى ، و قد أعادت الإمبراطورة الأرملة بناء القصر الصيفى الذى تعرض للنهب بعد حرب الأفيـون الثـانية ، ورصـدت لهـذا الغـرض ٢و٥مليـون كـجم من الفـضـة كان قـد تم تخصيصها لبناء أسطول ، وفى عام ١٩١٠م تعرض القصر الصيفى للتخريب ثانية على أيدى القوات المشتركة لثمان قوى دخلت بكين لإخماد ثورة الملاكمين ، ويقع القصر الصيفى فى التلال الغربية على بعد بضعة أميال من بكين ، وهناك خيام كثيرة باقية بين الحدائق حتى اليوم وقد أصبحت المنطقة متنزهًا عامًا.

ووقع المانشو معاهدة "شيمونوسيكي" التى تنازلوا بموجبها عن جزيرتى تايوان وبيسكادوريس لليابان وكفوا عن التدخل فى الشئون الكورية وفتحوا مزيداً من الموانىء للتجارة الخارجية ووافقوا على دفع تعويض لليابان مقداره ٢٠٠ مليون أونصه من الفضة ، ومنح اليابان الحق فى إنشاء مصانع على أرض الصين ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن القوى الأجنبية الأخرى التى فرضت معاهدات غير متكافئة قد حصلت أيضًا على بنود خاصة بـ " أمة ذات أفضلية " ، و كان هذا يعنى أن أى امتياز يمنح لأية قوة أخرى فيما بعد كان يُقَدم تلقائيًا إلى القوى الأصلية ، وقد حصلت اليابان أيضًا فى البداية على ميناء "بورت آرثر" و "دايرن" كقواعد لكن روسيا القيصرية و فرنسا وألمانيا الذين كانت لهم أطماعهم الخاصة فى الصين تدخلوا و أجبروا اليابان على التنازل عن هذه الحقوق فى مقابل الحصول على تعويض زائد .

ومع نهاية القرن التاسع عشر بدت الصين كما لو كانت فريسة عاجزة تمامًا لقوى الشرق و الغرب ، وبدأت المصالح التجارية للقوى الأجنبية تتزايد وتتوسع بشكل أكبر، ففى عام ١٨٩٨م تدخل البريطانيون لإنشاء السكك الحديدية فى شمال الصين وظلت الصين مرهونة من أجلها حتى عام ١٩٤٤م ، وحصلت روسيا القيصرية على امتياز سكة حديدية فى منشوريا بعد تقديم رشوة بمبلغ مليون روبل إلى مسئول كبير يدعى "لى هونج تشانج" والذى كان يدير الشئون الخارجية لبوذا العجوز آنذاك ويحول إليها الهدايا السخية .

و كان السباق من أجل الحصول على امتيازات السكك الحديدية مساويًا للسباق من أجل الحصول على قواعد بحرية وموانئ تجارية على طول الساحل الصينى ، واتخذت ألمانيا من مقتل اثنين من المبشرين فى الصين ذريعة للإستيلاء على ميناء "تسينجتاو" فى عام ١٨٩٧م و حيازة إيجارية مدتها ٩٩ عامًا لشبه جزيرة "شانتونج" ، وبعد مرور ثلاثة أسابيع حصلت الحكومة القيصرية على عقد إيجار مدته ٢٥ عامًا لقاعدة "بورت آرثر" البحرية وميناء "دايرن" التجارى ، وفى غضون بضعة أيام حصلت بريطانيا على حصن "ويهايوى" البحرى ثم قامت فرنسا بالإستيلاء على خليج فى جنوب الصين.

و بلغ تقسيم الصين مرحلة أبعد من ذلك عندما اتفقت القوى الأجنبية فيما بينها على "مناطق النفوذ" الخاصة بكل واحدة منها حتى يتسنى لها العمل بمطلق الحرية

على تحقيق مصالحها والنهوض بها دون منافسة من جانب الخصوم ، وكان وادى اليانجتسي منطقة للنفوذ البريطاني ، ووقعت منشوريا ومنغوليا ضمن منطقة نفوذ روسيا القيصرية ، ومقاطعة شانتونج فى منطقة نفوذ ألمانيا ، و كانت فوكيين من نصيب اليابان وكانت مناطق أخرى في الجزء الجنوبي الغربي من نصيب بريطانيا وفرنسا ، وجاءت الولايات المتحدة الأمريكية في وقت متأخر للمشاركة في رهانات التقسيم و أعلنت سياسة "الباب المفتوح" للقضاء على مناطق النفوذ (وكانت هذه السياسة التى أعلنتها الولايات المتحدة توصف أيضًا بسياسة " وأنا أيضًا " الهادفة إلى تأمين مدخل يحقق مصالحها إلى أى مكان في الصين) ، ولم يجد الصينيون من يدعوهم للمشاركة في أية مباحثات حول ما إذا كان يجب فتح أبوابهم أم إغلاقها .

«مائة يوم للإصلاح» ١٨٩٨م

كان وضع الإمبراطورية الصينية قد تأزم للغاية حتى أن قطاعًا من أصحاب العقول الضيقة في بلاط المانشو أدرك أن الأزمة تتطلب اتخاذ إجراءات صارمة لتصحيح الأوضاع و إعادة الأمور إلى نصابها ، واقترحت جماعة من الموظفين والعلماء إصلاح النظام الملكي القديم و إفساح المجال للتنمية الصناعية داخل إطار نظام حكم دستورى محدود على غرار التنمية اليابانية ، و تم عرض برنامج للإجراءات الإصلاحية على الإمبراطور الشاب "كوانج هسو" الذى كان قد بلغ سن الرشد لتوه وكان يسعى إلى انتزاع السلطة من عمته " بوذا العجوز " الوصية على العرش ، وخلال مائة يوم من صيف عام ١٨٩٨م أصدر الإمبراطور عدداً من المراسيم الإصلاحية ، وقد وضعت هذه المراسيم تصوراً لإلغاء النصوص الكونفوشيوسية الكلاسيكية الخاصة بامتحانات الخدمة المدنية وإرساء قواعد نظام تعليمي عام حديث يشمل إقامة جامعة ، والإجراءات المتعلقة بالنهوض بالصناعات والتجارة الصينية بما فى ذلك تطوير السكك الحديدية والتعدين ، والإجراءات الهادفة لإلزام جند المانشو بالإسهام في إعالة أنفسهم عن طريق العمل بالزراعة و المهن الأخرى ، وقام أحد الموظفين من القادة العسكريين فى الجماعة " الإصلاحية " بإفشاء سر المشروع لبوذا العجوز فكانت نتيجة ذلك إلقاء

القبض على الإمبراطور وسجنه حتى وفاته بعد عشر سنوات، وألقي القبض على أعضاء الجماعة الإصلاحية الذين لم يفروا و أُعدِموا بشق أجسادهم إلى نصفين عند الخصر ، وبقي النظام القديم .

«يى هو توان» : ثورة الملاكمين

و صدرت حركة الإصلاح التالية عن الشعب بقيادة إحدى الجمعيات السرية المناهضة للمانشو ذات الطابع الريفى التقليدى وهي جمعية "يى هو توان" للقبضات الصالحة و المتناسقة – والتى عرفت بجمعية " الملاكمين " نظرًا لأن تدريبهم تضمن تمرينات بدنية تذكر من يشاهدها بالملاكمة ، وأصبحت هذه الجمعية مركزًا للشعور المتزايد سريعًا بالإستياء و السخط تجاه الأجانب ، وفى عام ١٨٩٨م كان الشعور بالاستياء آخذًا فى التزايد تجاه الألمان الذين كانوا يستغلون إقليم شانتونج ويسيئون معاملة أهله بطريقة وحشية ، وفى عام ١٨٩٩م وبضغط من فرنسا منح المانشو الكاثوليك من جميع الجنسيات إمتيازات وصلاحيات خاصة ، وترتب على ذلك النظر إلى المبشرين المسيحيين على أنهم مندوبى التقسيم الأجنبى فأصبحوا هدفًا للإستياء الشعبى بشكل خاص ، وامتدت الإضطرابات إلى بكين فتخوفت حكومة التشنج من مغبة ذلك ، وأملاً فى إبعاد الخطر عن الأسرة الحاكمة إقترحت الإمبراطورة الأرملة شن هجوم مشترك من قبل قوات الملاكمين والتشنج ضد البعثات والإرساليات التبشيرية فى بكين ، وحدث ذلك بالفعل فى عام ١٩٠٠م حيث قتل عدد من المبشرين وحوصر الدبلوماسيون الأجانب و أسرهم فى مقر البعثة فى بكين لمدة ٤٥ يومًا .

و أصدر المانشو أوامرهم لجندهم بالإنسحاب تاركين الملاكمين لمواصلة الهجوم فى الوقت الذى قامت فيه القوى الأجنبية بتعبئة قوة مشتركة وصلت فى نهاية الأمر إلى بكين وحررت البعثات المحاصرة هناك وفر المانشو ، وقد سُجِلَت هذه الأحداث فيما يبدو في يوميات دونها "تشنج شان" وهو أحد موظفى البلاط و أحد رجال المانشو التابعين لفيلق اللواء الأصفر ، وتبين منذ ذلك الحين أن هذه اليوميات مزورة لكن الصورة التى

تنقلها لتلك الآونة دقيقة . وفيما يتعلق بيوم الخامس عشر من أغسطس فقد قام بتدوين قرار الفرار الذى اتخذه رجال البلاط :

" فى الساعة ين (من الثالثة إلى الخامسة) أسرعت (بوذا العجوز) بارتداء ملابس فلاحة كانت قد أمرت بإحضارها إلى القصر بالأمس ورتبت شعرها بالطريقة الصينية، وبدا ذلك غريبًا جداً فى واقع الأمر ، ووجدت المحظية اللؤلؤة (للإمبراطور) – التى لم تكن مطيعة أبداً لبوذا العجوز- فى نفسها الجرأة عندئذ كى تجثو على ركبتيها أمام بوذا العجوز وتتوسل اليها ألا تجبر الإمبراطور على الخروج للقيام بـ " جولة تفتيشية " غربية (أى الفرار) و أن يبقى فى بكين لمواصلة مفاوضات السلام ،

ورفعت بوذا العجوز صوتها كصوت الرعد وأمرت على الفور الخصى المناوب بإلقاء هذه المرأة العنيدة المتمردة فى قاع بئر ، وعندما سمع الإمبراطور بذلك بدا حزينًا بشدة حيث كانت المحظية اللؤلؤة محظية جلالته الأولى جثا على ركبتيه و توسل إلى بوذا العجوز كى تكون رحيمة و تعفو عنها ... وقام اثنان من الخصيان بإلقاء المحظية اللؤلؤة فى قاع بئر كبير خارج قصر السكينة و العمر المديد ويبدو أن وجود البئر الذى لقيت فيه حتفها فى هذا المكان قد زاد من قسوة ما حدث ...

وقالت بوذا العجوز للامبراطور الذى كان حزنه و خوفه يفوقان الوصف "إركب عربتك و احرص على إسدال الستار حتى لا يراك الناس ...

جميع نسائى ينوين الإنتحار بتناول السم ، وهذا أسوأ ما يمكن لهن التفكير فيه ولكن أما و أن النساء أغبياء بطبيعتهن ولا يصغين إلى صوت العقل لم أستطع ثنيهن عن ذلك ، و بالنسبة لى فانا لا أفكر فى الإقدام على مثل هذا العمل ،

لقد قطعت كافة الاتصالات الإخبارية مع العالم الخارجى وراح اللصوص الأجانب ينهبون فى كل مكان ،لكن الشائعات تقول أنه لا خوف على حياة كل من يرفع علمًا أبيضًا ، وأغلب الظن أن البرابرة الأجانب لن يجدوا سبيلاً للعثور على كنزى المخبوء ، ولذا فلن أبرح مكانى بل أبقى هنا فى هدوء أرقب ما تسفر عنه الأحداث ... لقد عاد خدمى جميعهم إلى منازلهم وما من أحد هنا كى يعد لى طعام عشائى ."

ويقي "تشنج شان" العجوز على قيد الحياة بعد موت نسائه لبضع ساعات ، ويعتقد أن أكبر أبنائه قد دفعه كي يسقط في بئر بفناء داره .

و تمكنت القوات التابعة للقوى الأجنبية من إلحاق الهزيمة بالملاكمين و احتلال بكين وقامت بنهب القصر الصيفى - الذى كان قد تم ترميمه - مرة أخرى ، وتوصل بلاط المانشو ثانية إلى اتفاق مع القوى الأجنبية ووقع بروتوكولاً (عام ١٩٠١) تفاوض "لى هونج تشانج" بشأنه حيث وافقوا على دفع تعويض آخر ضخم و قمع ثورة الملاكمين وإعدام - أو " الحكم بالإنتحار " (كطريقة أكثر شرفًا للموت) - عدد من موظفى المانشو الذين شاركوا فى الهجوم وتعليق امتحان الخدمة المدنية لمدة خمس سنوات في جميع المدن التى قتل فيها رعايا أجانب أو عوملوا بقسوة و حظر العضوية فى الجمعيات المناهضة للوجود الأجنبى على أن يكون الإعدام عقوبة من ينضم إليها ، ومنحت عشر قوى الحق فى وضع قوات تابعة لها في بكين لحماية بعثاتها والسكة الحديدية من بكين إلى الساحل ، ووافق المانشو أيضًا على قبول التعديلات التى طالبت القوى الأجنبية بادخالها على المعاهدات القائمة لتسهيل تجارتها .

وتحولت المملكة الوسطى أو الإمبراطورية الصينية إلى مستعمرة لجميع القوى التى كانت لديها المقدرة الصناعية على استغلالها .

وخلال العقد الأول من القرن العشرين أطالت حكومة المانشو وجودها المحتوم تحت حماية القوى الأجنبية ، وتدهور الوضع الإقتصادى للصين ، وزاد الفائض السنوى من الواردات على الصادرات بنسب غير عادية إضافة إلى ما كان يقوم به المستثمرون الأجانب من تطوير الصناعات الثقيلة و السكك الحديدية بشكل أكبر ، وكانت الموانىء الأكبر سواء الساحلية أو النهرية قواعداً إقتصادية أجنبية ، وحتى فى مجال الصناعات الخفيفة كانت المشروعات الصينية تواجه صعوبات بسبب المنافسة الخارجية ، وازداد غرق الامبراطورية الصينية في الديون فى الوقت الذى كانت فيه معظم مواردها مرهونة فى الخارج .

وفقد المانشو مصداقيتهم تمامًا فى أنحاء المملكة الوسطى وواجهوا عدداً من التهديدات بعضها كان معتاداً و البعض الآخر جديداً ، ومن الناحية العسكرية أثبتت

قواتهم الخاصة أنها غير فعالة و أصبحت غير جديرة بالثقة بشكل متزايد نظراً لنقص الإعتمادات المالية لدفع رواتب الجند ، وقام كبار الموظفين ونواب الملك الإقليميين أمثال "لي هونج تشانج "بتكوين قواتهم الخاصة وشكلوا نفس التهديدات على عرش التنين كما فعل الحكام المحليون الطموحين في العهود السابقة ، وأعال هؤلاء القادة العسكريون أنفسهم و جيوشهم بضريبة جديدة نسبيًا أطلق عليها " لايكن likin " وكانت رسم جمركي تم فرضه على التجارة الداخلية إضافة إلى الضرائب المعتادة ، وجمع بعضهم ثروات طائلة من الـ " لايكن " برغم القيود التي فرضتها على التجارة الداخلية .



هجوم على أحد معاقل "المانشو" ، لاحظ الأتنة والنمور الورقية بين المدافعين

وشكل رجال الأعمال و التجار الصينيون - الذين أعاقتهم مثل هذه الضرائب خاصة تلك التى فرضتها المنافسة الخارجية - جبهة أخرى فى مواجهة المانشو ، وكالمعتاد تحمل الفلاحون الوطأة الكبرى لاضطهاد النظام الحاكم فكونوا جمعيات سرية مناهضة للمانشو فى أنحاء المملكة ، كما كون المفكرون الصينيون - خاصة أولئك الذين سافروا إلى الخارج فى مطلع القرن لتلقى تعليمهم وتعلم التكنولوجيا الغربية - جماعات مناهضة للمانشو أيضًا للتعبير عن سخطهم و استيائهم من الحكومة العاجزة والمعوقة للتقدم و انتشار المعرفة والتى لم تكن لديها أية سياسة أو وسيلة لمقاومة غزو القوى الأجنبية .

و فى أثناء الحرب بين اليابان و روسيا القيصرية (١٩٠٤ - ١٩٠٥م) كانت الصين محايدة و رغم ذلك كانت ميادين القتال الرئيسية على الأراضى الصينية و نتيجة لهزيمة روسيا أحكمت اليابان سيطرتها على كوريا والسكك الحديدية الروسية السابقة فى جنوب منشوريا و الموانىء الروسية المستأجرة فى "دايرن" و "بورت آرثر"، ورأى عدد من العلماء و أبناء الطبقة الأرستقراطية المعارضين للمانشو فى نجاح اليابان كمجتمع ناهض حديثًا مثالاً لما يمكن تحقيقه فى ظل نظام ملكى دستورى ، ومثالاً لشعب شرقى تغلب على قوة غربية ، كما أوضح هذا أيضًا لبلاط المانشو بعض مزايا التعلم من الغرب .

وكانت سلسلة من المراسيم التى صدرت فى عام ١٩٠٥م تهدف إلى اعادة التنظيم العسكرى والتعليمى للإمبراطورية الصينية ، و كان الغرض من وراء التعديلات إكتساب القدرة على مقاومة القوى الغربية بشىء ما أكثر فاعلية من الأقواس و السهام وأكثر حسمًا من النمور والأتنة الورقية التى كان محاربو المانشو يرفعونها لإرهاب أعدائهم ، وتم اسقاط نظام الامتحان لاختيار الموظفين الحكوميين والذى خدم الصين الإمبراطورية على مدى ١٣ قرنًا ، ووُضِعَتْ خطة لإدخال التعليم العام فى المملكة الوسطى حيث تقرر إضافة مقدار ضئيل من المعرفة الحديثة إلى جانب طبع القيم القديمة فى الأذهان ، وطبقًا لأحد المناهج المعدة للصفوف الدراسية من ١٥ فأكبر فى المدارس الثانوية كان مقررًا - إضافة إلى الدراسة الأساسية للكلاسيكيات الصينية والأدب الصينى والفلسفة الصينية وحكم و مراسيم أسرة التشنج الحاكمة على مدى

المائة عام الأخيرة – دراسة مقارنة لجغرافيا الدول الأجنبية خاصة روسيا وفرنسا وألمانيا وانجلترا واليابان وأمريكا مع استعراض سريع لثروة و قوة كل أمة من هذه الأمم ، وخصصت مدة زمنية تقدر بعشرة أيام لهذا الجزء الأخير من المقرر الدراسى، وأنشئت الأكاديميات العسكرية وبدأ التجنيد من أجل الإلتحاق بالفرق العسكرية المختلفة التى كان يقوم بتدريبها معلمون أجانب ، وكان يتم إرسال الطلبة المتفوقين إلى الخارج لاستكمال دراستهم ، وغالبًا ماكانوا يذهبون إلى اليابان لكن البعض منهم كان يذهب إلى أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية ، كما شكلت لجنة لدراسة النظم الدستورية الأجنبية بهدف الإعداد للإصلاح الدستورى فى الصين .

صن يات سن التحالف الثورى

فى عام ١٩٠٥م توحد عدد من الجماعات الثورية فى الصين لتشكيل التحالف الثورى ، وتألف برنامجه من "المبادىء الشعبية الثلاثة" : القومية بهدف تحرير الصين كاملة من السيطرة الأجنبية ، و الديمقراطية بهدف الإطاحة بأسرة المانشو الحاكمة وإقامة نظام سياسى ديمقراطى وتوفير أسباب العيش للشعب ، وكان مبدأ " الأرض للفلاحين " مبدأ إشتراكيًا الهدف منه إعادة توزيع الأرض حتى تتمكن كل أسرة من أسر الفلاحين من إعالة نفسها .

و كان "صن يات سن" زعيمًا للتحالف الثورى ، وكان "صن" من أصل ريفى ليس ببعيد عن كانتون حيث ولد فى منطقة كانت معقلاً من معاقل التايينج فى الماضى ، واستقر شقيقه الأكبر فى "هاواى" ولحق به "صن" الصغير لتلقى تعليمه ، وفى مدرسة الإرسالية التبشيرية فى "هاواى" إعتنق "صن يات سن" المسيحية و بعد ذلك درس الطب فى هونج كونج ، وككثير من رفاقه كان "صن" معارضًا بشدة لنظام المانشو الحاكم ، وفى التسعينات من القرن التاسع عشر كون جمعية سرية حاولت القيام بثورة فى كانتون لكنها أخفقت وبداية من عام ١٨٩٥م فصاعدًا رصدت مكافأة لمن يقبض عليه واضطر للعيش فى المنفى ، وسافر إلى اليابان و الولايات المتحدة وبريطانيا لكسب تأييد الصينيين عبر البحار للحركة .



دكتور "صن يات سن" (١٨٦٦ - ١٩٢٥م) ، الرئيس المؤقت لأول جمهورية صينية

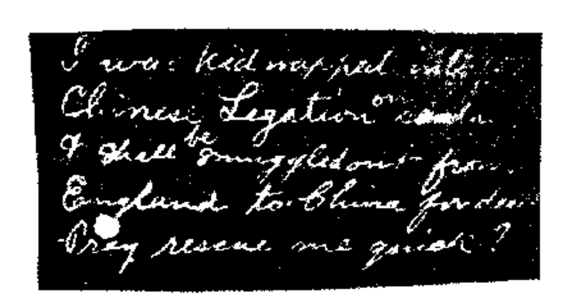
ووصل إلى انجلترا فى العام التالى ، وكان صن فى طريقه إلى الكنيسة بوسط لندن فى صباح أحد أيام الآحاد عندما قام اثنان من الصينيين بدفعه بقوة عبر مدخل منزل قريب ، " وخطر ببالى على الفور أن هذا المنزل لابد أن يكون مقر البعثة الصينية (٤٩ محلة بورتلاند) نظراً لعدد الرجال الصينيين الذين كانوا يرتدون لباس كبار الموظفين و حجم المنزل الكبير ..."

و تم احتجاز صن فى غرفة بالطابق العلوى ذات نافذة عليها قضبان حديدية تطل على الجهة الخلفية للمنزل ،و تم تعيين رجلين أو ثلاثة لحراسته و كان أحدهم أوروبياً ، وقيل لـ " صن " أنه قد قبض عليه " بأمر الإمبراطور " الذى أراد أسره حيًا أو ميتًا بأى ثمن ، وكان مقرراً حمله مكمم الفم و معصوب العينين كـ "مجنون" على متن باخرة متجهة شرقًا ونقله إلى سفينة حربية صينية تأخذه إلى كانتون لمحاكمته و إعدامه ، ويذكر دكتور صن فى مذكراته أنه توقع الموت : " بداية سحقوا كاحلى الإثنين قبل أن يكسروهما بمطرقة ، و قطعوا جفونى، و أخيراً فبعد أن مزقونى إرباً لم يكن بمقدور

أحد أن يطالب بجثتي ، ذلك أن القانون الصينى القديم لم يكن ليخطئ جانب الرأفة تجاه المجرمين السياسيين ."

وحاول صن عبثًا جذب انتباه الجيران أو المارة بإلقاء قطع من العملة من النافذة لكن موظفي البعثة من المانشو قاموا بجمعها ، وفي اليوم السادس لسجنه نجح صن في اقناع موظف انجليزي يدعى "كول" بحمل رسالة عن محنته إلى أستاذه السابق دكتور "كانتلي" الذي كان أحد رواد كلية الطب في هونج كونج و كان يقيم بمكان قريب .

و في الساعة الحادية عشر من ليل السبت حيث كان قد مضى أسبوع منذ اختطاف صن سمع دكتور كانتلي الذي كان نائمًا في فراشه رنين جرس الباب فنزل الدرج مرتديًا قميص نومه ليجد رسالة قصيرة دفع بها شخص ما من تحت الباب جاء فيها " اختطفت واحتُجِزت داخل مقر البعثة الصينية يوم الأحد الماضي وسوف يتم تهريبي خارج انجلترا إلى الصين لإعدامي ، أتوسل إليك أن تنقذني سريعًا ، أرجو أن تهتم بأمر الرسول لأجل خاطري في الوقت الحاضر ، فهو فقير جداً و سوف يفقد عمله بصنيعه من أجلي ." وبدأ دكتور كانتلي العمل على انقاذ صن بوضع حارس لمراقبة مقر البعثة الصينية للتأكد من أن دكتور صن لم يتم تهريبه خارج المبنى إلى جهة غير معلومة أو إلى السفينة التي سوف تحمله إلى الصين ، وأحس العاملون بمركز الشرطة المحلية (ماريلبون) بأن هذه المسألة خارج نطاق إختصاصهم ، وارتاب رجال اسكتلنديارد في الأمر في الساعات الأولى من صباح يوم الأحد ، وبعد تفكير في طلب


I was kidnapped into
Chinese Legation on
I shall be smuggled out from
England to China
Pray rescue me quick?

البطاقة التي أتت بالمدد وأنقذت حياة دكتور "صن" عندما اختُطِف في مقر البعثة الدبلوماسية الصينية في لندن

العون من الصحافة أسرع دكتور كانتلى إلى جريدة " التايمز " لكن أحداً لم يكن يعمل بالجريدة حتى العاشرة من ذلك المساء ، ولم تكن وزارة الخارجية على استعداد للقيام بأى تحرك فى عطلة نهاية الأسبوع إستناداً إلى مثل هذا الدليل الواهى ، ورغم ذلك جاء التأييد من أحد خطوط الشحن البحرى الذى أعلن أن الرحلة قد تم حجزها بالفعل، وبعد مرور اثنى عشر يومًا على أسره أطلق سراح دكتور "صن يات سن" من مقر البعثة الصينية في لندن بعد تدخل وزارة الخارجية البريطانية ،

و بعد مرور ١٦ عامًا وفى عام ١٩١١م كان دكتور "صن يات سن" فى إحدى أسفاره في لندن ثانية وكان متواجداً بمنزل دكتور "كانتلى" عندما تلقى برقية أدت إلى عودته إلى الصين كرئيس مؤقت لأول جمهورية صينية . وكانت الثورة قد اندلعت فى الصين و أُطيحَ بأسرة المانشو الحاكمة .

الفصل الرابع عشر

أول جمهورية

١٩١١-١٩٤٩ م

ثورة ١٩١١م

كان عام ١٩١١م واحداً من أعوام الكوارث الطبيعية والمجاعة و الشعور المتزايد بالإستياء والسخط فى الصين ، ففى الربيع تولت حكومة المانشو مسئولية إنشاء بعض خطوط السكك الحديدية الخاصة تمهيداً لرهنها للأجانب مما أدى إلى إثارة الإحتجاجات ووقوع صدامات مسلحة ، وفى أكتوبر من عام ١٩١١م وتحت تأثير التحالف الثورى الصينى قامت الحامية الإمبراطورية المتمركزة فى « ووتشانج » بالثورة والمطالبة بإسقاط الأسرة الحاكمة ، واستولوا على ترسانة الأسلحة ، وانضم أهل المدن والطلبة والفلاحون إلى الثوار ، وفر موظفو المانشو ، وأصدر البلاط أوامره للأسطول بالإبحار عبر اليانجتسى لإخماد الثورة ، وأبحر الأسطول ورسا لكنه لم يطلق النار على الثوار ، وثارت الأقاليم الواحد تلو الآخر و أسقطت نظام المانشو الحاكم ، وتُعرَف هذه الثورة بـ " العشرة المزدوجة " نظراً لأنها إندلعت فى اليوم العاشر من الشهر العاشر .

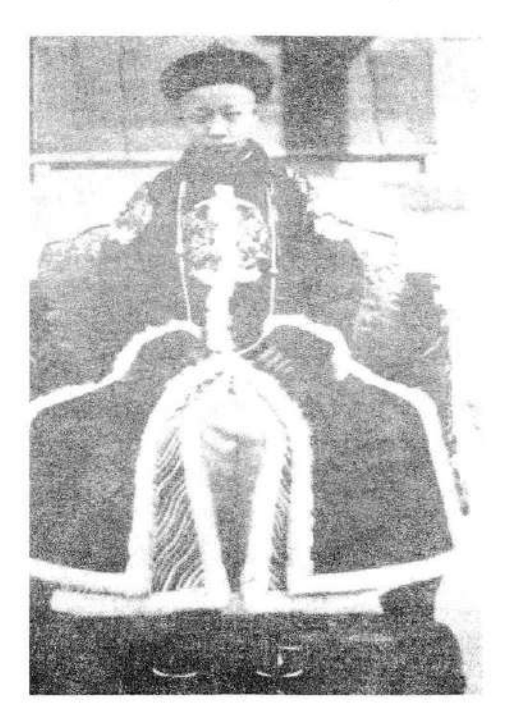
وعندما توفى إمبراطور المانشو ويوذا العجوز قبل ثلاثة أعوام (١٩٠٨م) إعتلى «هنرى بو يى» البالغ من العمر ثلاث سنوات عرش الإمبراطورية ، وعندما واجه ثورة فى عام ١٩١١م عين البلاط - باسم الإمبراطور الصبى - « يوان شيه كاى » خائن الإمبراطور السابق رئيساً للوزراء وقائداً عاماً للقوات الإمبراطورية .



– «هنرى بو يى» ، الإمبراطور «هسوان تونج» آخر أباطرة أسرة التشنج الحاكمة فى سن الثانية ، وقد وصف «هنرى بو يى» في سيرته الذاتية نشأته في البلاط الإمبراطوري قائلا : " متى خرجت للتنزه فى الحديقة كان يتعين تنظيم موكب يتقدمه أحد الخصيان كى يقوم بوظيفة بوق السيارة حيث كان يسير على بعد ٢٠ أو ٣٠ ياردة أمام باقى المشاركين فى الموكب الذين كانوا يرنمون صوت "شير ... شير ..." لتحذير أى شخص قد يتواجد قريباً حتى يبتعد على الفور، ومن خلفه كان هناك إثنين من الخصيان يتقدمان بخطى بطيئة على جانبى الطريق ، وعلى بعد عشر خطوات خلفهما كان يوجد قلب الموكب - الإمبراطورة الأرملة أو أنا نفسي ، فإذا كنت محمولاً علي كرسى كان هناك إثنين من صغار الخصيان يسيران إلى جوارى لتلبية حاجاتى فى أية لحظة ، وإذا كنت ماشياً كانا يسنداني ، ومن ورائهما كان يوجد خصى يحمل مظلة حريرية كبيرة تتبعه جماعة كبيرة من الخصيان الذين كان بعضهم خالى اليدين والبعض الآخر منهم يحمل مختلف الأشياء: مقعد إذا أردت أن أستريح ، وثياب إضافية إذا أردت أن أبدل ثيابى ، ومظلات ، ومن وراء هؤلاء الخصيان التابعين للحضرة الإمبراطورية كان يأتي الخصيان القائمون على إعداد وتقديم الشاى الإمبراطورى حاملين صناديق تحتوى على مختلف أنواع الكعك والأطعمة الشهية وبالطبع جرار الماء الساخن ومستلزمات تقديم الشاى ، وكان يتبعهم خصيان الصيدلية الإمبراطورية حاملين أكياس الدواء وتجهيزات الإسعافات الأولية التى كانت تتدلى من الأعمدة التي كانت تُستَخدم لحملها ... وفى نهاية الموكب كان يأتى الخصيان الذين يحملون القبعات النسوية والتونيات المهجعية ، وإذا كنت محمولاً على محفة مفتوحة أو مغطاة حسب فصول العام كنت آتى فى مؤخرة الموكب ، وكان هذا الموكب المؤلف من عناصر مختلفة من عشرات الأشخاص يتقدم فى صمت تام ونظام محكم ... وعندما سمعت الناس يروون قصة آخر أباطرة أسرة المنج الحاكمة الذى لم يكن لديه سوى خصى واحد بقى معه شعرت بضيق بالغ فى النهاية ." «هنرى بو يى» الإمبراطور الصبى لمدة عشرة أيام فى عام ١٩١٧م .

- ٢

و كان التحالف الثورى قد أعلن فى تلك الأثناء قيام جمهورية الصين وشكل حكومة مؤقتة فى «نانكنج» وتم إنتخاب دكتور «صن يات سن» - العائد من أوروبا - رئيسًا مؤقتًا ، وفى بكين أسرع «يوان شيه كاى» - بوصفه أحد القادة العسكريين من الطراز القديم - باغتنام الفرص التى أتيحت له فقبل قرضًا ضخمًا من جماعة من المصرفيين الأجانب لإصلاح أحوال البلاد بشروط مماثلة لتلك التى أثارت المعارضة الشعبية ضد المانشو ، كما قام أيضًا بإرسال قواته جنوبًا لمهاجمة ووتشانج.



- تولى حكم الصين عدد من الأباطرة الذين اشتهروا بارتقائهم إلى السلطة أو ممارستهم لها ، وتفوق قليل منهم فقط على «هنرى بو يى» فى التنازل عن السلطة ، فقد تنازل عن العرش مرتين . وقد اعتلى هذا الإمبراطور الألعوبة العرش فى سن الثالثة، وتنازل عن العرش فى عام ١٩١٢م بعد الثورة، وفى عام ١٩١٧م أعيد تنصيبه بواسطة قائد عسكرى لبضعة أيام ، وعندما اجتاح اليابانيون منشوريا تُوج ثانية (١٩٣٢م) كإمبراطور ألعوبة لدولة منشوكو الجديدة الخاضعة للسيطرة اليابانية ، وعندما استسلمت اليابان فى عام ١٩٤٥م ألقى الروس القبض على «هنرى بو يى» ، و أمضى خمس سنوات فى سيبيريا، وفى عام ١٩٥٠م أعيد إلى الصين . وفى عام ١٩٥٩م أطلق سراحه من السجن بعفو خاص وأصبح بستانيًا فى بكين .

و خوفًا من اندلاع حرب أهلية و تقسيم البلاد مرة أخرى أذعن « دكتور صن » لضغوط بعض أعضاء التحالف الثورى ووافق على التفاوض ، و أبدى استعداده للإستقالة من منصبه كرئيس للجمهورية لصالح « يوان شيه كاى » إذا وافق الأخير على الإنفصال عن المانشو و تأييد الجمهورية وعاصمتها «نانكنج» ودستورها المؤقت ، وأعد يوان - الذى فقد ولاءه بمرور السنوات - العدة لتنازل الإمبراطور الصبى عن العرش، وقد عاد مرسوم التنازل عن العرش بدخل كبير على ابن السماء المخلوع الذى سُمِحَ له بالإحتفاظ بالأملاك الإمبراطورية الخاصة بما فيها القصور، كما احتفظ الأرستقراطيون من المانشو بأملاكهم وعدد من الإمتيازات، وقد خول هذا المرسوم «يوان شيه كاى» سلطة تشكيل حكومة جمهورية مؤقتة .

يوان شيه كاى

وكان تنازل إمبراطور المانشو عن العرش فى فبراير من عام ١٩١٢م وبعد ذلك بيومين إستقال «دكتور صن» أملاً فى حفظ السلام و الوحدة داخل الجمهورية ، وأصبح «يوان شيه كاى» رئيساً للجمهورية ، وأبقى على العاصمة فى بكين .

وفى الشهر التالى تم إعلان دستور الجمهورية الجديد بعد تعديله، وتضمن الأهلية للتصويت على أساس الملكية وهو ما كان يعنى حرمان أغلبية الناس من حق الإنتخاب ، وتجاهل مسألة المساواة فى ملكية الأرض ، و تراجع عن الشرط الخاص بالمساواة بين الرجال و النساء ، و الواقع أن حجم التغيير كان ضئيلاً عدا اسم الحاكم ، وكما كان الحال فى الماضى فقد ترك تغيير الأسرة الحاكمة المشكلات الأساسية دون حل وظلت المشكلة الزراعية قائمة - صاحب الأرض الجشع و الموظف الذى لا يرحم والفلاح الفقير، وعلاوة على ذلك فقد استمرت الجمهورية فى رهن موارد الصين من أجل المصالح الأجنبية ، و أتاحت الفرصة للقائد العسكرى «يوان» لتأسيس أسرته الحاكمة .

و أصبح «يوان» ديكتاتوراً عسكرياً وأخذ فى استخدام قادته و جنده فى تحصيل الإيجارات و جباية الضرائب بالقوة ، و تم التخلص من الخصوم السياسيين باغتيالهم وسرعان ما تم قمع المعارضة بحد السيف ، ولم يمض وقت طويل حتى برزت طموحات «يوان شيه كاى» الشخصية إلى السطح ، ومع مطلع عام ١٩١٤م كان قد تم تعديل



– «هنرى بو يى» يتعلم من بستانى فى بكين حيث كان يعمل بعد العفو عنه ، ويقول «هنرى بو يى» عن تجربة السجن فى الصين: "على مدى الأعوام الأربعين الماضية لم يحدث أبداً أن طويت لحافى أو رتبت فراشي أو صببت الماء الذى أغتسل به ، ولم يحدث أبداً أن غسلت قدمي أو ربطت حذائى ، ولم يحدث أبداً أن لمست مغرفة أرز أو سكين أو مقص أو إبرة وخيط ، ولذا أجد نفسي الآن فى وضع صعب للغاية وأنا أقوم برعاية نفسي ، ففى الوقت الذى يقوم فيه الآخرون بالإغتسال فى الصباح أكون قد ارتديت ملابسي لتوى ...وعندما أضع فرشاة الأسنان فى فمى أكتشف أنه لا يوجد عليها مسحوق تنظيف الأسنان وعندما أكون قد انتهيت من تنظيف أسنانى يكون الآخرون قد انتهوا من تناول إفطارهم تقريباً ، ويستمر الحال هكذا طوال اليوم ... وفى اليوم الأول لنا فى «فوشان» تم إعداد بيان بالواجبات لكل زنزانة حيث كان يتعين على كل واحد أخذ دوره فى كنس الأرضية ومسح المنضدة و إفراغ مبولة الغرفة للآخرين ... فهل كان لى أن أفرغ المبولة للآخرين ؟ وشعرت بالإستياء لذلك أكثر مما شعرت بشأن الاتفاق السرى بين منشوكو و اليابان ، و رأيت أننى سوف أهين أجدادى وأخزى أفراد عشيرتى الأصغر سناً ." و فى سنوات عمره الأخيرة إتجه «هنرى بو يى» إلى الكتابة التاريخية و نشر سيرته الذاتية ، وتوفى فى بكين فى عام ١٩٦٧م .

الدستور ثانية لجعله رئيساً مدى الحياة ، و جعل منصب الرئيس وراثياً فى أسرته حتى يخلفه ولده .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤م ظلت الصين محايدة بادئ الأمر، وانضمت اليابان إلى الحلفاء ضد ألمانيا و النمسا و المجر، و مرة أخرى عادت اليابان للقتال على أرض الصين مغتنمة الفرصة التى سنحت لها للإستيلاء على الإمتيازات الألمانية فى الصين ، و أتاحت الحرب الأوروبية الفرصة لليابان كى تحصل

على قواعد لها بهدف إحكام قبضتها على الصين التى كانت سوقًا عريضًا للمنتجات اليابانية و مصدراً عظيمًا للمواد الخام ، حتى أن أحد القادة العسكريين اليابانيين علق على ذلك قائلاً " إن فرصة كهذه لن تتكرر ثانية لمئات الأعوام " ، و لم تكن هناك أية مقاومة من جانب «يوان شيه كاى» .

واحد وعشرون مطلباً

فى مطلع عام ١٩١٥م قدم اليابانيون واحداً وعشرين مطلبًا لـ « يوان شيه كاى » كان فى مقدمتها إطلاق يدهم فى الصين فى محاولة لإخضاع الصين لسيطرتهم الكاملة ، وتضمنت هذه المطالب - إضافة إلى نقل " الحقوق " الألمانية السابقة فى الصين إلى اليابان - سيطرة اليابان على السكك الحديدية و الموانىء الجديدة فى منشوريا، وعدم تأجير أى ميناء أو خليج أو جزيرة على طول ساحل الصين كاملاً لأية قوة أخرى عدا اليابان ، ووضع مصانع الحديد والصلب و الترسانات والمناجم الصينية وكذلك الشرطة فى المراكز الهامة تحت السيطرة الصينية - اليابانية المشتركة ، وكان من المقرر استخدام "المستشارين" اليابانيين للمشاركة فى السيطرة السياسية والمالية والعسكرية على الصين ، وفى شهر مايو من ذلك العام وافق «يوان شيه كاى» على المطالب الرئيسية فى مقابل التأييد اليابانى لطموحاته الإمبراطورية أعد العُدَة لاعتلاء عرش التنين .

واجتاحت الثورات أنحاء البلاد إحتجاجًا على الإذعان للمطالب اليابانية وضد خطط «يوان» الإمبراطورية. ونظراً لافتقار ابن السماء القادم إلى التفويض الإلهي بشكل واضح فقد ألغي مراسم تبوئه العرش، وتوفي بعد بضعة أشهر حيث مات كمداً وحسرة، وآل حكم الجمهورية إلى القادة العسكريين الشماليين - قادة ومغامرو يوان تؤازرهم قوى المعاهدة ، وأصبحت الحكومة الجمهورية فى بكين حكومة صورية ، واختفت السلطة المركزية وتصارعت جماعات القادة التى سعت كل واحدة منها إلى خطب ود واحدة أو أكثر من القوى الأجنبية طلبًا للسيادة ، وفى إحدى المراحل أعيد إمبراطور المانشو الصبى إلى العرش، ودام جلوسه على العرش عشرة أيام فقط ، وبدأ "عهد جديد من عهود القادة العسكريين" كى يقضى على جيل آخر من الشعب الصينى.

ووصف أحد المشاركين فى ثورة ١٩١١م وهو «وو لاو» (وو الأكبر الذى أصبح فيما بعد رئيسًا لجامعة الشعب الصينى) حالة اليأس بعد ما كان من خيانة اليوان قائلاً :

« لقد أتت ثورة ١٩١١م بشعاع من نور كى يبدد الظلام الذى كانت تعيش فيه الصين منذ أمد طويل ، وجاءت بالسعادة والتشجيع للشعب ولكن لم يمض وقت طويل على ذلك حتى اغتصب يوان شيه كاى السلطة وألقى بالأمة بأكملها فى هاوية سحيقة من جديد ، وكان شعور الشعب بالإحباط واليأس شديدًا بشكل لا يحتمل فانتحر عدد منهم ... وعندما سمع أخى الأكبر - الذى كان قد أصيب بالعمى ، وكان يعانى من المرض والفقر فى تشنجتو - بالتهديد باعتقالى أصابه اليأس و شعر بانه لا مستقبل لوطننا وبلدنا ، وانتحر بشنق نفسه ، أما أنا شخصيًا فكنت ضد فكرة الإنتحار، وأعتقد أنه ليس من الحكمة أن يقتل المرء نفسه لأنه إذا كانت لديه الشجاعة الكافية للتضحية فمن الأفضل كثيراً بالنسبة له أن يذهب ويقاتل و أن يخاطر بالموت على ذلك النحو ، أضف إلى ذلك أننى كنت متفائلاً دائمًا إلى أقصى حد فيما يتعلق بمستقبل وطننا » .

وأدى إنشغال القوى الغربية بالحرب فى أوروبا إلى تراخى نشاطها الصناعى فى الصين الأمر الذى أدى إلى توسع الصناعة التى كانت تخضع للسيطرة الصينية - اليابانية المشتركة بشكل سريع ، و فى المدن قام المقاولون الصينيون بتطوير الصناعات الخفيفة بشكل أساسى ، وقد نشأت قوة كبيرة من عمال الصناعة ، ولم تكن ظروف عمال الصناعة بأفضل من تلك الظروف التى كان يعانى منها الفلاحون ، فالساعات الطويلة من العمل والأجور المنخفضة كانت نصيب الرجال والنساء والأطفال على حد سواء فى المصانع ، و كان الجلد بالسوط هو الطريقة الشائعة لتأديب العمال ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت المدن مراكز للإضرابات العمالية .

و خلال هذه الفترة نشأت حركة ثقافية نشطة بين المفكرين و الكتاب الذين هاجموا فى كتاباتهم - التى لم تكن بالأسلوب الكلاسيكى و لكن بلغة شعبية بسيطة - النظام الإجتماعى القديم الذى أخفقت الجمهورية فى إسقاطه ، وكان لكتاباتهم أثر كبير بين جماعات الطلاب و الشباب التى شُكلِتْ لمناقشتها .

وفى أغسطس من عام ١٩١٧م إنضم القادة العسكريون فى بكين إلى الحلفاء وأعلنوا الحرب على ألمانيا وأرسلت كتائب من العمال الصينيين إلى أوروبا و الشرق الأوسط ، وعندما تحقق النصر على ألمانيا فى عام ١٩١٨م واجتمع ممثلو الحلفاء فى «فرساى» قرب باريس لصياغة معاهدة سلام طالب الصينيون بإلغاء الامتيازات الأجنبية فى الصين بما فيها المطالب الواحد و العشرين ، وذلك تمشياً مع مبدأ تقرير المصير الوطنى الذى كان يدعو إليه الرئيس الأمريكى «ويلسون» و غيره من زعماء الحلفاء ، ولم يُلتَفَتْ إلى هذا المطلب الصينى ، و قَبِل الحلفاء مطالب اليابان و نقلوا كافة الإمتيازات التى كانت لألمانيا فى الصين – سابقًا – إلى اليابان .

حركة الرابع من مايو

كان الشعور بالغضب والإستياء لاحدود له فى الصين ، وهزت الإحتجاجات أرجاء البلاد، و بدأت الحركة بطلاب بكين الذين تجمعوا فى مقر البعثة الدبلوماسية فى الرابع من مايو فى محاوله للتأثير على مندوبى الحلفاء الذين كانوا ما يزالون مجتمعين فى فرساى ، وقامت شرطة البعثه بتفرقتهم فاقتحموا مقر إقامة وزير الماليه وتم استدعاء القوات لسحق المظاهرة ، وألقى القبض على الكثير من الطلاب وقام طلاب بكين بتنظيم إضراب احتجاجى فى اليوم التالى ، وفى المدن الأخرى قام الطلاب والعمال وأطفال المدارس بتنظيم إضرابات مطالبين برفض معاهدة السلام وحرية الكلام وعقد الإجتماعات وإطلاق سراح المعتقلين، وكتب الأستاذ «جون ديوى» إخصائى التعليم الأمريكى الذى كان متواجداً فى بكين آنذاك : " لقد رأينا للتو بضع مئات من الفتيات يخرجن فى مسيرة بعيداً عن مدرسة الإرسالية التابعة للمجلس الأمريكى فى طريقهن لمقابلة الرئيس ومطالبته بإطلاق سراح الطلاب من الأولاد الذين كانوا فى السجن لإلقائهم خطبًا فى الشارع ... إننا نشهد مولد أمة ودائمًا ما يكون الميلاد عسيراً . " وكان الضغط شديداً للغاية فاستسلمت الحكومه فى نهاية الأمر وأطلق سراح الطلبه المسجونين ، مع تقديم اعتذارات لهم وتم عزل الموظفين الذين كانوا قد توصلوا إلى إتفاق مع اليابان فى عام ١٩١٨م (وفر هؤلاء الموظفون إلى اليابان) .

ورفض المندوبون الصينيون فى فرساى التوقيع على معاهدة السلام ، لكن شروط المعاهده ظلت كما هى دون تغيير وتم تنفيذها .



طلاب بكين فى طريقهم للإنضمام إلى مظاهرة الرابع من مايو من عام ١٩١٩م .

وكان شعور الصينيين بالغضب والإذلال أشد وطأة من شعورهم بالإستياء إزاء إذعان يوان شيه كاى للمطالب اليابانية ، وانهارت الثقة الصينية فى عدالة الحلفاء ، وتحولت أعين الصينيين الثورية بعيداً عن الغرب الأقصى ، وكانت حركة الرابع من مايو إيذاناً ببداية عهد ثورى مُتَقِدْ فى الصين ، وكانت هذه الحركة موجهة ضد التدخل الإمبريالى والقادة العسكريين الذين أذعنوا للمطالب الأجنبية ، وزادت من قوة الحركة الثقافية لإصلاح لغة التعليم وحركة تحرير المرأة ، وبدأ عدد أكبر من الكتاب فى الكتابة حول الموضوعات الإجتماعية ، واستخدام اللغة العامية كالمؤلف « لو هيسون » ،

وتأثرت الحركة بالثورة الروسية التى قامت فى عام ١٩١٧م والتى كان لها أصداء عميقة فى الصين ، وفى روسيا تم إسقاط الحكم الإستبدادى للقيصر والنظام الإجتماعى القديم على أيدى البلاشفة بزعامة «لينين»، وكان البلاشفة شيوعيين تلهمهم كتابات «كارل ماركس» وكانوا يسعون إلى إقامة مجتمع شيوعى فى روسيا ، وكان "البيض" الذين عارضوا البلاشفة " الحمر" فى روسيا يلقون دعماً من الجيوش وأشكالاً أخرى من المساعدة من جانب القوى الأجنبية التى كانت تتمسك بامتيازاتها فى الصين . وإزداد تعاطف الصينيين مع الحليف البلشفى المتوقع ضد أعدائهم المشتركين عندما تخلت الحكومة السوفيتية الجديدة فى روسيا عن الامتيازات التى كانت قد حصلت عليها الحكومة القيصرية القديمة فى الصين ، وعندما حاولت اليابان ضم سيبيريا الشرقية وهى جزء من الأرض السوفيتية قام البلاشفة بطرد القوات اليابانية ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتم فيها وقف الأطماع اليابانية العدوانية فى آسيا .

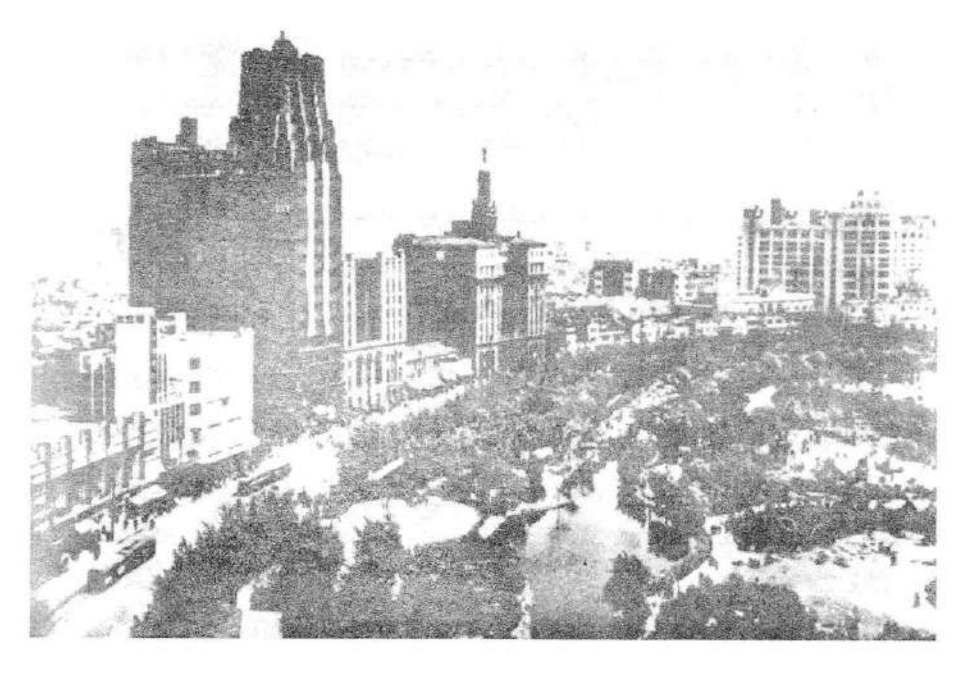
وقد زاد إخفاق الثورة الصينية التى قامت فى عام ١٩١١م فى تغيير النظام الإجتماعى وتحسين الظروف المعيشية من الإهتمام الصينى بتجربة الثورة الروسية وأفكارها، ووجهت الحركة الثقافية الجديدة فى الصين إهتمامها إلى الفلسفة الماركسية، وعنيت الكثير من المنشورات والجماعات بدراستها ، وبحلول عام ١٩٢٠م كانت قد تشكلت أول جماعات شيوعية فى شنغهاى و بعض المدن الأخرى ، وكذلك من قبل الصينيين الذين كانوا يدرسون بالخارج ، وفى يوليو من عام ١٩٢١م توحدت هذه الجماعات لتشكيل الحزب الشيوعى الصينى الذى قام على أساس نظريات ماركس ولينين .

الكومينتانج والقادة العسكريون

بعد إسقاط أسرة المانشو الحاكمة وقيام الجمهورية الصينية فى عام ١٩١١م أُعيدَ تنظيم التحالف الثورى القديم ، وأصبح الكومينتانج الحزب الشعبى الوطنى الذى كان ما يزال تحت زعامة دكتور «صن يات سن» وكان مكرساً للمبادىء الشعبية الثلاثة ، وكسب الحزب عدداً من المؤيدين الأقل ثورية من التحالف السابق ، وكان هؤلاء أناساً أرادوا ألا يمضوا إلى أبعد من إسقاط أسرة المانشو الحاكمة ، ورضوا بتولى مقاليد

السلطة وامتيازات الحكام السابقين ، وبعد وفاة «يوان شيه كاى» وطد دكتور «صن يات سن» دعائم وجوده فى كانتون فى الجنوب بمساعدة أحد القادة العسكريين الجنوبيين ، وتولى منصب رئيس الجمهورية المؤقت .

و تلى حركة الرابع من مايو نمواً سريعاً للنقابات العمالية بين عمال المدن وعمال السكك الحديدية والبحارة ، وقامت إضرابات عديدة خاصة ضد المستخدمين الأجانب لتحقيق ظروف معيشية أفضل ، وحاولت حكومة القادة العسكريين فى الشمال قمع الإضرابات بإرسال قوات إلى هناك ، كما علت الأصوات المطالبة بالإصلاح بين صفوف الفلاحين، وفى عام ١٩٢٠م تسببت مجاعة أخرى فى الأقاليم الشمالية فى وفاة الملايين، وقامت جيوش القادة العسكريين بنهب الريف والقرى و ذبح الأعداء المهزومين .



– الشارع الرئيسى فى شنغهاى ، وحتى عام ١٩٤٩م كانت المدينة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء : المستعمرة الدولية ، و الإمتياز الفرنسى ، و منطقة شنغهاى الصينية الكبرى ، و فى مطلع هذا القرن كانت هناك لافتة معلقة على بوابة متنزه «باند» بجوار الشارع الرئيسى تقول " ممنوع دخول الصينيين أو الكلاب ".

ويحلول عام ١٩٢٣م كان دكتور «صن يات سن» قد أيقن أنه كان يتعين عليه قطع كل صلة تربطه بالنظام القديم – القادة العسكريون القدامى ، وتحول إلى الحزب الشيوعي الصيني الذى شُكلَ مؤخراً وإلى الإتحاد السوفيتي للتحالف معه ، وتحقق له ما أراد ، وأُعيد تنظيم الكومينتانج الذى كانت المبادىء الشعبية الثلاثة ما تزال أساساً لسياسته وسُمحَ للشيوعيين بالإنضمام إلى عضويته ، وتعهد الكومينتانج بتأييد حركة العمال . وشكلت حكومة ثورية جديدة فى كانتون وأنشئت أكاديمية عسكرية لتدريب القوات التى تمكنت من هزيمة القادة العسكريين : أكاديمية «وامبوا» العسكرية، وأصبح تشيانج كاى شيك الذى كان مستشاراً عسكرياً لدكتور صن منذ عام ١٩١٧م عميداً للأكاديمية وكان الزعيم الشيوعى «تشو إن لاى» مديراً سياسياً لها ، و كان مستشاروها و تجهيزاتها من الإتحاد السوفيتى .

وفى عام ١٩٢٥م خطط «صن يات سن» لإرسال حملة شمالاً لهزيمة القادة العسكريين و توحيد الصين ، لكنه كان مريضاً وتوفى فى ربيع ذلك العام ، وقبل وفاته كتب وصية إلى الكومينتانج يقول فيها :

" إن الثورة لم تنته بعد ، فدعو رفاقنا يتبعوننا ... مبادىء الشعب الثلاثة ... وابذلوا كافة الجهود لتحقيقها، وقبل كل شىء يجب تنفيذ ما أعلنته مؤخراً تأييداً لإنشاء مجلس نواب وطنى للشعب الصينى وإلغاء المعاهدات غير المتكافئة فى أسرع وقت ممكن ."

وجاء فى رسالة أخرى وجهها إلى زعماء الإتحاد السوفيتى :

" إنكم ترأسون إتحاداً يتألف من جمهوريات حرة ... وشاء القدر أن أترك عملى قبل أن أنجزه ... وقد كلفت الكومينتانج بمواصلة عمل الحركة الوطنية الثورية حتى تصبح الصين – التى حولتها القوى الإمبريالية إلى بلد شبه مستعمر– حرة ... وقد أصدرت تعليماتى للحزب بأن يكون على اتصال دائم بكم ، وإننى لَعلّى ثقة تامة لاتتزعزع من استمرار الدعم الذى قدمتموه لبلادى حتى الآن ."

وعقب وفاة « صن يات سن » الذى حزن الشعب لرحيله فى أنحاء الصين كما لو كان أبًا فقيداً أصبح «تشيانج كاى شيك» زعيماً للكومينتانج ، وقد ولد تشيانج فى أسرة ميسورة الحال تمتلك أرضاً ، وسلك طريق العمل العسكرى المناهض للمانشو

قبل أن يصبح مستشار «صن» للشئون العسكرية ، وعندما خرجت الحملة من كانتون في منتصف عام ١٩٢٦م لقتال القادة العسكريين في الشمال كانت بقيادة «تشيانج» .

وفي طريق جيش الحملة الشمالية أعد العمال العدة لتقديم الدعم الفعال ، فساعدوا في النقل والتموين. وقامت جمعيات الفلاحين – خاصة في إقليم «هونان» – بمهاجمة أصحاب الأراضي ومؤيدي القادة العسكريين المحليين الذين أجبروا على خفض الإيجارات و قيمة الفائدة ، وفي المدن تأثرت كافة المصانع و التجارة بالإضرابات العمالية ، وهوجمت المصالح الأجنبية بشكل خاص ، ووقعت مصادمات دموية بين أصحاب الإمتيازات الأجانب ، وبمساعدة هذه الأحداث وصلت الحملة الشمالية إلى اليانجتسي مع مطلع عام ١٩٢٧م لتخضع جنوب الصين لسيطرة حكومة الكومينتانج التي انتقلت من كانتون إلى ووهان (ووتشانج) .

واستعداداً للإستيلاء على شنغهاي – أغنى مدن الصين عند مصب اليانجتسي – دعا الشيوعيون بزعامة « تشو إن لاي » إلى إضراب عام هناك ، فأغلقت المصانع واستولى العمال على مركز الشرطة وترسانة السلاح وأطاحوا بحكم القادة العسكريين وأعلنوا قيام حكومة المواطنين ، وفي تلك الأثناء وصل «تشيانج كاي شيك» على رأس الحملة العسكرية وتحقق النصر .

وأدت هذه الأحداث إلى جعل بعض الأحزاب اليمينية في الكومينتانج تعيد النظر في الثورة الإجتماعية والتعاون مع الشيوعيين ، و أدرك أبناء الطبقة الأرستقراطية في الريف أن مبدأ " الأرض للفلاحين " أصبح واقعًا ، وفي المدن خشي رجال الأعمال التعرض لمصادرات مماثلة على أيدي العمال فحاول بعضهم من الأجانب والصينيين التقرب إلى «تشيانج كاي شيك» ، وكان لدى «تشيانج» نفسه علاقات عمل هامة فشارك رجال الأعمال مخاوفهم ، وبعد مرور أسبوعين على طرد القادة العسكريين من شنغهاي استعان بجنده و عصاباته من عالم شنغهاي السفلي في مهاجمة زعماء النقابات التجارية والشيوعيين وكل من له صلة بهم فقتل الآلاف ، ووقعت مذابح مماثلة في المدن الأخرى الخاضعة لسيطرته وفي الريف .

وبعد بضعة أيام قام «تشيانج» بتشكيل حكومته الوطنية في «نانكنج» في عام ١٩٢٧م ، وتخلى عن التحالف مع الشيوعيين و الإتحاد السوفيتي ، وأصبحت

عضوية الحزب الشيوعي الصيني جريمة عقوبتها الإعدام ، واضطـرت أرملة « صن يات سن » وزعماء الكومينتانج الآخرون الذين تمسكوا بالسياسات الأصلية للفرار إلى المنفى ، وانهارت حكومة « ووهان » وآلت كافة السلطات إلى «تشيانج كاي شيك» وحكومته الوطنية في «نانكنج» .

تشيانج كاي شيك

لَبِسَ «تشيانج كاي شيك» عباءة «صن يات سن» لكنه لعب دور «يوان شيه كاي» ، وتواصلت الحملة الشمالية ولم تواجه سوى مقاومة ضعيفة ، وفي عام ١٩٢٨م إستولى «تشيانج» على بكين وتم حل حكومة القادة العسكريين ، وظلت «نانكنج» العاصمة ، وتوحدت الصين رسمياً في ظل الحكم الديكتاتوري للقائد العام «تشيانج كاي شيك» ، واعترفت القوى الغربية بحكومته و ساعدته بقروض من المصارف الأجنبية .

وكانت مشكلة القادة العسكريين الداخلية قد تمت تسويتها في ذلك الوقت ، لكن المشكلة "الوطنية"- سيطرة القوى الأجنبية على الأراضي والموانيء و جزء كبير من اقتصاد الصين – لم تكن في طريقها للحل ، وثارت المشاعر بشدة بهذا الشأن ، وترتب على ذلك وقوع كثير من المصادمات في شنغهاي و الموانيء الأخرى في العشرينات من القرن العشرين .

العدوان الياباني

كان اليابانيون – المتحصنين في «شانجتونج» التي كانت إحدى الإمتيازات الألمانية السابقة في الصين – ما يزالون يتحينون الفرصة المناسبة كي يبحروا غرباً لبسط سيطرتهم على الجزء الرئيسي من آسيا بهدف معاودة الهجوم على الأقاليم الشرقية للإتحاد السوفيتي و إخضاع المزيد من أراضي الصين لسلطانهم ، وقد وطدوا دعائم نفوذهم في منشوريا حيث كان القادة في ذلك الإقليم على إتصال دائم بهم خلال عهد القادة العسكريين .

وفى خريف عام ١٩٣١م هاجم الجيش اليابانى القوات الصينية فى «موكدن» بمنشوريا ، وفى غضون أشهر قليلة طردوا الصينيين إلى جنوب السور العظيم واستولوا على إقليم منشوريا الذى كان واحداً من أكثر الأقاليم الصينية تطوراً صناعياً ، و أحيلت المسألة إلى عصبة الأمم ، وكانت العصبة قد أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى لمنع العدوان وحفظ السلام العالمى، وتم شجب العمل اليابانى لكنه لم تتخذ أية إجراءات من جانب عصبة الأمم أو أى من أعضائها لضمان الإنسحاب اليابانى من منشوريا ، وانسحبت اليابان من عصبة الأمم لكنها لم تنسحب من منشوريا وأعلنتها دولة مستقلة تحت اسم «منشوكو» ، وأعادت تنصيب ابن السماء المخلوع «هنرى بو يى» إمبراطوراً، وبطبيعة الحال كان ألعوبة يأتمر بأوامر اليابانيين فحسب .

ولم يبد «تشيانج كاى شيك» أية مقاومة لليابانيين .

وفى عام ١٩٣٢م هاجم اليابانيون شنغهاى، وأبدت وحدات الجيش فى تلك المنطقة والسكان مقاومة شديدة ، ورغم ذلك وقع «تشيانج» إتفاقية مع اليابانيين سمحت لهم بوضع جنود فى المنطقة فى الوقت الذى تقوم فيه الصين بسحب حامياتها .

وبرغم الغضب الشعبى إزاء العدوان اليابانى لم يقم الوطنيون فى «نانكنج» بتصعيد أعمال المقاومة واستسلموا فى جميع المراحل، والواقع أن «تشيانج كاى شيك» كان مشغول البال ، وكان أولئك الشيوعيون الذين تمكنوا من الفرار والنجاة بحياتهم فى عام ١٩٢٧م قد لجأوا إلى التلال حيث كانوا يكسبون تأييد الفلاحين ، ورأى تشيانج أن مهمته هى التخلص من الشيوعيين تماماً قبل أن يتصدى للغزو اليابانى فى إطار سياسته التى عرفها بأنها " التهدئة الداخلية قبل التصدى للهجوم الخارجى ".

ويُعتَقَد بأن مليون شخص قد قُتلوا فى الخمس سنوات التى تلت عام ١٩٢٧م، وكان حكم « تشيانج » شبيهًا بالديكتاتورية الفاشية ، وقام هو نفسه باستخدام موظفين من ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية كمستشارين وأسند إليهم مناصب حكومية .

الجيش الأحمر والسوفيت فى كيانجسى

لم يتم التخلص من جميع الشيوعيين في هذه الهجمات . وبعد أن حولوا اهتمامهم من المدن التى شهدت قوة الكومينتانج والقوى الأجنبية ركزوا جهودهم على تنظيم الفلاحين فى الريف ، وبعد وقت قصير من مذبحة شنغهاى ثار قطاع من الجيش فى نانتشانج بإقليم كيانجسى ضد الكومينتانج ، وتلى هذا قيام سلسلة من ثورات الفلاحين بقيادة الزعماء الشيوعيين أمثال «ماو تسى تونج» و«تشو تيه» ، وأسسوا قاعدة ثورية فى الجبال بين كيانجسى وهونان و تشكلت هناك أولى وحدات الجيش الأحمر من العمال والفلاحين الصينيين ، حيث دفع إخفاق الكومينتانج فى القيام بالإصلاح الزراعى والوحشية التى أعدموا بها الشيوعيين والآلاف من الفلاحين البسطاء الشعب فى الريف إلى الإنضمام للشيوعيين ، وبحلول عام ١٩٣٠م كان هناك ١٥ قاعدة للجيش الأحمر في المنطقة ، وأصبح جنودهم مقاتلين بارعين فى حرب العصابات ، وفى المناطق الخاضعة لسيطرتهم قامت ثورة زراعية ، وصودرت أطيان أصحاب الأراضى الأثرياء وأعطيت للفلاحين الفقراء والعاملين فى المزارع ، وألغيت الديون للمرابين وتم تخفيض الضرائب ، وطرد قدامى الموظفين وأصحاب الأراضى أو قتلهم وفر كثير منهم إلى المدن ، وانتخب الفلاحون مجالسهم الخاصة من "السوفيت" لتولى شئونهم ، ووصف صحفى أمريكى يدعى «إدجار سنو» موقفًا نموذجيًا قائلاً :

" كان هناك فتى فلاح إنضم إلى الحمر فى «سزيشوان» وسألته عن سبب قيامه بذلك فأخبرنى بأن والديه كانا فلاحين فقيرين لا يملكان سوى ٤ مو من الأرض (أقل من فدان) ولم تكن تكفى لإطعامه هو و شقيقتيه ، وعندما جاء الحمر إلى قريته قال إن جميع الفلاحين رحبوا بهم وأحضروا لهم الشاى الساخن وصنعوا لهم الحلوى ، وقام الكتاب المسرحيون الحمر بتقديم مسرحيات ، وأمضينا وقتًا سعيداً ، ولم يفر سوى أصحاب الأراضى ، وعندما أُعيد توزيع الأراضى حصل والداه على نصيبهما ، ولذا لم يحزنا بل كانا سعيدين للغاية عندما إنضم إلى " جيش الشعب الفقير" .

و قد أثار فشل الكومينتانج فى تنفيذ الإصلاح الزراعى الذى وعدوا به شعوراً واسع النطاق بالسخط والإستياء والثورة المفتوحة فى كثير من أنحاء البلاد خاصة فى سنوات المجاعة فى أواخر العشرينات ومطلع الثلاثينات ، وكان «إدجار سنو»

متواجداً في الصين في عام ١٩٢٩م عندما كانت هناك إحدى المجاعات في «سويوان» قرب «منغوليا» فكتب عن ذلك قائلاً :

" كانت ساعات تشبه الكابوس تلك التي قضيتها في سويوان ، فقد رأيت الآلاف من الرجال و النساء والأطفال يتضورون جوعًا حتى الموت أمام عيني... ولا أقصد بذلك المبالغة في تصوير هول ما رأيت... كان ملايين الناس يموتون جوعًا بتلك الطريقة... ورغم ذلك لم يكن هذا أفظع ما رأيت هناك ، فالشيء الفظيع حقًا أنه كان لايزال هناك رجال أثرياء، ومن يكتنزون الذهب والفضة والقمح والمرابين وأصحاب الأراضي في كثير من المدن وكان لديهم حراس مسلحين للدفاع عنهم في الوقت الذي كانوا يحققون فيه أرباحًا طائلة ، وكان الشيء الفظيع حقًا أنه كان يوجد في المدن - حيث كان موظفو الدولة يرقصون أو يعزفون مع المغنيات - حبوب وطعام تكفي لشهور حتى أنه كانت توجد آلاف من أطنان القمح و الذرة في بكين وتينتسين وغيرهما من المدن تم جمعها (أغلب الظن من المساعدات الخارجية) من قبل لجنة المجاعة لكنه لم يتسنَ شحنها إلى الجوعى ، ولم لا ؟ ذلك أنه كان يوجد في الشمال الغربي بعض القادة العسكريين الذين أرادوا الإحتفاظ بجميع قاطرات السكة الحديدية وعدم السماح لأي منها بالتوجه نحو الشرق في حين كان قادة الكومينتانج في الشرق يرفضون توجه أي قاطرة من قاطرات السكة الحديدية غربًا - حتى إلى من كانوا يتضورون جوعًا - خشية وقوعها في أيدي خصومهم .

وفي الوقت الذي إنتشرت فيه المجاعة قررت اللجنة (لجنة المجاعة) إنشاء قناة كبيرة (بتمويل أمريكي) للمساعدة في غمر بعض الأراضي التي أحرقها الجفاف بالماء، وقدم لهم المسئولون كل العون حيث أخذوا من فورهم في شراء الأكر (حوالي ٤ آلاف متر مربع من الأرض) مقابل خمس سنتات حتى يتسنى ري الأرض كاملة ، وهبط عدد من الأشخاص الجشعين بهذا البلد الغارق في الظلام وقاموا بشراء مساحات شاسعة من الأراضي من الفلاحين الجوعى مقابل الضرائب المتأخرة أو مقابل قليل من القطع النقدية النحاسية واحتفظوا بها انتظارًا للمستأجرين وأيام الشدة .

ورغم ذلك لم تحتج الغالبية العظمى من أولئك الناس الذين كانوا يتضورون جوعًا حتى الموت فكانوا يموتون في صمت! وسألت نفسي "لم لا يثورون ؟" ، "لم لا يخرجون

في جيش كبير ويهاجمون الأنذال الذين يستطيعون فرض الضرائب عليهم ولا يستطيعون إطعامهم أو من يستطيعون الإستيلاء على أراضيهم لكنهم لا يستطيعون إصلاح قناة للري ؟ أو لم لا يجتاحون المدن الكبرى وينهبون ثروات الأنذال الذين يشترون بناتهم وزوجاتهم وأولئك الرجال الذين يُتخمون أنفسهم بالولائم العامرة بما لذ وطاب من الطعام والشراب بينما المخلصون الشرفاء يتضورون جوعاً ؟ لم لا ؟ ...

و تملكتني حيرة شديدة إزاء سلبيتهم ، واعتقدت لبعض الوقت أنه ما من سبيل إلى حمل الصيني على القتال .

وكنت مخطئا في ظني ، فالفلاح الصيني ليس سلبيًا وليس جبانًا ، لكنه يقاتل إذا ما وجد السبيل إلى ذلك ووجد التنظيم والقيادة والبرنامج العملي و الأمل – والسلاح ."

و منذ ذلك الحين أخذ الفلاحون الصينيون يصفون كيفية تحولهم إلى القتال ، وقد وصف «باي يو تيه» و هو أحد الفلاحين من قرية ليولنج في شنسي الشمالية ذلك مرحلة مرحلة :

" في عام ١٩٢٧م أُنشيءَ تنظيم للفلاحين هنا ، وكان ذلك عندما سمعت عن الشيوعية لأول مرة ، وكان الشعار " إقضِ على أصحاب الأراضي وتخلص من الضرائب ". كنا نريد المساواة بين الجميع والقضاء على جميع البيروقراطيين وأصحاب الأراضي ، وهكذا انطلقت أنا و«هان بي هسين» في إحدى الليالي عبر الجبل للتأكد مما إذا كان باستطاعتنا ملاقاة الجيش الأحمر، كان الجو بارداً و لم يكن لدينا سوى لحاف واحد بيننا وكان عمره سبع سنوات... وكان عملي آنذاك تنظيم أهالي القرى المجاورة ، وكان يتعين على ملاقاة الزعماء الذين يمكنهم مساعدة الجيش الأحمر والتأكد مما إذا كان قد تم إمداده بالطعام و المعلومات أولاً بأول عن خطط أصحاب الأراضي ، وكانت هناك كتيبتين من القوات المسلحة التابعة لأصحاب الأراضي في المنطقة وكذلك إثنى عشر رجلاً من رجال الشرطة أو نحو ذلك و لذا كان يتعين عليَّ العمل سراً ، فقد إعتادوا قطع رأس أي واحد منا يقبضون عليه ... وفي نهاية الأمر لم يعد أصحاب الأراضي يجرءون على البقاء في القرى ليلاً لكنهم اتخذوا لأنفسهم أماكن محصنة أعلى التلال لجأوا إليها ، بعد أن قمت بتنظيم ٢٠ قرية فرت إحدى وحدات القوات

المسلحة التابعة لأصحاب الأراضى ... وتوجهنا إلى «تشاوتشيا» حيث كان يوجد مرابى وصاحب أرض يدعى «تشن تشين هو» ، وسمحنا له بأن ينجو بحياته لكننا صادرنا كافة ممتلكاته وأرضه ... ووافقنا على إرسال "رسالة عاجلة" فى أنحاء القرى حتى يعرف الجميع ما نحن مقبلون عليه، وفى صباح اليوم التالى وصل ستة آلاف فلاح واتخذنا الترتيبات اللازمة لعقد اجتماع جماهيرى وانتخبنا لجنة ثورية .

كانت تلك إذن حكومتنا الجديدة ، وكانت هناك عدة أقسام فى اللجنة : قسم الدفاع والأراضى الزراعية ، وقسم الحبوب وقسم شئون المرأة وقسم الشيوعيين الشباب ... وتم إختيارى قائد لواء للحرس الأحمر ...

وكنا قد أمسكنا بزمام الحكم فى كلا الواديين آنذاك .... لكننا لم نكن نمتلك أية أسلحة ، ولم يكن جميع أصحاب الأراضى قادرين على الهرب بأسلحتهم لكن ما خلفوه وراءهم لم يكن بالشىء الكثير، ولذا فقد قام حدادو القرى بأخذ الفائض من الأدوات الزراعية وصنعوا رماحًا منها ، ونظرًا لأنه لم يكن لدينا ما يكفى منها ، ولم نكن جميعًا مسلحين فقد قمنا بصنع رماح غير حقيقية ، وكان لدى كل واحد منا ثلاث قنابل يدوية خشبية ، وكانت العلامة المميزة لنا جميعًا سوارًا أحمر كنا نرتديه بأعلى الذراع ، ومن بعيد كنا نبدو كما لو كنا مدججين بالسلاح، وعثرنا على بعض الورق الفضى فى أحد المتاجر واستخدمناه فى تغطية حرابنا الخشبية التى كانت تلمع فى ضوء الشمس ، وأنزلنا الرعب فى قلوب أصحاب الأراضى ."

وأفزعت هذه التطورات والقوى «تشيانج كاى شيك» أيضًا ، وفى الفترة ما بين عامى ١٩٣٠م و ١٩٣٢م أرسل الكومينتانج أربع حملات لمحاصرة قواعد الحمر فى «كيانجسى» و «هونان» وإبادتها، وعلى الرغم من أن الكومينتانج كان لهم التفوق الساحق عددًا و عتادًا فقد كانت الإنتصارات التى كانوا يعلنون عنها مجرد أمانى حيث فقدت جيوشهم المدربة على أيدى الألمان خيرة جندها ووقع كثير من عتادها فى أيدى الجيش الأحمر الصينى .

وكانت التكتيكات العسكرية الناجحة التى دأب الجيش الأحمر على استخدامها منذ ذلك الحين تقوم على تكتيكات حرب العصابات وتجنب حرب الخنادق التى تدور

في مكان واحد والمعارك حامية الوطيس ، وكانت هناك أربعة شعارات تعبر عن هذه التكتيكات :

عندما يتقدم العدو نتراجع نحن !

عندما يتوقف العدو ويعسكر نزعجه نحن !

عندما يحاول العدو تجنب الدخول في معركة نهاجم نحن !

عندما يتقهقر العدو نطارده نحن !

ولم يكن من الممكن لمثل هذه الأساليب العسكرية - التي لم تدع لحملات الكومينتانج سوى فرصة ضئيلة لملاقاة قوات الجيش الأحمر في معركة حاسمة - أن تنجح دون المساندة الفعالة من جانب الفلاحين في المناطق التي أقاموا قواعدهم فيها ، وأخيراً أصبح نظام جديد في الريف حقيقة واقعة و ليس وعداً ، وكما ذكر ماو تسي تونج " لقد كرس صن يات سن ٤٠ عاما من حياته للثورة الوطنية ، وتحقق ما كان يريده وفشل في تحقيقه على أيدي الفلاحين في غضون بضعة أشهر ... وكانت الأهداف الرئيسية لهجومهم زعماء القرى و الطبقة الأرستقراطية الفاسدة وأصحاب الأراضي غير الشرعيين وكذلك الأيديولوجية الأبوية القديمة وفساد موظفي المدن و العادات القروية غير المرغوب فيها .... وبعد إسقاط سلطة الطبقة الأرستقراطية أصبحت الجمعيات القروية الأداة الوحيدة للسلطة ."

وبنهاية عام ١٩٣١م كان الشيوعيون قادرين على إعلان قيام " جمهورية سوفيتية صينية " في «كيانجسي» وماو تسي تونج» رئيسا للحكومة المؤقتة ، وبعد عامين جهز تشيانج حملة خامسة لـ " إبادة " الشيوعيين ، وكان الهدف من تلك الحملة سحقهم بتطويقهم بشكل كامل و فرض حصار إقتصادي عليهم ،لكن قوات الكومينتانج من "الوطنيين " خسرت التأييد الشعبي بقدر ما كسبه الحمر ، وكتب «بيتر فلمنج» الصحفي البريطاني الذي زار جبهة الكومينتانج في «كيانجسي» قائلاً :

" على مدى السنوات الثلاث الماضية كانت هناك حامية تتألف من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ألف رجل من القوات الحكومية ترابط في كيانجسي .... وقد تسببت العصابات الصحفية و أعمال السخرة والضرائب الإضافية والكثير من أشكال المهانة والإبتزاز في جعل حياة (السكان) عبءً عليهم و بالمقابل لم ينعموا بالحماية الكافية على الإطلاق ،

وإذا كان هناك أى شيء يمكن التفكير فيه لحمل الفلاح الصينى على التحول تلقائيًا للشيوعية (أو أى شيء آخر يكشف عن نفسه) فليس هناك ما هو أفضل من إيواء الجند فى بيته بصفة دائمة ...

وكان أكثر شيء أذهلنى حقًا على الجبهة أن جميع الضباط الذين قابلتهم كانوا يفكرون فى الدفاع وليس الهجوم ... وقد أُصدِرَ أمر لسائر القرى التى كانت تضم أكثر من مائتى أسرة ببناء ثلاثة حصون إذا لم يكن لديهم حصون بالفعل ....

والجندى الصينى ... جندى مرتزق .... ونادراً ما يدفع مقابل ما يأكل فى أماكن إيوائه ، ومن المؤكد تقريبًا أن الفرقة العسكرية التى ينتمى إليها قد أنشئت بتحويل إتجاه جزء من الدخل الوطنى أو دخل الإقليم من الإنفاق الأكثر شرعية والأكثر ضرورة، وإذا حدث أن تعرض قائده لنكسة سواءً كانت عسكرية أو مالية تم إطلاقه فى المنطقة التى من المرجح أن تكون بعيدة عن موطنه ومعه بندقية و قليل من الذخيرة ومظلمة ضد المجتمع ....

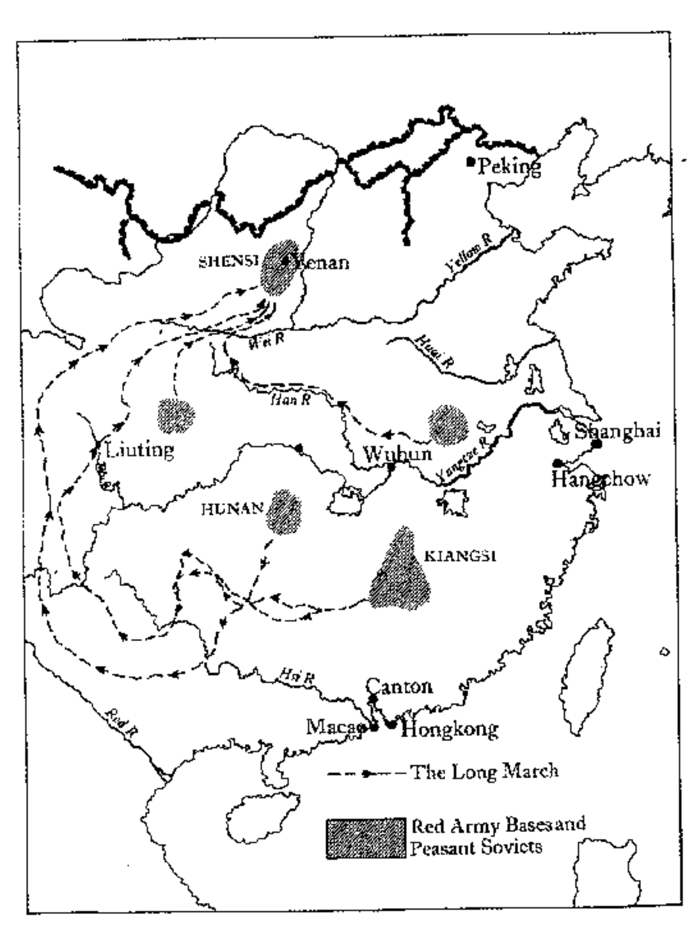
ولم يكن لدى القوات ما تقوم به معظم الوقت .... وتم الجلاء بشكل عادى عن تلك الحصون الواقعة فى أماكن رومانسية عند تلقى أول تهديد حقيقى بالخطر وعادت الحملات التى خرجت لملاقاة الجيش الأحمر دون أسلحتها وضباطها ."

و كانت حملة الإبادة الخامسة ذات شأن خطير ، فقد ألقى فيها «تشيانج» بما يزيد على نصف مليون جندى تدعمهم ٤٠٠ طائرة ، ولم يكن بحوزة قوات الجيش الأحمر سوى حوالى ١٠٠ ألف بندقية فى حين كانوا يفتقرون إلى المدفعية والطائرات بشكل كامل .

وبعد قرابة عام بدا كما لو أن الحمر قد أُحيطَ بهم وأنهم على شفا الهلاك ، وربما كانت المرحلة الأولى من سياسة «تشيانج» قد أخذت تؤتى ثمارها ، وفى تلك الأثناء كانت المشكلة اليابانية قد إزدادت تعقيداً حيث قام اليابانيون باحتلال منشوريا فى عام ١٩٣١م ، وفى عام ١٩٣٢م أقاموا قاعدة لقواتهم فى شنغهاى ، وشيئًا فشيئًا تمركزت القوات اليابانية فى شمال الصين ، وأصبحت حاجة الصين لمقاومة اليابان أكثر إلحاحًا فكان لهذا تأثيره حتى على قطاعات من الجيش الوطنى الذى بدأ بحلول عام ١٩٣٣م فى مقاومة اليابانيين محليًا .

المسيرة الطويلة

فى السادس عشر من أكتوبر من عام ١٩٣٤م شنت قوات الجيش الأحمر فى جنوب كيانجسى هجوماً ثنائى المحور على القوات الوطنية التى كانت تحاصرها فى الجنوب والغرب، واخترقوا الحصار وبدأ ٣٠٠ ألف رجل كانوا هم قوام الجيش الأحمر – يصحبهم آلاف الفلاحين من الرجال والنساء والأطفال – ومعهم عتادهم وورشهم المفككة المسيرة الطويلة التى قدر لها أن تكون واحداً من الأعمال البارزة فى تاريخ الصين .



– خريطة المسيرة الطويلة .

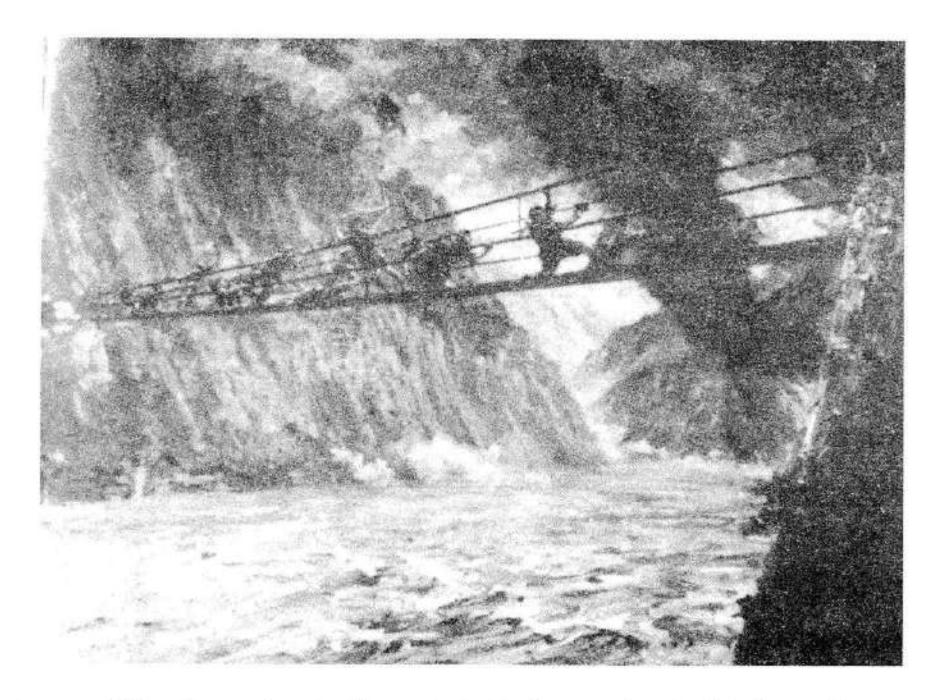
واجتازوا فى غضــون عام – سيراً على الأقدام – حوالى ٨٠٠٠ ميلاً من الجبال التى لا سبيل للوصول إليها تقريبًا وعبروا بعضًا من أعظم أنهار الصين ، و كانوا يتعرضون للهجوم الجوى والبرى اليومى من قبل القوات الوطنية التى كانت تطاردهم ، لكنهم فاقوا مطارديهم براعة فى المناورة وسرعة فى التحرك ، وبرغم ظروفهم المادية التى كانت تبعث على اليأس فقد كانت روحهم المعنوية أفضل من خصومهم ، ولم يكن جندى الكومينتانج موضع ترحيب لدى السكان المحليين و غالبًا ما كان يتساءل عن السبب الذى يدفعه لقتال أخيه الصينى وعدم مهاجمة اليابانيين ، لكن الجيش الأحمر – بعد أن سار غربيًا – تحرك شمالاً عبر سزيشوان إلى إقليم شنسى حيث أسس السوفيت قاعدة لهم مثلما فعلوا فى « كيانجسى– هونان » ، ورغم ذلك كان هذا الجيش متجهًا شمالاً ليس للراحة و لكن لقتال اليابانيين .

وكانت العقبات الطبيعية على طول جوانب الجبال إلى الشمال هائلة وفى كل محطة كان الأمل يحدو «تشيانج» فى اعتراض طريق قوات الجيش الأحمر والإيقاع بها ، وكانت العقبة الرئيسية الأولى الأجزاء العليا الممتدة من نهر اليانجتسى التى كانت مياهها تتدفق عميقًا و سريعًا عبر ممرات ضيقة ، و أمر «تشيانج» جنده بتدمير جميع السفن لعبور النهر لكن حرس الكومينتانج المتقدم سحبها إلى الضفة الشمالية ، وباستخدام موظف قروى كطعم أمسك الجيش الأحمر على الضفة الجنوبية بسفينة قادمة من الشمال تم إرسالها لنقل بعض القوات " الحكومية " عبر النهر، وبعدها أرسلوا كتيبة من الجند الحمر قامت بنزع أسلحة حرس الكومينتانج على الجانب الآخر وعادت بخمس سفن أخرى ، وقامت ست سفن بنقل الجيش الأحمر بأكمله عبر اليانجتسى واستغرق ذلك تسعة أيام من الإبحار دون توقف ، وعندما وصل الجزء الأكبر من قوات الكومينتانج إلى النهر كان عدوهم بعيد المنال على الجانب الآخر وكانت جميع السفن قد دُمِرت بالفعل آنذاك .

وكان يتعين على الجيش الأحمر عبور نهر «تاتو» الذى كان يمثل الموقع الإستراتيجى التالى إلى الشمال ، و كان العبور السريع أمرًا ضروريًا للجيش الأحمر هذه المرة نظرًا لأن «تشيانج» كان مصممًا على ألا يفقد أثر طريدته للمرة الثانية ، واستولى الحمر على بعض السفن لكن الماء كان يتدفق سريعًا جدًا مما جعل كل عملية عبور

بحمولة من الرجال تستغرق أربع ساعات، وعلاوة على ذلك ففى أعلى النهر حيث كانت المنحدرات الصخرية الشاهقة للممر الضيق شبه عمودية كان يوجد جسر حديدى معلق شهير وهو جسر «ليوتنج» الذى تم بناؤه منذ قرون بالطريقة التقليدية ، وكانت هناك ستة عشر حلقة حديدية ثقيلة تتدلى من قمم المنحدرات الصخرية الشاهقة عبر النهر، حيث صنعت الألواح الخشبية التي تم ربطها بالحلقات السفلية طريقًا ، وقامت قوات البيض على المنحدر الصخرى الشمالى بإنشاء موقع مدفع رشاش على الجانب الخاص بهم من الجسر ، وقاموا بإزالة الألواح الخشبية، وعندما ظهر الجيش الأحمر بقيادة «لين بياو» تطوع ثلاثون رجلاً للإستيلاء على المعبر، فحملوا معهم القنابل اليدوية التى ربطوها إلى ظهورهم وأخذوا يتأرجحون وهم يتقدمون سريعًا على طول الحلقات الحديدية تحت نيران مدفعية العدو ، وأصيب ثلاثة منهم وسقطوا فى تيار الدوامات بأسفل ، ونحو الطرف الشمالى تُرِكَتْ بعض الألواح الخشبية فى مواضعها حيث ساعدت على حماية المتطوعين الذين وصلوا إلى الجانب الآخر، وكانت قنابلهم كفيلة بحمل المسلحين بمدافع رشاشة على الفرار قبل أن يضرموا النار فى ألواح الجسر الخشبية باستخدام البارافين ،وكان هناك مزيداً من قوات الحمر تتمايل عبر الجسر قامت بإخماد النار ، وتم استبدال الألواح الخشبية التى كانت قوات تشيانج قد قامت بإزالتها وتسابق جنود الجيش الأحمر عبرها لينضموا إلى من نجحوا منهم فى العبور مع اتجاه تيار النهر على متن سفينة ، ولم تكن الطائرات التى أرسلها «تشيانج» لتدمير الجسر بارعة فى التصويب فسقطت قنابلها فى النهر .

واقترنت الأعمال البطولية الخاصة بالقدرة الفائقة على التحمل من قبل جميع رجال الجيش الأحمر الذين كانوا يعانون نقصًا فى العتاد و سوء التغذية ، ويذكر أحد الناجين من المسيرة الطويلة ويدعى «تشاو هونج تشين» كيف أنه عثر فى أحد الأيام على جلد طبلة مكسورة عندما كانت كتيبته تستريح بجوار معبد أحد آلهة الجبال فاستخدمه كقبعة واقية من المطر فى البداية وكمظلة تقيه حر الشمس فى وقت لاحق ، وعندما تسبب صندله المصنوع من القش فى تقرح قدميه صنع صندلاً من الجلد :



– المسيرة الطويلة . إقتحام جسر «ليوتنج» فوق نهر «تاتو» فى مايو من عام ١٩٣٥م . صورة زيتية معاصرة رسمها لى تسونج تسين ، وقبل قرن من الزمان أبادت قوات المانشو قائدا شهيرا للتايينج هو وجيشه فى هذا المكان . وهنا أيضا لقى الأبطال الأسطوريين لـ "لمالك الثلاث" الهزيمة .

" كان المتاح من الطعام فى تناقص يومًا بعد يوم ، وبعد أن نفذ ما كان معنا من حبوب أكلنا الخيل ثم كان عيشنا على الخضراوات البرية ، وعندما نفذت الخضراوات البرية أيضًا أكلنا أحزمتنا الجلدية ، وبعد ذلك إضطررنا للسير وبطوننا خاوية .

وفى أحد الأيام عسكرنا أسفل منحدر صخرى شاهق ، وكان شاهقًا إلى حد أننا لم نكن نستطيع رؤية قمته ، و كنا فى حالة سيئة للغاية فلم نستطع تسلق هذا المنحدر الصخرى دون أن نتناول شيئًا أولاً... وقمت بجمع بعض الأغصان الصغيرة الجافة لإشعال نار وبدأت فى شوى حذائى ... وبعد أن قمنا بشوى الحذاء لبعض الوقت قمنا بغسله وكشطه لتنظيفه ثم قمنا بغليه فى حوض ، وأدى الغلى إلى جعل الجلد أصفر اللون ولينًا و زادت رائحته المشهية من شعورنا بالجوع أكثر من أى وقت مضى ...

وعندما تم طهى " الحذاء" قام قائد فرقتنا بتقطيع الحذاء إلى قطع صغيرة ووزعها بين الرجال لتناولها قبل تسلق المنحدر الصخرى فى اليوم التالى ."

وكانت مساحات شاسعة من منطقة جبال الثلج العظيمة على طول الطريق على حدود التبت يسكنها رجال القبائل المعادية من المانتسو الذين كانوا يبغضون جميع الصينيين من الحمر أو البيض ، وتوعدت ملكة المانتسو بسلق كل من يساعد الرحالة حيًا ، وبعد ذلك جاءت المراعى والمستنقعات الموحلة و البحار العميقة للعشب الرطب حيث سقط كثيرون واختفوا وسط المستنقعات الغادرة ولم يستطع رفاقهم الوصول إليهم ، وأخيراً وفى أكتوبر من عام ١٩٣٥م وبعد مسيرة عام وصلوا إلى حدود «شنسى» جنوب السور العظيم مباشرة حيث كانت توجد قاعدة سوفيتية صينية أخرى منذ عام ١٩٣٣م ، ومن بين الـ ٢٠٠ ألف شخص الذين خرجوا فى هذه المسيرة لم يصل منهم سوى حوالى ٢٠ ألف إلى «شنسى» .

لكنهم كسبوا ملايين المؤيدين على طول طريقهم، وعلى عكس قوات الكومينتانج فقد كانوا موضع ترحيب باعتبارهم " جيش الشعب الفقير"، وفى المناطق الخاضعة لسيطرتهم نشأت طريقة جديدة للعيش بجانب إعادة توزيع الأرض ، وكان تدخين الأفيون و القمار محظورين ، كما كان بيع الأطفال وجميع أشكال العبودية والزواج المدبر والبغاء والتسول محظورة أيضاً ، وعندما كان الجيش الأحمر يزحف فى مسيرته كان مطالباً بالتزام سلوكيات تُحتذى ، وهذا ما كان يميزه عن الوطنيين بشكل واضح ، وحظر على جنود الجيش الأحمر مصادرة أدوات الفلاحين ، وكان يتعين عليهم تسليم أية ثروة تنتزع من أصحاب الأراضى إلى مقر القيادة على الفور، وكان للجيش الأحمر دستور يتألف من ثمان نقاط فيما يتعلق بالتعامل مع الفلاحين : إستبدال أية أداة تم إستخدامها ، لف وإعادة الحصيرة التى نمتَ عليها ، وأن تكون لطيفًا دمثًا وتقدم العون أينما تستطيع تقديمه، إعادة جميع الأدوات التى تتم إستعارتها ، وإستبدال كافة السلع التالفة ، و أن تكون أمينًا فى تعاملاتك مع الفلاحين ، وأن تدفع ثمن جميع الأشياء التى حصلت عليها ، والحفاظ على الصحة العامة وإنشاء مراحيض بعيداً عن منازل الأهالى ، ثم أضيفت نقطتان آخرتان : عدم مغازلة النساء ، وعدم قتل أسرى الحرب .

وقد خفف الجيش الأحمر من أحماله في ترحاله وسرعان ما تخلى عن الكثير من العتاد الذي حمله عند مغادرته كيانجسي – هونان ، وذلك بدفنه أو إعطائه للقرويين نظرًا لأنه كان يعوق تقدمه، وزودوا أنفسهم بما يحتاجون إليه عن طريق مصادرة أملاك الأثرياء من أصحاب الأراضي والموظفين وكبار الأرستقراطيين ، وإذا كان هناك فائض كان يوزع بين الفقراء المحليين ، وعندما استولى الحمر على آلاف من أفخاذ الخنازير من حمال ثري في «يونان» أتى الفلاحون من كل صوب وحدب للحصول على حصصهم المجانية .

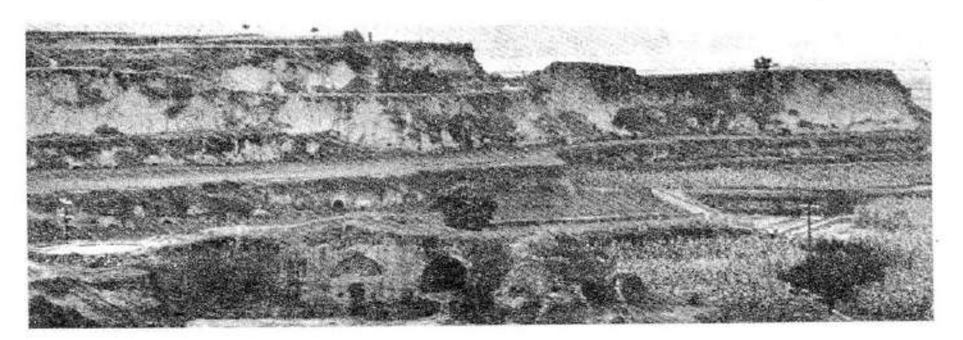
ولم يكن لدى الجيش الأحمر أي إنتاج خاص به من الأسلحة ، ولم يستطع البقاء إلى ما لا نهاية بحراب من الورق الفضي ، وجهزوا أنفسهم بشكل شبه كامل بالمؤن التي كان يتم الإستيلاء عليها من جيوش الكومينتانج إلى حد جعلهم يطلقون على الوطنيين « حاملي ذخيرتهم » .

ينـان

قام الجيش الأحمر بإنشاء مقر قيادته بـ "ينان" في شنسي حيث كان النهر يجري عبر ممر ضيق عميق، وعلى سطح منحدر صخري شاهق أنشئت مدينة كهفية عاش بها قرابة ٢٠ ألف نسمة ، وأُنشِئَتْ المساكن وأكاديمية عسكرية والمستشفيات وكلية للفنون وكثير من المنشآت الأخرى في هذه الكهوف ، و كان بعض هذه الكهوف الصخرية يؤوي عدة مئات من الأشخاص ، وكانت ملاجيء ممتازة ضد غارات القصف من جانب «تشيانج» ، و قال «إدجار سنو» عن أكاديمية الحمر : " ربما كانت المركز الوحيد في العالم للتعليم العالي الذي كانت حجرات الدرس الخاصة به كهوف ذات مقاعد ومكاتب من الحجر و الآجر ، و سبوراتها حوائط من الحجر الجيري و الطين وكانت أبنيته صامدة تمامًا للقنابل ."

وكان يفترض لكل قائد فعلي في الجيش الأحمر أن يقضي أربعة أشهر على الأقل في أكاديمية الحمر خلال كل عامين من الخدمة في الميدان ، وكانت هناك قوائم إنتظار للمتقدمين ، ولم يكن هؤلاء يأتون من الجيش الأحمر فحسب ، بل ومن جميع أنحاء الصين أيضًا ، وإذا تم قبولهم كان يتم تهريب الطلاب عبر خطوط الكومينتانج لحضور

الدرس ، وكان المنهــج الدراسى يشمل المسائل العسكرية والسياسية والإجتماعية ، كما كان هناك أيضاً مسرحاً تدربت فيه حوالى ٦٠ فرقة مسرحية قدمت عروضها فى القرى وعلى الجبهة .



- «ينان» بإقليم «شنسى» حيث كان يقع مقر الجيش الأحمر الصينى فى كهوف هذا الوادى بسفوح التلال على مدى ١١عاما .

وفى عام ١٩٣٢م أعلنت الحكومة السوفيتية - الصينية من قاعدتها الجنوبية فى «كيانجسى» الحرب رسمياً على اليابان، ولم تكن فى وضع يسمح لها بتنفيذ ما أعلنته آنذاك ، وبحلول عام ١٩٣٥م ومع وجود قاعدة «ينان» الشمالية الجديدة حيث توحدت كافة جماعات حرب العصابات من مختلف المناطق والأقاليم تحت سيطرتهم كانت اليابان قد قامت فى ذلك الوقت بمزيد من الاعتداءات داخل الصين بالتواطؤ مع حكومة الكومينتانج فى نانكنج ، وأعلنت إستقلال خمسة أقاليم صينية شمالية ، وأصبحت هذه الأقاليم مناطق نفوذ يابانى ، وتجاهلت حكومة الكومينتانج النداءات الوطنية التى عمت أرجاء الصين لمقاومة اليابان .

وفى أغسطس من عام ١٩٣٥م وقبل ختام المسيرة الطويلة أرسل الحزب الشيوعى الصينى نداءً إلى سائر الجماعات و الأحزاب فى الصين لتوحيد صفوفها لإنشاء حكومة للدفا ع الوطنى وقتال اليابانيين ، و تردد شعارهم " الصينيون لا يقاتلون الصينيين " فى أنحاء الصين ، وعلى سبيل المثال ففى ديسمبر من نفس العام طالبت مظاهرة طُلابية فى بكين بإلغاء سياسة الكومينتانج و مقاومة الغازى ، وأنشئت تنظيمات " الخلاص الوطنى" ووقعت إضرابات فى كثير من المراكز .

وفى فبراير من عام ١٩٣٦م تحـركت وحـدات من الجيش الأحمر الصينى شرقًا من «شنسى» لقتال اليابانيين ، وكانت سياستهم تقوم أساسًا على مقاومة العدوان اليابانى، وأبدوا إستعدادهم للتعاون مـــع الجميـــع - حتى أصحـاب الأراضى - فى هذا الكفاح .

و كـان رد «تشـيانج» و «الكومينتـانج» على ذلك تجـهيز حملة إبادة أخرى ضـد الشـيوعيين فى شنسى ، ومع إخفـاقـهم - الذى إتسم بالعناد - فى الوفـاء بالمطلب الوطنى أخذ زعماء الكومينتانج " الوطنيون " يفقدون التأييد الشعبى كاملاً .

حادثة سيان

وكان من بين السمات غير الملائمة بشكل لافت للنظر لسياستهم إختيار المارشال «تشانج» ، "المارشال الشاب" ، إبن قائد عسكرى سابق لمنشوريا كان قد اغتيل على أيدى اليابانيين ، والجيش الشمالى الشرقى كفرقة إبادة للسـوفيت فى إقليم «ينان» ، ولم يكن الجند الذين كانت غالبيتهم من المنشوريين أو مارشالهم متحمسين لهذا العمل، وكـانوا يفضلون القتـال لإستـعادة منشوريا ، ووصف الفلاح «باى يو تيه» من إقليم «ينان» والذى سبق له أن قـاتل بالحراب المصنوعة من الورق الفضى لتوطيد السلطة السوفيتية فى «ينان» ما حدث عقب وصول الجيش الأحمر من الجنوب :

" فى أكتوبر من عام ١٩٣٥م وصل جيش الطريق الأول إلى هنا فى نهاية " المسيرة الطويلة "، وكان بقيادة اللجنة المركزية للحزب و رئيس اللجنة ماو . ... وجاءتنا اللجنة المركزية بهذه الرسالة : " توجهوا إلى الشمال لقتال اليابانيين ! عليكم أن تُشكِلوا جبهة موحدة ! قاوموا اليابان ! الصينيون لا يقاتلون الصينيين ! "... وكان علينا أن نقاتل جنبًا إلى جنب حتى مع أصحاب الأراضى ... وأُسنِدَت إلينا نحن عمال الحزب المحلى مهمـة مساعدة الجيش الشمالى الشرقى وتكوين جبهة موحدة ضد اليابانيين .... وبطبيعة الحال كانت روحهم المعنوية والقتالية واهنة ، فلم يكن لديهم أى طعام وكانوا جوعى ويشعرون بالبرد بعد أن فقدوا كافة وسائل الإتصال بنا نظرًا لأنهم كانوا يقاتلون

بعيداً عن ديارهم في حرب لم يعرفوا سبباً لها ... وأخذت معنويات الجيش الشمالى الشرقي تزداد ضعفاً ، وفي نهاية الأمر لم يكن لديهم طعام أو ذخيرة بعد أن أطلقوها عن آخرها دون داعي ، وبعد ذلك حاول العدو إمداد قواته جواً لكن الطائرات حلقت عالياً جداً ، و كان الطيارون أمريكيين استأجرهم «تشيانج كاي شيك» ولم يكونوا يريدون الموت ، وكانوا يطيرون للحصول على المال فحسب ، ولذا قاموا بإسقاط القطائر المعلاة فوق «كانتشوان» حيث كانت قوات العدو تتضور جوعا لكن الرياح تمكنت منها وحولت إتجاهها بعيداً كي تصل إلينا فأكلناها وكانت ما تزال ساخنة ...

وجرت أولى المشاورات بيننا وبين الجيش الشمالي الشرقي ... على بعد ٢٠ لي تقريبا من «ينان» .... وجلسنا داخل كهف حجري و جرت بيننا مناقشات ودية ، وكانت تلك هي الخطوة الأولى في تعاوننا الذي أدى في النهاية إلى أسر «تشيانج كاي شيك» في «سيان» وإجباره على الدخول في حرب مع اليابان ....

وبطبيعة الحال فقد كان هذا الإتفاق سرياً للغاية ، وارتاب «تشيانج كاي شيك» في أن هناك ثمة شيء يدبر في الجزء الشمالي الغربي لكنه لم يستطع إثبات أي شيء ".

و في ديسمبر من عام ١٩٣٦م قرر القائد العام نفسه زيارة «سيان» عاصمة إقليم «شنسي» لتهدئة النفوس الساخطة هناك والحث على مهاجمة الشيوعيين ، ووقع «تشيانج» في الأسر في سيان على أيدي قادته أنفسهم ووُضِعَ رهن الإعتقال في الوقت الذي حضر فيه الزعيم الشيوعي « تشو إن لاي » وآخرون من «ينان» للتفاوض بشأن تكوين جبهة موحدة على أعلى مستوى .

الجبهة الموحدة ضد اليابان

وترتب على هذه الحادثة (حادثة سيان) موافقة «تشيانج» على هدنة مع الشيوعيين وشن هجوم مشترك على اليابانيين ، و صدر عفو عام عن الثوار الذين اختطفوه وهددوا بقتله إذا لم يوافق على تعديل سياساته ، ووافق الشيوعيون على وضع قواتهم تحت القيادة العليا للقائد العام والإعتراف بسلطة حكومة «نانكنج» ، وأصبح الجيش

الأحمر الصينى جيش الطريق الثامن وتم إعلان الجمهورية السوفيتية فى شنسى إقليمًا حدوديًا مستقلاً .

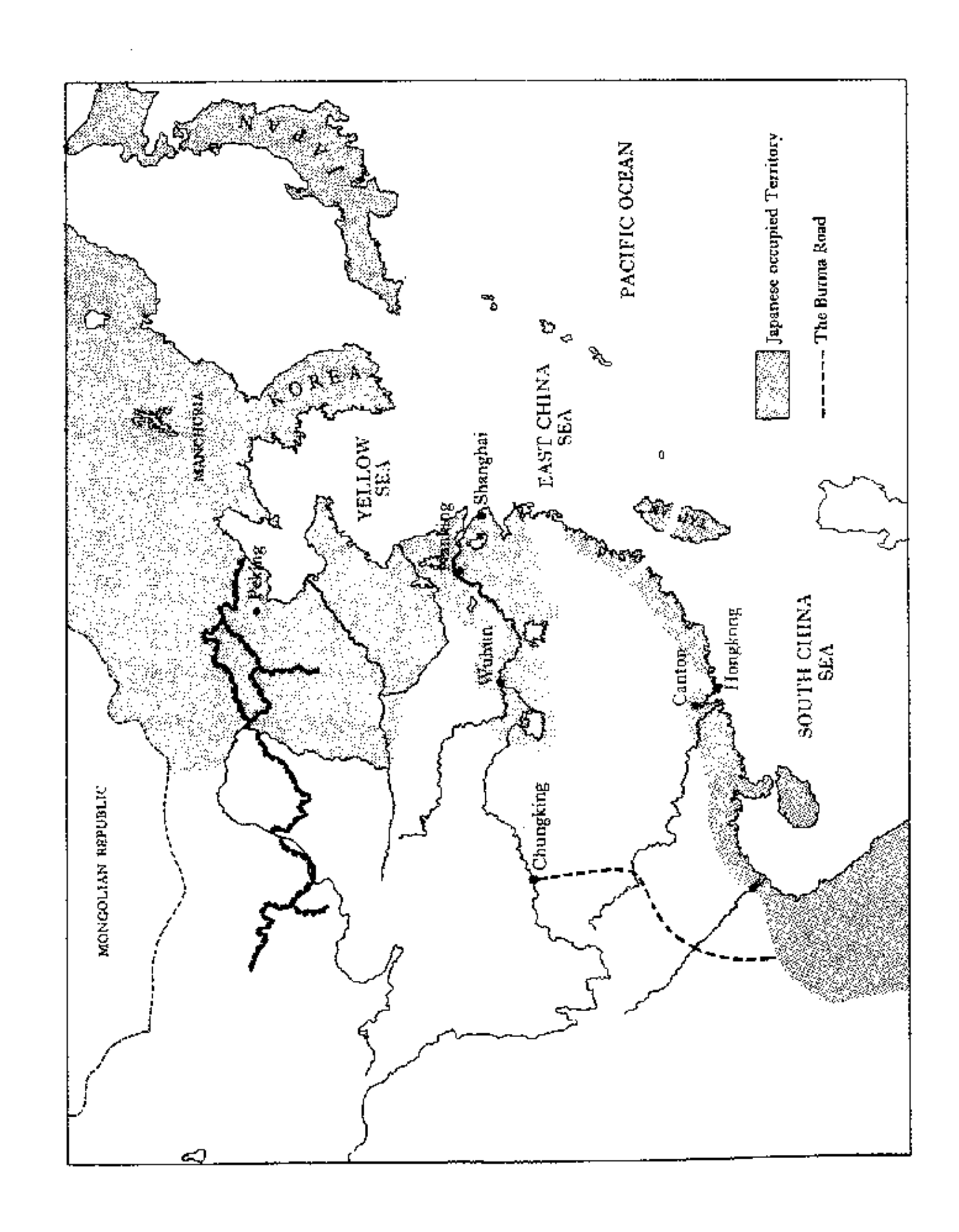
ولم يبق العسكريون اليابانيون على موقفهم الدفاعى ، وفى يوليو من عام ١٩٣٧م نزل جيشهم جنوبًا وهاجموا لوكوتشياو (جسر ماركو بولو) واحتلوا بكين بعد بضعة أيام ، ودعمًا لحملتهم للإستيلاء الكامل على الصين شنوا غارات قصف مدمرة على المدن الصينية وتم وضع جيش قوامه قرابة المليون مقاتل فى الميدان ، وتكللت المقاومة الموحدة من جانب الصينيين ببعض النجاح فى المراحل الأولى لكن جيوشهم إضطرت للتوجه جنوبًا وبنهاية العام كانت شنغهاى قد سقطت فى أيدى اليابانيين ، وبعد وقت قصير سقطت العاصمة «نانكنج» فى أيديهم ، وفى عام ١٩٣٨م إستولى اليابانيون على معظم المنطقة الساحلية بما فى ذلك كانتون ، وشقوا طريقهم عبر «اليانجتسى» إلى «ووهان»، وبعد استيلاء اليابانيين على النصف الشرقى من الصين بما فى ذلك المراكز الحضرية الرئيسية إنتقلت العاصمة الوطنية إلى «تشونجكنج» فى قلب الجزء الجنوبى من الصين بالأراضى العليا الممتدة من نهر اليانجتسى حيث كانت الحكومة شبه معزولة تمامًا عن العالم الخارجى ، وكان الطريق الرئيسى للإتصال – الذى ظل مفتوحًا أمامهم – عبر بورما إلى الجنوب الغربى .

وفى سبتمبر من عام ١٩٣٩م إندلعت الحرب العالمية الثانية فى أوروبا و تحول الكفاح الصينى إلى هامش الإهتمام الدولى ، ورغم ذلك فعندما أدى الهجوم اليابانى على القاعدة البحرية الأمريكية فى «بيرل هاربر» إلى دخول الولايات المتحدة الحرب أصبح النضال الصينى ضد اليابان جزءًا من الصراع الدولى الأوسع نطاقًا واتخذت الولايات المتحدة الإستعدادات اللازمة لإرسال مساعدة عسكرية إلى «تشونجكنج» عبر طريق بورما، وأغلق إستيلاء اليابان على بورما هذا الطريق وكان الإتصال الأخير بين «تشونجكنج» والعالم الخارجى من شمال الهند جوًا فوق الهمالايا .

وبداية من عام ١٩٣٩م لم يقم الوطنيون فى تشونجكنج بأية حملات كبرى ضد اليابانيين ، وكانت النزاعات بين قادتهم والمخاوف من إنعاش الآمال لدى الفلاحين فى

قيام ثورة إجتماعية – لم تكن لديهم أية نية للقيام بها – سببًا فى هذا التحفظ ، واتبع «تشيانج كاى شيك» سياسة كسب الوقت أملاً فى أن تقضى أمريكا وحلفاءها على اليابان دون قيام تشونجكنج ببذل مزيد من الجهد ، وواصلت جماعات حرب العصابات الشيوعية إزعاج اليابانيين فى الشمال بشن هجمات متكررة عليهم فى الوقت الذى اتبع فيه الكومينتانج فى الجنوب سياسة دفاعية متوازنة ، وأصبحت الهدنة بين الشيوعيين والكومينتانج لاغية ، وفى عام ١٩٤١م استأنفت القوات الوطنية هجماتها على الوحدات الشيوعية و عادت إلى فرض الحصار على «ينان» من جديد ، وهبطت معنويات القوات الوطنية إلى الحضيض ، ولم يخف القائد ستيلويل – قائد الإتصالات الأمريكى فى تشونجكنج والذى كان مكلفًا بإعادة فتح طريق بورما – رأيه المتواضع بشأن موقف الكومينتانج ، وكتب قائلاً أن «تشيانج كاى شيك» : " يعلم الظروف السيئة أيضًا لكنه لا يستطيع عمل أى شىء .... لا يمكن تحريك الجيش الستين – فسوف يرفض الجند إطاعة الأمر، ومازالت تجارة الأفيون ذات حجم ضخم فى يونان ، ويوجد مخزون كبير من البنزين و القماش والسلع الأخرى يقوم الجند على حراسته .... والصليب الأحمر الصينى مخادع، وقد تفشت سرقة الدواء و بيعه والجيش لا يحصل على شىء ، وسوف يقضى سوء التغذية و المرض على الجيش ذلك أن كبار القادة يسرقون طعام الجند ، هذه صورة وافية لما يجرى ."

وفى عام ١٩٤٣م عانت الأقاليم الوسطى فى الصين من مجاعة أخرى ، وفى ربيع العام التالى ١٩٤٤م قامت قوة يابانية بالزحف غربًا عبر الصين الوسطى وهزمت جيشًا وطنيًا يفوقها عدداً بحوالى خمسة أو ستة أضعاف ، وثار الفلاحون بالمنطقة ضد من بقى من الكومينتانج و قاتلوهم بالمذارى و بنادق صيد الطيور والسكاكين ، واستمر الهجوم اليابانى عبر قلب الصين ليقسمها إلى شطرين ، وأخذت الجيوش الوطنية تتساقط الواحد تلو الآخر.



خريطة الأراضي التي أحتلها اليابانيون في عام ١٩٤٢م .

إستسلام اليابان

بحلول عام ١٩٤٤م أخذ اليابانيون يفقدون الأرض فى ميادين أخرى من ميادين الحرب : فى المحيط الهادىء وبورما .

وفى مايو من عام ١٩٤٥م انتهت الحرب فى أوروبا باستسلام غير مشروط لألمانيا الهتلرية ، وأمكن بذلك تحويل المجهود الحربى للحلفاء كاملاً إلى الشرق ، ودخل الإتحاد السوفيتى طرفًا فى الحرب ضد اليابان ، و فى يومى ٦و٩ أغسطس أُسقِطَتْ أول قنبلتين ذريتين عرفهما العالم من قبل القوات الجوية الأمريكية على مدينتى «هيروشيما» و«ناجازاكى» اليابانيتين ، و فى غضون أسبوع كانت اليابان قد أعلنت إستسلامها .

ومنذ عام ١٩٤١م أعاد الشيوعيون تأسيس قاعدتهم فى «ينان» وكانوا أقوياء فى الشمال بوجه عام حيث قاموا بتحرير مناطق شاسعة : وكانوا فى وضع أفضل كثيراً من الكومينتانج للإستيلاء على مواقع الحاميات اليابانية المنسحبة ، ورغم ذلك فقد قامت الولايات المتحدة بمد جسر جوى عظيم لنقل قوات الكومينتانج و هو ما مكنهم من السيطرة على كثير من مدن الشمال التى ظلت خاضعة لسيطرة الشيوعيين زمنًا طويلاً و ظل الريف خاضعًا للشيوعيين .

وفى أغسطس من عام ١٩٤٥م تم التوصل إلى اتفاق بين وفد الحزب الشيوعى والوطنيين الكومينتانج فى «تشونجكنج» أملاً فى إنهاء الحرب الأهلية .

تجدد الحرب الأهلية

لكن الإنقسام كان حادًا للغاية بحيث تعذر إصلاحه وكانت الهدنة قصيرة الأجل ، ولم يستطع الشيوعيون التخلى عن قواتهم و أهدافهم بشكل كامل خاصة فيما يتعلق بسياسة الأرض ، و كان الكومينتانج عازمين على مقاومة الثورة الإجتماعية ونشر الشيوعية ، ولم يكن موقف الكومينتانج - برغم تأييد الولايات المتحدة لهم - قويًا فى واقع الأمر، وقد حط إسهامهم الحقير فى هزيمة اليابانيين من قدرهم ومكانتهم مقارنة بالشيوعيين ، و فى الريف كان مصدر الدعم الوحيد لهم أصحاب الأراضى الأثرياء الذين كانوا على استعداد للفرار عند اقتراب الجيش الأحمر، وأُعيدَ تنصيب

الكومينتانج و إبقاؤهم فى المدن بواسطة قوة أجنبية فى وحدات معزولة إعتماداً على الدعم الخارجي ، لكنهم وقعوا فى خلافات بسبب فسادهم ، وتم الإستيلاء على المشاريع و المصارف عقب إستسلام اليابان و ذلك من قبل موظفى الكومينتانج الجشعين خاصة أفراد الأسر الأربع الكبرى التشيانج و الكونج والتشن والسوونج الذين كونوا ثروات من وراء الحرب ، وكانت أسرة تشيانج كاى شيك نفسه زعيمة هذه الأسر – عشيرة السوونج – أقارب زوجته «ميلينج سوونج» ، وصرح مبشر ودبلوماسى أمريكي كان متواجداً في الصين آنذاك بأن : " هذا الحزب – منذ توليه السلطة – قد سمح لموظفيه بكافة أشكال الإبتزاز والجشع والتبطل وانعدام الكفاءة ومحاباة الأقارب والتنافس الحزبي وكافة الشرور الأخرى عدا البيروقراطية الفاسدة التى أسقطها ، وقد أصبحت هذه الشرور أكثر وضوحاً في محاولات سحق الشيوعية باستخدام القوة العسكرية والبوليس السرى معاً ...

وأدى ارتفاع نسبة التضخم بمعدلات خرافية إلى جعل الظروف المعيشية في المدن والريف لا تُحتَمَل بشكل متزايد ، وحلت المقايضة محل التجارة في شنغهاى ، وفي عام ١٩٤٦م شنت جيوش الكومينتانج هجوماً آخر على قواعد الشيوعيين في الشمال ، واستولوا على «ينان» فى عام ١٩٤٧م ، ولكن بنهاية العام كان الجيش الأحمر- الذى كان يُعرف بجيش التحرير الشعبى آنذاك- قد أخذ بزمام المبادرة الهجومية ، وأصبحت قوات الكومينتانج –التي انهارت معنوياتها و كانت موضع كراهية الفلاحين والعمال بسبب وحشيتها – معزولة بشكل متزايد و أُجبِرَت على اتخاذ الموقف الدفاعى فى شمال ووسط الصين .

هزيمة الكومينتانج

كانت آخر حرب أهلية ثورية قصيرة و حاسمة حيث تم استرداد «ينان» فى مطلع عام ١٩٤٨م وبنهاية العام كان قد تم طرد الكومينتانج من شمال شرق الصين ، وسمحت بكين بدخول الشيوعيين دون قتال في يناير من عام ١٩٤٩م ، وفى نفس العام أقلع تشيانج كاى شيك على متن طائرة أمريكية إتجهت به جنوبياً بعد أن أعلن تقاعده .

وشأنه شأن القوات الشيوعية السابقة كان جيش التحرير يحصل على عتاده العسكرى إما بالإستيلاء عليه من العدو أو بالرشوة أو التسليم طواعية ، وفر عدد هائل من القوات الوطنية .

وفى الربيع وصل الجيش الأحمر إلى «اليانجتسى» ، وبعدها اختفت المقاومة بشكل فعلى – وكانوا يستولون على ثلاث مدن فى المتوسط فى اليوم الواحد ، وتم الإستيلاء على «نانكنج» فى أبريل و انتهت بذلك سيطرة الكومينتانج . وبحلول الخريف كان قد تم تحرير كافة الأراضى عدا التبت ، وفر تشيانج كاى شيك مع قليل ممن بقى من الكومينتانج إلى جزيرة تايوان (فورموزا) .

وفى الأول من أكتوبر من عام ١٩٤٩م أعلن «ماو تسى تونج» فى بكين قيام جمهورية الصين الشعبية .

الفصل الخامس عشر

جمهورية الصين الشعبية

١٩٤٩م -

عند إعلان قيام جمهورية الصين الشعبية فى الأول من أكتوبر من عام ١٩٤٩م أعلن ماو تسى تونج أن " الشعب الصينى الذى يمثل ربع الجنس البشرى قد نهض الآن "، ولكن هل تستقر أوضاع الصين مرة أخرى - بعد نصف قرن من الحرب الأهلية المتواصلة وصراع القادة العسكريين والغزو - من أجل تغيير الأسرة الحاكمة دون حدوث تحول إجتماعى ؟ لقد حاول التايبنج - دون سواهم - قبل قرن من الزمان القيام بإصلاح إجتماعى لكنهم سقطوا مع مؤيديهم الغربيين قبل المانشو .

الإصلاح الزراعى : الأرض للفلاحين

بعد مرور ستة أشهر على إعلان قيام الجمهورية الشعبية صدر قانون الإصلاح الزراعى ، واستمر إعادة توزيع الأراضى بين الفلاحين الفقراء حيث بدأ فى المناطق التى تم تحريرها من قبل ، واستغرق الإنتهاء من هذا الإصلاح الزراعى تحت شعار " الأرض للفلاحين " ثلاث سنوات ، و لم يتحقق بمرسوم ولكن بطرق مماثلة لتلك التى أُستُخدمت فى عهد السوفيت الصينيين الأوائل ، وكان الهدف منه إلغاء نظام ملكية الأرض ، وعُقِدت الإجتماعات فى القرى حيث جرى تقييم كل أسرة بما فى ذلك أسرة صاحب الأرض : الفقيرة والمتوسطة والغنية ، و عند إعادة التوزيع حصلت النساء على حصة مساوية لحصة الرجال ، وفى الوقت ذاته عُقِدت المحاكمات " جلسات الإتهام " للحكم فى الجرائم التى إرتكبها أصحاب الأراضى ، ولم تكن هذه العملية تتم تلقائيًا بشكل دائم ، حيث كان كثير من الفلاحين ما يزالون خائفين ، وفى الماضى غالبًا

ما كانت تتم مصادرة ملكيات أصحاب الأراضي فيفرون ليعودوا في أثر الكومينتانج أو اليابانيين للإنتقام من الفلاحين ، وكان مصير أصحاب الأراضي يتوقف على الجرائم التي ارتكبوها ، وقد أُعدِمَ الكثيرون منهم و صدرت أحكام بالسجن المقترن بالعمل في المزارع على الكثيرين منهم كوسيلة لتهذيبهم وإصلاحهم ، و كان أصحاب الأراضي الذين لم يُتَّهموا بارتكاب جرائم خطيرة يحصلون على حصص من الأراضي كالفلاحين الآخرين شريطة أن تكون لديهم الرغبة في العمل بها .

و تحقق حلم الأجيال من الفلاحين الصينيين ، و أصبحت كل أسرة تمتلك قطعة أرض ، و لم يعد هناك صاحب أرض يستولى على نصف المحصول .

ولم يكن هذا سوى المرحلة الأولى في إعادة تنظيم الريف ، واستمرت أسر الفلاحين في زراعة أراضيها بالطرق والأدوات البدائية ، ورغم أنهم كانوا ميسوري الحال فقد ظلوا تحت رحمة الكوارث الطبيعية وتقلبات الدهر ، وكان المرض إذا أصاب إحدى الأسر ربما تأثر المحصول بذلك ، وكانوا عاجزين في مواجهة الجفاف أو الفيضانات .

المزارع التعاونية

في عام ١٩٥٣م تم وضع أول خطة خمسية كان الهدف منها - في مجال الزراعة - زيادة الإنتاج بنسبة ٢٥٪ وتطوير التعاون كمرحلة جديدة للإصلاح الزراعي ، ووجد الفلاحون أنه بتجميع أنفسهم معًا في فرق عمل و عملهم في أراضي بعضهم البعض يمكنهم زراعة محاصيل أكبر في الأوقات العادية و تجنب الكوارث وقت الشدائد : وأدى العمل الجماعي إلى تجميع الأراضي و إنشاء المزارع التعاونية ، ووصف فلاح من قرية «ليولنج» بإقليم «شنسي» التحول من فرق العمل إلى المزارع التعاونية في منطقته قائلاً : " عندما كانت هناك ثمان أسر تعمل معًا في مجموعة عمل من أجل المساعدة المتبادلة كان هذا يعني أن إحدى الأسر تزرع أرضها قبل أرض آخر أسرة بحوالي ثمانية أيام .... وأدى هذا إلى إثارة كثير من الجدل.... وأخيراً قلنا "فلنحاول زراعتها سويًا ثم نتقاسم المحصول ..." . وبعد الحصاد كان يتم تقسيم إنتاج أو محصول المزرعة التعاونية بين الأعضاء طبقًا لحجم العمل الذي قام به العضو - أيام العمل التي ساهم بها - على مدار العام .



– الزراعة الجماعية

وكانت المزارع التعاونية تتمتع بمزايا عظيمة تفوق ما كانت تتمتع به قطع الأراضي الخاصة بالأسر حيث توافرت فيها جميع الفوائد التي تميز الزراعة على نطاق واسع على الزراعة المحدودة ، و أصبح بالإمكان تخصيص العمل و الأرض على نحو أكثر عقلانية ، وتقاسمت قوة عاملة أكبر العمل في أوقات ضغط العمل الموسمي ، وفي أوقات الركود كان يتم التنظيم للقيام بعمل آخر مفيد كاستصلاح الأراضي البور لزراعتها أو تسطيح جوانب التلال والتخلص من الحدود المخربة وما إلى ذلك .

و لم يكن التحول من إعادة توزيع الأرض إلى المزارع التعاونية يعني فقط تحسنًا في الزراعة لكنه كان يعني أيضًا إعادة توجيه لمواقف ذلك القطاع من المجتمع الذي يُنظر إليه عامة على أنه الأكثر فردية و الأقل قابلية للتكيف ، و قد وَلدَ هذا التحرك نحو

الإشتراكية قدرات جديدة و نظرة جديدة لدى سكان الريف ، فتم انتخاب الفلاحين الذين لم تكن لديهم أية خبرة بالإدارة لتولي مناصب السلطة وعُهِدَ إليهم بمسئوليات لم يُعهَد إليهم بها أبداً من قبل ، ووجد بعضهم أن هذه المهام الإضافية - التى ليس لها مقابل مادى والتى كان يتعين عليهم القيام بها قبل أو بعد عمل اليوم فى الحقول - شاقة ومرهقة ، كما كان يتعين عليهم أيضاً أن يصبحوا متعلمين حتى يتسنى لهم حفظ السجلات وإمساك الحسابات وإعداد التقارير ، وقال زعيم " الجمعية التعاونية الزراعية العليا East shines Red فى «ليولنج» : " لقد شغلت هذه الوظيفة على مدى ثمان سنوات حتى الآن ، وهى مسئولية ثقيلة ... وزعماء الجماعات العمالية مسئولون عن العمل اليومى لكن مهمتى هى تنسيق العمل كاملاً ، والتأكد من سيره دون معوقات وأننا ملتزمون بخططنا ... والتخطيط والإشراف والتدريب وحل المشكلات والتعرف على آراء الأعضاء و الإستماع إليها ." ومن المؤكد أن الحكم الذاتى المحلى والمبادرة النابعة من عملية إعادة التنظيم كانا على نفس القدر من الأهمية كالزيادة فى الإنتاج الزراعى التى كانت ضرورية لإعالة السكان .

الكوميون :

بدأت مرحلة جديدة للتنمية الزراعية فى عام ١٩٥٨م بوضع الخطة الخمسية الثانية، واندمجت المزارع التعاونية فى وحدات أكبر أطلق عليها الكوميون ، وكان الهدف من هذا الإندماج تحقيق فوائد الزراعة على نطاق واسع ، وفى الوقت الذى إقتصرت فيه الجمعيات التعاونية على إحدى القرى أو أحد الأودية فقد وحد الكوميون المنطقة التى تواجد فيها بأكملها ، وأمكن تحديث أساليب الزراعة بشكل أساسى وقامت المشروعات الرأسمالية، وكما قالوا فى ليولنج " قبل قيام الكوميون الشعبى بدأنا فى بناء سد كان مقرراً له أن يخدم ثلاث مزارع تعاونية ، لكنه كان من الصعب حملهم على التعاون ، وأتاح الكوميون تنظيم الجهد المشترك ."

واندمجت نسبة معينة من الأراضى فى وحدات الكوميون و تم ادخار نسبة ٥٪ من إجمالى الأراضى للإستخدام كحدائق للخضروات لتربية الدجاج و ما إلى ذلك ، وعن طريق تجميع الموارد وإضافة القروض الحكومية إليها أمكن لتنظيمات الكوميون الحصول على بعض الآلات الزراعية وإقامة الورش لصيانة آلاتها ، وكانت وحدات

الكوميون كبيرة الحجم بما يكفى للقيام بأعمال الرى وحفظ المياه وتطوير المراكز البحثية لتحسين المحاصيل و محطات التربية ، وبحلول عام ١٩٥٩م كان ٥٠٠ مليون فلاح صينى قد إنضموا إلى ٢٦٠٠٠ كوميون .

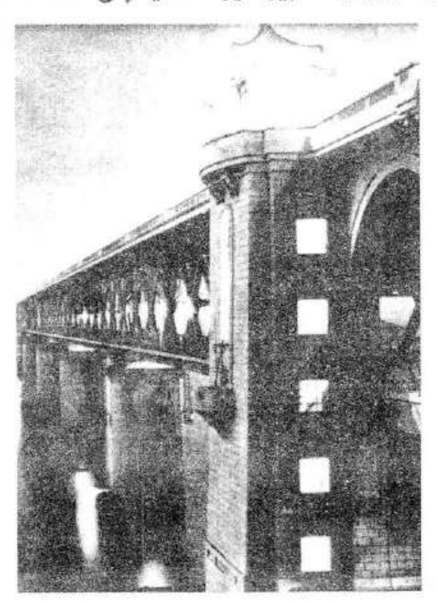
وكان إنشاء الورش الصناعية الصغيرة فى الكوميون تطوراً هاماً ، وكان هذا جزءً من السياسة التى أُطلقَ عليها " السير على قدمين " ، وكان هناك تشجيع لوحدات الكوميون كى تكون مستقلة فيما يتعلق بالمنتجات الصناعية الأكثر بساطة ، وبدأت الورش القادرة على الحفاظ على الآلات و الأدوات الزراعية بحالة جيدة و صالحة للإستعمال فى صناعة الأدوات الشائعة ، و تم تشييد أفران الطوب لإنتاج مواد البناء وأفران الفخار لإنتاج الأوانى والأوعية ، وكانت هذه التطورات بالغة الأهمية فى بلد عملاق كالصين ذو نمو صناعى ضئيل ورأس مال محدود ومشكلات توزيع خطيرة ، وفى هذه الورش إكتسب كثير من الناس المهارات اللازمة لتحقيق المزيد من النمو الصناعى .

وبذلك أصبحت وحدات الكوميون وحدات قائمة بذاتها تتعامل مع الإنتاج الزراعى والصناعى والتسويق والتوزيع المحلى وكذلك الشئون الإجتماعية والثقافية ، وكانت وحدات سياسية أساسية أيضاً ، كما ساعد إنضمام جميع الناس من كافة المهن والحرف إلى الكوميون على إزالة التمييز بين الريف والمدينة وبين العمال اليدويين والعمال ذوى الياقات البيضاء ، ولم تعد المنشآت الصناعية تتركز فى المدن بشكل أساسى ولكن فى المناطق الريفية حيث كانت وحدات الكوميون المحيطة توفر الطعام للعمال ، و هكذا كانت هناك استفادة من ثروة الصين من القوة العاملة البشرية فى بناء وجمع رأس المال الذى كانت تعانى نقصاً فيه . اتخذت التنمية الصناعية شكلين أساسيين : عدد محدود من المشروعات الكبيرة التى تمولها الدولة من ناحية كالمشروعات الكبرى للتحكم فى الماء و مجمعات الصناعات الثقيلة ، والعديد من الصناعات المحلية الأصغر حجماً التى أقامتها وحدات الكوميون بالعمل المكثف .

وكما كان الحال فى المزارع التعاونية فقد تم تنظيم العمل فى وحدات الكوميون على أساس فرق العمل التى تضم ٣٠ أو ٤٠ أسرة بحيث تشكل كل ٨ أو ١٠ فرق جماعة . وفى الأيام الأولى تم تشكيل وحدات كوميون كبيرة جداً ، وأثبتت أنه من الصعب تنظيمها وأصبحت الوحدات الأصغر حجماً شيئاً مألوفاً ، وكان دخل الكوميون

يوزع على الأسر حسب عدد أيام العمل التى عملتها الأسرة بعد إقتطاع ضريبة الدولة على الأرض (١٦-٢٥٪ من الإنتاج العادى حسب المنطقة) وتخصيص نسبة متفق عليها للرفاهية الإجتماعية (عادة ١أو٢٪). وكانت وحدات الكوميون قادرة على تقديم عدد متنوع من الخدمات الإجتماعية ، وإضافة إلى تقديم المساعدة لغير المتزوجين والمسنين فقد أقاموا المدارس و المستوصفات .

وتزامن ظهور الكوميون مع تكرار وقوع الكوارث الطبيعية فى مناطق واسعة من البلاد ، وشهدت المناطق الشمالية أشد مواسم الجفاف والقحط فى التاريخ الحديث لعدة مواسم متتالية (١٩٥٩-١٩٦٢م) فى الوقت الذى دمرت فيه الفيضانات فى الجنوب محاصيل الربيع وغمرت المياه أقاليم بأكملها ، كما أدت إعادة التنظيم على نحو يتسم بالإندفاع والتهور والتدابير غير العلمية إلى ضعف المحاصيل .



- جسر فوق نهر اليانجتسى فى «ووهان» - المدن الثلاث «هانكو» و«هانيانج» و«ووتشانج» حيث قامت ثورة ١٩١١م. وهذا الجسر الذى يزيد طوله على الميل له سطحين حيث يحمل السطح السفلى خط سكة حديدية مزدوج والسطح العلوى عبارة عن طريق عريض ، وقد أنشئ الجسر عند موضع يجرى فيه اليانجتسى سريعاً جداً وعلى عمق كبير جداً وتم الإنتهاء من إنشائه فى عامين تحت إشراف مهندسين صينيين وسوفيت ، ويمثل الجسر حلقة وصل حيوية للإتصالات بين شمال و جنوب الصين .

وتعين وضع نظام صارم لترشيد إستهلاك الطعام والمنسوجات حيث أنه لم يكن هناك شيء كالمجاعة الجماعية والموت الجماعي كي يميز مثل هذه الكوارث في الماضي ، ومن المؤكد أن ذلك كان نتيجة للإجراءات الطارئة التي إتخذتها الحكومة على المستوى القومي ، والتي إتخذتها وحدات الكوميون على المستوى المحلي . وكان هناك تشجيع على زراعة المحاصيل سريعة النمو كي تحل محل المحاصيل التي فُقِدَت في المناطق التي أصابتها الفيضانات ، وتمت تعبئة المؤن البديلة للمدن ، وكان نظام ترشيد الإستهلاك الصارم والتحكم في الأسعار و غياب الفساد و اكتناز الأموال على نطاق واسع جميعها سمات جديدة للتجربة الصينية ، وأصبحت عامة الشعب قادرة على مواجهة الكوارث الكبرى لأول مرة في تاريخ الصين .

النهوض بالصناعة

لقد غيرت الثورة الزراعية حياة غالبية الشعب الصيني ، لكن سياسة الجمهورية الشعبية لم تكن تهدف إلى تحسين الزراعة فحسب ، بل وإلى تحسين الصناعة أيضًا لرفع مستويات المعيشة والإرتقاء بالصين إلى مصاف القوى الصناعية الكبرى والتفوق عليها إن عاجلاً أو آجلاً ، ولذا فقد اعتُبِرَت الثورة الصناعية الإشتراكية أمرًا ضروريًا .

وكانت المرحلة الأولى إعادة النهوض بالصناعة التي كانت قائمة حتى التحرير، وتعين إصلاح السكك الحديدية ووسائل الإتصال الأخرى ، وكذلك إعادة بناء مدن بأكملها وإقامة مشروعات صناعية و تحقيق إستقرار العملة ، و برغم أوجه النقص والقصور ظلت العملة الجديدة التي تم إدخالها في عام ١٩٥٠م مستقرة ، وتم الإنتهاء من إعادة البناء في نفس الوقت تقريبًا الذي تم فيه إنجاز المرحلة الأولى من الإصلاح الزراعي في عام ١٩٥٢م .

الإجراءات المضادة للفساد

شهدت هذه الفترة أيضًا علاج مشكلة عميقة الجذور وهي القضاء على الفساد والغش والإحتيال في الحياة العامة ، و لم يكن مقررًا للنظام الجديد أن يكون مختلفًا

من الناحية الهيكلية فحسب بل وأن تكون له دوافع مختلفة أيضًا، وعززت حملة أطلق عليها " المضادات الثلاثة – الإجراءات المضادة للفساد ، والمضادة للتبديد ، والمضادة للبيروقراطية " – " حملة المضادات الخمسة " : الإجراءات المضادة الرشوة ، والتهرب الضريبي ، والإحتيال وسرقة أملاك الدولة ، و سرقة المعلومات الإقتصادية من أجل المضاربة الخاصة ".

الخطة الخمسية الأولى

في عام ١٩٥٢ تم البدء في تنفيذ الخطة الخمسية الأولى التي كانت تهدف إلى وضع الأسس الضرورية للصناعة الحديثة في الصين ، وخلال الفترة من عام ١٩٥٢م إلى عام ١٩٥٧م تم إخضاع أكثر من نصف المشروعات الصناعية القائمة للإدارة الحكومية، وقامت الحكومة بتعيين المديرين الذين كانوا مُلاكًا سابقين " الرأسماليين الوطنيين الذين لم يتعاونوا مع أعداء الصين من الأجانب و الذين كانوا يرغبون في العمل مع النظام الحاكم الجديد " . ووجد البعض أن الوضع الجديد له مزايا عظيمة تفوق ما كان للأوضاع القديمة ، ففي الماضي كانت هناك خلافات بين رجال الصناعة الصينيين الذين عارضوا منافسة الرأسماليين الأجانب ذوي الإمتيازات التي مُنِحَت لهم بموجب المعاهدات و أعاقت طريقهم البيروقراطية الحكومية القاصرة ، ومعارضة الأسر الخمس الكبيرة للمحتكرين الصينيين، والفساد في الحياة العامة والتضخم الشديد ، وكان " الرأسماليون الوطنيون " يحصلون على فائدة مقدارها ٥ ٪ على قيمة رأس المال لمشروعاتهم التي تم تأميمها و ظلوا يشرفون على الإدارة ، وكان مقرراً لهذا الاجراء الذي مكن النظام الحاكم الجديد من الإستفادة من مهاراتهم الفنية للنهوض بالصناعة أن يتم الإنتهاء منه في عام ١٩٦٢م لكنه إمتد إلى عام ١٩٧٦م .

وتضمنت الخطة الخمسية الأولى عدداً من مشروعات البناء التي كان بعضها بمثابة إنجازات كبرى بالمقاييس الدولية ، و لأول مرة أُقيمَ جسر فوق نهر «اليانجتسي» في «ووهان» حيث يبلغ عرض النهر حوالي ميل واحد، وتم الإنتهاء منه في عام ١٩٥٧م وفتح طريقًا مباشراً و شبكة سكك حديدية مـن الشمال إلى الجنوب عبر قلب الصين .



- اللحامون يعملون فى سد «سانمن جورج» ، ذلك المشروع العظيم للإستفادة من النهر الأصفر الذى لم يعد يُعَرف بـ " حزن الصين " ، و قد صمم السد و شيد بمساعدة سوفيتية .

وقد أُقيمَ هذا المشروع وغيره من المشروعات كسد «سانمن» فوق النهر الأصفر بمساعدة كبيرة من جانب الإتحاد السوفيتى، وحتى نهاية تلك الفترة كان هناك تعاون ودى وعملى بين هاتين القوتين .

الخطة الخمسية الثانية - القفزة الكبيرة للأمام

كانت الخطة الخمسية الثانية (١٩٥٨-١٩٦٢م) أكثر طموحًا ، حيث وضعت تصورًا لم يقتصر فقط على التوسع الصناعى النظامى والتدريجى بل و تحقيق " قفزة كبيرة للأمام " ، وكان الهدف من هذه الخطة وضع استثمارات كبيرة فى الصناعات الثقيلة وإحداث طفرة هائلة فى مجال التصنيع ، وأدت النجاحات الأولية فى عام القفزة الكبيرة للأمام (١٩٥٨م) إلى تحديث الأهداف الأخرى التى اشتملت عليها الخطة أملاً فى تحقيق الأهداف الأصلية فى غضون عامين . وكانت هناك صعوبات بسبب

سوء التنظيم والإفتقار الشديد للخبرة والموظفين المتخصصين ، ولذا لم تُنشَر أية أرقام تتعلق بالإنتاج ولم يكن من الممكن إعطاء تقدير صحيح لدرجة النجاح أو الفشل مع ظهور نتائج الخطة الثانية ، ومن ثم تم خفض عدد أهداف الخطة الخمسية الثالثة .

النساء و الأسرة

إكتسب تأييد الفلاحين لحركة التحرير قوة وصلابة بمؤازرة نسبة كبيرة من النساء ، وكانت حياة الرجال فى الريف الصينى قديماً قاسية و مهينة و بائسة ، وكانت حياة النساء أسوأ ، حيث كانت المرأة تُقتلع من جذور أسرتها عندما تتزوج و تصبح أمة فى بيت زوجها و ضحية لطغيانه هو ووالدته ، و حتى يأتى كبر السن بالوقار لم تكن للمرأة أية منزلة أو حقوق ، و فى الأوقات العصيبة كانت بناتها الرضع يُتركن فى العراء أو يتم إغراقهن و يباع أبناؤها، و ربما تم بيعها هى نفسها من بين منقولات الأسرة الأخرى من أجل الطعام فى أوقات المجاعة .

ومنذ قرن من الزمان سجل مبشر معمدانى إنجليزى تجاربه مع المجاعة فى إقليم شانسى (١٨٧٦م) قائلاً : " كان الوقت فى الصباح الباكر عندما إقتربت من بوابة المدينة ، وعلى إحدى جانبيها كانت هناك كومة من الرجال الموتى العراة الذين تكوموا فوق بعضهم البعض كما لو كانوا خنازير للمذبح، وعلى الجانب الآخر من البوابة كانت هناك كومة مماثلة من النساء الموتى و قد نُزِعت عنهن ثيابهن لرهنها من أجل الطعام .... و لمسافة أميال عديدة فى هذه المنطقة كانت جميع الأشجار بيضاء وعارية من الأوراق تماماً وخالية من لحائها الذى كان يستخدم للطعام ... (وفى صباح اليوم التالى) رأيت سبعة أشخاص فقط اليوم و لكن لم يكن بينهم نساء ، وهذا ما فسرته العربات التى كنت أراها يومياً مليئة بالنساء اللاتى كن يُحملن للبيع .... ".

وبعد حوالى قرن كتب المحاضر الأمريكى «جاك بيلدن» عن الصين فى الأربعينات من القرن العشرين فى عهد «تشيانج كاى شيك» قائلاً :

" لم يكن للوضع المتدنى للمرأة الصينية تأثير رهيب على النساء أنفسهن فحسب بل أدى أيضاً إلى تحقير وإفساد كافة العلاقات الإنسانية داخل المجتمع ، وأدخلت

حكومة «تشيانج كاى شيك» على مدى العشرين عاماً لحكمها للصين بعض الإصلاحات لكنها كانت قليلة ... ففى الريف – خاصة ريف الصين الشمالى – كان الوضع أفضل قليلاً عما كان عليه منذ ٥٠ عاماً ، ولكن مع الأخذ فى الإعتبار أن شراء وبيع النساء قد زاد بنسب تبعث على القلق خلال العقد الأخير ... ووجد الشيوعيون فى نساء الصين واحداً من أعظم جماهير البشر المحرومين من حقوقهم الطبيعية الذين عرفهم العالم ، ونظراً لأنهم وجدوا المفتاح لقلوب هؤلاء النساء ، فقد وجدوا أيضاً أحد المفاتيح للإنتصار على «تشيانج كاى شيك» .ˮ

وقد أسهم «تشيانج كاى شيك» بشكل أساسى فى زيادة خضوع النساء ، وفى ˮ حركة الحياة الجديدة ˮ التى كان يأمل من خلالها فى بعث الحياة فى الكومينتانج من جديد وكان متأثراً بأفكار حركة موسولينى الفاشية التى تقيدت النساء من خلالها بدورهن المنزلى التقليدى كخادمات للرجال .

وفى إقليم «هونان» قبل الحرب إلتقى «جاك بيلدن» مصادفة بأحد أصحاب الأراضى الذى كان له أسرة مكونة من ٦٩ فردا ، ومن خلال هذه الأسرة كان يسيطر على ٧٠٠ فلاح مستأجر و٣٠ أمة و٢٠٠ مالك للأرض بوضع اليد و ٧ مرضعات كن يقمن بإرضاع صغاره الكثيرين رضاعة طبيعية ، وكان قادراً على شراء وبيع النساء بفضل ثرائه ، وكان له نفوذ أيضاً بسبب إمتلاكه للنساء .ˮ

ويمكن لنساء الجيل السابق فى الصين تذكر تلك الأيام ، وتقول «تشيا ينج لان» من قرية «لوبلنج» :

ˮ عندما كنت فى الثانية و العشرين من عمرى تم بيعى ، و حضر (زوجى) فى أحد الأيام وأتى بى أنا و ابنتى و أخذنا إلى نخاس يدعى «يانج» ، وباعنا زوجى حتى يحصل على المال اللازم لشراء الأفيون ، ولم أره بعد ذلك أبداً .... وبعد أن أمضيت يومين مع يانج النخاس باعنى أنا و ابنتى لفلاح يدعى «هى نانج كانج» ، وكنت حزينة للغاية نظراً لأن السيد «هى» كان رجلاً مسناً لكنه كان طيب القلب و لم يحدث أبداً أن أساء هو أو أسرته معاملتى ، والواقع أنه كان عجوزاً لطيفاً .... وولدت له إبناً فكان الجميع عطوفاً تجاهى .... ثم مرض و توفى ، وكنت فى الخامسة و الثلاثين من عمرى آنذاك . وكان لى إبنة و إبن .... و كنت بالطبع أرملة و عبء على القرية ، وأراد

صاحب الأرض تزويجي .... و لكي أفلت من هذه الزيجة الجديدة كذبت و قلت أنني بلغت الحادية والأربعين من عمري بالفعل ... ورأى صاحب الأرض أنني لم أعد قادرة على الحمل والإنجاب وأنه لن تكون به حاجة لأن يتخذني زوجة ... وبعد مرور بضع سنوات على ذلك تحررنا من قيد العبودية وقامت الحكومة الجديدة بحمايتنا نحن الأرامل والأيتام .... إبني يعمل والحياة طيبة، لكني أريده أن يتزوج ، لقد عشت حياة مريرة والآن أريده أن يتزوج حتى أرى حفيداً لي قبل أن أموت . "

ولم يواجه الأغنياء " جلسات إتهامهم " (محاكماتهم) بعد التحرير ليس كأصحاب أراضي متوحشين فحسب ولكن أيضًا كأزواج ومُلاك عبيد غلاظ القلوب ، ولم تكن مطالبة النساء بالعدالة لينة رقيقة دائمًا والتمس كثير من الأزواج السابقين كأصحاب الأراضي الأمن في الهروب .

وكان من بين الأعمال الأولى للجمهورية الشعبية إغلاق جميع بيوت البغاء (نوفمبر ١٩٤٩م) ، وحظر قانون الزواج الذي صدر في عام ١٩٥٠م الزيجات المدبرة والزواج بالعرائس من الأطفال وتعدد الزوجات ، فكان الزواج – في ظل هذا القانون – يقوم على الاختيار الحر للشركاء والحقوق المتساوية للجنسين ، وأصبح من الممكن للمرأة الإحتفاظ باسمها عند الزواج وأن يحمل الأطفال اسم الأب أو الأم ، وأصبح السن القانوني للزواج هو ١٨ عامًا للمرأة و ٢٠ عامًا للرجل ، كما أتاح هذا القانون للنساء الأرامل الزواج مرة أخرى ، واختفى وسيط الزواج و نظام المهور في القرية .

وتتم الموافقة على الطلاق إذا كان مرغوبًا فيه من كلا الطرفين ، وإذا تمت تسوية المسائل المتعلقة بإعالة الأطفال و تقسيم الملكية ، وإذا أراد أحد الطرفين فقط الطلاق تسعى المحكمة الشعبية إلى تحقيق الصلح بين الطرفين . فإذا أخفقت في ذلك منحت شهادة الطلاق . وفي عام ١٩٥٠م وبعد مرور بعض الوقت على ذلك كان هناك اندفاع للحصول على الطلاق وذلك لفسخ الزيجات المدبرة والطلاق للنساء اللاتي كن زوجات لأصحاب الأراضي متعددي الزوجات ، وأعيد تزويج كثير من الفتيات الأرامل اللاتي كن إماءً في بيوت أزواجهن ، وشكلت الخلافات والمنازاعات المتصلة بالزواج والطلاق حوالي ٩٠ ٪ من مجموع القضايا الواردة إلى المحكمة المحلية .

وطبقا للنظرية الشيوعية فإن تحقيق المساواة الكاملة بين الجنسين يتوقف على المساواة الإقتصادية ، ولابد للنساء من أن يكن قادرات على لعب دور منتج إقتصاديًا فى المجتمع ، وقد ظللن يلعبن دومًا دورًا ما منتجًا فى الزراعة فى الصين ، وقد شجع نظام الكوميون النساء على مشاركة الرجال بنصيب كامل، وكان يتم الدفع لهن بشكل مستقل نظير عملهن فى الكوميون و كذلك فى الصناعة بينما تقيم الجدة بالمنزل لرعاية الأطفال الصغار أو تتم رعايتهم فى دور الحضانة ورياض الأطفال ، كما يجرى أيضًا تشجيع النساء على العمل فى مجال الصناعة ، ويطبق مبدأ الأجر المتساوى على العمل المتساوى بوجه عام ، و تجعل منشآت رعاية الأطفال والخدمات المساعدة كقاعات الطعام فرص العمل - بالنسبة للنساء - مسألة اقتصادية ، والمصانع ملتزمة بإقامة دور الحضانة ورياض الأطفال لرعاية أطفال موظفيها من النساء .



مصنع الحديد والصلب فى «كورتر أنشان» بشمال شرق الصين ، وهذه المنطقة لها تاريخ طويل فى إنتاج المعادن، وخلال عهد «هان وو تى» (١٤٠ - ٨٧ ق.م) كان خام الحديد يُصهر بالطرق البدائية .

وفى الصين – كما فى غيرها من البلدان – ظل الميل لاعتبار الشئون المنزلية ميداناً للنساء و الحياة العامة إمتيازاً للرجال موقفاً مشتركاً بين الجنسين ، وساعدت الجمعيات النسائية و لجان الشوارع والأنشطة الثقافية و انتشار التعليم بين جميع قطاعات السكان النساء على التغلب على حيائهن وعدم ثقتهن بأنفسهن والمشاركة فى الحياة العامة بشكل كامل .



– صاهر الحديد

و من بين الدلائل المذهلة على الفرق بين الجيل القديم و الجيل الجديد من النساء الصينيات حجم أقدامهن. فالأقدام " الكبيرة " – الأقدام العادية – كانت تعد قبيحة وغير مألوفة لدى المرأة ، ووصفت شحاذة سابقة لم تكن قدميها مربوطتين الذل والهوان الذى تعرضت له فى شبابها بسبب " كبر حجم " قدميها قائلة :

"عندما كنت فى السابعة عشر من عمرى بدأت أشعر بالخجل من قدمى العاديتين، واعتاد الناس أن يسخروا منى قائلين " أنت نصف رجل ونصف فتاة بهاتين القدمين الكبيرتين البشعتين ، لن يتزوجك أحد ." واحتقرتنى الأمهات ورفضن إعتبارى زوجة مأمولة لأبنائهن ، وأخيراً باعتنى أمى لحداد يكبرنى بسبع سنوات ....".

كانت هذه قصة «وانج سوى وان» التى أُنتخِبَتْ بعد التحرير نائبة للمؤتمر الوطنى.

السكان

لم يؤد فقد ملايين الناس في الصين بسبب المجاعات والحروب إلى استنزاف طويل الأجل للسكان ، وبعد جيل أو نحوه عادت أعداد السكان كما كانت ، وكانت فترات الإنتعاش الزراعي مصحوبة بزيادة كبيرة في عدد السكان .

ويتجاوز عدد سكان الصين اليوم المليار نسمة ، وقد أثار النمو السكاني السريع في الصين قلق الكثير من دول الغرب لكنه لم يثر القلق في الصين حيث كان يُنظَر إلى الزيادة في السكان على أنها نعمة رغم الإنتقاص من قدر الأسر الكبيرة بسبب تأثيرها على صحة الأم ، والصينيون ليسوا قلقين بشكل مفرط بشأن قدرتهم على توفير سبل العيش لأعداد السكان المتزايدة ، وعدا المنطقة الساحلية وأودية الأنهار فالكثافة السكانية ليست كبيرة مقارنة ببعض المناطق في أوروبا ، ويعتقد الصينيون أن جهودهم للحد من آثار الكوارث الطبيعية سوف تؤدي إلى زيادة الإنتاج الزراعي بمعدل أسرع من معدل الزيادة السكانية على المدى الطويل .

و لبعض الوقت بعد عام ١٩٤٩م لم يهتم الصينيون بالحد من الزيادة السكانية عن طريق تحديد النسل أو أية وسيلة أخرى ، وفي وحدات الكوميون قالوا أن عمل الرجل قد أنتج ما يفيض عن حاجته ، وكان هناك تشجيع للشباب على تأجيل الزواج حتى أواخر العشرينات من العمر وأن تكون لهم أسر صغيرة ، وتأييد لأساليب تحديد النسل للأزواج من الشباب مع وضع صحة الأم في المقام الأول .

وفي الصين كان حتمياً أن يؤدي القضاء على المجاعة والأوبئة والإهتمام بالصحة العامة والتوسع في إنشاء المستوصفات وإدخال الرعاية الطبية على نطاق واسع – حتى على مستوى القرية – إلى زيادة السكان .

والصينيون واثقون من أن هناك متسع للجميع في الصين .

التعليم :

إصلاح اللغة :

وكان من بين المهام الأخرى التى واجهها النظام الحاكم الجديد التعليم الذى هو أساس التقدم فى كافة المجالات ، وبرغم الإصلاحات التعليمية فى بداية القرن فقد كان عدد المتعلمين من السكان ضئيل للغاية ، وفضلاً عن غياب المدارس فقد كان من بين العقبات الرئيسية طبيعة اللغة الصينية الكلاسيكية التى كان تعلمها يستغرق سنوات عديدة ولم تكن تناسب الحياة اليومية بشكل جيد ، وحث المصلحون أمثال «لو هسون» الساخر (الذى كتب القصة الحقيقية لـ Ah Q' عن أحد المتمسكين بالتقاليد الذى يعيش حياة ملؤها الأوهام ، وانتهى به الحال إلى سحبه لتنفيذ حكم الإعدام فيه وهو يحاول عبثًا أن يلعب دور البطل) على إستخدام اللغة العامية بدلاً من اللغة الكلاسيكية المقيدة ، وحلت اللغة العامية محل اللغة الفصحى .

وكان شكل اللغة المكتوبة يمثل عقبة أخرى ولم يكن لها أحرف هجاء صوتية نظراً لأنها مشتقة من الكتابة التصويرية ، وكان يتعين تعلم أصوات وأشكال كل حرف ، ولكى تصبح متعلماً بدرجة متوسطة كان يتعين عليك إجادة ما يقرب من ٤٠٠٠ حرف وكان كثير منها يتطلب ٢٠ جرة قلم أو أكثر لكتابته ، كما كان يتعين على المرء أن يعرف ١٠ آلاف حرف كى يتمكن من تقدير الأدب الكلاسيكى .

وكانت الخطوة الأولى نحو إصلاح اللغة – التى تم إتخاذها فى السنوات الأولى لقيام الجمهورية الشعبية – تبسيط بعض الحروف الأساسية حيث تم إنقاص عدد جرات القلم لكتابة حوالى ٥٠٠ حرف من ١٧ إلى ٨ جرات قلم فى المتوسط لكل حرف وتم حذف الحروف المزدوجة لنفس الكلمة ، وخشى البعض من أن هذا قد يعنى فقد الأجيال القادمة لتراث الأدب الكلاسيكى وفقد اللغة المكتوبة التى شكلت الرباط الثقافى فى جنوب شرق آسيا ، لكنهم أشاروا إلى أن جميع الأعمال الكلاسيكية يمكن طباعتها فى النصوص المنقحة حتى تصير متاحة للكثيرين وليس القلة فحسب .

وكانت المرحلة التالية إدخال الأبجدية الصوتية اللاتينية في عام ١٩٥٨م ، حيث كانت الكتابة الصينية عقبة أمام الكثير من التطورات التقنية . وتم تبني الأبجدية اللاتينية ليس كبديل للكتابة الصينية ولكن للمساعدة في تعلم اللغة الصينية بشكل أسرع .

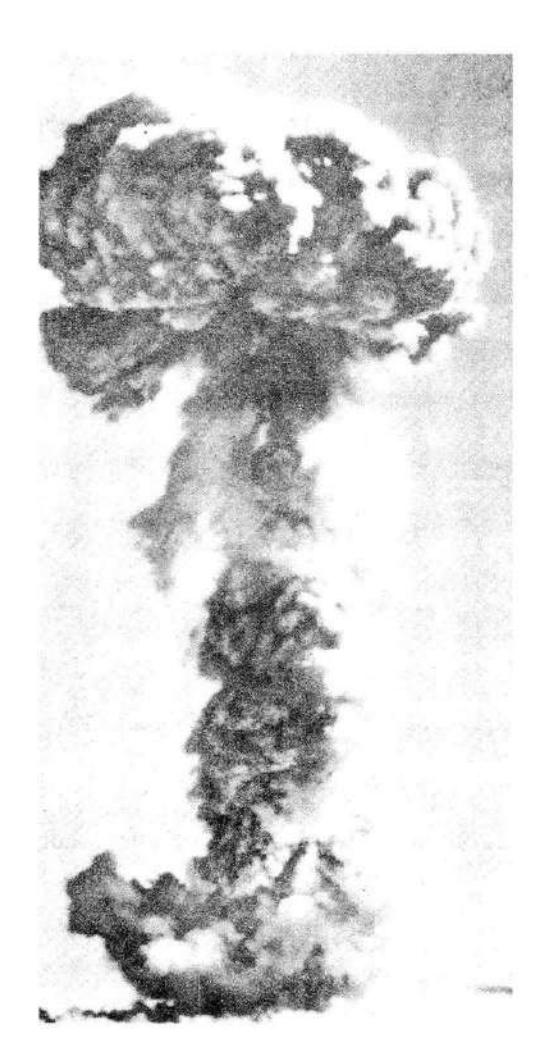
وهناك العديد من اللهجات المنطوقة في الصين ، وغالباً ما كان من الصعب على الناس في المناطق المختلفة في الماضي الإتصال ببعضهم البعض ، وساعدت الأبجدية الصوتية علي نشر النطق القياسي (علي أساس لهجة بكين أو لهجة كبار الموظفين) ولكن دون إلغاء اللهجات المحلية، ويسرت الأبجدية الصوتية أيضًا العمل على إيجاد أبجديات للكثير من الأقليات في الصين التي لم تكن لها أية لغة مكتوبة من قبل .

المدارس

في عام ١٩٤٩م لم تكن نسبة المتعلمين تتجاوز ١٥ ٪ ، و في ذلك الوقت كان حوالي ٢٤ مليون طفل يتلقون التعليم الإبتدائي وكان معظمهم في مدارس القرى والمدن التي أنشئت في بداية القرن ، وبعد مرور عقد من الزمان على قيام الجمهورية الشعبية زاد عدد الطلاب بمقدار ثلاثة أضعاف ليصل إلى ٩٠ مليون منهم ١٠,٥ مليون في المدارس الثانوية ، وكانت المدارس تُدار من قبل الحكومة أو وحدات الكوميون الشعبية أو المصانع بمساعدة مالية من الحكومة ، ووحد المعلمون والتلاميذ المأمولين وآباؤهم جهودهم لتشييد الأبنية التعليمية وتوفير المواد الخام اللازمة لها ، وساعد الأطفال أنفسهم في صناعة الطاولات والمقاعد .

و لا يُنظر إلى التعليم في الصين على أنه غاية بحد ذاته من أجل التعليم الشخصي للفرد ، فالغرض الأساسي منه هو تحقيق المنفعة العامة .

والتعليم فى الصين هو إمتداد للتراث الثقافى الصينى و رد فعل تجاهه أيضًا ، وبالمثل فهو تكييف للتقدم التقنى الغربى و رد فعل تجاهه فى ذات الوقت .



– فى أكتوبر من عام ١٩٦٤م قامت الصين بتفجير أول قنبلة ذرية .

وفى القرن التاسع عشر خلص الصينيون إلى أن الحضارة والهيمنة الغربية قامتا على الخبرة العسكرية التي بدأوا فى محاكاتها ، وقد استخلص هذا الدرس من سفن المدفعية ومن الخبرات الأكثر غرابة ، ووصف زائر صينى لأستراليا فى نهاية القرن التاسع عشر في رسائله إلى وطنه بعض العادات البربرية التى لاحظها فى الخارج وكان من بينها لعبة كرة القدم :

« هذه اللعبة تشبه المعركة حيث تتنافس جماعتان من الرجال في صراع .... إنهم يركضون كالأرانب البرية ويهاجمون بعضهم البعض كالثيران و يصرعون بعضهم البعض فى إندفاعهم نحو الكرة و يرسلونها عبر قائم الخصم .... إنها لعبة عنيفة وغالبًا ما يصاب الرجال فيها ، لكن إكتسابهم الجرأة والصلابة يتطلب منهم خوض عشرة آلاف مباراة نظرًا لأنها أشبه بالقتال .... وسوف يصبح الرجال الذين يتصفون بمثل هذه الشجاعة جنودًا أولى بأس شديد ، ولابد أن نتبنى هذه اللعبة فى الأقاليم الثمانية .... ونحن أبناء «التانج» لا نحب الأشياء العنيفة ، لكن هناك أشياء كثيرة على الأرض يتم الحصول عليها بالقوة ، ولذا لابد لنا من تعلم بعض العنف» .

وجاءت الحرب فى المحيط الهادىء لتعطى الدرس نفسه .

وفى مجال التعليم العالى تضاعف عدد معاهد البحث بشكل كبير فى الجمهورية الشعبية ، وأوضح تفجير الصين لأول قنبلة ذرية لها فى أكتوبر من عام ١٩٦٤م - الذى تلاه تفجير قنابل نووية حرارية أكثر تقدما فى وقت لاحق - للعالم أن الصينيين قادرين على تعويض ما فاتهم واللحاق بركب التقدم التقنى فى فترة زمنية قصيرة على نحو لافت للنظر .

الثورة الثقافية البروليتارية

لم يقترن التوسع الكمي للتعليم العالى بإعادة التوجيه بشكل نشط بادئ الأمر مثلما حدث في المجالات الأخرى ، وفى عام ١٩٦٦م كان الإلتحاق بالكليات والجامعات يخضع لنظام إمتحان وطنى موحد ، وعند ظهور النتائج كانت أفضل الجامعات المعروفة أول من يختار طلابه ، وفى صيف عام ١٩٦٦م تعرض نظام الاختيار بنتائج

الامتحان لهجوم شديد من قبل الشباب حيث بدأت فتيات المدرسة الثانوية في بكين هذا الهجوم ، وشكون من أن النظام إختلف قليلاً عن ذلك النظام الذي يرجع تاريخه لآلاف السنين ، وأشرن إلى أن الإختيار بالإمتحان يعطي الأفضلية الشباب من الأسر ذات الأصول الفكرية ، في حين يحرم الشباب من أسر العمال والفلاحين الفقراء سابقًا من هذه الأفضلية ، كما تعرض النظام لهجوم لتشجيعه النزعات " الفردية البرجوازية " ، وحفز التنافس للحصول على أعلى الدرجات في الإمتحان على التركيز على النجاح الشخصي والرغبة في تحقيق الشهرة الفردية والثراء و المنصب بدلاً من التركيز على الصالح العام ، وشدد على إستظهار الصيغ وحشو الدماغ بالمعلومات التي تُنسى فور انتهاء الامتحان، وأدت الدراسة من أجل النجاح في الإمتحان إلى عزل الشباب عن الحياة والسياسة فأصبحوا يمتعضون من العمل في الحقول أو المصانع ، واقترح النقاد إستخدام السجلات الشخصية للنشاط الإجتماعي والسياسي كمعايير للإختبار بدلا من مستويات الأداء في الإمتحان ، ووافقت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني على هذه الحجج وأعلنت أن الطريقة القائمة لتسجيل الطلاب في مؤسسات التعليم العالي سوف يتم تعديلها ، وأن التسجيل لعام ١٩٦٦م سوف يؤجل لمدة ٦ أشهر، ولذا فقد تجاوب الشباب – الذين تحرروا من دراساتهم – بشغف مع دعوة «ماو تسي تونج» للقيام بـ" ثورة ثقافية بروليتارية عظيمة " للقضاء على " الأربعة " : الأفكار القديمة ، العادات القديمة ، الأعراف القديمة، والثقافة القديمة – والتي أضيف إليها المؤثرات الخارجية القديمة ، وتم تشكيل " الحرس الأحمر " ، وكثيرا ما كانوا يهاجمون السلطات القائمة حديثًا بما في ذلك الموظفين المحليين والوطنيين التابعين للحزب الشيوعي الصيني حيث كانوا يتهمونهم باتباع " الطريق البرجوازي" ، وكانت الثورة الثقافية البروليتارية تعبيراً عن الخوف من الإرتداد إلى طرق التفكير والسلوك التقليدية أو الغربية ، وكانت تهدف إلى التخلص من الإزدراء القديم للعمل اليدوي والذل والخنوع لموظفي الدولة ، وإزالة خرافات ومخاوف الماضي، وبدلاً من الإستسلام للقرارات التي يتخذها الآخرون كانت أفكار الرئيس «ماو» مشجعة على التجديد والإبتكار والحوار والنقد والتحدي ، وحلت كلمة " يجرؤ " محل كلمة " يطيع" .

ويمكن فهم حملة "المائة زهرة " في عام ١٩٥٧م داخل نفس الإطار ، وينطوى شعار " دعوا مائة زهرة تزهر ودعوا مائة مذهب فكرى تتنافس " على إشارة كلاسيكية إلى " المذاهب الفكرية المائة " في عصر الدول المتحاربة ، وكان الهدف من تشجيع النقاش والحوار والنقد ترسيخ الثقافة الإشتراكية والإنتاج الإشتراكى ، ولم يكن القصد منه قبول الفكر البرجوازى الغربى من جديد أو تأييد بقاء النظرة البيروقراطية التقليدية اللذين تم تجريمهما بموجب القانون .

وقد نبع كثير من النقد الأول في الثورة الثقافية البروليتارية من مجال التعليم بشكل مباشر، ومنذ عام ١٩٦٤م ظلت الشكوى من أن نظام امتحانات القبول يؤيد قبول أبناء الأسر البرجوازية و الفكرية مصحوبة بهجوم عام على نظام الإمتحان الخاص بالجامعات والكليات ، وقام عدد من الكليات الجامعية بمراجعة امتحاناتها الداخلية وإدخال امتحانات " الكتاب المفتوح" كى تحل محل اختبارات " إنتزاع الدرجات " القديمة ، و سمحوا للطلاب بالرجوع إلى الكتب المدرسية والمراجع في أثناء الامتحان وأن يتحدثوا فيما بينهم ، وجرب البعض نظام إعطاء الأسئلة مقدماً كى تكون الإجابات جاهزة في موعد محدد ، وحاولوا تجنب الأسئلة الأكاديمية ووضع أسئلة ليست لها إجابات جاهزة و ذلك لتشجيع إستخدام المعرفة بدلاً من مجرد الإستظهار، ويقال أن نتائج هذه التجارب كانت بناءة للغاية ليس فقط من ناحية إنجاز الطالب ، ولكن أيضًا من ناحية التحسن العام في طرق التدريس التي شجعت عليها .

الأقليات القومية : العلاقات الدولية :

بحلول عام ١٩٤٩م كانت معظم الأجزاء الرئيسية من البلاد التي خضعت لحكم «المانشو» في عام ١٩١١م قد تحررت من إحتلال الكومينتانج أو الإحتلال الأجنبي .

وثار الجزء الخارجي من منغوليا الذى كان إقليمًا مضطهداً من امبراطورية «المانشو» منذ نهاية القرن السابع عشر في وجه موظفى المانشو في عام ١٩١١م وأعلن إستقلاله ، وتلى ذلك عقد من الصراعات بين القادة العسكريين في منغوليا انتهت بالثورة في عام ١٩٢١م، وأصبح الوطن القديم للبدو جمهورية منغوليا الشعبية ، وأرجأ

الوطنيون الكومينتانج الإعتراف بالجمهورية حتى عام ١٩٤٥م، وظلت العلاقات الودية قائمة بين جمهوريتى الصين ومنغوليا الشعبيتين بعد عام ١٩٤٩م .

ومع توسع الإمبراطورية الروسية عبر مراعى آسيا إلى المحيط الهادىء بعد القرن السابع عشر وقيام الإتحاد السوفيتى (فى عام ١٩١٧م) وجمهورية منغوليا الشعبية (فى عام ١٩٢١م) إنتهت واحدة من المراحل الطويلة فى تاريخ الصين ، وزال مركز الإعصار الذى انطلقت منه القبائل البدوية لتجتاح جنوب السور العظيم إلى داخل القرى الصينية ، ولم يعد هناك مزيد من الفاتحين البدو لتهديد المملكة الوسطى والإستيلاء على عرش التنين ، وطوى بدو السهول خيامهم واستقروا وراحوا يبنون المدن وسط مراعيهم الخاصة، وكانت هناك علاقات جزئية تربط التبت بالصين على مدى عدة قرون ، وفى الأيام الأولى لأسرة «المانشو» الحاكمة إندمج التبت داخل الإمبراطورية الصينية كإقليم مستقل ، وكان يحكمه «الدالاى لاما» الذين كان يتطلب تعيينهم تصديق بكين ، وخوفًا من زحف البريطانيين من الهند فى بداية هذا القرن إحتل «المانشو» التبت (١٩١٠م) وحولوه إلى إقليم صينى ، وفر «الدالاى لاما» إلى الهند وتبعته قوات المانشو، وقد أنهت الثورة فى الصين فى عام ١٩١١م هذا الإحتلال والسيطرة الصينية على الجزء الغربى من التبت ، وفى تلك الأثناء حاول مؤتمر عُقِدَ فى «سيملا» بالهند تعديل الحدود بين الهند والتبت ، ووافق «الدالاى لاما» على الحدود التى إقترحتها بريطانيا – خط «مكماهون» – وعاد «الدالاى لاما» إلى حكم التبت الغربية لكنه لم يحصل أبداً على تصديق الصين ، وأعادت القوات الصينية إحتلال التبت الغربية فى عام ١٩٥٠م وأصبح التبت إقليماً مستقلاً داخل جمهورية الصين الشعبية وأصبح «الدالاى لاما» نائبًا للرئيس . وفى عام ١٩٥٨م وفى أعقاب ثورة إحدى القبائل فى التبت الشرقية فر «الدالاى لاما» إلى الهند ، وأخمدت القوات الصينية الثورة ومدت الطرق التى كانت تقوم بإنشائها إلى خط مكماهون وما ورائه وعبر الأراضى الأخرى المتنازع عليها على حدود التبت والهند الواقعة إلى الغرب . وفى عام ١٩٦٢م وقعت مصادمات بين القوات الصينية و الهندية فى منطقة مكماهون ، وزحف الصينيون جنوبًا و سرعان ما اجتاحوا المواقع الهندية الأمامية ، وانتهت الحادثة بانسحاب القوات الصينية إلى ما وراء خط مكماهون ، وشهدت العلاقات الودية السابقة بين الدولتين الآسيويتين الكبيرتين توترًا شديدا ، وتمت تسوية المشكلات الحدودية بين الصين وبورما ونيبال بالطرق السلمية .

وتم التخلى عن «هونج كونج» – تلك الجزيرة الواقعة فى الجزء الرئيسى من البلاد – لبريطانيا نتيجة لحربى الأفيون بعقد إيجار سار حتى عام ١٩٩٨م ، وتجاهلت الجمهورية الشعبية الإمتياز البرتغالى فى «ماكاو» عندما أُلغيت الإمتيازات الأجنبية بعد عام ١٩٤٩م وصودرت الممتلكات الأجنبية ، وكان الكثيرون يعتبرون هذا التعامل الهادىء مع الأمر بمثابة الهدوء الذى يسبق العاصفة .

وكانت جزيرة تايوان (فورموزا) التى انتزعها اليابانيون من الصين فى نهاية القرن الماضى الملجأ و المعقل الأخير لـ " تشيانج كاى شيك "والوطنيين الكومينتانج منذ عام ١٩٤٩م، وظل «تشيانج كاى شيك» – بدعم أمريكى هائل – يهدد بإستخدام الجزيرة كقاعدة للهجوم على الجمهورية الشعبية مجدداً ، وقد أسهم التأييد الأجنبى لمن بقى من الكومينتانج و إعتراف الأمم المتحدة بهؤلاء " الوطنيين " كممثلين للصين – منذ قيام الجمهورية الشعبية – فى خلق أجواء التوتر بين الصين و العالم الخارجى ، و زاد الرفض المتواصل لطلب جمهورية الصين الشعبية الحصول على مقعد فى الأمم المتحدة من الشعور الراسخ فى الصين منذ زمن طويل بأنها لا يمكن أن تتوقع النوايا الحسنة أو الإنصاف من جانب القوى الأجنبية بشكل جماعى أو فردى .

وقد زادت أيضاً الأحداث التى وقعت على حدودها بعد عام ١٩٤٩م من قوة الإعتقاد الراسخ فى الصين بأنها مهددة من قبل القوى الغربية بزعامة الولايات المتحدة، وعندما إندلعت الحرب فى عام ١٩٥٠م بين الشمال والجنوب فى كوريا تم إرسال القوات الأمريكية (كقوة تابعة للأمم المتحدة) لدعم الجنوب ، وعندما زحفت هذه القوات شمالاً باتجاه الحدود الصينية هبت الصين لمساعدة كوريا الشمالية ، وتم التوقيع على إتفاق وقف إطلاق النار فى عام ١٩٥٣م، وظل الخط ٣٨ الموازى الحد الفاصل بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية حيث كانت كوريا الشمالية جمهورية شعبية مؤيدة للصين وكوريا الجنوبية حليفاً لأمريكا ، وأوجدت الحرب فى فيتنام على الحد الجنوبى للصين شكوكاً مماثلة ، وسرعان ما أدى الدعم الأمريكى لفيتنام الجنوبية للدخول فى مرمى القصف للحد الصينى .

وكان قطع العلاقات الصينية مع الإتحاد السوفيتي أمراً غير متوقع على الإطلاق في العلاقات الصينية الخارجية ، فبعد التحرير وُقِعَت معاهدة صداقة بين الإتحاد السوفيتي و جمهورية الصين الشعبية ، وتم إرسال الخبراء الفنيون السوفيت والمساعدات المادية السوفيتية إلى الصين ، ونشأت خلافات من حيث المبدأ بين الحزبين الشيوعيين في البلدين بعد عام ١٩٥٦م، وفي عام ١٩٦٠م اتسعت هوة الخلاف والقطيعة مع قطع العلاقات التجارية بين القوتين وسحب الخبراء السوفيت ، وكان من بين الشكاوى الصينية الرئيسية الزعم الصيني بأن الإتحاد السوفيتي لم يساعد الصين في بناء سلاح نووي ، وبعد هذه القطيعة أصبحت الصين معزولة عن الشئون الدولية بشكل متزايد .

الديمقراطية الجديدة :

أطلق الصينيون على النظام السياسي الذى أُدخل بعد تأسيس الجمهورية الشعبية " الديمقراطية الجديدة" ، و كانوا يصفون جمهوريتهم بأنها ديكتاتورية ديمقراطية تقوم على تحالف العمال مع الفلاحين تحت قيادة الحزب الشيوعي ، وكان "التحرر" من الكومينتانج و القادة العسكريين يعني أيضًا التحرر من الأشكال القديمة للسيطرة ، وقد استغرق إعادة التنظيم الهيكلي للحكم خمس سنوات ، و في عام ١٩٥٤م أجريت الانتخابات واجتمع مؤتمر الشعب الوطني لإقرار دستور الجمهورية الشعبية ، ولأول مرة أدخل الإقتراع العام في الصين : و هو إعطاء حق التصويت والإنتخاب لكافة المواطنين فوق سن ١٨ عام ، وتم إستبعاد فئتين من هذا الحق وهما المجانين ومن حُرِمُوا بموجب القانون من حقوقهم السياسية مثل أصحاب الأراضي وأنصار الكومينتانج الذين لم يشملهم الإصلاح أو المتواطئين مع اليابانيين، و تم إنتخاب المؤتمرات المحلية المسئولة عن مناطق صغيرة – تضم الواحدة منها قرية واحدة أو أكثر – بشكل مباشر ، و تشكل مجموعة منها مقاطعة ، وتم انتخاب المؤتمرات للمقاطعات بالتصويت غير المباشر – أى بواسطة المؤتمرات القروية وصولاً إلى المؤتمرات الإقليمية و انتهاءً بالمؤتمر الوطني .

وتشكل المؤتمرات الهيئة التشريعية في كل مرحلة ، و هي تتخذ القرارات وتعلن القوانين ، وتم إنتخاب المجالس التنفيذية كي تقوم بدور الهيئات الإدارية من قبل المؤتمرات في كل مستوى ، ويقوم مجلس الدولة التابع لمؤتمر الشعب الوطني بتنفيذ السياسات عن طريق وزاراته ولجانه ، و ينص الدستور على اجتماع مؤتمر الشعب الوطني سنويًا ، و عندما لا يكون في دور الإنعقاد تقوم لجنة دائمة بالعمل نيابة عنه ، وقد انتخب حوالى ستة ملايين نائب في الإنتخابات الأولى من قبل جمهور الناخبين البالغ حوالى ٣٥٠ مليون للمؤتمرات الشعبية في المستوى الأول ، وكان ١٧ ٪ من النواب الوطنيين من النساء .

وكان يُنظَر إلى الديمقراطية الجديدة في الصين والتي شملت الهيكل السياسي والإصلاحات الزراعية والصناعية التي سبق ذكرها على أنها السبيل إلى التخلص من نظام الحكم القديم و النظام الإقتصادي القديم والثقافة القديمة تمامًا ، والوصول إلى المجتمع الإشتراكي ، وأصحاب السلطة في الديمقراطية الجديدة هم أولئك الذين يعملون فقط ، وتُمارس هذه السلطة ليس فقط من خلال المؤتمرات ولكن أيضًا من خلال عدد من المؤسسات والهيئات التابعة للقطاعات المختلفة من المجتمع - النقابات التجارية والجمعيات القروية ، والإتحادات النسائية ، والإتحادات الشبابية والإتحادات الطلابية ، ويقدر عدد الأعضاء في كل منها بعدة ملايين .

والحزب الشيوعي الصيني هو أقوى مؤسسة . وعندما تأسس في عام ١٩٢١م كان يضم ٥٧ عضوًا ، وفي مؤتمره الوطني الثامن في عام ١٩٥٦م كان يضم حوالى ١١مليون عضوًا ، وفي عام ١٩٦٢م كان يضم ١٨ مليون عضوًا ، والشيوعيون هم الأكثر نفوذًا في جميع مستويات المجتمع ، والأخذين بزمام المبادرة في صنع القرار، وهم الأكثر نشاطًا في تنظيم الحملات للتحقق من تنفيذ القرارات ، ويرجع الفضل إلى الحزب الشيوعي في تحويل الصين من بلد زراعي متخلف إلى بلد صناعي اشتراكي ، ويبدو أن المعدل الذي كان يمكن أن يتحقق به هذا كان واحدًا من المسائل التي أدت إلى وقوع إنقسام داخل الحزب الشيوعي الصيني حَالَ دون عقد المؤتمر التاسع في عام ١٩٦١م . وأصبح من الواضح أنه لا سبيل لرأب الصدع عن طريق المناقشة في

المؤتمر ، وفى غضون بضع سنوات أصبحت هذه المسألة جزءً من الصراع من أجل الثورة الثقافية البروليتارية حيث تمت تعبئة الجيل الأحدث فى الصين – الذى لم يسبق له التعرض للتجربة الثورية لآبائه – ليكون الحرس الأحمر– وطبقًا لنظرية «ماو تسى تونج» فالكفاح من أجل الثورات لايكون مرة واحدة فقط : فالعمل الثورى عمل متواصل ويتطلب النضال فى كل مرحلة حتى لا يتعرض المجتمع لنكسة تعود به إلى الوراء ، ونظراً لأن حوالى نصف الشعب الصينى قد وُلِدَ منذ عام ١٩٤٩م فقد كان ذلك يعنى أن جيلاً جديداً كان بحاجة إلى تغذيته بالحماس الثورى ، ومن المؤكد أن «ماو تسى تونج» لم يكن يتوقع خليفة واحد بل ٢٠٠ خليفة شاب له ، وربما كان الشعب الصينى أكثر من غيره من الشعوب فى مطاردة أشباح الماضى له ، والشبح الذى كان يطارد الصين هو نتاج ما اقترفته أيدى الصفوة البيروقراطية والإمبريالية الأجنبية ، وعندما كانت الثورة الثقافية البروليتارية تتحدث عن " الكفاح الشرس ضد الوحوش "كان الصينيون يفهمون ذلك على أنه يشمل (طبقا لتعريفهم الخاص) " أصحاب السلطة الذين يسلكون الطريق الرأسمالى من " الثقات " الأكاديميين البرجوازيين الرجعيين ، وأصحاب الأراضى ، والفلاحين الأثرياء ومعارضى الثورة والعناصر الفاسدة واليمينيين ."

وظلت عدة أحزاب سياسية بخلاف الحزب الشيوعى قائمة بعد عام ١٩٤٩م ، وتوحدت هذه الأحزاب فى مؤتمر تشاورى مؤيد للديمقراطية الجديدة بوجه عام .

و فى عام ١٩٥٤م انتخب مؤتمر الشعب الصينى عدداً من رجال الحزب الشيوعى الصينى المحنكين لشغل مناصب عليا بالدولة ، و أصبح «ماو تسى تونج» رئيسًا لجمهورية الصين الشعبية وأصبح «تشو تيه» المحارب القديم المحنك فى الجيش الأحمر نائبًا للرئيس ، وكان رئيس الوزراء «تشو ان لاى» يرأس مجلس الدولة وقاد ثورة «شنغهاى» ضد القادة العسكريين ، وأصبح «لين بياو» – أحد رجال المسيرة الطويلة المحنكين – نائبًا لرئيس الوزراء ، وكان «ليو شاو تشى» – رئيس اللجنة الدائمة للحزب – القائد المحنك لحركة العمال منذ أن عُزِل من منصبه بزعم أن له ميول رجعية، وأصبحت «سونج تشنج لنج» أرملة دكتور «صن يات سن» أحد نواب الرئيس .

الرئيس ماو

ولـــد مـاو تسى تونج رئيس الحــزب الشيـوعى الصينى ورئيس الجمـهورية حتى عام ١٩٥٩م – عندما تخلى عن منصبه للتركيز على العمل النظرى (وحل محله ليو شاو تشى) – فى عام ١٨٩٣م بإقليم هونان فى الجنوب فى قرية تبعد عن العاصمة الإقليمية تشانجشا مسيرة بضع ساعات ، (واكتشف ماو فى الأعوام التالية أن لهجته الجنوبية غالبًا ما كانت عائقًا للإتصال مع أهل الشمال .) و كان والده فلاحًا ، ولم يكن فقيرًا فقرًا مدقعًا ولذا فقد أصبح موسرًا بشكل معقول عن طريق التجارة فى فائض الحبوب، وكان الأب قاسيًا و حاد المزاج ، وقال «ماو تسى تونج» بعد ذلك أنه كان هناك حزبين فى أسرته – والده بوصفه السلطة الحاكمة للأسرة من ناحية والمعارضة التى كانت تتألف منه هو ووالدته وأخيه و أحيانًا العامل الأجير الذى إستخدمه والده من ناحية أخرى .



– «ماو تسى تونج» رئيس جمهورية الصّين الشعبية وزعيم الحزب الشيوعى الصينى منذ نشأته .

والتحق «ماو تسى تونج» بالمدرسة الإبتدائية المحلية في سن الثامنة حتى بلغ الثالثة عشر من عمره حيث كان يساعد والده في العمل في المزرعة قبل الذهاب إلى المدرسة في الصباح و بعد العودة من المدرسة في المساء ، وكان معلم المدرسة رجلاً قاسيًا ، وهرب «ماو تسى تونج» عندما كان في سن العاشرة وهام على وجهه لعدة أيام على التلال قبل العثور عليه .

وكان «ماو» الأب متعلمًا بما يكفى لإمساك حسابات المزرعة لكنه لم يكن في الأسرة أي فرد متعلم عدا «ماو تسى تونج» ، وكان الابن ماو يبغض الأعمال الكلاسيكية القديمة و كان يستمتع بقراءة القصص الرومانسية القديمة خاصة قصص الثورة ، وأراد مواصلة دراسته لكن تقدير الأب إقتصر على عمل إبنه في المزرعة ، وأخيرا هرب «ماو» الصغير من المنزل للدراسة في تشانجشا حيث شهد - خلال فترة المجاعة - إعدام الفلاحين الذين أتوا إلى المدينة كي يطلبوا الطعام من موظفي الدولة .

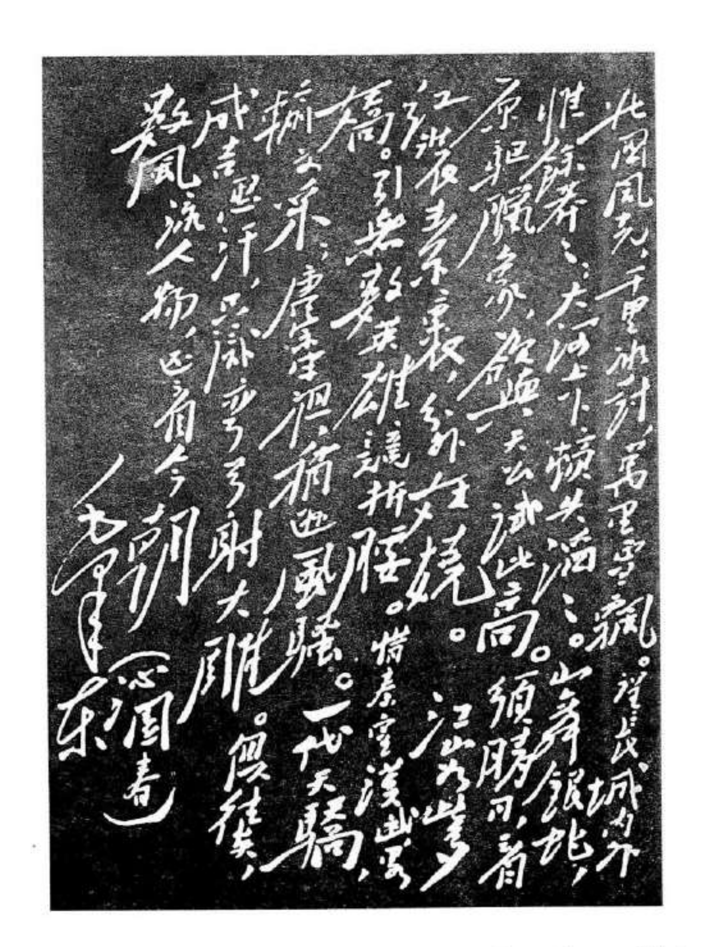
وفي عام ١٩١١م إنضم «ماو تسى تونج» إلى الحركة العامة التي أطاحت بالمانشو ، وشرع في مراسلة الطلاب الآخرين ذوي النزعة الثورية ، و في عام ١٩١٩م ذهب إلى بكين حيث حصل على وظيفة مساعد أمين مكتبة في جامعة بكين الوطنية ، وكان يدرس في وقت فراغه ، وكان يعيش مع سبعة طلاب آخرين في منزل مكون من حجرتين ، ولم يكن بمقدورهم شراء الوقود و كان لديهم معطف واحد يتبادلون ارتداءه ، و في بكين كان أول اتصال لـ " ماو " الشاب بالكتابات الماركسية وأحس هناك بالتأثير الكامل لحركة الرابع من مايو ، وفي العام التالي عاد إلى تشانجشا كمحاضر في كلية تدريب المعلمين حيث كان طالبًا ذات يوم .

وعندما عُقِدَ المؤتمر الأول للشيوعيين الصينيين في شنغهاي في عام ١٩٢١م كان «ماو تسى تونج» أحد المندوبين و انتخب سكرتيراً للحزب الشيوعي الصيني الذي تأسس حديثًا ، و عقب الإنفصال عن الكومينتانج في عام ١٩٢٧م عاد «ماو تسى تونج» إلى تلال هونان و كيانجسى ، وقاد ثورة الفلاحين المسماة " حصاد الخريف " وساعد في إنشاء نقابات الفلاحين في تلك المنطقة التي أصبحت أول قاعدة للسوفيت الصينيين،

وصاغ «ماو» هناك – لأول مرة – نظرية الكفاح المسلح الذى يقوم على طبقة الفلاحين باستخدام القرى لتطويق المدن التى كان قد تم الإستيلاء عليها آنذاك ، و لم تلق أراءه تأييداً فى ذلك الوقت من جانب زعماء الحزب الشيوعى الآخرين ، ولم تتحقق الغلبة لسياسته إلا فى يناير من عام ١٩٢٥م فى أثناء المسيرة الطويلة .

وكان «ماو» يعرف جيداً منطقة جبال تشنجكانج فى كيانجسى الغربية ، وعندما كان طالبًا أمضى ذات مرة الصيف كاملاً وهو يطوف أنحاء إقليمه الأم ، وكون نوعًا من النادى الإسبارطى فى تلك الأيام حيث إعتاد هو وطلاب آخرون الصيام و الخروج فى نزهات طويلة عبر التلال سيراً على الأقدام والسباحة فى أكثر الأجواء برودة والمشى عراة الأبدان تحت الأمطار كى يخشوشنوا ، و قد أرجع «ماو تسى تونج» السبب فى قوة بنيانه إلى العمل الشاق فى مزرعة أبيه و فترة إكتساب الخشونة والصلابة فى شبابه ، وعدا بضعة أسابيع عندما كان مريضًا سار معظم مسافة المسيرة الطويلة كالجنود العاديين ، وكانت عدته غيار من الثياب و مظلة ومفكرة وفرشاة كتابة ودواة . وبرغم حياته المتقلبة ظل «ماو تسى تونج» عالمًا، و كتب الكثير من الشروح والتعليقات حول خبراته السياسية والعسكرية ، وفى «ينان» – بعد المسيرة الطويلة – ألقى «ماو» محاضرات على الجيش الأحمر ، و يرجع تاريخ عدد من أعماله الفلسفية إلى تلك الفترة ، كما أنه شاعر بارع ، و قد قُتِلَت أولى زوجاته وشقيقته على أيدى الكومينتانج الذين رصدوا ربع مليون دولار ثمنًا لرأسه .

ومنذ عودته إلى التلال ظل «ماو تسى تونج» ماركسياً غير مستقيم و مقتنعاً بأنه من الضرورى فى بلد نام صناعياً كالصين الإعتماد على سكان الريف بوصفهم القوة السياسية الرئيسية الدافعة إلى الثورة ، وليس الإعتماد على البروليتارية الصناعية كما يقول شرح قصيدة «الثلج» وهى واحدة من أشهر قصائد الرئيس «ماو تسى تونج» بخط يده ، " شعبنا فقير و فارغ العقل لكن أجمل القصائد يمكن كتابتها على صفحة بيضاء من الورق . "



– قصيدة «الثلج» بخط يد «ماو تسى تونج» .

«ماو تسى تونج»

ترجمة القصيدة

هذا هو المنظر فى الأرض الشمالية

مائة تحالف مختوم بالثلج

وألف تحالف من دوامات الثلوج

وعلى جانبى السور العظيم
الإتساع هو كل ما تراه
ويطول النهر العظيم
التيار المندفع مجمد و تائه .
الجبال ترقص كالثعابين الفضية
و الهضاب تدور كالأفيال الشمعية
كما لو كانوا يسعون لمنافسة السماء في ارتفاعهم
و في يوم مشمس
سوف ترى ثوبًا أحمر ملقى على
جسد الفاتنة البيضاء !
هذا الجمال العظيم في سائر المناظر الطبيعية
هو ما جعل أبطالاً لا حصر لهم ينحنون إجلالاً .
و لكن واحسرتاه على هؤلاء الأبطال ، «تشين شيه هوانج» و «هان وو تى»
كانوا يفتقرون إلى الثقافة ،
وإلى الموهبة الأدبية
كان الأباطرة «تانج تاى تسونج» و «سونج تاى تسو» يفتقرون
و«جنكيز خان»
إبن السماء المحبوب يومًا
لم يعرف إلا كيف يثنى قوسه نحو الصقر الذهبى ،
وهاهم قد مضوا جميعًا و رحلوا :
ولكى نجد رجالاً عظماء و نبلاء بحق
لابد أن ننظر هنا فى الحاضر .

وهنا إشارة إلى الماركسية، والحقيقة أن الثورة فى الصين قد أظهرت كثيراً من العناصر على غرار ثورات الفلاحين السابقة ، واعتماداً على الثورات فى مختلف أنحاء الريف فقد لقيت الدعم الأساسى لها من الفلاحين الفقراء وظلت المدن مراكزاً السلطة البيروقراطية ومقرا للقادة العسكريين المحافظين و ملجأ لأصحاب الأراضى والموظفين الذين جُردوا من ممتلكاتهم والذين كانت القوة المتنامية لعمال الصناعة فى مواجهتهم أقل حسماً من كفاح الفلاحين .

لقد كانت الثورة ملحمة مليئة بالأبطال من الفلاحين و الشعراء المحاربين الذين لم يكن «ماو» البطل الحقيقى الأوحد بينهم الذى كان لائقًا للقيام بدور المؤسس التقليدى لعهد جديد فى تاريخ الصين ،

واللون الأحمر هو لون الفرح ولون ثوب العروس فى الصين .

المراجع

Lu Hsun, *A Brief History of Chinese Fiction*, Foreign Languages Press, Peking 1959. *14*

A. Waley, trans., *Chinese Poems*, Allen & Unwin 1946. *17*

A. Waley, trans., *The Analects of Confucius*, Allen & Unwin 1938. *23–7*

H. A. Giles, *History of Chinese Literature*, N.Y., Grove Press 1958. *25*

A, Waley, trans., *Book of Songs*, Allen & Unwin 1937. *27*

J. Needham, in *Manchester Guardian*, 29 August 1949. *27*

D. Bodde, *China's Cultural Tradition*, Holt, Rhinehart & Winston 1966. *31*

H. H. Dubbs, trans., *Hsun Tu*, Probsthain 1927. *32*

J. J. L. Duyvendak, trans., *The Book of Lord Shang*, Probsthain 1928. *33*

Chu Yuan, *Li Sao*, trans., Yang and Yang, Foreign Languages Press 1953. *34–5*

H. A. Giles, *History of Chinese Literature*. *40*

C. P. Fitzgerald, *China: A Short Cultural History*, Cresset Press 1936. *42*

H. A. Giles, *Gems of Chinese Literature*, Paragon, N.Y. 1965. *43, 45–6*

C. P. Fitzgerald, *China*. *43–4*

H. A. Giles, *Gems*. *47–8*

N. L. Swann, *Pan Chao*, N.Y. 1952. *53*

N. L. Swann, *Biography of Empress Teng*, University of North Carolina Press 1931. *53*

W. M. McGovern, *The Early Empires of Central Asia*, University of North Carolina Press 1939. *56*

H. A. Giles, *Gems*. *56*

L. Boulnois, *The Silk Road*, Allen & Unwin 1966. *57, 58*

J. Needham, *Legacy of China*, ed. R. Dawson, O.U.P. 1964. *58*

A. Waley, *Chinese Poems*. *58*

F. Hirth, *China and the Roman Orient*, Shanghai 1885. *59–60*

A. Waley, *Chinese Poems*. *62*

H. A. Giles, *History*. *62*

E. Balazs, *Chinese Civilisation and Bureaucracy*, Yale U.P. 1964. *63, 67*

H. A. Giles, *Gems*. *69, 71*

H. A. Giles, trans., *Travels of Fa Hsien*, Routledge 1923. *76*

J. Needham, in *Legacy of China*. *79*

Tung Chi Ming, *Outline of History of China*, Foreign Languages Press 1958. *83*

Yang and Yang, trans., *Courtesan's Jewel Box*, Foreign Languages Press 1957. *85*

H. A. Giles, *Gems*: Poem by Yeh Li. *85*

W. W. Yen, *Stories of Old China*, Foreign Languages Press 1958. *87*

E. Balazs, *Chinese Civilisation*. *89*

Chinese Buddhist Association, *Life of Hsuan-Tsang*, Peking 1959. *95*

S. Beal, *Life of Hiuen Tsiang*, Kegan Paul 1911. *96*

E. O. Reischauer, trans., *Ennin's Diary*, Ronald Press, N.Y. 1955. *98–9*

H. A. Giles, *Gems*. *103*

Yang and Yang. *103–4*

A. Waley, *Chinese Poems*. *104–5*

Lu Hsun, *Brief History*. *107*

Feng Yuan Chun, *Short History Chinese Classical Literature*, Foreign Languages Press 1958. *109*

H. A. Giles, *History*. *109*

J. Needham, *Science and Civilisation in China*, Vol. 1, C.U.P. 1954. *110*

A. Waley, trans., *Yuan Mei*, Grove Press, N.Y. 1956. *111*

J. Gernet, *Daily Life in China on the Eve of the Mongol Invasion*, Allen & Unwin 1962. *114–15, 122*

E. Balazs, *Chinese Civilisation*. *124*

R. E. Latham, trans., *Marco Polo*, Penguin 1958. *125*

L. J. Gallagher, trans., *China in the Sixteenth Century*, Random House 1953. *125–6*

J. Needham, *Science and Civilisation in China*, Vol. 1. *127*

H. A. Giles, *Gems*. *128*

W. W. Yen, *Stories of Old China*. 128

G. E. Moule, *Notes of Hangchow Past and Present*, Kelly & Walsh, Shanghai 1907. *128*

E. Balazs, *Chinese Civilisation*. *128*

Courtesan's Jewel Box. *129*

N. Zhagvaral, ed., *Mongolian People's Republic*, Ulan Bator 1956. *131*

Kei Kwei Sun, *Secret History of the Mongols*, Muslim University, Aligarh 1957. *133*

J. Needham, *Science and Civilisation in China*, Vol. 1. *133*

H. A. R. Gibbs, trans., *Ibn Battutta*, Routledge 1929. *134*

M. Komroff, *Contemporaries of Marco Polo*, Cape 1929. *135*

J. Boyle, *History of the World Conqueror*, Vol. 1, Manchester U.P. 1958. *136*

C. Dawson, *The Mongol Mission*, Sheed & Ward 1955. *140–1*
L. J. Gallagher, *China in the Sixteenth Century*. *150–1*
F. Hirth, *China and the Roman Orient*. *154*
E. O. Reischauer and J. K. F. Fairbank, *East Asia the Great Tradition*, Vol. 1, Houghton and Mifflin 1958. *155*
F. Hirth and Rockhill, *Chau Ju Kua*, Taiwan 1965. *156*
J. Mirsky, *Great Chinese Travellers*, Allen & Unwin 1965. *156*
E. Bretschneider, *Mediaeval Researches*, Vol. 2, Routledge n.d. *158*
L. J. Gallagher, *China in the Sixteenth Century*. *162–3, 168*
C. H. Philips, *Historical Writing on Peoples of Asia*, Vol. 1 1962. School of Oriental and African Studies. *159*
H. A. Giles, *Gems*. *171*
H. B. Morse, *The East India Trading Company to China*, O.U.P. 1926. *169*
Lord Macartney, *Embassy to China*, 1798. (Reprinted, ed. J. L. Cranmer-Byng, Longmans 1962.) *170*
Ssu-yu Teng, *New Light on the History of the Taiping Rebellion*, Harvard U.P. 1950. *173*
A. F. Lindley, *Tiping Tien Kwoh*, London 1866. *175, 177, 179–80*
The Times, London, 12 July 1964. *180*
The Times, London, 18 July 1964. *181*
E. Balazs, *Political Theory and Administrative Reality in Traditional China* (Univ. London 1965). *182*
J. O. Bland & E. Backhouse, *China Under the Empress Dowager*, Heinemann 1910. *182*
O. Lattimore, *The Making of Modern China*, Allen & Unwin 1945. *184*
J. J. L. Duyvendak, trans., *Diary of Ching Shan*, Leiden, Brill. *185–6*
Aisin-Gioro Pu Yi, *From Emperor to Citizen*, Foreign Languages Press, Peking, 1964, 1965. *191–3*
Wu Yu Chang, *Revolution of 1911*, Foreign Languages Press 1962. *193–4*
J. and A. C. Dewey, *Letters from China and Japan*, Dutton, N.Y. 1920. *195*
L. Epstein, *From Opium War to Liberation*, New World Press, Peking 1956. *197–8*
E. Snow, *Red Star Over China*, Gollancz 1938. *200*
Jan Myrdal, *Report from a Chinese Village*, Penguin 1967. *201*
P. Fleming, *One's Company*, Cape 1934. *203*
Long March. Eye Witness Accounts, Foreign Languages Press 1963. *206*
E. Snow, *op. cit.* *207*
J. Myrdal, *op. cit.* *209, 215–16, 220*
J. W. Stilwell, *The Stilwell Papers*, Wm. Sloane Ass., N.Y. 1948. *210*
J. L. Stuart, *Fifty Years in China*, Random House, N.Y. 1954. *213*
T. Richard, *Forty-five Years in China*, T. F. Unwin 1916. *220*
J. Belden, *China Shakes the World*, Harper & Row 1949. *220*
D. Cusack, *Chinese Women Speak*, Angus & Robertson 1958. *222*
Liao Lailung, *Yenan to Peking*, Foreign Languages Press 1954. *223*
Hwuy-Ung, *A Chinaman's Opinion*, Chatto & Windus 1927. *226*
China Pictorial, 1967, No. 4. *231*

المؤلفة فى سطور

هيلدا هوخام

من كبار المحاضرين بكلية جولد سميثز - جامعة لندن .

المترجم في سطور

أشرف محمد كيلانى

مواليد القاهرة ١٩٦٥م

حاصل على ليسانس آداب اللغة الإنجليزية جامعة عين شمس ٨٧ ودبلوما فى اللغة الإنجليزية من الولايات المتحدة .

قام بترجمة العديد من الكتب والروايات الأدبية والدراسات التاريخية والسياسية والطبية .

صدر له عن المشروع القومى للترجمة كتاب «الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول» .

يعمل حاليًا مترجمًا بدار الكتب والوثائق القومية المصرية .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومــى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضري
٥-	ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكي
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودي	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسي للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسي سميث	أشرف رفيق عفيفي
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوي
١٨-	الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولي و بدوي عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجي	ماجدة العناني
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد علي الناصري
٢٣-	تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوي	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشري الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة في التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣-	التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر ألن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سري محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجني (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	أشرف علي دعدور
١٠٧-	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من المؤلفين	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادي بلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلي
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	لبس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي	أميرة الأزهري سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندي وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالي للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيل ألكسندرو فنادوليا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	جون جراي	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقي	سيدرك ثورب ديفي	سمحة الخولي
١٢٦- فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحي	بشير السباعي
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقي جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعي	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق علي	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	باري ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف ماري مواريه	كاميليا صبحي
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيفال (مسرحية)	ريتشارد فاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبوري
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومي
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديرك لايدر	عدلي السمري
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدوني	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دي ليبس	علي عبدالرءوف البمبي
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوي
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكي أندرسون إمبرت	علي إبراهيم منوفي
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعي
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسي
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جي أتيال وآلان وأوديت ڤيرمو	مي التلمساني
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعي
١٥٩- الأيديولوجية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوي	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيڤا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- في عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون في الحياة اليومية	لوريتزو ڤيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنري ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوي	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتازار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	أرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شوديكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم علي
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكي
٢٦٨- ديوان شمس تبريزي (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سي. باترسون	شوقي جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية في مصر	سي. سي. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر	جوان كول	عنان الشهاوي
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جايجوس	محمود علي مكي
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمساني
٢٧٧- الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوي
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	علي عبد الرءوف البمبي
٢٨٤- هرقل مجنونًا (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عثمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمي	أنتوني كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائي	ديفيد لودج	ماهر البطوطي
٢٨٩- ديوان منوچهري الدامغاني	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربي	روجر ألن	مجدي توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٩٩- ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (جـ١)	لويس عوض	جمال الجزيري وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (جـ٢)	لويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي
٣٠٢- أقدم لك: فتجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين ڤان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محيي الدين مزيد
٣١١- مقال في المنهج الفلسفي	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدي
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعي
٣١٥- جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٣١٦- محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسيم مجلي
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموڤا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفي برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	ديليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزي
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق علي منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامي صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منوفي
٣٣٣- الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٣٣٩- تاريخ الأدب في إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخري لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمي
٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	بونه نداني	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون في الأدب التركي (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلي الثقافة الجادة	ارثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصاري
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونالدو	علي إبراهيم منوفي
٣٥٤- الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونالدو	علي إبراهيم منوفي
٣٥٥- التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتجي	محمود علاوي
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعي
٣٥٧- متون هرمس	تيموثي فريك وبيتر غاندي	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٣٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربيني
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبري محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجريء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادي رضا
٣٦٨- المصطلح السردي: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوي	فوزية العشماوي
٣٧٠- الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون في الأدب التركي (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	علي إبراهيم منوفي
٣٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوي وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب في إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٢٧٩-	ملك في الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٢٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٢٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٢٨٣-	هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨٤-	القصص التي يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٢٨٥-	مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٢٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧-	أغنيات وسوناتات (شعر)	جون دن	بهاء جاهين
٢٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٢٨٩-	تفاحم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٢٩١-	الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٢٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٢٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٢٩٥-	آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٢٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٢٩٧-	أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٨-	أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٩-	أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣-	أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلي
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسرا ءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاروس إلى فرح	محمود طلوعي	محمود علاوي
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- باندراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبي
٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافي
٤٢٩- أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- أقدم لك: ماكياڤللي	باتريك كيري وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودي بورهام	عصام حجازي
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجي رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلي النعماني	جلال الحفناوي
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابي (رواية)	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوي
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتي روى	فخري لبيب
٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتي
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوي
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علماني
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلري	محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفري سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧- أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨- أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيري
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيري
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجيناتزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسني (رواية)	مريم جعفري	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء في الفكر السياسي الغربي	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودي جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودي	عبدالرشيد الصادق محمودي
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية القلة	مايكل بارنتي	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعي
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسي والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدي عبدالرازق
٤٧٠- الأراضي والجودة البيئية	جاري م. بيرزنسكي وآخرون	محمد السيد الننة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتي (القسم الأول)	ميجيل دي ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتي (القسم الثاني)	ميجيل دي ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عناني
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلاني

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٥٣٩ / ٢٠٠٢